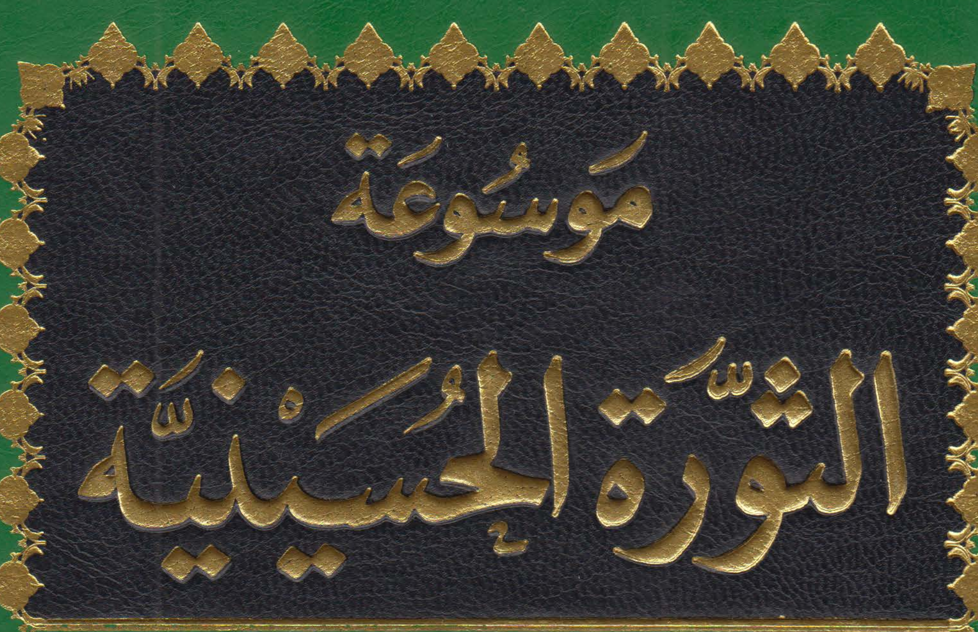


دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء السادس

دار المرتضى


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


موسوعة
الثورة الحسينية
٦

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٨٤٠٣٩٢ ٠٠٩٦١١
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري

E-mail: mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة

الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

أحاديث عن أنصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الإسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

محمد نعمة السماوي

الجزء السادس


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه

الفصل الأول: ملاحظات حول بعض ملامح المجتمع العراقي
(في عهد يزيد) ممثلًا بمجتمع الكوفة: ١٣
- أمير المؤمنين عليه السلام وتكوين الطليعة العقائدية ١٥
- عمل الأئمة كان واحداً ١٧
- «فقد كنا وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب» ١٧
- الأئمة يواجهون أساليب دولة الظلم ١٨
- مجتمع مستهدف، لا بدَّ من تحطيمه ١٩
- يد تحمل السَّيف ويد تقدِّم الرشوة ٢٠
- توسيع طبقة الهمج الرعاع ٢١
- معالم الإنحراف وأبطاله ٢٢
- أهداف دولة الظلم ٢٤
- شجاعة، أم معرفة بواقع حال الخصوم ٢٧
- الكوفة، المدينة المعسكر ٢٧
- ملاحظات حول مجتمع الكوفة ٣١
١ - مجتمع مستحدث ٣٢
٢ - مجتمع الشك ٣٣
٣ - الكوفة ودولة الظلم ٣٤
٤ - الموالي ... القوة المتنامية ٣٥
٥ - إستقطاب قوى التأثير ٣٦
٦ - مطلوب للعدالة الأموية ٣٧
٧ - الروح القبلية ٣٧
٨ - العريف والنقيب ٣٨
٩ - القانون الإلهي المعطَّل ٣٩

١٠ - المجتمع المستهدف بالظُّلم ٣٩
١١ - تنوّع الاتجاهات ٤١
الفصل الثاني: أحاديث عن رموز الجريمة في كربلاء ٤٥
- عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة الأموي ٤٧
- نتيجة طبيعية لانحراف الحكم ٤٧
- ابن زياد، بين دناءة الأصل ورفعة المنصب ٤٨
- القسوة المفرطة ٥٠
- ابن زياد، مرشح معاوية للتصّدي للحسين عليه السلام ٥٢
- بين معاوية وابن زياد ٥٥
- بين لذة الحكم والخوف من فقدان الامتيازات ٦٠
- نظام جديد لملك جديد ٦٤
- أسطورة في الارهاب وسفك الدماء ٦٧
- طاقة الشر التي أريد لها أن تتفجر في الكوفة ٧٢
- قانون دولة الظلم ٧٣
- من يحمي من؟ ٧٧
- شجاعة أم سوء خلق ٧٩
- الشك أولًا ٨٠
- قانون الطوارىء ٨١
- لماذا اختار عمر بن سعد ٨٣
- افتراءات حول تراجع مزعوم ٨٤
- لا تذكر الجريمة إلّا ويذكر المجرم ٨٧
- القسوة، مصدرها ونتائجها ٩٠
- النَّفير العام لمواجهة الحسين عليه السلام ٩١
- خصومة الجبناء ٩٥
- أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟ ٩٦
- إعلان المنتصرين ٩٧
- جزاء القاتل ٩٨

- الوعود كانت كاذبة ١٠٠
- عندما يملك العبد ١٠٠
- التنصّل من الجريمة ١٠٢
- التّظاهر بالعظمة، محاولة للتعويض ١٠٣
- وكذلك محاولة التقليل من شأن الآخرين ١٠٤
- انتصار المهزومين ١٠٦
- شركاء الجريمة ١٠٩
- جريمة السبي ١١٠
- سمية أمسى نسلها عدد الحصى ١١٢
- القتلة يتبادلون الاتهامات ١١٢
- بين حال وحال ١١٥
- عبد فرعون بمستوى رغبات فرعون ١١٧
- إلى الكوفة ثانية ١١٨
- الأسطورة الزائلة ١١٩
- قضية أم مصالح شخصية ١٢١
- حديث (الحوض) إدانة لأعداء محمد وآله ١٢٣
- لماذا ينكر (ابن زياد) حديث الحوض؟ ١٢٥

عمر بن سعد الجاسوس القاتل ١٣٠
- البدايات ١٣٠
- بين سعد وعلي ١٣٢
- الكهل الأخرق، طمعه قتله ١٣٤
- إفتراء، تجسس وغدر ١٣٧
- إنه لا يخونك الأمين ١٣٨
- الجريمة لا يبررها الخوف أو الطّمع ١٣٩
- الكذب لتبرير الجريمة ١٤٠
- طموح قديم، عالجه سم معاوية ١٤١
- ذهبت اللقمة الكبيرة، فليقنع بالفتات ١٤٤

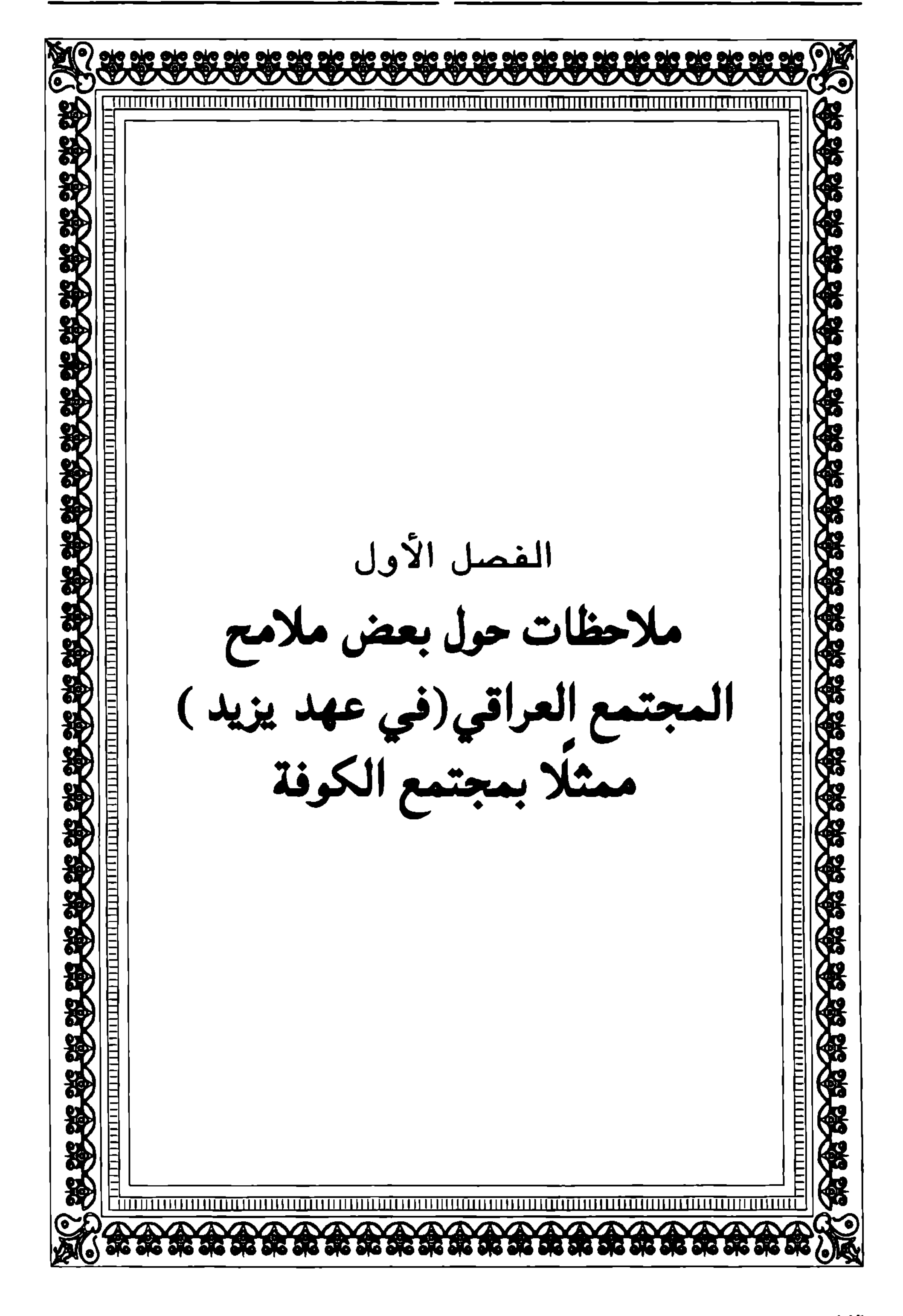
- أأترك ملك الري؟ ١٤٦
- المهزوم يتوقع اعتذار القوي ١٤٨
- فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ١٥٢
- قميص عثمان يرفع ثانية ١٥٣
- لقاء وحديث ملفق ١٥٣
- أمل بالتراجع. واستسلام ذليل. ١٥٥
- شهادة بحق الحسين عليه السلام ١٥٦
- خديعة أم تخادع ١٥٧
- قائد أم تابع ١٥٨
- إرادة مسلوبة ١٥٩
- خوف أم يقظة ضمير ١٦١
- القائد المتخاذل ١٦١
- ابن زياد من ينفع ويضر ١٦٣
- إستسلام مهين ١٦٤
- آلة الظلم الخرساء ١٦٥
- كان خاملًا وعاد خاملًا ١٦٧
- المختار اختار الثأر ١٦٨
- سعى لحتفه بظلفه ١٧١
شمر بن ذي الجوشن الضبابي ١٧٢
- الكلب الأبقع ١٧٢
- خادم جديد ١٧٤
- التحريض على الجريمة ١٧٦
- مقرب جديد، ومستشار موثوق ١٧٧
- الجريمة لا بد أن تتم ١٧٨
- محاولة لشق أصحاب الحسين عليه السلام ١٨٠
- شمر، القائد الحقيقي لجيش ابن زياد ١٨٢
- ظاهرة شمر ١٨٤

- انحياز تام للشر ١٨٨
- جبن وغدر ١٨٩
- القتل ثُم القتل ١٩٠
- عودة إلى الخمول ١٩١
- الظهور من جديد بوجه الثوّار ١٩١
- لولا جريمته، ما أشار إليه التاريخ ١٩٢
- مسمار صغير في عجلة الدولة الكبيرة ١٩٣
- شمر، نتاج مجتمع الظلم ١٩٥
أشراف الكوفة: الظلمة المستضعفون ١٩٦
- تمهيد ١٩٦
- الشريف: وجهان ١٩٧
- أشراف الكوفة ١٩٧
- مصالحنا أوّلًا ١٩٩
- نلبس لكلّ حالة لبوسها ٢٠٢
- لا بأس من العذر ٢٠٣
- مع ابن زياد ضد مسلم ٢٠٥
- يرفضون التغيير ٢٠٧
- الوشاية والغدر لا تؤثران على شرف الشريف ٢٠٩
- هوى فرعون أولًا ٢١١
- كل ما يفعل الأمير مقبول ٢١٢
- مبادرات شخصية ٢١٤
- الكذب لا يضر بشرف الشريف ٢١٦
- الخوف على المصالح ٢٢٠
- أشراف الكوفة: نماذج معادة مكررة ٢٢١
أهل الكوفة وسائر الناس ٢٢٢
- لا يدركون أن في الحياة ظلماً ٢٢٢
- هدف أمير المؤمنين عليه السلام ٢٢٤

- هدف معاوية ٢٢٥
- وعين مجتمع العراق ٢٢٦
- القتل على التهمة والظنة والشبهة ٢٢٦
- الكوفة تنبغي أن تظل مستهدفة ٢٢٨
- (شريف) يشخص انحدار (الأشراف) ٢٣٠
- سيوفهم عليك ٢٣١
- الحسين عليه السلام أكثر الناس فهماً لمجتمع الكوفة ٢٣٢
- لا يوقف الانحراف الكبير إلّا دم الشهداء ٢٣٤
- تقلب طارئ أم أصيل ٢٣٦
- التقلّب أحد النتائج الطبيعية ٢٣٧
- الحسين عليه السلام: لن يتخلى عن الأمّة ٢٣٨
- ظنّوه الحسين عليه السلام فرحّبوا به ٢٣٨
- حماس الرسائل وحماس الموقف العملي ٢٣٩
- ما أدركه سليمان بن صرد لم يفن الحسين عليه السلام ٢٤٠
- شروط الحسين عليه السلام ٢٤١
- وعود دون ضمانات ٢٤٣
- أي قوم إنّه ابن مرجانة! ٢٤٤
- البيان الأوّل تهديد ووعيد ٢٤٤
- تصعيد الخوف ٢٤٦
- مظاهرة عمرو بن الحجاج ٢٤٧
- الخوف والتخاذل ٢٤٩
- الكوفة تجربة مريرة ٢٥٠
- ابن زياد طوّعت الكوفة له فاستخف بها ٢٥١
- مشاهد وتهديدات ٢٥٣
- تجمع النساء ٢٥٥
- سباق لحسم الموقف ٢٥٧
- مع الدولة، لا تراجع ٢٥٨

- تخذيل الناس ٢٥٩
- قدوم الحسين عليه السلام فرصة ٢٥٩
- تخلوا عنه فأضاعوا فرصتهم ٢٦٢
- الانسحاب ٢٦٥
- خلا المسجد من الثوار ٢٦٦
- مجتمع الكوفة انحنى ٢٦٧
- نماذج أفرزتها دولة الظلم ٢٦٨
- مبادرات ٢٧١
- راسلوه، والتحقوا بالجيش الذي جند لقتاله ٢٧١
- جئنا لنسلم عليك ٢٧٤
- أعذار المتخاذلين وتبريرات المعتدين ٢٧٥
ظواهر على هامش مجتمع الظلم ٢٧٨
- تصرف غير مسؤول ٢٧٨
- فراغ نفسي وخواء عقائدي ٢٧٨
- لا خلاف عقائدي ٢٧٩
- خطط معاوية ٢٧٩
- مهّمة الامام الحسين عليه السلام ٢٨١
- في الشر، تساوى الأشراف وسائر الناس ٢٨١
- لقطات ومشاهد ملفتة للنظر ٢٨٣
- مسلم بن عمرو الباهلي وقلّة الماء ٢٨٣
- كثير الشعبي: حماقة ووقاحة ٢٨٤
- عبد الله بن أبي حصين: المهّرج ٢٨٦
- ابن حوزة: هدد بالنار فاحترق بها ٢٨٧
- مرة بن منقذ العبدي: القاتل المتباهي ٢٨٨
- عمرو صبيح الصدائي وزملاؤه: وليمة الدم ٢٨٩
- عمرو بن سعد بن نفيل: إصرار على الجريمة ٢٩٠
- حرملة بن كاهل الأسوي: بطولة قتل الأطفال ٢٩١

- ذليل يرضي ذليلًا ٢٩٢
- حصين بن تميم: غادر قاتل ٢٩٢
- رجل من بني أبان بن دارم ٢٩٣
- يزيد بن معقل ٢٩٣
- رضي بن معقل العبدي ٢٩٥
- ابن منقذ العبدي ٢٩٦
- يزيد بن سفيان التميمي ٢٩٦
- شمر بن ذي الجوشن ٢٩٧
- سنان بن أنس: وحش مجنون ٢٩٩
- إسحاق بن حيوة الحضرمي ٣٠١
- أسيد بن مالك وجماعته ٣٠١
- عشرات من النماذج المشوّهة ٣٠١



الفصل الأول

ملاحظات حول بعض ملامح المجتمع العراقي (في عهد يزيد) ممثلًا بمجتمع الكوفة

ملاحظات حول بعض ملامح المجتمع العراقي (في عهد يزيد) ممثلاً بمجتمع الكوفة

أمير المؤمنين عليه السلام وتكوين الطليعة العقائدية

أراد أمير المؤمنين عليه السلام، عند انتقاله من المدينة إلىٰ الكوفة وجعلها مركز الخلافة الإسلامية، انشاء وتربية طليعة عقائدية جديدة واعية تسير خلفه لانجاز كل المهمات التي كان عليه انجازها، وفي مقدمتها ايقاف الانحراف الذي تعرضت له الأمة الاسلامية والفوضىٰ التي عمّت ارجاء الوطن الاسلامي جراء الاستئثار بالحكم، وتكون طبقات جديدة استأثرت بالأموال العامة بحجج وأساليب مختلفة وكونت لها جاهاً ومركزاً متميزاً باسم الإسلام وفي ظله، مع أنها لم تلتحق بركبه الا في وقت متأخر وقبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بعدّة أشهر.

وكان في مقدمة من ينبغي التصدي لهم معاوية بن أبي سفيان وجماعة آخرون أعلنوا خروجهم علىٰ الإمام وحربهم له تحت ذرائع مختلفة، وقد أوضحنا في غضون هذا الكتاب الحجج والأسباب التي أعلنوها مبررين بها خروجهم علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام وحربهم له فيما بعد.

كانت المهمات التي نهض بها أمير المؤمنين عليه السلام ثقيلة ومتعددة، وكان من شأنها أن ترهق أهل العراق الذين ذهبوا معه عدة مرات تاركين وطنهم وعوائلهم لمحاربة معاوية وأعوانه وفقدوا آلافاً منهم في سوح المعارك، كما كان من نتيجتها أيضاً وجود الآلاف من الأرامل والأيتام في الكوفة خاصة.

وقد تعب الكثيرون منهم في النهاية، ووجد معاوية لدىٰ بعضهم ممن لم يستطيعوا تحقيق طموحاتهم غير المشروعه في ظل الامام من الأشراف ورؤساء القبائل، آذاناً صاغية ليدس فيها ما يتيح له استمالتهم إلىٰ جانبه وتجنيدهم في خدمته طابوراً خامساً يثيرون الناس علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام ويخذلونهم عن الحرب معه وإلىٰ جانبه ويجعلونهم يتكاسلون عن نصرته ويثيرون حوله الشكوك والاقاويل

وينشئون الاحزاب والفرق المعادية له بمختلف الحجج ولشتى الأسباب، كفرقة الخوارج، وقد تحدثت عن ذلك كتب التاريخ باسهاب.

حتىٰ سئم أمير المؤمنين عليه السلام منهم في نهاية المطاف وقد جرّعوه غيظاً وحزناً وتمنىٰ الموت أو القتل ليفد علىٰ ربه الكريم ويتخلص من أولئك الذين لم تثرهم حمية الاسلام وجبنوا عن مواجهة باطل أعدائهم الواضح المعلن، إذ أدرك أنهم لم يعودوا بمستوى المهام التي انتدبهم لتحقيقها تحت قيادته، وكان اداؤهم يسجل انخفاضاً كبيراً عن نقطة الشروع الأولىٰ في بداية سني حكمه القصيرة التي لم تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة.

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يحاول استنهاضهم دائماً، وكان يأمل أن تكون الطليعة العقائدية منهم ومن غيرهم في نهاية المطاف، حتىٰ ولو امتدت الاعوام لتخرج هذه الطليعة في زمن غير زمنه وربما في غير زمن أبنائه أيضاً، وكان يأمل أن يكون انتماؤهم للإسلام حقيقياً، وموقعهم منه قريباً في كلّ زمان وهو نفس توجه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أيضاً من قبل إذ أن هذا الدين، وقد أنزل كخاتم للديانات لا يختص بزمن نزوله، وإنما تمتد مهمته مع الناس إلىٰ نهاية الزمن الذي تحدد لهم أن يعيشوه علىٰ هذه الأرض، ويتعامل مع مختلف الأجيال في مختلف الأمكنة ويريد أن تظهر منهم الطلائع العقائدية التي تأخذ بأَيديهم جميعاً إلىٰ حيث يضعونه منهجاً وحيداً لتنظيم حياتهم وتحقيق سعادتهم.

ولا عجب أن نجد أن كل توجه من الرسول صلى الله عليه وآله أو من أحدٍ من أوصيائه كان ينصبّ في هذا الاتجاه، اتجاه تربية المسلمين واعدادهم لتقبل الإسلام.

ورغم ابعاد الائمة عليهم السلام عن المناصب القيادية التي أهلوا وأعدوا لها إعدادً خاصاً من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، ورغم شعورهم بالغبن والظلم عليهم وعلىٰ الأمة نتيجة ذلك، فإن عملهم كشهداء علىٰ الأمة ومربين لها، يصحّحون ما يمكن تصحيحه من أوضاعها وانحرافات الحكم فيها جعلهم يرسون قواعد ثابتة، لا بد أن يؤخذ بها في المستقبل لتكون أساساً لأوضاع مستقرة قائمة علىٰ أساس الإسلام ومناهجه، دون أن تشوبها شوائب الشرك أو الجاهليات المستحدثة؛ فقد (كانوا يعملون عملًا مهماً

جداً لانقاذ وجود الأمة في المستقبل، وضمان عدم انهيارها الكامل وتفتتها كأمة بعد سقوط التجربة، وذلك باعطاء التحصين الكامل المستمر لها)[1]

عمل الأئمة عليهم السلام كان واحداً: تحصين الأمة ضد السقوط.

وكما أوضحنا من قبل، فقد كان عمل الأئمة الثلاثة الأوائل، أمير المؤمنين وولديه الحسن والحسين عليهم السلام، منسجماً بهذا الخصوص، وكان يأخذ بعداً واحداً بدأ مشوار السير فيه أمير المؤمنين عليه السلام، إذ أنه بتصرفاته قبل استلام منصب قيادة الأمة الفعلي، وبعد ذلك أيضاً، عندما سنحت له هذه الفرصة ليقودها بشكل مباشر، وجد أن الانحراف قد وصل حداً خطيراً جداً، وعلى ذلك فإنه (لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وإنما كان يحمل هدفاً أكبر من ذلك. أمير المؤمنين كان يحس بأنه قد تدارك المريض وهو في آخر مرضه، أدركه حيث لا ينفع العلاج، ولكنه كان يفكر في ابعاد أطول وأوسع للمعركة.

لم يكن يفكر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها، وإذا كان يفكر على مستوىٰ آخر أوسع وأعمق، هذا المستوىٰ يعني أن الإسلام كان بحاجة إلىٰ أن تقدم له في خضم الانحراف، أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل)[2].

وهذا ما لم يستطع أن يفهمه أركان الحكم الأموي، الذين عززوا الانحراف ووسعوه، لأنه حقق لهم مصالحهم الشخصية وكان ينسجم مع منظورهم وتطلعهم وطموحهم البعيد عن النظرة الاسلامية الخالصة التي تعد منصب الخلافة امانة ثقيلة موثقة بعهد مع الله سبحانه وفق شروط وقواعد لا يستطيع اداءها إلّا من أعدوا وهيّئوا لهذا النصب اعداداً خاصاً من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

«فقد كنا، وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب لازماً لنا»

وقد رأىٰ الأمويون، وفي مقدمتهم معاوية ان امامة الأمة طالما قد خرجت عملياً عن الصفوة التي أعدها رسول الله صلى الله عليه وآله وأعدّ الأمة لاستقبالها وتقديمها رائدة

---

(١) الشهيد الصدر ـ أهل البيت ـ ١٣٢.
(٢) المصدر السابق ١٣.

لمسيرتها، فإن هذا الأمر ممكن ان يتكرر معهم أيضاً ويحصلوا على الخلافة وانهم لم يفعلوا شيئاً سوىٰ أن فعلوا ما فعله غيرهم من قبل.

وفي هذا المجال، احتجَّ معاوية علىٰ محمد بن أبي بكر، عندما عاتبه هذا الاخير علىٰ موقفه العدواني من أمير المؤمنين عليه السلام ومن الاسلام، وخروجه عليه وادعاء الأمر لنفسه دونه، قائلًا في رسالة مكتوبة:

(فقد كنا، وأبوك فينا نعرف فضل ابي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فكان أبوك وفاروقه، أول من ابتزّه حقه وخالفه علىٰ أمره، علىٰ ذلك اتفقا واتسقا...

ثم قام ثالثهما عثمان، فهدى بهديهما وسار بسيرهما.. أبوك مهد مهاده، وبنىٰ لملكه وساده، فان يك ما نحن فيه صواباً، فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل، ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلمنا إليه، ولكنَّا رأينا أباك فعل ذلك من قبلنا، فأخذنا بمثله، فعب اباك بما بدا لكَ أو دَعْ)[1].

ومن محتوىٰ رسالة معاوية هذه، نجد أنّه كان يعرف لأمير المؤمنين عليه السلام فضله وحقه، غير أنه عندما وجد أنه قد استبعد عن هذا الحق من قبل أناس ربما كان معاوية يراهم أقل فضلًا وشرفاً منه، ورغم الفضل الذي كان يقرّ به الجميع لأمير المؤمنين، وجد أن الفرصة سانحة أمامه أيضاً لينال نصيباً من الغنيمة، وادعاء الأمر لنفسه والوثوب علىٰ كرسي الخلافة والتمهيد لكي يبقىٰ الكرسي في أسرته بعد ذلك، طالما أن المسألة قد أصبحت رهن إشارته وتوطدت له الأمور في النهاية، واستطاع اخضاع الأمة، وجرّها للإستسلام والركوع أمامه.

الأئمة عليهم السلام يواجهون أساليب دولة الظلم

وقد رأينا أن معاوية قد واجه أمير المؤمنين عليه السلام في بداية الأمر، بأهل الشام الذين استمالهم إلىٰ صفه بشكل تام، وجعلهم ينظرون إلىٰ الاسلام بمنظاره، ووفق التصور الذي أراده.

وقد استطاع بعد ذلك استدراج كل من لم يجد له مصلحة مع الإمام، وكل الخارجين عليه والطامعين بمال أو سلطة، ليضمهم إلىٰ صفه كذلك ويحاربه بهم، بعد ان لم يبق معه منهم في نهاية المطاف سوىٰ اعداد محدودة لم تكن تصل إلىٰ

(١) مروج الذهب ٣/١٦.

مستوىٰ تلك الاعداد الأولىٰ، وقد أراد ان يعدهم لمعركة حاسمة مع معاوية، غير انه ﷺ اغتيل قبل اتمام هذه المهمة وترك أهل العراق يتخبطون ويتخاصمون، بينما كان معاوية قد نجح إلىٰ حد بعيد برص صفوفه، وفق أساليبه الخاصَّة التي انتهجها والتي لم يهدف من ورائها إلا إلىٰ تقوية دولته وسلطانه ومصالحه.

وقد رأينا ان الرشوة والعطاء الكيفي، والقمع، وابتكار الاحاديث وتأويل القرآن وإثارة النعرات الجاهلية، كانت في مقدمة تلك الأساليب التي لا يمكن القول بأي حال من الأحوال أن الإسلام يقرها أو يقبل بها.

مجتمع مستهدف، لا بد من تحطيمه من الداخل

وعندما تستتب الأمور لمعاوية في النهاية، ويلتفت إلىٰ ملكه الواسع العريض، فإنه لا بد أن يجد أسبقيات في العمل، يرىٰ أن يضعها أمامه، وفي مقدمتها سد الثغرات التي يرىٰ أنها قد تكون خطراً عليه أو علىٰ من سيأتي بعده من أبنائه.

وكان لا بد أن يرىٰ في أهل العراق الخطر الأول، وقد عانىٰ فيما سبق ما عانىٰ منهم، بعد أن ساروا خلف أمير المؤمنين ﷺ لحربه وكانت منهم طليعة عقائدية واسعة لا تزال اعداد كبيرة منها تشكل ثقلًا اجتماعياً ملحوظاً.

كان معاوية يرىٰ أن عليه اخضاع مجتمع العراق هذا، الممثل بمجتمع الكوفة، إما باستمالة بعض عناصره المؤثرة والقوية إلىٰ جانبه أو بضرب وقمع الذين لا يرىٰ أملًا بجعلهم يستجيبون له، كما فعل مع حجر بن عدي الكندي وأصحابه حينما أقدم على قتلهم صبراً، وهي أول بادرة تحصل في الاسلام وفي ظل (الدولة الإسلامية) ضد رعاياها المسلمين، أو باستعمال اشد العمال قسوة ووحشية عليهم، مثل زياد بن أبيه.

وكان العراقيون رغم هدونهم واستجابتهم الظاهرية لمعاوية وعماله، يتوقون لتلك الأيام التي وقفوا فيها خلف أمير المؤمنين ﷺ وعاشوا في ظل دولته العادلة، ويحنّون إليها ويستعيدون السيرة الوضاءة للإمام، ويتطلعون إلىٰ من يسير فيهم سيرته ويأخذهم بعدله واستقامته، وكانوا يتطلعون إلىٰ آله ﷺ من بعده، مع أنهم قد تخلوا في النهاية عن الإمام الحسن ﷺ بفعل ضغوط معاوية واغراءاته وخططه.

وقد رأينا كيف أنهم راسلوا الحسين ﷺ ودعوه إلىٰ الثورة علىٰ معاوية، إلا أنه لم يستجب لهم في ذلك الوقت لأنهم قد يتخلون عنه كما تخلوا عن أخيه من قبل،

بعد أن أصبح معاوية أكثر قوة، ولأن الظروف الموضوعية للثورة لم تكن معدة بعد، ولأنَّ معاوية لو ثار عليه الحسين عليه السلام لما اكتفىٰ بقمع الثورة واستئصال القائمين بها وحسب، وإنما كان سيعمد إلىٰ عرضهم أمام الأمة كخوارج أو ذوي مطامع خاصة ومفرقين لوحدة الأمة وجمعها ولسوَّد صورهم أمامها بما كان يملك من الوسائل العديدة التي جعلت منه هو نفسه أقرب المقربين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله بنظر العديد من أبناء الأمة، وفي مقدمتهم أهل الشام بما افتراه من أحاديث مزورة علىٰ لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله نفسه وبما وضع من أقاصيص وروايات، ودفع للعديد من محترفي الدين والفقه والقصة ليروّجوها بين الناس بشكل مقبول ينطلي علىٰ السذج والبسطاء منهم، وكان حرياً به أن يعمد إلىٰ خطة من خططه الجهنمية لتشويه ثورة الحسين عليه السلام ضده لو أنه قام بها في عهده.

يد تحمل السيف.. ويد تقدم الرشوة

أسفر معاوية عن وجهه أمام أهل العراق بعد قيامه باغتيال الإمام الحسن عليه السلام بالسم، عندما أبلغهم صراحة أنه لم يكن يقاتلهم ليصوموا أو ليصلوا أو ليحجوا أو ليزكوا وقد علم أنهم كانوا يفعلون ذلك، وإنما قاتلهم ليتأمّر عليهم، هكذا نسخ قانون الاسلام ومفهوم الخلافة فيه.

أخبرهم أنه جعل الإمارة الهدف النهائي له، وأراد أن يقر في أذهانهم أنهم إذا ما تحدوا هذه الإمارة ووقفوا في وجهه، فإن عليهم أن يتوقعوا منه حرباً مدمرة، وفي هذه المرة سترجح كفّته، لأنهم الآن بغير قائد بعد تخليهم عن قادتهم الحقيقيين، وكان تصريحه هذا يشكل أكبر تهديدٍ وتحدٍ لهم.

ولم يكن هذا هو الأسلوب الوحيد الذي اتبعه معهم، فقد حاول أن يشق صفوفهم ويفرقهم باستمالة بعضهم إلىٰ جانبه واسترضائهم بالأموال والمناصب والسلطة والجاه، إضافة لأسلوب الارهاب الذي عمد اليه فعلاً.

وربما كان أسلوب الرشوة بالأموال والمناصب هو أنجع الأساليب وأكثرها فائدة بالنسبة له، كما أنه برميه إياهم بزياد الذي كان محسوباً عليهم فيما مضى ومطّلعاً علىٰ أمورهم، والذي كان يأخذ الناس علىٰ الظن والتّهمة والشك ويوغل في القتل والدماء والجريمة لأتفه سبب، وربما بدون سبب في أغلب الأحيان، والذي أصبح أسطورة يتناقلها الناس، ولعل تهديدات ابن زياد فيما بعد بأنه كان من أشبه الناس

بأبيه، وقد تشبّه به فعلًا، كان لها أكبر الأثر في القضاء علىٰ ثورة مسلم في الكوفة وسحب الثورة المتجمعة في البصرة، وقد أُتيح لمعاوية عن طريق زياد أن يرسي طريقة جديدة للحكم لم يكن يلجأ إليها في الظاهر وهي أسلوب العنف والارهاب والبطش، وتعزيز نظام الشرطة والشرطة السرية (العيون) والعرفاء، ووضعهم كقوة مقابلة لقوة رؤساء القبائل وغيرهم لإقامة موازنة تضمن وقوع الجميع في قبضته وبين يديه، ان وجود هذه القوة الموظفة المستخدمة للدولة وهي قوة الشرطة والعرفاء، تتلقىٰ أجورها منها مباشرة لقاء خدماتها وتنفذ أوامرها دون مناقشة أو تردد، جعل ولاءها للدولة ورموزها بشكل غير محدود ـ فهي قوة مشتراة إذا صح التعبير باعت ولاءها بثمن محدد قبضته سلفاً وحددت مواعيد ثابتة لقبضه في المستقبل.

إن مركز أفراد هذه القوة تعزَّز في ظل دولة الظلم والغشم والعسف، وبرز وجودها الطفيلي المتضخم علىٰ حساب البنية الاجتماعية السليمة، لأن همَّتها هي حماية مصالح قيادة الدولة وحسب، مهما كانت اتجاهات هذه القيادة.

وإذا ما أضفنا إلىٰ ذلك أسلوب الرشوة والعطاء الكيفي من قبل السلطة التي استأثرت بكل أموال الأمة، أدركنا إلىٰ أي حد نجح معاوية في تفتيت المجتمع الإسلامي في العراق خاصة وكبته واخضاعه، في وقت مر فيه هذا المجتمع بتجربة كبيرة مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي اغتيل في النهاية وأدىٰ ذلك إلىٰ قيام أكبر مؤامرة علىٰ الإسلام انتهت بتولي معاوية شؤون الخلافة.

وربما كان في ذلك خيبة أمل كبيرة لديهم هزت نفوسهم وزعزعت تصوراتهم الصحيحة عن الإسلام نفسه، خصوصاً وان حملة ماكرة كانت تجرىٰ فعلًا لايجاد تصورات جديدة عن معاوية، إذ لم يستطع العديدون منهم ان يفهموا كيف أن عدو الإسلام نفسه هو الذي سيطر علىٰ مقدرات الأمة الإسلامية في نهاية المطاف.

توسيع طبقة الهمج الرعاع.. خطوة علىٰ طريق سلب الشعور بالمسؤولية

علىٰ أن أهم ما لجأ إليه معاوية مع مجتمع العراق، هو أسلوبه الذي اتبعه مع أهل الشام من قبل، وهو عمله علىٰ سلب هويته الرسالية وانتمائه الحقيقي للإسلام وشعوره بالمسؤولية، وتحويله إلىٰ مجتمع غوغائي متناحر يرتع فيه الجهل والنميمة والغش ومختلف الأمراض الاجتماعية الأخرىٰ الذميمة، وجعله ينصرف عن اهتماماته العليا التي كرسها الاسلام، إلىٰ اهتمامات حياتية هزيلة تتركز بكسب العيش

اليومي وفقدان الاهتمام بالأمور العامة وما تقوم به الدولة والقنوع بالسلامة في ظل الجور والظلم والأخذ علىٰ التهمة والظن، وفقدان الرغبة في تحري المصادر الصحيحة للعلوم الإسلامية.

لقد كان افراغ المجتمع من شعوره بالمسؤولية في ظل خيبة الأمل التي شعر بها الكثيرون من أبنائه، وهم يرون أبعد الناس عن الإسلام، علىٰ رأس السلطة التي تحكم باسمه، كان ذلك أكبر سلاح استخدمه معاوية للتمادي في جرّ المجتمع إلىٰ المزيد من التناحرات والخلافات وعدم الشعور بالمسؤولية العامة والاهتمام بالأمور الشخصية العادية، وابعاده عن التدخل في سياسة الدولة وشؤونها التي ظلت حكراً عليه دون أن يسمح لأحد أن يناقش أو ينتقد أو يقوّم، وقد كان ذلك تكريساً لسياسة الاستعباد التي أضاف إليها من جاء بعد معاوية لمساتهم الشخصية وخبراتهم الخاصة ومهاراتهم لتطويع الناس واخضاعهم، وكانت حصيلتها ازدياد الإنحراف لا في مجال السياسة والحكم وحسب، وإنما في كل المجالات الأخرى.

معالم الانحراف وأبطاله: القلوب معك والسيوف مع بني أمية

ان مسألة تحويل المجتمع الاسلامي إلىٰ الشكل الذي أصبح عليه في عهد معاوية ويزيد بعد ذلك ومن جاء بعدهما من (الخلفاء) موضوع لدراسات اجتماعية وتاريخية مفيدة، نستطيع من خلالها وضع أيدينا علىٰ الطريقة التي تحول بها المجتمع الاسلامي إلىٰ مجتمع لا يحمل مواصفات الأمة المسلمة الأولىٰ ومقوماتها.

وقد شخّص أمير المؤمنين عليه السلام الحال الذي أوصل معاوية أهل الشام إليه، وقد رأىٰ ببصيرته الصادقة أنه سيستمر في نهجه لتحويل الأمة كلها عبيداً واتباعاً للدولة التي يعمل علىٰ تأسيسها (وأيم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي، كالناب الضروس... لا يزالون بكم حتىٰ لا يتركوا منكم الا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم. ولا يزال بلاؤهم، حتىٰ لا يكون انتصار أحدكم منهم الا كانتصار العبد من ربه والصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدىٰ ولا علم يرىٰ..)[1].

(والله لا يزالون حتىٰ لا يدعوا لله محرّماً الا استحلوه، ولا عقداً الا حلّوه،

(١) نهج البلاغة/ ٢٣٥.

وحتىٰ لا يبقىٰ بيت مدرٍ ولا وبر الا دخله ظلمهم ونابه سوء دعيهم، وحتىٰ يقوم الباكيان، يبكيان، باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه، وحتىٰ تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد اطاعه، وإذا غاب اغتابه. . . أعظمكم فيها غناء أحسنكم بالله ظنا»[1].

ولم يكن ما قاله الامام عليه السلام رجماً بالغيب، وإنما جاء تأكيده علىٰ أن الأمة ستشهد تلك الأوضاع المأساوية كنتيجة حتمية لاستسلامها ووقوعها فريسة ولقمة سائغة بين يدي معاوية، ونتيجة تخليها عن رسالتها ومبدئها، وسوف نرىٰ مصداق وصف الامام عليه السلام لهذا المجتمع عندما نتمعن فيه وندرسه خلال الفترة التي بدأت من دخول مسلم الكوفة واستمرّت مجيء الإمام الحسين عليه السلام ومقتله في كربلاء، إذ ستبرز أمامنا العديد من اللوحات المحزنة التي ترينا الحال السيئة التي وصل إليها الناس، رغم رغبتهم تخطي هذه الحال، إلا أن عجزهم عن ذلك يشير إلىٰ عمق الهوة التي ترددوا فيها وما عادوا يشعرون بقدرة علىٰ التخلص منها. . .

ولعل تلك الحال المتذبذبة بين الرغبة في النهوض بين يدي إمام الامة لإكمال شوط المسيرة الاسلامية الصحيح، وبيت التخاذل عند ظهور بوادر الشده الأموية، هي التي جعلت الفرزدق الشاعر يصف أهل الكوفة للحسين عليه السلام بقوله:

(القلوب معك والسيوف مع بني أمية)[2]

وجعلت مجمع بن عبد الله العامري يقول:

(وأما سائر الناس فإن قلوبهم تهوي اليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[3].

إلى غير ذلك من الأقوال المشابهة التي تؤكد هذا المعنىٰ.

فقد كانت الايدي التي تمسك هذه السيوف ضعيفة لا تملك إلا أن تكون بمستوىٰ القلوب الضعيفة التي فقدت حماسها وقدرتها علىٰ الصمود وشعورها بالمسؤولية الرسالية تجاه الأمة وحرصها وغيرتها علىٰ الدين الذي حاربت من أجله ورأته في النهاية رهينةً بيد الطغمة التي ناوأته قبل ذلك وشنّت عليه الحرب.

---

(١) المصدر السابق ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) الطبري ٣/ ٢٩٦ - ٣٠٨ وابن الأثير ٣/ ٤٠٩ وابن كثير ٨/ ١٦٩.

(٣) المصدرالسابق.

أهداف دولة الظلم: الفئة الجاهلة، الفئة الأوسع

وبدا واضحاً، أن من أهداف دولة الظلم الأموية الأساسية إيصال الاعداد الغفيرة من أبناء المجتمع الاسلامي لا في العراق وحده، وإنما في كل أقطار الإسلام، إلىٰ حالٍ تصنف فيه ضمن الفئة الثالثة من عناصر المجتمع التي وصفها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (الناس ثلاثة، فعالم رباني، ومتعلم علىٰ سبيل نجاة وهمج رعاع، اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيؤا بنور العلم، ولم يلجأوا إلىٰ ركن وثيق)[1].

فهؤلاء ليس لهم من العلم أو قوة المبدأ ما يمكن أن يعصمهم من التأثر السريع بمختلف التيارات والقوىٰ الموجودة علىٰ الساحة والتي يمكن أن تتلاعب بهم وتوجههم وفق أهوائها ومصالحها، انهم كتلة بشرية واسعة تكمن قوتها باجتماعها، فهم علىٰ حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً (إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا)[2].

فهم كقطيع من الأنعام، متشابه الملامح والتصرفات والأشكال، وسلوك أي واحد منهم مرهون بسلوك القطيع كله، وإذا ما اجتمعوا شكلوا موجة قوية قد لا تقف أمامها أي قوة أخرى، ولأنهم لم يتميزوا بعلم أو بجاه أو مركز اجتماعي، فلا يكاد المرء يعنىٰ بالتعرف علىٰ أي منهم، ولا يكاد يميّز اشكالهم المتكرّرة المعادة التي لا يجد علامة مميزة لتذكرها.

ان أي واحد منهم بمفرده قد لا يثير الانتباه بموهبة أو علم أو فن أو صنعة نادرة أو أدب رفيع.. كل فرد منهم يشكل عنصراً من عناصر المجتمع، يتأثّر ولا يؤثّر ولا يبدع أو يفكّر الا في حدود حياته والتزاماته اليومية البسيطة المتكررة أيضاً.. ومن هنا جاء وصف الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لهم بأنهم (... لا يعبأ الله بهم)[3].

وقد لفتت مبادرة معاوية ومحاولاته لتوسيع هذه الفئة الجاهلة في أهل الشام وجعلها الفئة الأوسع، علىٰ حساب تقليص الفئة العالمة والواعية من المجتمع، نظر

---

(١) نهج البلاغة ٦٩١ ومروج الذهب ٣/ ٤٣.

(٢) نهج البلاغة ٧١٢.

(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ٣/ ٤٣.

المؤرخ الكبير، المسعودي، فذكر لنا الأثر الذي تركه فيهم معاوية في النهاية ونجاحه بجعلهم ينظرون إليه كأعظم شخصية بعد رسول الله ﷺ، وجعله في مركز الضوء والاشعاع الوحيد الذي يمكن أن تتجه إليه الأنظار وترمقه باحترام كبير كبديل طبيعي للرسول ﷺ. . .

(ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم، فانظر إلىٰ اجتماع ملئهم عليه، ان رسول الله ﷺ أقام يدعو الخلق إلىٰ الله اثنتين وعشرين سنة، وهو ينزل عليه الوحي، ويمليه علىٰ أصحابه فيكتبونه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة، وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم الله ـ ثم كتب له ﷺ قبل وفاته بشهور، فشادوا بذكره، ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتباً للوحي، وعظموه بهذا، وأضافوه اليها، وسلبوها عن غيره، واسقطوا ذكر سواه. .)[1] وهو أمر جند له معاوية قوىٰ كبيرة ووظف له كل إمكانات الدولة. . . حتىٰ امتد تأثيره علىٰ أجيال لاحقة من المبهورين المفرغين المجردين من كل كفاءة ووعي، لأن من قاموا بتلك الحملة الاعلامية كان لهم أيضاً تأثير وشهرة وبريق، وكان ينبغي أن يكون لهم ذلك لينجحوا في حملة الدعوة لمعاوية باعتباره أكبر شخصية بعد رسول الله ﷺ حسب ما روّجوا له.

لقد أراد معاوية أن يجعل من أهل الشام النموذج الشائع المطلوب ـ كما رأينا من قبل ـ وقد أشاد بهم مراراً باعتبار (أن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه)[2].

وأراد بالمقابل التقليل من شأن أعدائهم التقليديين في ذلك الحين، وهم أهل العراق، وقد عاب عليهم سيرهم خلف أمير المؤمنين عليه السلام، وكان بذلك يريدهم أن ينحازوا اليه كلية كأهل الشام ويكونوا مثلهم في غفلتهم وجهلهم، وعندها فقط سينالون رضاه بعد أن يشكلّهم بالصورة التي يريد ومع أنه لم يعلن ذلك صراحة، إلا أنه كان غالباً ما يصفهم وقد وقفوا ضدّه بـ(المتهكين لمحارم الله، والمحلّين ما حرّم الله، والمحرّمين ما أحلّ الله. .)[3] وماذا يمكن أن يقول عنهم غير ذلك وهم لم يستجيبوا له، وقد تمردوا علىٰ سلطته، حتىٰ بعد أن ملك وتمكن.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٥٠.

(٣) المصدر السابق.

وماذا يمكن أن يقوله عن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه بعد أن قرر اتخاذ أسلوب السباب المباشر ضده..؟ هل كان يمكن أن يقول هذا عليّ كما وصفه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والكتاب المجيد وأشادا به، ومع ذلك فأنا أسبه وآمر بسبّه؟.. أم أنه كان سيلجأ إلىٰ حملة شديدة من التزوير والتلفيق بحقه ليظهره بمظهر المستحق لهذا السباب الذي جعله جزءاً من فروض عبادة أهل الشام وغيرهم؟

لقد كان يدرك أن بين صفوف أهل العراق من يكن الحقد والعداوة والكراهية لهذا النمط الفرعوني الجديد من الحكم بزعامته، استقلالية هؤلاء، وعدم تأثرهم بألاعيبه وميلهم للنقد البناء وصحواتهم المتكررة بعد أن أدركوا اخطاء مجتمعهم الذي كان يساق لتبني مواقف الظلم والذي كان يُجر إلىٰ مهاوي الانحراف، جعلت معاوية يدرك أنَّ عوامل الصحوة موجودة دائماً يمكن أن تثير أهل وتحفزهم ضدّه.

كان مجتمع الكوفة مجتمعاً مفتوحاً لم يتلق الاسلام عن طريق معاوية وحزبه وشيعته، ولم ينظر إليه بمنظاره وعينيه، وقد سنحت له فرصة القرب من أمير المؤمنين عليه السلام ورأوا فيه ما لم يروا في غيره ولم تستطع الدعايات المضللة أن تغشّهم بشأنه، رأوا فيه صورة واضحة للإسلام نفسه، وناطقاً حقيقياً باسمه، ومجسداً لتعاليمه وأحكامه ومبادئه، ومطبقاً عادلًا لقوانينه.

كما أنهم رأوا معاوية في صورته الحقيقية أيضاً، والتي لم يرسمها بريشته هو، لهم، بل بالصورة التي كان يبدو عليها فعلًا.

كما كان معاوية يحسب الف حساب لأهل العراق (وشرّهم) واجتماعهم، وربما صح عنه ما قاله في وصيته ليزيد بشأنهم قبيل موته.

(وانظر أهل العراق، فإن سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملًا فافعل، فإن عزل عامل أحب إليّ من أن تشهر عليك مائة الف سيف)(1).

---

(1) الطبري ٣/٢٦٠ وقال له بشأن أهل الشام أيضاً (.. وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم..) ويبدو من كلامه أنه كان يريد عزلهم وعدم تواصلهم مع الآخرين ويخشىٰ عليهم من قوىٰ التأثير الأخرىٰ في البلاد الاسلامية...

شجاعة، أم معرفة بواقع حال الخصوم!

لقد نجح معاوية في تفريق هذه السيوف، وجعلها تضرب بعضها الآخر، وكان وضع هذا المجتمع العراقي في الكوفة الذي لا يحسد عليه بعد مقتل أمير المؤمنين عليه السلام نتيجة لدأب معاوية وزياد وسعيهما المستمر لتفتيته واضعافه وتفرقة أبنائه إلىٰ الحد الذي أصبح فيه يتخاذل لتهديدات مجردة من عبيد الله بن زياد، وقد جاء وحيداً إلىٰ الكوفة بعد وفود مسلم إليها، الا من بضعة أفراد تساقط معظمهم في الطريق.

ولو نظرنا إلىٰ ابن زياد عند قدومه إلىٰ الكوفة وعمله فيها، من الزاوية التي نظر بها يزيد إليه، لرأينا أنه كان يتمتع بقدر كبير من الشجاعة والجرأة ممّا أتاح له التغلب علىٰ أهل الكوفة بأجمعهم، غير أننا متىٰ ما درسنا أوضاع الطرف الآخر، وهم أهل الكوفة أنفسهم، علمنا أنه كان يدرك أن شجاعته وجرأته ما كانتا لتسجديان وتنسجما، ولما كان قد لجأ إليهما أصلّا وربما لم يفد إلىٰ الكوفة نهائياً، لو لم يكن يعرف حال أهل الكوفة بعد تطويعهم وترويضهم واخضاعهم ـ من قبل أسلافه ـ وجعل العناصر القوية المتنفّذة أداة بيد النظام الحاكم الذي كان يعتبر هو أحد دعائمه الرئيسية.

وقد رأينا كيف أنه أسقط في يده وانهارت شجاعته التي كان يتظاهر بها عندما أنبأه هانىء بقوة المعارضة الموجودة في الكوفة، وكاد يستسلم له عندما وعده بالأمان، لولا أن استنهضه مهران مولاه، وشجعه علىٰ عدم التخاذل أو التنازل، وكيف أنه في المرة الثانية ـ عندما حوصر من قبل مسلم في القصر، قد استوحش وخاف وطلب من الأشراف البقاء معه... كما أن له مواقف أخرىٰ رأى فيها أن الهزيمة أسلم له.. كما فعل عند هربه من البصرة فيما بعد.

الكوفة.. المدنية المعسكر... الخليط المتنافر

ومن المهم عند الحديث عن مجتمع الكوفة الذي يمثل أكبر شريحة من أهل العراق أن نشير هنا إلىٰ أن هذه المدينة التي ضمت هذا المجتمع كانت حديثة التكوين نسبياً، فقد بدأ الشروع بتخطيطها وإنشائها سنة ١٧هـ أو قبيلها بقليل، فعمرها لم يتجاوز ٤٣ سنة إلا بقليل عند وقوع أحداث الثورة.

وتمتاز الكوفة التي تقع على الفرات علىٰ أرض زراعية خصبة، عن المدائن بخلوها من الذباب والغبار والبعوض وتكاد تكون منزلًا برياً بحرياً.

وقد اختطها سعد بن أبي وقاص إثر معركة القادسية وانتصار المسلمين، وقد أريد لها أن تكون حامية ومقراً لجيش المسلمين الذي اتسع بشكل ملحوظ أثر تلك المعركة الكبيرة التي شجعت الكثيرين فيما بعد علىٰ الالتحاق بقوىٰ الفتوحات لما أفاء الله على الجيش المنتصر من أموال ومكاسب، حتىٰ قيل ان نصيب الجندي الواحد من فيء المدائن بلغ اثني عشر ألفاً[1].

بدأ بناؤها بالقصب ثم باللبنِ علىٰ أثر حريق شب في مجموعة من بيوتها، فلما (أذن للناس بالبناء، نقل الناس أبوابهم من المدائن إلىٰ الكوفة فعلّقوها علىٰ ما بنوا وأُوطنوا الكوفة) الطبري ٢/ ٤٨٢ وكانت سعة طرقها (أربعين ذراعاً، وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقَّة سبع أذرع، وفي القطائع ستين ذراعاً)[2].

وقد خط سعد المسجد في البداية ثم بنى قصر الكوفة الذي كان يدعىٰ قصر سعد، من بقية أبنية الأكاسرة في الحيرة.

ومن المعلوم أن أمير المؤمنين عليه السلام رفض النزول به عند مقدمه الكوفة واتخاذها عاصمة الدولة الاسلامية.

وقد أعاد زياد بناء المسجد والقصر فيما بعد.

وخلال الفترة الممتدة ين سنة ١٧هـ وحتىٰ سنة ٦١ أصبحت الكوفة أكبر مدينة إسلامية يسكنها خليط كبير من الناس من مختلف الاجناس والديانات.. وكانت تشرف علىٰ طريقين رئيسيين يمتد أحدهما حتىٰ أذربيجان مروراً بخراسان والسند وما وراء النهر ويمتد الثاني حتىٰ الساحل الهندي مروراً بالبصرة والخليج وسرنديب (سيريلانكا)...

وقد تضاربت التقديرات في عدد سكان الكوفة وضواحيها وتوابعها، وتراوحت بين تسعة ملايين وأربعة ملايين...

وإذا ما علمنا أن الكوفة قد أصبحت مركزاً لجيش المسلمين الثري والواسع أدركنا السبب الذي جعل سواهم من غير المسلمين من المسيحيين واليهود وغيرهم

---

(١) طبقات ابن سعد، ٦/ ٤ ومختصر كتاب البلدان ١٦٦ وفي الطبري ٢/ ٤٦٦ (فقسم سعد الفيء بين الناس بعد ما خمَّسه، فأصاب الفارس اثنا عشر الفا، وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل).

(٢) الطبري ٢/ ٤٧٩.

يستوطنون تلك المدينة المهمة، فبريق الذهب الذي كان يتدفق عليها كان له أثره البالغ عليهم..

وهذا هو السبب نفسه الذي جعل أهل البلدان المفتوحة يفدون إليها بعد وصول المسلمين إليهم ودخول اعداد كبيرة منهم أنفسهم في الاسلام، لتشابك المصالح وفتح الطرق.

اختلاط جميع هؤلاء وهم من الأغلبية المسلمة في مدينة واحدة (الكوفة) لم يكن مألوفاً من قبل، وقد سكن الكوفة في البداية الجيش الإسلامي إثر معركة القادسية، وكان أفراد ذلك الجيش ينتمون الىٰ مختلف القبائل العربية التي كان أغلبها من اليمن وقد ذكر أن عدد أهل اليمن بلغ اثني عشر ألفاً من قبائل قضاعة وغسان وبجيله وخثعم وكنده وحضرموت والازد ومذحج وحمير وهمدان والنخع...

وكان عدد أفراد القبائل العدنانية التي تضم تميم وبني العصر ثمانية آلاف، أما بني بكر، وهم بنو أسد وغطفان ومحارب ونميز فكانوا أقل منهم عدداً.

ونستطيع القول إن شرائح واسعة من كل قبيلة عربية حتّى في أقصىٰ الجزيرة ومن كل مكان من الدولة الاسلامية قد استوطنوا الكوفة.

كما أنَّ أن جيش سعد ضم عناصر كثيرة من أصحاب رسول الله ﷺ وحتىٰ من أولئك الذين شاركوا في معركة بدر[١].

كانت طبيعة تنظيم المدينة لغرض التعبئة والعطاء والاحصاء تقتضي أن يجتمع أفراد القبيلة الواحدة مع بعضهم ومع أقرب القبائل اليهم ومع أحلافهم، فكان هناك شعور بالانتماء القبلي ربما طغىٰ علىٰ ما عداه في خضم ذلك المحيط الواسع من الناس وخصوصاً في ظل الدولة الأموية التي عاملتهم علىٰ أساس مواقفهم من معاوية أيام حكم أمير المؤمنين عليه‌السلام، ولم تقف منهم موقفاً عادلاً منذ البداية.

وقد حاول سعد في البداية تقسيم المجتمع الكوفي المستحدث إلىٰ أسابع يضم

(١) سكن الكوفة سبعون بدرياً وثلثمائة من أصحاب الشجرة، ترجم ابن سعد حياة مائة وخمسين منهم ـ طبقات ابن سعد ٦/ ٤ ـ ٤٣ـ وكان في جيش سعد (بضعة وسبعون بدرياً، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة، فيما بين بيعة الرضوان إلىٰ ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة، في جميع أحياء العرب) الطبري ٢/ ٣٨٦.

كل واحد منها مجموعة من القبائل المتقاربة والحليفة بعد الاستعانة بذوي الخبرة من نسّاب العرب وذوي رأيهم وخبرائهم، وهذا ما يوضحه الطبري:

(فصارت كنانه وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم وجديله سُبعاً

وصارت قضاعة وبجيله وخثعم وكنده وحضرموت والأزد سُبعاً

وصارت مذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم سُبعاً

وصارت تميم وسائر الرباب وهوازن سبعاً

وصارت أسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب سبعاً

وصارت اياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء سبعاً)[1].

وقد استمر هذا التقسيم حتىٰ أيام زياد بن أبيه حيث عمد إلىٰ نظام آخر يجعله أكثر قدرة علىٰ السيطرة علىٰ الكوفة وهو نظام الأرباع، ولعل تطور الأوضاع فيما بعد لصالح الامويين وامتلاكهم القوة والنفوذ جعل زياد يطور التشكيلة الادارية لصالح الدولة ويطور نظام العرافة مقابل النظام القبلي لاقامة توازن يتيح له السيطرة التامة على الجميع.

فقد جعل زياد الربع الأول من أهل المدينة وعليهم عمرو بن حريث، والربع الثاني من تميم وهمدان وعليهم خالد بن عرفطه، والربع الثالث من ربيعة بكر وكنده وعليهم قيس بن الوليد بن عبد شمس والربع الرابع من مذحج وأسد وعليهم أبو بردة بن أبي موسى[2].

والأمر الذي أكد عليه زياد هو جعل رؤساء هذه التجمعات من الموالين للدولة المندفعين لتنفيذ أوامرها دون نقاش أو تردد، وقد شارك قسم منهم في مذبحة الطف فيما بعد.

ولأن أعداد من سكن الكوفة من القبائل كانت كبيرة، ولم يكن سكنهم قد تم بشكل تدريجي بطيء، فكان لا بد من استحداث نظام يتيح لمسؤول السلطة التعرف علىٰ أحوالهم وتنظيم عطائهم.

---

(١) الطبري ٢/ ٤٨١.

(٢) خطط الكوفة ١٥ - ١٦.

وفي زمن سعد تم اعادة تعريف الناس، وقد روي عن عطية بن الحارث قوله (أدركت مائة عريف... كان العطاء يدفع إلىٰ أمراء الاسباع وأصحاب الرايات، والرايات علىٰ أيادي العرب، فيدفعونه إلىٰ العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعونه إلىٰ أهله في دورهم)[١] وقد توسعت مهمّات العرفاء وامتدت لتشمل ندب الناس للقتال والقيام بتسجيل المواليد الجدد والوفيات والاخبار عن المتخلفين عن القتال إلىٰ غير ذلك من المهمات الأخرىٰ.

وقد استعان العرب المسلمون في بداية أمرهم بذوي الخبرة من ذوي الأديان والأجناس الأخرىٰ، فقد كتب عمر بن الخطّاب إلىٰ أصحاب ثغور الكوفة وهي حلوان وماسبذان وقرقيسياء والموصل (ان يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساوده، ويرفعوا عنهم الجزاء)[٢] وكان الأمر نفسه بالنسبة للكوفة أيضاً، ومن المعلوم ان أناساً من الحمراء استجابوا للمسلمين فاعانوهم، أسلم بعضهم قبل القتال وأسلم بعضهم عند القتال (٢/ ٣٩٨ الطبري).

وقد تمت أكبر عملية مصاهرة في التاريخ بين القبائل التي استوطنت الكوفة من جهة وبينهم وبين أهل السواد من الكتابيّين من جهة أخرىٰ (كان في النخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيلة الف، وصاهر هؤلاء الف من أحياء العرب وهؤلاء سبعمائة، وكانت النّخع تسمىٰ اصهار المهاجرين، وبجيله..)[٣].

وقد روىٰ عن مسلم مولىٰ حذيفة قوله: (تزوج المهاجرون والانصار في أهل السواد، يعني في أهل الكتابيين منهم)[٤].

ملاحظات عن مجتمع الكوفة

ولسنا نؤرخ للكوفة هنا، غير أنّنا نستعرض حالة المجتمع الكوفي ممثل المجتمع العراقي بالقدر الذي يفيدنا بهذه الدراسة...

ويستطيع الباحث الدارس أن يرىٰ جملة من الملاحظات حول هذا المجتمع

(١) الطبري ٢/ ٤٨٢ - ٤٣٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

الجديد، في فترة الأحداث المهمة في العصر الأموي، التي كانت الكوفة مسرحاً لها، ومن أهم هذه الملاحظات:

مجتمع مستحدث

١ - ان مجتمع الكوفة مجتمع مستحدث يضم اخلاطاً من الناس من مختلف الأجناس والأديان والانحدارات والبيئات، وفي مجتمع كهذا، فارق كلُّ واحدٍ من أبنائه بيئته الأصلية بعد ارتباطه بها ارتباطاً عاطفياً وشعورياً قديماً، يجد هؤلاء صعوبة في التطبع مع (الغرباء) من أبناء القبائل والاجناس الأخرىٰ الذين جمعتهم معهم وحدة الانتماء العسكري بعد القادسية وانشاء الكوفة لتكون حامية للجند ومركز القوة الضاربة لجيش الإسلام.

وليس من الهين علىٰ من اعتادوا حياة البداوة وجو الصحراء المفتوح الفسيح ومع أشخاص علىٰ شاكلتهم وطباعهم أن ينسجموا مع (أغراب)، حتىٰ وان كانوا من قبيلتهم أو قبائل قريبة لهم ضمن دور محدودة المساحة وشوارع وأزقة لا يستطيعون النفاذ إلىٰ العالم إلّا من خلالها.

ولا بد أن يولد الاختلاط الواسع شعوراً بعدم الراحة والاطمئنان والشعور بالغربة والحرص علىٰ السلامة الشخصية والمكسب الشخصي والتحفظ حيال الآخرين، واعتماد بعض قيم العصبية البالية بشكل ملحوظ، مما يوّلد بالتالي بعض المشاكل والصعوبات تزداد بمرور الزمن.

ان تعايش كل انماط الحياة الغريبة عن بعضها في جو واحد وبشكل مفاجىء وبسرعة قياسية من شأنه أن يخلق مجتمعاً لا منتمياً في النهاية.

وقد سبق القول أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يجعل من مجتمع الكوفة الذي ضم صفوة مقاتلي الاسلام في البداية، معسكراً دائمياً لطلائع الإسلام ومحاربيه الاصلاء، ويقف بهم بمواجهة التيارات التي أعلنت الحرب علىٰ الإسلام مع أنها أعلنت الانضمام اليه وتلك التي حسبت ان مصالحها سوف تتضرر في ظلّ دولة الاسلام العادلة.

ويبدو أن أعداءه أدركوا السبب الذي جعله يغادر المدينة، حيث مقر الأحزاب القرشية والقوىٰ المتصارعة الأخرىٰ التي تسلل قسم منها واتخذ له مناطق نفوذ في أماكن أخرىٰ من الدولة الاسلامية كالشام مثلاً، وعلموا أنه إذا ما نجح بتجميع أولئك

القائلين الأوائل وأبنائهم ومن سيلحق بهم فإن ذلك سيشكل أكبر نكسة يمكن أن تحل بهم ولن يستطيعوا النهوض بعدها.

وهكذا كان تركيز معاوية والحزب القرشي المعادي للإسلام موجهاً بشكل متوازن لتحقيق أمرين:

أ - تفتيت مجتمع الكوفة كتجمع إسلامي يشكل قوة ضاربة سريعة مستعدة في أي وقت للإنتصار للإسلام ورفد حملات الفتح ونشر الدعوة، وجعله مجرد تجمع قبلي يفكر كل فرد فيه بنفسه وسلامته الشخصية وقبيلته كحامٍ أول له، وكان سعي معاوية بهذا الاتجاه بارزاً وواضحاً واتخذ أساليب متعددة.

ب - إنشاء مجتمع موحد الأهداف والنظرات غير أنّه بعيد عن الإسلام، وجعل القوة الضاربة الأساسية المتمثّلة بالجيش من بين أبنائه، ليتم بهم لا مجرد توسيع الفتوح ـ التي لا بد أن أهدافها تختلف عن أهداف سابقاتها وانما ضرب أية حركة أو تمرد أو عصيان أو معارضة، وقد نجح معاوية بذلك إلىٰ أبعد حد، وأصبح الجيش قوة أسطورية في شراسته وأساليبه غير المشروعة، يخيفون به كل من أقدم علىٰ معارضتهم برأي أو فعل.

وكان مجرد التلويح به لأهل الكوفة بعد القضاء علىٰ ثورة مسلم كافياً لارهاب الناس وجعلهم ينكمشون ويتراجعون ويخلّون بين مسلم وعدوه.

مجتمع الشك

٢ - ان مجتمع الكوفة مجتمع يقظ، لأنه يعيش في جو متحرك وأحداث متسارعة ومتغيرات، ولأنه يشكل طليعة مقاتلي الاسلام ومنهم من شارك في عدة حروب حتىٰ منذ عهد رسول الله ﷺ في بدر وغيرها وانتهاء بالقادسية، ولأن فيه أبناء المقاتلين الذين استشهدوا في سبيل الإسلام وعوائلهم. وكانوا يرون لأنفسهم حقاً لأنهم في مقدمة المضحين.

من هنا، إنَّ أي حدث ما كان ليمر أمامهم مهما كان بسيطاً دون أن يتناولوه من زوايا عديدة ووفق وجهات نظر معينة، فمجتمعهم ليس مجتمعاً راكداً متجانساً يدين بالولاء لشخص معين أو طائفة معينة، حتىٰ تمر عليه الأحداث وتمرّر عليه الخطط دون أن يحرك ساكناً.

وكان الشك والحذر أحد الأمور الرئيسية التي طبعته بطابعها، وهكذا وصل

الأمر به إلىٰ التشكيك حتىٰ ببعض مواقف أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، بعد أن استطاع معاوية مع أركان حزبه أن يلعبوا لعبتهم الماكرة في (التحكيم)، مما جعل هذا المجتمع ينشق بشكل نهائي وتبرز فيه جماعة (الخوارج) المتعصبة التي تأخذ بظاهر الكتاب وتفسره علىٰ هواها.

وحتىٰ بعد القضاء علىٰ الموجة الأولىٰ منهم، بيد أمير المؤمنين عليه السلام اتسع الشق بين أقارب هؤلاء وعوائلهم وقبائلهم الذين كانوا ضمن جيش الامام، وأصبحوا مستهدفين بعد ذلك لأكبر حملة اعلامية مظللة بقيادة معاوية والرتل الخامس (المخبرين والعملاء) من أتباعه في الكوفة نفسها.

ان الكوفيين وقد رأوا أنهم كانوا في مقدمة المضحين، ثم فاز بالمكاسب من لم يكن قد قدم ما قدموا، ووصل الأمر إلىٰ حد اضطهادهم وإيقاع الظلم والأذىٰ بهم أحسوا بإحباط شديد نتيجة ذلك، جعل الكثيرين منهم، يتوسلون بنفس الوسائل المصلحية التي توسل بها أعداؤهم لضمان مصالحهم أو لحماية أنفسهم علىٰ الأقل.

الكوفة ودولة الظلم.. استغلال العطاء والرواتب

٣ - تشكل علاقة هذا المجتمع ـ من الناحية المعيشية ـ بالدولة أمراً مهماً، فرواتب المقاتلين وعوائلهم تستلم بشكل مباشر عن طريق عرفاء وأمناء ونقباء تعينهم الدَّولة لهذا الغرض، فهم يرون فيها الممول الأول بل الوحيد لهم وهي مصدر رزقهم الأساسي، ولعلهم في ظلّ دولةٍ إسلامية عادلة كدولة أمير المؤمنين عليه السلام لا يخشون غبناً أو حيفاً، ويبقىٰ هم بعضهم في التحايل علىٰ الخروج للقتال وتثبيت الدولة وحمايتها من أعدائها.

غير أن دولة الظلم الأموي التي استأثرت بواردات الأمة الإسلامية وتصرفت بها بشكل كيفي يضمن لها بالدرجة الأولىٰ تثبيت أركانها ودعائمها وشراء من تتوسم فيه النفع لها أو تدفع ضرره عنها، قد تلاعبت بالعطاء وحرمت منه الكثيرين بمرور الزمن وفرَّقت فيه بين الناس لأسباب وأعذار شتىٰ.

وكان ذلك مصدر تهديد مستمر للجميع إذا ما لاحت بادرة من بوادر الخلاف والمعارضة، وكان مجرد التلويح بذلك يجعل الكثيرين ممن يرون في العطاء مصدر رزقهم الوحيد ينحنون ويتراجعون ويسكتون عن كل الانتهاكات والخروج المتعمد والانحراف عن الإسلام.

وأفضل مثالٍ على هذا تلويح ابن زياد وأتباعه من (الاشراف) بهذا الأمر الأمر الذي أدّى إلى تراجع العديدين عن نصرة مسلم أو الالتحاق بالحسين عليه السلام تحت وطأة شعورهم بان ابن زياد سينفذ تهديداته فعلًا، لأن سوابق الدولة بهذا الشأن عديدة ومتنوعة.

الموالي.. القوة المتنامية

٤ - كان الذين دخلوا الاسلام من غير العرب، وخصوصاً من الفرس حتىٰ قبل معركة القادسية نفسها يشكلون أعداداً كبيرة، ورغم اسلامهم وارتباطهم بعلاقات قربىٰ ومصاهرة مع القبائل العربية، فإن الدولة الأموية رأت فيهم خطراً عليها، لأن مجاميع كبيرة منهم عاشت في ظل عدالة أمير المؤمنين عليه السلام، وربما كانت تميل إليه، وقد أصبحوا بعد ذلك مضطهدين في أيام معاوية، الذي فكر حتى باستئصالهم وقتل نصفهم وترك النصف الباقي للزراعة والمهن والطرق إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد.

فقد رُوي عن زياد ان معاوية دعا (الأحنف بن قيس وسَمُرة بن جندب فقال: إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد طعنت علىٰ السلف، وكأني أنظر إلىٰ وثبة منهم علىٰ العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟ فقال الأحنف: أرىٰ أن نفسي لا تطيب، أخي لأمي وخالي ومولاي، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب، فظننت أني قد قتلت عنهم ـ واطرق ـ فقال سمرة بن جندب: اجعلها إليَّ أيها الأمير، فأنا أتولىٰ ذلك منهم وأبلغ منه ـ قال: فقوموا حتىٰ انظر في هذا الأمر ـ قال الأحنف: فقمنا عنه وأنا خائف، وأتيت أهلي حزيناً، فلما كان بالغداة أرسل إلي، فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة) العقد الفريد ٣/ ٣٦١.

وإذا ما أدركنا أن زياد بن أبيه كان ينتمي إليهم بحكم تربية (عُبيد) له، وأنه ألحق فيما بعد بأبي سفيان، أدركنا أيضاً أنه كان يريد تبييض صفحته واعلان براءته وبعده عنهم بشن حملة ظالمة عليهم.

كان الموالي أو الحمراء ينتمون إلىٰ مجتمعات ذات حضارة مهنية إذا صح التعبير ـ ويختلفون عن عرب الجزيرة الذين أتيح لهم بالتالي الإختلاط بهم وأخذ الكثير من الأمور عنهم، وهذا ما جعل الدولة الأموية التي غالباً ما تنهج نهجاً منحازاً للعرب وقريش، لأمور سياسية بحتاً وليس حباً في العرب ولا قريش تخشىٰ منهم

لأنهم أصبحوا قوة مؤثرة لكنها مضطهدة في عصرها وربما وقفت مع قوىٰ المعارضة العربية ضدها وهذا ما فعلته بعد ذلك في العديد من الاحداث.

إستقطاب قوى التأثير

٥ - ركز الحكم الأموي علىٰ استقطاب قوىٰ التأثير من زعماء القبائل وغيرهم، وحاول معاوية منذ أيام أمير المؤمنين عليه السلام مراسلة بعضهم واستمالتهم بالأموال والوعود بالمراكز والجاه في ظل دولته إذا ما استتب الأمر له.

وقد رأينا أن العديدين منهم استجابوا له منذ ذلك الحين كالاشعث بن قيس وكان لهم دور بارز في مهزلة التحكيم التي أَجبروا أمير المؤمنين عليه السلام فيها علىٰ الاستجابة لطلب معاوية للتحكيم بعد رفع المصاحف، وحرضوا بعض قصيري النَّظر من الخوارج وغيرهم لتمرير المخطَّطات النَّذلة كما كان للعديد منهم الدور البارز بجعل الناس تتخلىٰ عن الامام الحسن عليه السلام، ثم عن مسلم(رض) والحسين عليه السلام فيما بعد.

ان (الاشراف)، كموقع اجتماعي يشكلون إذا ما كانوا دون أي خلفيَّة رسالية خطراً علىٰ الأمة ككل، لأنهم في هذه الحالة لا يرون أمامهم الا مصالحهم وامتيازاتهم المتعلقة بمصالح ساداتهم وكبرائهم وحكامهم، أنهم يرون أن حياتهم مرهونة بحياة أولئك الأسياد، فينحازون إليهم ضدَّ أي طرف قد يرَون فيه خطراً على هؤلاء الأسياد، لأنَّ الخطر قد يكون عليهم هم أنفسهم.

إنهم علىٰ امتداد التاريخ يقفون سنداً لفرعون ومطامع فرعون ورغبات فرعون ويزينون له كل أعماله، ويعرضوها علىٰ الناس علىٰ أنها الشيء الصحيح الوحيد الذي كان عليه القيام به.

وقد رأينا دور هؤلاء الكبير في الإلتفاف حول ابن زياد حين قدومه إلى الكوفة، وكانوا قبلها قد أحنوا رؤوسهم أمام ثورة مسلم، ثم دورهمَ الكبير في تخذيل الناس عنه ولجوئهم إلىٰ أسلوب التهديد بجيش الشام وقطع العطاء عنهم، وكان لذلك أثره حينما رأىٰ الناس أن زعماءهم قد تخلوا عنهم وانقادوا لابن زياد دون تحفظ.

علماً أننا رأينا نمطاً مغايراً من هؤلاء الاشراف، نمطاً رسالياً لم ير امامه إلا الاسلام، ورأىٰ أن حياة الأمة كلها رهينة بوجود الاسلام وازدهاره ونقائه.

وقد عمد ابن زياد إلىٰ سجنهم وقتل البعض الآخر منهم، إضافةً إلى من سجن

من عموم النَّاس فبلغ عددهم فيما روي أكثر من الفين، وهؤلاء هم الذين بقوا علىٰ ولائهم للحسين عليه السلام ينتظرون قدومه للثورة معه.

مطلوبون للعدالة الاموية

٦ - عملت الدولة الأموية علىٰ جعل الشعور السائد بين أبناء الكوفة بأنهم مخطئون ومطلوبون للعدالة لأنهم أو اباءهم من قبل سبق وأَن وقفوا ضدها مع أمير المؤمنين عليه السلام وان الدولة متكرّمةٌ عليهم اذ (تسامحهم) ولا تعمد إلىٰ قتلهم أو استئصالهم جميعاً، وانها لم تعمد إلىٰ الشدة الا مع بعضهم فقط، كما كانت تصريحات معاوية ومخاطباته اياهم تتم دون إقامة أي اعتبار أو شأن لهم، لقد اعتبروا منذ البداية الطرف المعادي الأول للدولة، وما يشكّل الهاجس الأول لها الذي تضعه في أولوياتها وتحسب له كل حساب.

كما أن ذلك جعل تصرفات أهل الكوفة تتسم بالحذر حيال الدولة وجعلهم يبدون لها غير ما يكنون وينتهزون الفرص للانقضاض عليها، لأنها لم تُرهم في يوم من الأيام انها كانت إلىٰ جانبهم وأنها كانت عادلة معهم.

الروح القبلية

٧ - كان اتجاه الدولة الأموية يستهدف تعميق الروح القبلية لدىٰ أهل الكوفة وغيرهم أيضاً، وجعل شعور الانتماء للقبيلة غالباً علىٰ شعور الانتماء للإسلام نفسه، وكان ذلك من شأنه أن يجعل الكوفة بمجموعها كتلة كبيرة، إلا أنها هشة يستطيع الحاكم تفتيتها بكلمة منه.

ومن المعلوم أن الروح القبلية كانت هي الآصرة الوحيدة بين أبناء القبيلة قبل الإسلام، ولم تتح المدة الكافية بعد حكم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحتى تسلط معاوية علىٰ مقدرات المسلمين للقضاء علىٰ العصبية القبلية، حتىٰ جاء هذا فعمقها لغرض اثارة الخلافات والمشاكل بين الناس، وهذا ما يتيح له اضعاف كل مدينة وجعلها تنقاد له، كما يتيح له اصطياد معارضيه من بين أبناء القبائل مهما بدت قبيلته قوية ومتماسكة إذ أنه يجد له دائماً أعواناً وأنصاراً من أعدائها ومن أبنائها أيضاً.

وكان الاحتكاك القوي بين أبناء القبائل يولد مشاكل كثيرة تلجئهم إلىٰ الاستعانة

بأقاربهم، وقد روي (أن أهل الكوفة في آخر عهد علي، كانوا قبائل، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته، فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته، يا للنخع أو يا لكندة، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون يالتميم أو يالربيعة، ويقبلون إلىٰ ذلك الصائح فيضربونه فيمضي إلىٰ قبيلته فيستصرخها وتثور الفتنة)[1].

العريف.. والنقيب: توزع الولاء بين القبيلة والدولة

٨ - إن إنشاء نظام شبه عسكري يتمثل بالعرافة والنقابة وما شابههما تابع للدولة مباشرة، مع أن العريف قد يمارس عمله داخل قبيلته، إلا أن ارتباطه لا يكون مع رئيس قبيلة وإنما هو مسؤول عن أعماله امام الدولة مباشرة، من شأن ذلك أن يوجد تخلخلًا داخل القبيلة الواحدة ليتوزع ولاءها بين الدولة الممثلة بالعريف الحافظ للسجلات والموزع للعطاء وبين رئيس القبيلة، ويجعلها منقادة بالتالي للدولة.

كما أن توسيع جهاز الشرطة والشرطة السرية (العيون)، وهي فئة تدين بالولاء والطاعة لمن يدفع لها (الدولة)، مهما كانت توجهاتها، من شأنه أن يوجد مركزاً من مراكز القوة تضيفها الدولة إلىٰ رصيدها.

والرواية كيف تصرف المسؤول عن شرطة ابن زياد إبّان تخلّي جموع الكوفة عن مسلم وكيف استنفر العرفاء والجند والعيون لالقاء القبض عليه، وكيف عملوا بعد ذلك لإعداد العدّة لمواجهة الامام الحسين عليه السلام.

ولعل الشرطة والعرفاء هم أكثر من أخذ بجدية تهديدات ابن زياد، وقد انتموا إليه بحكم مناصبهم وكان ولاؤهم له وحده، لأنه المتحكم الأول بارزاقهم ومصائرهم ومستقبلهم، إذ أنهم لم يكونوا يرون مستقبلًا أو حياة إلا مع الدولة التي تدفع لهم.

وكان (العيون) الضمير الخفي الذي ثبّتته الدولة بديلًا عن الضمائر الحقيقية التي قد يفصح أصحابها عن أعمالهم ونياتهم، فلا يجدون من يحاسبهم أو يقف أمامهم سوىٰ ضمير الدولة المتجسس عليهم النافذ إلىٰ كل حلقات المجتمع.

كان من شأن العيون أن يظل الناس علىٰ حذرٍ في أفعالهم وأقوالهم ويشعروا أنهم في ظل مراقبة دائمة، وكان من شأنه منع الكثير من التحركات ضد الدولة أو

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٣٩.

كشفها في الوقت المناسب، وهو ما رأينا مصداقاً له مع العين الذي أرسله ابن زياد لكشف مسلم.

(ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى...) القانون الالهي المعطل

٩ - عمدت الدولة الاموية إلىٰ أسلوب يناقض الاسلوب الاسلامي السائد وحتىٰ غير الاسلامي مما لم يُتعارف عليه من قبل، وهو الأخذ علىٰ الشك والتهمة والظنة وأخذ القريب بالبعيد والولي بالولي والاب بابنه والابن بأبيه والعريف أو رئيس القبيلة بأحد أتباعه أو مسؤول الشرطة بمخالف للدولة... الخ

إن هذا القانون يجعل جميع الناس متَّهمين أمام الدولة، فالمتهم مجرم بنظرها حتىٰ براءته، وهو قانون تعسفي لم يكن جديراً بأن ينشأ إلا في ظل دولة كالدولة الأموية، وكانت بادرتها في هذا القانون مجالًا لدول أخرىٰ عديدة وحتىٰ يومنا هذا لتجعل منه سلاحاً ذا حدين، تقمع به معارضيها وتستميل إلىٰ جانبها من تشاء بكل يسر وسهولة.

ان شعور الفرد بأنه مسؤول عن أحد أفراد قبيلته، مع أنه قد لا يكون من ذوي الرئاسة أو الزعامة فيها، يزعزع آخر الحصون ويجعل الناس يرفعون رايات الاستسلام البيضاء أمام عنف الدولة وارهابها.

وإذ نجح هذا السلاح بقمع ثورة مسلم، توقع الجميع أن ينجح في جعل الناس يتخلَّون عن الإمام الحسين عليه السلام إذا ما قدم إلى الكوفة، وهو ما حصل بالفعل نتيجة ارهاب الدولة وممارساتها التعسفية بحق الناس مًما ولَّد ردود فعل كانت ذروتها الخوف الشديد منها.

المجتمع المستهدف بالظلم: مستنقع تنمو فيه الجرائم القاتلة

١٠ - ان مجتمعاً مستهدفاً بالظلم تبرز فيه ظواهر عديدة معظمها غير صحي وغير صحيح، فليس في هذا المجتمع أهمية لأي فرد الا بمقدار ما يقدمه من خدمات للدولة وإلا بقدر طاعته لها وتفانيه في خدمتها واتخاذه مقاييسها ومواصفاتها واعرافها قانوناً عاماً له، كون هذه الدولة (إسلامية) ترفع الشعارات العامة للإسلام، أكسبها ذلك سلاحاً تشهره علىٰ من يعترضون علىٰ تصرفاتها التي تستهدف تثبيتها ودعمها بالدرجة الأولى، وتحتج بأنها دولة مسلمة، مع أن قوانين الاسلام وتشريعاته آخر ما

تفكر بها، فهي تستبدلها بقوانينها هي مكتفية برفع اللافتة العامة الي تشير إلىٰ أنها دولة إسلامية، وكأنها تطلب من الناس ألّا يطلبوا منها غير ذلك.

وغالباً ما تنجح في مسعاها إذا كان معظم أبناء المجتمع مجردين من الرصيد الذي يجعلهم علىٰ اتصال مستمر بشريعتهم الاسلامية، وتتركز اهتماماتهم بالأمور الحياتية البسيطة التي لا تتيح لهم التطلع إلىٰ اهتمامات عامة أخرىٰ وينطبق عليهم وصف أمير المؤمنين عليه السلام بـ(الهمج الرعاع) الذين تتلاعب بهم قوىٰ التأثير وينعقون مع كل ناعق.

في مجتمع كهذا يسهل تجنيد الاغلبية بأقل الكلف والأثمان، وغالباً ما تجد من يتطوع ليكون عيناً علىٰ اخوانه حتىٰ دون مقابل سوىٰ نظرة رضا من زعيم أو شيخ قبيلة متنفّذٍ أو عريف أو نقيب أو حتىٰ أحد أفراد الشرطة العاديين.

وأصبح رئيس الدولة أو ممثله رمزاً وحيداً بديلًا حتىٰ عن الذي استخلف من قبله (اذا صح ما زعمه حقاً) وهو الله جل وعلا، وأصبحت رغباته واهواؤه هي القانون الوحيد، فكان رد الفعل الأول هو ألّا يعمد من يريد الاحتجاج علىٰ تصرفاته وانتهاكاته، إلىٰ اعلان ذلك صراحة، وأن لا يكون المكان الطبيعي لقوىٰ المعارضة الأماكن العامة المكشوفة المعروضة امام العيون والرقباء والجواسيس وأعوان الدولة، وان يعمد العديدون من أبناء المجتمع إلىٰ إظهار غير ما يكنّون وأن تكون مشاعرهم وشعاراتهم المعلنة غير تلك التي يعتقدون بها حقاً.

من هنا، ظهرت بوادر ازدواجية بالسلوك قد تكون الطابع المميز في مجتمع الظلم، وأصبح ذلك أحد وسائل الحماية من ظلم الدولة وجورها، وإذا ما استمرت حالة الظلم وذلك السلوك المزدوج، الواعي والمحسوب، في البداية، فإنه سيكون حالة سائدة تنطلق بلا وعي لتكون هي الحالة الشائعة في الأجيال القادمة فيما بعد.

وكأن الآباء الذين أرسوا ذلك بدافع من حماية الذات ضد الدولة الجائرة، واعتادوا عليه، وضعوا قانوناً لأبنائهم في هذا المجال.

ومن هنا نشهد اتهام مجتمع الكوفة دون غيره بظاهرة التقلب والتلون، ولا شك أنها نشأت في أعقاب تسلط الدولة الأموية علىٰ كل مقدرات المسلمين، ولم يكن غيرهم ـ ممن انحازوا للنظام الأموي ـ بحاجة إلىٰ ذلك وخصوصاً أهل الشام لأنهم

تبنوا مواقف وأهداف الدولة وأعلنوا ولاءهم المطلق لحاكمها منذ البداية دون قيد أو شرط ولأنهم كانوا نتاج تربيتها واعدادها منذ البداية.

تنوع الاتجاهات

١١ - في مجتمع غير متجانس عرقياً واجتماعياً ودينياً، مع أنَّ الدين السائد هو الإسلام والجنس السائد هم العرب، تبرز ظواهر صراع واختلاف وعصبية، ويسهل النّفاذ إلىٰ أدق مفاصل هذا المجتمع وعناصره بمساعدة العناصر الأخرىٰ التي لا يستطيع أحد أن يحكم بتوحد مصالحها واتجاهاتها.

فقد ضم مجتمع الكوفة عرب اليمن وهم الأغلبية، كما أوضحنا من قبل، وعرب الجزيرة من القرشيين والبدو ونصف المتحضرين والمتحضرين العرب المسلمين والنصارى واليهود، ومنهم الفرس من المسلمين وغيرهم، وكانوا أكبر جالية سكنت الكوفة وربما بلغ عددهم نصف عدد سكانها فيما بعد، والانباط والسريان وغيرهم أيضاً.

وكان من ضمن المسلمين أعوان الدولة الأموية ومموالوها وحزبها، والخوارج، وموالو آل البيت.

كانت الكوفة مركزاً لأكبر تجمع في ظلّ الإسلام، شاركت فيه تلك الاعداد الهائلة لدوافع وأهداف مختلفة، وقد رأينا السبب الذي من أجله أقيمت الكوفة كحامية ضمت محاربي الاسلام وكيف توسعت وانضم إليها من رأىٰ أن مصلحته تقتضي العيش في هذه المدينة التي بدا انها تحتاج إلىٰ خدمات عديدة، وأن جيوب أبنائها تحتاج إلىٰ أن تنفق ما ملئت به من ذهب أو فضة.

في مجتمع كهذا تتوالد حالات هجينة وعادات غريبة وقيم غير مألوفة وانماط غير معروفة من السلوك والتعامل، في مجتمع شهد ازدهاراً نسبياً في الحياة الاقتصادية وتغييراً في الحياة الاجتماعية، وكان بشكل عام لا يخضع لتوجهات الدولة وإرادتها، ولذلك رأت هذه الدولة ضرورة اختراقة والتغلب عليه، وقد فعلت ذلك بتشجيعه علىٰ إظهار كل ممارساته السلبية كالعصبية وتبني مواقف دولة الظلم والانخراط في وظائفها العامة كالعرافة والشرطة مرتزقة ومأجورين.

ولو أننا تتبعنا طبيعة التركيبة الاجتماعية لأهل الكوفة ـ عند ورود مسلم إليها ـ لرأينا أن عموم الناس فيها من غير المؤثرين، ومن الذين يميلون مع كل ريح وينعقون

مع كل ناعق، وهم طبقة السذج والبسطاء وعوام الناس الذين لا يحملون أدنىٰ شعورٍ بالمسؤولية وينجرفون مع الاحداث وصنّاعها ويميلون مع أهوائهم ورغباتهم، ان من هؤلاء ورغباتهم، منهم طبقة، مستضعفة مسحوقة مضطهدة لا تتاح لها وسائل العيش الكريم أو وسائل التعبير عن احاسيسها ورغباتها وآرائها.

أما اشراف الناس ورؤساؤهم والذين يقفون في قمة المجتمع ويطمحون باضافة شرف إلىٰ شرفهم بالتقرب من الطبقة الحاكمة العليا، ولأن هذا الشرف مرهون بموقفهم منها فعلًا فهم يتسابقون إلى خدمتها، وهؤلاء خليط من رؤساء القبائل والشرطة والعرفاء والحاشية والاثرياء وأبناء الأثرياء والوجهاء وقادة الجيش وأبناء المتنفِّذين وذوي الجاه القديم والصيارفة والمحتالين واللصوص والجواسيس وغيرهم.

ان أكثرهمُ شرفاً وجاهاً يرىٰ أن مركزه أقل من مركز أي نديم لقائد الدولة أو صعلوك اصطفاه وكيله في الكوفة ليكون عيناً له أو شرطياً في خدمته أو عريف يحصي علىٰ الناس حركاتهم وسكناتهم.

كانت عروش الاشراف كارتونية ضعيفة تدافعت وتزاحمت تحت عرش واحد رأته جديراً بالخدمة هو عرش الحاكم، وعرشه فقط.

وهكذا جاء تساقطهم السريع بين براثنه وتسابقهم لخدمته دون أي حساب لمقوّمات الشرف الحقيقي الذي يحث عليه الإسلام.

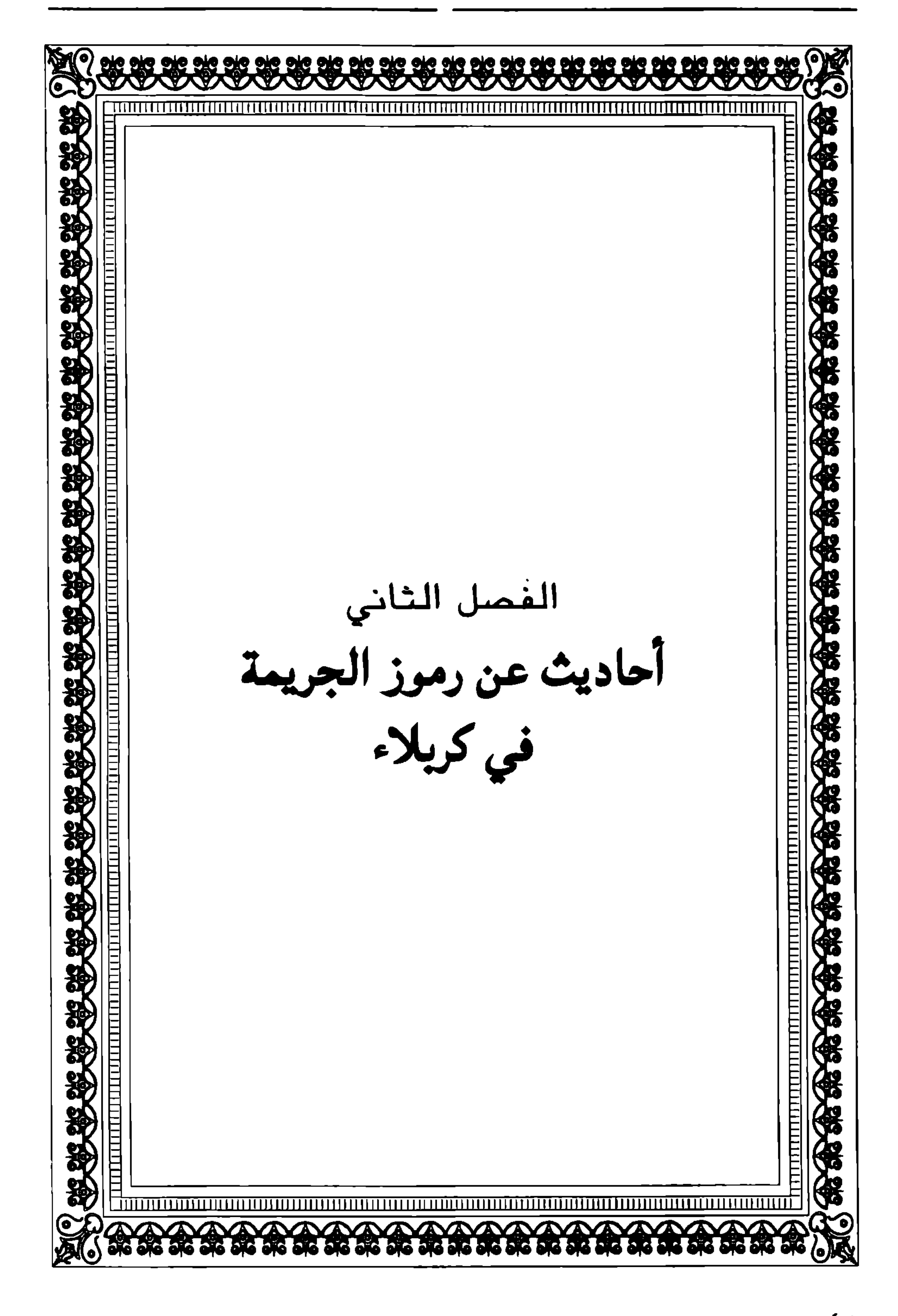
ورأس السلطة في الكوفة كما رأينا هو ابن زياد، وقد جاء خلفاً للنعمان بن بشير خصيصاً لقمع ثورتها ضد الدولة، ويكاد يكون (مهران) خادمه ومستشاره ومربيه ووزيره في نفس الوقت.

ولا ننسى هنا أن نشير إلىٰ وجود فئة مؤثرة واعية وقوية، غير أنها ربما تجبر على الصّمت في ظل أوضاع وظروف استثنائية قاسية، وربما كانت هذه من بين فئة العوام المسحوقين المضطهدين أو رؤساء القبائل أو الوجهاء المتنفّذين، غير أنها كانت تتمتع بقدر من الحس والادراك والوعي والعلم ممّا جعلها قادرة علىٰ تقييم موقف الدولة برمته والوقوف منه الموقف المناسب، تلك الدولة التي سيطرت علىٰ الأمة فسلبتها حقوقها وتصدت للأئمة الحقيقيين عليهم السلام وأعلنت الحرب عليهم،

وهكذا كانت هذه الفئة غالباً ما تلجأ إلىٰ اثارة الناس علىٰ الحكم الظالم وتدعو لآل البيت عليهم السلام ونهجهم في الحكم والحياة.

وقد شهدنا نماذج عديدة من هؤلاء ذهبوا في ذلك إلىٰ حد الاستشهاد، رغم أن الدولة لم تستطع أن تفعل شيئاً حيال الكثيرين منهم لاستسلامهم الظاهري لها وعدم ابداء العداوة المعلنة، ومع ذلك فإنها لجأت إلىٰ اعتقال الآلاف منهم بُعيد القضاء علىٰ ثورة مسلم وتوقع قدوم الإمام الحسين عليه السلام إلىٰ الكوفة.

ولا بد لنا ـ عند التحدث عن مجتمع الكوفة في عهد يزيد ـ من استعراض نماذج معينة من أعوان السلطة ممن كان لهم تأثير في مجرىٰ الأحداث التي تزامنت مع ثورة الحسين عليه السلام، لتكوين صورة واضحة عن أحداث تلك الفترة العصيبة، وسنتناول بايجاز عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن.



الفصل الثاني

أحاديث عن رموز الجريمة في كربلاء

عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة الأموي

نتيجة طبيعية لانحراف الحكم

يمثل ابن زياد أحد رموز مجتمع الظلم الذي لا سيادة فيه لقانون الاسلام، وإنما لرغبات الحاكم ونزواته وأهوائه.

ومع أنه أحد أعوان الظالم الذي يتصرف وحيداً بأمور الدولة - يزيد - والذي يستأثر بالسلطة لنفسه ويخطط لجعلها في أولاده وذريته من بعده؛ إلا أنّ ابن زياد بتبنّيه قضية ذلك الظالم واعتبارها قضيته الشخصية، واعتبار أي خروج عليه خروجاً عليه هو ومساً بكرامته وحقوقه المزعومة المكتسبة بحكم الولاء وبجعل نفسه جزءا من يزيد.

ويبذل أقصىٰ جهوده في سبيل استرضائه وكسب وده الذي كان قد فتر وخف في الفترة القليلة السابقة، بذلك كلّه جعل من نفسه جزءاً أساسياً من دولة الظلم ورأىٰ أن وجوده ضروري لإدامتها واستمرارها.

وهكذا جعل يزيداً مثلًا أعلىٰ له، بدل المثل الأعلىٰ الحقيقي الذي كان ينبغي أن يستجيب له استجابة حرة واعية في ظل أوضاع سليمة يسود فيها الإسلام حقاً، فكان يزيد سيده ومولاه وصاحب القوة الوحيد بنظره.

ومع أنه قد شخّص كأشد الظالمين عنفاً وشراسة في التاريخ الإسلامي، إلا أنه لم يعد - حتىٰ بنظر نفسه - باستجابته الذليلة لسيده يزيد، سوىٰ أحد أعوانه الكثيرين الَّذين تخلّوا عن ارادتهم طواعية له، واندفعوا لتنفيذ خططه وبرامجه دون تحفظ ودون تساؤل عن طبيعتها ومغزاها.

ولربما أَلقىٰ تبعة أعماله وتصرفاته علىٰ يزيد - لو كانت الظروف غير الظروف التي مارس فيها ظلمه - أو كان قد وفد علىٰ ربه وساءله عن سبب الظلم الذي أقدم عليه.

وقد اعتذر فعلًا، - بعد ذلك - عن أفعاله المشينة التي ارتكبها وفي مقدمتها

اقدامه على قتل الحسين عليه السلام، فقد (قال لأحد أصحابه بعد هلاك يزيد: أما قتلي الحسين فإنه أشار علي به يزيد بقتله أو قتلي، فاخترت قتله)[1].

لم يقل أنه كان يختلف مع الحسين عليه السلام في المواقف ووجهات الرأي، وأنه أقدم على فعلته لأن الحسين عليه السلام كان يشق وحدة المسلمين وصفهم، وأنه قام بما قام به لأنه كان يعتقد صواب موقفه، وأنه كان عملاً خالصاً لله، وأنه كان يريد به جمع وحدة المسلمين خلف امام عادل كيزيد، وانه كان مقتنعاً حقاً بعدالته واستقامته، وإنما كان كل ما استطاع الاعتراف به هو أنه كان يستجيب ليزيد تحت وطأة الخوف على حياته، لأن يزيد كان بنظره مصدر القوة الوحيد القادر على إنهاء تلك الحياة أو جعلها تمتد إلى مستقبل أفضل في ظله.

كان ابن زياد نتيجة طبيعية لانحراف الحكم وابتعاده عن خط الاسلام، كما كان يزيد بالضبط، وقد كان أحد الذين يهمهم الحفاظ على مصالح هذا الحكم وامتيازاته وسلطانه لأنه يستمد منه مصالحه وسلطانه هو.

وقد رأينا تبجّحاته وصلفه امام مسلم وزين العابدين وزينب بعد ذلك، وهي تبجحات من لم يعتقد بالله أبداً ولم يؤمن به ولم يحسب أي حساب لموت أو آخرة أو جزاء.

ابن زياد: بين دناءة الأصل ورفعة المنصب

ولو شئنا الحديث عن نسبه لقلنا أنه عبيدالله بن زياد بن أبيه، أو ابن سمية، البغي المشهورة في الجاهلية، وقد رأينا كيف استلحق معاوية أباه بأبيه، أبي سفيان، بعد أن رأى مصلحة في ذلك، ضارباً عرض الحائط بقوانين الاسلام وأعراف العرب على السواء.

ففي خطبة الغدير نفسها، تلك الخطبة التي جعل فيها الرسول صلى الله عليه وآله ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام على كل من يؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وآله، وصرح بواضح القول أمام أكبر تجمع للمسلمين في عهده بعد أن أخذ بيده ورفعها أمامهم (من كنت مولاه فعلي مولاه.. اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الاثير ٣/ ٤٧٤.

في تلك الخطبة نفسها التي اشتملت على توصيات وتحذيرات عديدة ورد قوله ﷺ، وكأنه يرىٰ المستقبل ببصيرته وعلمه الذي علّمه اللّه: (لعن الله من ادّعىٰ إلىٰ غير أبيه، ولعن الله من تولىٰ غير مواليه، الولد للفراش وللعاهر الحجر)[1].

وكان الذي حذر منه الرسول ﷺ قد وقع، وكأنه كان يبدو بشكل متعمد، يحاول مخالفة البنود والتوصيات والتحذيرات التي وردت في خطبة الغدير.

وهذا الإستلحاق ـ الذي كشف جوانب فضيحة الزنا التي ارتكبها أبو سفيان وسمية أم زياد في الجاهلية ـ حدث في زمن الاسلام، وبعد حوالي نصف قرن من وفاة الرسول ﷺ فقط، يعيد قانوناً جاهلياً مندثراً الغاه الاسلام، ويشكل استهتاراً مطلقاً بكل أحكام الله وتشريعاته، كما يشكل استهانة بالأمة الإسلامية وكأنها لا شيء أمام رغبة معاوية وزياد ومصالحهما.

وكان لذلك أثر نفسي علىٰ الجميع، فالمستلحَق ملعون علىٰ لسان نبي الاسلام ﷺ، والأمة ترى ذلك الانتهاك يقع من قبل أكبر مسؤول في الدولة الاسلامية والذي يفترض فيه أن يكون أميناً علىٰ تطبيق كل شرائع الاسلام الذي يحكم باسمه وقد نصب نفسه خليفة لرسول الله ﷺ.

ولم يكن زياد غبيّاً لكي لا يدرك الجانب الضعيف من المسألة كلها، وانها لا تعدو ان تكون مسرحية هزلية ابطالها معاوية وهو، وأنها مهما بلغت من قوة الحبكة وجودة الحوار والتمثيل، فإنها لن تستطيع بالتالي اقناع الناس بشرعية مولده وانتمائه الصحيح لأبي سفيان، الذي لا يشرف المرء حقاً الانتماء اليه، وانها لن تكون الا مدعاة لجلب المزيد من السخرية والاستهزاء به، مهما بدا مخيفاً ومهماً أوغل في البطش والقتل وسفك الدماء.

(١) رواه الطبري/ الزوائد ٤/١٥ عن زيد بن أرقم قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بغدير خم ونحن نرفع غضن عن رأسه فقال...» ثم ساق الحديث. وروىٰ الحديث أحمد عن امامه قال (قال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر... ومن ادعىٰ إلىٰ غير أبيه أو انتمىٰ الىٰ غير مواليه فعليه لعنة الله إلىٰ يوم القيامة» رواه أحمد في الفتح الرباني ٢١٨، وروىٰ أحمد والشيخان في الفتح الرباني في ١٧/٤١ أن أبا عثمان لقي أبا بكره فقال له: ما الذي صنعتم؟ اني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول سمع باذنه من رسول لله ﷺ وهو يقول: ومن ادعىٰ أبا في الاسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام، فقال أبو بكرة: وأنا سمعت رسول الله ﷺ كذلك.

نظرة السخرية والاستنكار من المجتمع التي لا يستطيع زياد مقابلتها بنظرة مثلها، أو بنظرة واثقة تدل علىٰ النسب الصحيح، قد تدفعها وتكفُّها يد غادره قاتلة تمسك السيف والسوط معاً. . .

ولم يكن عبثاً جدّية ابن زياد وعبوسه ولجوئه إلىٰ الارهاب والقسوة، إنه يفرض بذلك على كل فرد الاعتراف بطهارة مولده وصحة نسبه، ويعوّض عن نقصه بلجوئه لتلك القسوة المعلنة التي اشتهر بها، واشتهر بها ابنه عبيد الله فيما بعد.

ولا شك ان عقدة ذلك النسب المغشوش قد انتقلت من الأب إلىٰ ابنه، يضاف إلىٰ ذلك ما لحق هذا الولد من أمه مرجانة المجوسية التي عرفت بالبغي أيضاً، والتي طلقها «زياد» فتزوج بها شيرويه، وقد نشأ زياد في بيت شيرويه هذا.

وتدل حادثة ورويت عرضاً ـ ان ابن زياد ـ ربما تعرض لمن يسخر منه ومن نسبه.

وإنها ربما لم تكن المرة الأولىٰ التي يتعرض فيها لذلك، وربما كان ذلك في صغره أكثر، قبل أن يكون له جاه وسطوة ونفوذ.

قال له عبيد الله بن ظبيان التيمي، في معرض الاستهزاء به: (يرحم الله عمر بن الخطاب، كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الزانيات وابناء الزانيات!

فقال عبيد الله بن زياد بن أبيه: يرحم الله عمر كان يقول: لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلّا خرج مائقاً)[1].

لم يستطع دفع التهمة عن أمه أو مقابلتها بمثلها، وكل ما استطاع قوله لمن رمىٰ أمه بالزنىٰ هو أن أمه حمقاء.

هل يستطيع أحد أن يدعي أن نشأة ابن زياد لم يكن لها تأثير علىٰ نفسه وتصرفاته في أي وقت من الأوقات. .؟ وان سليل الدنس والزنا كان لا يتصدىٰ بدافع عقدة النقص هذه، لسلالة الطهر والقداسة. .؟

القسوة المفرطة تعبير عن الشعور بالنقص

لقد عرفنا من هو زياد، وكيف اشتهر بالقسوة والظلم والأخذ علىٰ الشبهة والشك والظن، واعتمد ذلك قانوناً بديلًا عن قانون الاسلام العادل.

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ٢ - ٢٤٢.

وما كان عبيد الله إلا كزياد في هذا الأمر ـ كما عبر هو عن ذلك لأهل البصرة قبيل مغادرتها استجابة لأمر يزيد بالتصدي للإمام الحسين عليه السلام والعمل علىٰ قتله ـ (أنا ابن زياد، اشبهته من بين من وطىء الحصىٰ، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم)[1]

وأكمل تهديده لأهل البصرة بعد أن قتل رسول الحسين عليه السلام إليها قائلاً: (فهوالذي لا اله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنّه وعريفه ووليه ولآخذن الأدنىٰ بالاقصىٰ حتىٰ تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق)[2].

وفي خطابه نلمس اصراره علىٰ استعمال نهج أبيه من قبل، بل واستعمال نفس كلماته، كان أبوه قد قال في أول خطبة له في أهل البصرة من قبل:

(وإني أقسم بالله لآخذ الولي بالمولي، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم[3].

لقد تشبّه به فعلاً في ظلمه وقسوته وخروجه المتعمد علىٰ قوانين الاسلام، كما في خضوعه ليزيد، كما خضع ذاك لمعاوية.

كانت قسوته تلك قد لجأ إليها مع كل الذين كان يحتمل أن يتصدوا لدولة الظلم الأموية بالقول أو الفعل، وفي دوامة السعي للحفاظ علىٰ تلك المملكة التي أسسها معاوية لولده، راح ابن زياد يتعقب كل رافضي تلك المملكة وأعدائها مهما كانت توجهاتهم وغاياتهم، لم يهمه من أمرهم سوى أنهم كانوا أعداء له.

(روي أن قيس بن خرشه وفد علىٰ النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، أبايعك علىٰ ما جاءك من الله، وعلىٰ أن أقول بالحق فقال له النبي صلى الله عليه وآله: عسىٰ أن يكون عليك من لا تقدر علىٰ أن تقوم معه بالحق وفي رواية: يا قيس عسىٰ أن مد بك الدهر أن يليك بعدي ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم)[4]، فقال قيس: والله لا أبايعك علىٰ شيء إلا وفيت لك به، فقال النبي صلى الله عليه وآله: إذاً لا يضرك شيء).

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨١ وابن الأثير ٣/ ٣٨٨ وابن كثير ٨/ ١٦٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الطبري ٣/ ١٩٧.

(٤) رواه الطبراني (كنز العمال) ١٩٠ـ ١١.

فكان قيس يعيب زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله، وكان يقول: قال لي النبي ﷺ: لا يضرك شيء، فارسل إليه عبيد الله بن زياد وقال له: أأنت الذي تزعم أنه لن يضرك شيء؟ فقال: نعم، قال: كذبت أنت تفتري علىٰ الله ورسوله، فقال: لا والله ولكن إن شئت اخبرتك بمن يفتري، قال ابن زياد: ومن هو؟ قال: من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله، قال: ومن ذاك؟ قال: أنت وأبوك ومن أمركما.

قال ابن زياد: لتعلمنَّ اليوم انك قد كذبت، وصاح قائلًا: ائتوني بصاحب العذاب، فمال قيس عند ذلك فمات)[1] ولم يضره ابن زياد، ولعل الأجل قد امتد به تلك الساعة حتىٰ يُسمع الجلاد رأي الاسلام فيه، ولعل موته في تلك الساعة كان يشكل معجزة من معاجز رسول الله ﷺ تأخر ظهورها حتىٰ تلك اللحظة، لتلفت نظر أولئك الذين أعرضوا عن الاسلام وفي مقدمتهم ابن زياد نفسه، غير أن لسلطان الهوىٰ والانحراف غشاوة تعمي القلوب والأبصار.

وثمة أمر تلفت هذه الحادثة نظرنا إليه، لم نسمع عنه من قبل وهو ان لابن زياد مرتزق بوظيفة (صاحب العذاب) وهو من يقوم بتعذيب من لا يرضىٰ عنه، وهي بادرة خطيرة في (الدولة الاسلامية) جعلت منها الانظمة التسليطية المشابهة سيفاً سلطته فوق رؤوس الناس، فلم تكتف بقتلهم وقطع ارزاقهم وانما عمدت إلىٰ هذا الأسلوب الشائن في معاملة البشر.

لقد لجأ زياد من قبل إلىٰ هذا الأسلوب حينما سمل عيون معارضي الدولة وصلبهم علىٰ جذوع النخل، غير أنه ربما لم يستحدث وظيفة مخصوصة لهذا الغرض.

وربما كان ابن زياد أبرع من أبيه في هذا المضمار إذ جعل هذه الوظيفة دائمية لعل صاحبها يتفنَّن بمهنته ويتقنها إلىٰ الحد الذي يحقق طموح الجلاد ويسعده.

ابن زياد كان مرشحاً من قبل معاوية للتصدي للحسين عليه السلام

وغالباً ما يغطي أعوان فرعون ضعفهم واستسلامهم لفرعون بالافراط في القسوة والتظاهر بها أمام المجتمع.

---

(١) معالم الفتن ـ سعيد أيوب ط ١ دار الكرام ١٤١٤هـ ٢٣٠ـ ٢٣١ عن السيوطي قال: (اخرجه الطبراني والبيهقي (الخصائص الكبرىٰ ٢/٢٥٤) وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده وقال ابن حجر رجاله ثقات (الاصابة ٥/٢٥٠).

كتب يزيد مهدداً ابن زياد وهو يصدر إليه أمر التصدي للإمام الحسين عليه السلام ، وكانت لهجته تدل علىٰ أنه ربما يلغي القرار الذي أصدره معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان، وتدل أيضاً علىٰ أن يزيد نفسه وحتىٰ ابن زياد ما كانا يريان القرار يتمتّع بأي قدر من الشرعية أو الواقعية.

(انه قد بلغني أن حسينا قد سار الىٰ الكوفة، وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليت أنت به من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما ترقُّ العبيد وتعبّد)[1].

لقد انتدب يزيد ابن زياد لهذه المهمة الصعبة، وهو يعلم أنه سيستجيب له استجابة مطلقة، وسيعمل علىٰ إرضائه كما يعمل العبد علىٰ إرضاء سيده، وقد وضعه في محك شديد يختبر فيه اخلاصه وطاعته.

وقد كان معاوية وسرجون ـ وزير الدولة ومستشارها ـ يتوقعان هذا اليوم من قبل، ويدركان الثورة المرتقبة علىٰ يزيد.

ويبدو من مجمل أوضاع ابن زياد وحرصه علىٰ تولي منصب أبيه، أنه كان موضع دراسة فاحصة من قبل معاوية ومستشار دولته، وقد رأيا أنه الرجل المناسب للقيام بهذه المهمة، ما دام قد وضع هدفاً وحيداً أمامه وهو نيل الامارة الواسعة في ظل سيده وابن عمه المزعوم.

وكانت مسألة تكليفه مدبرة قبل موت معاوية واستخلاف يزيد، الذي دعا مستشار الدولة سرجون (فأخبره الخبر. فقال له: أَكنت قابلًا من معاوية لو كان حياً؟ قال: نعم. قال: فاقبل مني، فإنه ليس للكوفة الا عبيد الله بن زياد فولها اياه.

... وأخرج عهداً مكتوباً من قبل معاوية لابن زياد علىٰ الكوفة، فقال: هذا

(1) ابن كثير ٨/ ١٦٧ والعقد الفريد ٥/ ١٢٧، وقد ذكر الطبري أنه ذكر في رسالته اليه (... أنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس علىٰ الظن، وخذ علىٰ التهمة...) ٣/ ٢٩٣. ولعل لسرجون كاتب معاوية ووزيره، ثم وزير يزيد بعد ذلك اليد الطولىٰ بمثل هذه التوجيهات والقرارات الصادرة عن يزيد، لأنه لا تبدو فيها أية مسحة إسلامية أو ظل لقانون أو مبدأ اسلامي... وسرجون كما هو معلوم من نصارىٰ الشام.

رأي معاوية ومات وقد أمر بهذا الكتاب، فأخذ برأيه وضم المصرين (الكوفة والبصرة) إلىٰ عبيد الله، وبعث إليه بعهده علىٰ الكوفة)[1].

كان عبيد الله بعد وفاة أبيه حريصاً علىٰ الولاية والإمارة، لأنّه قد أتيحت له فرصة التمتع بالملذات والامتيازات الاستثنائية في ظل إمرة أبيه نفسه الذي أخذه من أمه ومن زوجها شيرويه المجوسي الذي قضىٰ طفولته في أحضانه وتربىٰ علىٰ يديه.

ويدل علىٰ أصله ومنشئه في بيت أمه مرجانة وزوجها شيرويه لهجته ولكنته غير العربية، واستعماله التكلف لبعض الاصطلاحات والكلمات العربية في غير مواقعها المناسبة (وإنما أُتي عبيد الله بن زياد في ذلك أنه نشأ في الأساورة عند شيرويه الأسواري زوج مرجانة أمه)[2] وكان لهذا السبب (يرتضخ لكنة فارسية من قبل زوج أمه شيرويه الاسواري)[3].

وقد وجه الخطاب إلىٰ هانيء بن عروة، أحد وجوه الكوفة ـ بعد أن قبض عليه بحيلة غادرة، متَّهماً إياه بأنه خارجي، وهي حجة تشهر بوجه كل من يقف بوجه الدولة ـ قائلًا له: (أهروري منذ اليوم) يريد (أحروري)، وهذه الهاء تشترك في قلبها من الحاء أصناف من العجم)[4].

(وكان يقلب القاف كافاً)[5] وقد قال يوماً: (من كاتلنا كاتلناه، يريد: من قاتلنا قاتلناه)[6].

ولا شك أن لإبن زياد بعض المواهب الاستثنائية في بعض أمور الحياة والحكم والسياسة علىٰ طريقة معاوية وزياد، ولا شك أن ذلك الأسلوب الجاهلي الذي يعتمد

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٠ وابن الأثير ٣/ ٣٨٧. وروي في العقد الفريد أن يزيد استشار جماعة من أهل الشام فقال: (يا أهل الشام، اشيروا عليَّ، من أستعمل على الكوفة؟ فقالوا: ترضىٰ من رضي به معاوية؟ قال: نعم. قيل له: فان الصك بامارة عبيد الله بن زياد علىٰ العراقين قد كتب في الديوان. فاستعمله عليها فقدمها قبل أن يقدم الحسين) ٥ـ ١٢٦.

(٢) البيان والتبين ١/ ٧٣ والأساورة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً، كالأحامرة في الكوفة . . .

(٣) العقد الفريد ٢/ ٣٠٧ والكامل في الأدب ٢/ ١٦٢.

(٤) الكامل في الأدب ٢/ ١٦٣ والبيان والتبيين ١/ ٧٢.

(٥) البيان والتبيين ١/ ٧٣.

(٦) ابن كثير ٨/ ٢٨٤.

المصلحة ويتجرد من كل القيم، قد أشهر بوجه الأسلوب الاسلامي المستقيم فكان له شأنه الكبير في جعل الانحراف يتخذ أبعاداً مشروعة لأنَّ الذي تبنوه هم أركان الدولة، وقد وجدوا من بين فقهاء الدولة ووعاظها المأجورين من يبرر لهم ذلك.

ففي المقاييس الأموية يبدو ابن زياد موهوباً وبارعاً إلىٰ الحد الذي يعجب معاوية نفسه، ومع ذلك كانت لمعاوية مؤاخذة واحدة عليه وهي لكنته غير العربية.

روىٰ أبو الحسن قال: (أوفد زياد عبيد الله بن زياد إلىٰ معاوية، فكتب إليه معاوية: «ان ابنك كما وصفت، ولكن قوِّم من لسانه» وكانت في عبيد اللّهُ لكنة، لأنه كان نشأ بالأساورة مع أمه «مرجانة» وكان زياد قد زوجها من شيرويه الأسواري [ودفع إليها عبيد الله][1]، وكان قال مرةً: «افتحوا سيوفكم» يريد سُلّوا سيوفكم، فقال يزيد بن مفرغ:

ويومَ فتحت سيفك من بعيد أضعتَ وكل أمرك للضياع

وقال لسويد بن منجوف: اجلس علىٰ است الأرض، قال سويد: ما كنت أحسب أن للأرض أستاً)[2].

بين معاوية وابن زياد: محاورات ومداولات

لقد انتدب يزيدٌ ابن زياد لمهمة التصدي للحسين عليه السلام وقمع الثورة التي بدأت تلوح ضد النظام الأموي المنحرف، وكان يعلم أنه سيستجيب له استجابة ذليلة، وسيعمل علىٰ ارضائه كما يعمل العبد علىٰ إرضاء سيده، وقد وضعه أمام محك صعب اختبر فيه إخلاصه وطاعته التي لم تكن موضع شك في أي حال من الأموال.

كان ابن زياد بنظر معاوية رجل الدولة الناجح الذي يمكن أن يقف خلف ابنه يزيد ويدعم ملكه بعد أن يودّعه هو ويتركه وحيداً لادارة شؤون أكبر أمة وأكبر دولة في ذلك الحين.

ولم يكن عبثاً أن يرسله زياد إليه، فهو كان يريد أن يعهد إليه معاوية بإمارةٍ من اماراته العديدة الممتدة علىٰ أكثر بقاع الأرض.

---

(١) المعارف ـ ابن قتيبة ١٥١.

(٢) البيان والتبين/ ٢/ ٤١٠ـ ٤١١.

وقد رويت لنا قصص عديدة نرىٰ من مجملها أن معاوية أراد منذ البداية مساومة ابن زياد وشراءه بعقدٍ لا رجعة فيه.

روىٰ لنا الطبري عن مسلمة بن محارب ومحمد بن ابان القرشي، قالا:

(لما مات زياد، وفد عبيد الله إلىٰ معاوية فقال له: من استخلف أخي (يقصد زياد) علىٰ عمله بالكوفة؟ قال: عبد الله بن خالد بن أسيد، قال: فمن استعمل علىٰ البصرة؟ قال: سَمرة بن جندب الفزاري: فقال له معاوية: لو استعملك أبوك استعملتك.

فقال له عبيدالله: أنشدك الله أن يقولها إليّ أحدٌ من بعدك: لو ولّاك أبوك وعمّك ولّيتك.

فلما قال له عبيد الله ما قال ولّاه خراسان، ثم قال له حين ولّاه:

«إذا عزمت علىٰ أمر فأخرجه للناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرحض عليك وأنت تستطيع، وسار عبيد الله إلىٰ خراسان في آخر سنة ثلاث وخمسين وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة من الشام، وعليه عمامة وكان وضيئاً، والجعد بن قيس ينشده مرثيّة زياد). [1]

وربما كان ابن زياد يرىٰ أن معاوية سيجعله مكان أبيه حتماً وربما لم يكن عنده شك بذلك، إلا أن جواب معاوية جعله يدرك أن بالإمكان اهماله، وهو ما جعله يتنازل إلىٰ الحد الذي يستعطف فيه معاوية لتوليته وتكليفه بالإمارة، وهذا ما أتاح لمعاوية أن يجعله متفانياً في خدمته وإرضائه بشتىٰ السبل.

ولعل الذي يؤيد هذا الرأي ما رواه الاندلسي عن ابن دأب قوله:

(لما قدم عبيد الله بن زياد علىٰ معاوية بعد هلاك زياد، فوجده لاهياً عنه، انكره، فجعل يتصدىٰ له بخلوه ليُسبّر من رأيه ما كره أن يشرك به عمله، فاستأذن عليه بعد انصداع الطلاب وإشغال الخاصة وافتراق العامة، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو فيه بنفسه، ففطن معاوية لما أراد، فبعث إلىٰ ابنه يزيد وإلىٰ مروان بن الحكم وإلىٰ

(١) الطبري ٣/ ٢٤٢ـ ٢٤٣ فيكون عمره عام ٦١ وهي السنة التي أقدم فيها علىٰ جريمة قتل الحسين وأصحابه ثلاثة وثلاثين عاماً. لا كما ذكر بعض الباحثين أن سنّه في ذلك العام كانت إحدىٰ وعشرين سنة...

سعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن الحكم وعمرو بن العاص، فلما اخذوا مجالسهم أذن له، فسلم ووقف واجماً يتصفَّح وجوه القوم ثم قال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد عسف بنا ظن فرّع، وفَزَع صدّع، حتىٰ طمع السحيق، وبئس الرفيق، ودب الوشاة بموت زياد فكلّهم متحفّز للعداوة. . . وقد شمرَّ عن أعطافه ليقول: جنى زياد بما استلحق به، وولىٰ علىٰ الدنيّةِ من مستلحقه، فليت أمير المؤمنين سَلِم في دعته، وأسلم زياداً في صنعته، فكان ترب عامته وواحد رعيَّته، فلا تشخص إليه عين ناظر ولا أصبع مشير، ولا تزلق عليه السن كلمته حياً ونبشته ميتاً، فإن تكن يا أمير المؤمنين حابيت زياد بولاء رفات، ودعوة أموات فقد حاباك زياد بجد هصور وعزم جسور، حتىٰ لانت شكائم الشرس، وذلت صعبة الأشوس، وبذل لك يا أمير المؤمنين يمينه ويساره، تأخذ بهما المنيع وتقهر بهما البزيع، حتىٰ مضىٰ والله يغفر له، فإن يكن زياد أخذ بحق فانزلنا منازل الأقربين يا أمير المؤمنين، نمشي الضراء وندب الخفاء، ولنا من خيرك أكمله، وعليك من صوبنا أثقله، وقد شهد القوم، وما ساء في قربهم ليقروا حقاً، ويردوا باطلًا، فإن للحق مناراً واضحاً، وسبيلًا قصدا، فقل يا أمير المؤمنين بأي أمريك شئت، ولا نستكثر بغير حقنا. . .

فنظر معاوية في وجوه القوم كالمتعجب، فتصفحهم بلحظة رجلًا رجلًا، وهو متبسم، ثم اتجه تلقاءه وعقد حبوته وحسر عن يده وجعل يومي بها نحوه، ثم قال معاوية:

قد صفقت يداي في أبيك صفقة ذي الخلة من ضوارع العضلان، عامل اصطناعي له بالكفر لما أوليته، فما رميت به إلا انتصل، ولا انتضيته إلا غلّق جفنه، وزلت شفرته، ولا قلت الا عاند، ولا قمت إلّا قعد، حتىٰ اخترمه الموت، وقد أوقع نجتره، ودل علىٰ حقده، وقد كنت رأيت في أبيك رأياً حضره الخطل، والتبس به الزلل، فأخذ مني بخط الغفلة، وما أبرِّىء نفسي، إن النفس لأمّارة بالسوء، فما برحت هناة أبيك تحطب في جبل القطيعة حتىٰ انتكث المبرم، وانحل عقد الوداد، فيا لها توبة تؤتنف من حوبه أورثت ندماً أسمعَ بها الهاتف وشاعت للشامت، واراك تحمد من أبيك جداً وجسوراً، هما أوفيا به علىٰ شرف التقحم، وغمط النعمة، فدعهما فقد اذكرتنا منه ما زهّدتنا فيك من بعده، وبهما مشيت الضرّاء، ودببت الخفاء، فاذهب إليك، فأنت نجل الدّغل وعترة النّغل والأخرش.

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، ان للشاهد غير حكم الغائب، وقد حضرك زياد، وله مواطن معدودة بخير، لا يفسدها التظني، ولا تغيّرها التهم، وأهلوه أهلوك، إلتحقوا بك وتوسطوا شأنك، فسافرت به الركبان، وسمعت به أهل البلدان، حتىٰ اعتقده الجاهل، وشك فيه العالم، فلا يتحجر يا أمير المؤمنين ما قد اتّسع وكثرت فيه الشهادات، وأعانك عليه قوم آخرون.

فانحرف معاوية إلىٰ من معه فقال: هذا، وقد نفس عليه ببيعته (يقصد رفض زياد بيعة يزيد)، وطعن في إمرته، يعلم ذلك كما أعلمه، يا للرجال من آل أبي سفيان! لقد حكموا وبذّهم يزيد وحده.

ثم نظر إلىٰ عبيد الله فقال: يا ابن أخي، إني لأعرف بك من أبيك، وكأني بك في غمرة لا يخطوها السابح، فالزم ابن عمك، فإن لما قال حقاً.

فخرجوا، ولزم عبيد الله يزيد يرد مجلسه ويطأ عقبه أياماً، حتىٰ رمىٰ به معاوية إلىٰ البصرة والياً عليها، ثم لم تزل توكسه أفعاله حتىٰ قتله الله بالخازر[1].

وربما كانت هذه واحدة من مسرحيات معاوية العديدة التي اعتاد حبكها بمهارة منقطعة النظير وإخراجها إخراجاً فنياً عالي الأداء، وهي لا تقل عن مسرحية استخلاف يزيد التي حشد لها كل طاقات الدولة وامكاناتها.

فهو كان يدرك مكامن الخطر علىٰ يزيد من بعده، ويدرك أنها قد تكون في العراق أو في الحجاز أو حيث يكون الإمام الحسين عليه السلام بالدرجة الأولى، أو ابن الزبير كمنافس محتمل مكشوف العداوة طالب للامارة والملك، أو من منافسين محتملين قد يبدون أمام الأمة أكثر لياقة من يزيد وإن لم يعبّروا عن طموحهم بهذا الشأن مثل مروان بن الحكم أو سعيد بن العاص أو عبد الرحمٰن بن الحكم أو عمرو بن العاص أو حتىٰ ابن زياد نفسه الذي كان يرىٰ نفسه أكثر مؤهلات من يزيد.. ولم تكن هناك جرأة علىٰ الدم أكثر من تلك التي امتلكها زياد وابنه، كما صدقت فيه فراسة معاوية فيما بعد. وقد أراده أن يكون خادماً مطيعاً دائم الولاء ليزيد يشد به ازره ضد أية قوىٰ معارضة، سواء كانت من خصومه المعروفين أو من المحتملين حتى من أصدقاء اليوم الذين يشكلون حاشيته ومستشاريه وخاصته.

(١) العقد الفريد ٤/ ١٧٢ـ ١٧٥.

ولنستعرض المسرحية باختصار.

ابن زياد يلاحق (عمه) معاوية الذي تظاهر بالانشغال عنه متعمداً، ليكتشف حقيقة نواياه بشأن توليته أحد مناصب الدولة، وينجح بعد محاولات في ذلك.

ومعاوية يحضر مجلسه ذاك ابنه يزيد وبعض خاصته وهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمٰن بن الحكم وعمرو بن العاص، ويشير لابن زياد لكي يعرض قضيته.

يبدأ ابن زياد الكلمة التي كان يبدو أنه قد أعدَّها بعناية فائقة، وأكد فيها علىٰ دوافع معاوية لاستلحاق زياد بنسبه التي كانت المصلحة الشخصية في مقدمتها، ولو لم يكن الأمر كذلك لقرّب أولاده وأنالهم ما أناله من مراكز ومناصب وعز، وأشاد بزياد والده، كأحد الذين أقاموا صروح الدولة الأموية القائمة، وأياديه حتى علىٰ معاوية نفسه.

ويبدو أن معاوية كان يحتمل ما سوف يقوله ابن زياد، ولعله دسّ عليه من يتسمع منه ذلك ويأتيه بأخباره، فأعد رداً مناسباً تهجم فيه علىٰ زياد، واشار إلىٰ أنه قد أخطأ باستلحاقه إياه، وان زياداً قد الحق الضرر به أكثر مما أفاده.

وان عبيد الله بسعيه هذا في مدح أبيه قد الحق بقضيته الضَّرر، أكثر مما أفادها وبشكل استفزَّ معاوية وجعله يدعوه بنجل الدغل وعترة النغل.

كانت غضبة معاوية المفتعلة، ربما منعت الآخرين عدا يزيد ـ الذي أعد له أبوه دوره بعنايةٍ أيضاً ـ من التدخل لتلطيف الجو.

من تدخل لصالح ابن زياد هو يزيد فقط، وقد أراد معاوية أن يثبت أن يزيد هو الوحيد الذي وقف إلىٰ جانبه في هذا الموقف الدقيق الذي امتنع فيه الآخرون عن مساعدته.

كانت غضبة معاوية تحذيراً لكل من أراد منافسة يزيد أو فكر بها، وكان وضعه ابن زياد إلىٰ جانب يزيد عندما أوصاه أن يلزمه تحذيراً آخر بالمزيد. من حمامات الدم يقدم عليها ابن زياد بأوامر مباشرة من يزيد الذي كانت له اليد الوحيدة بابقائه ومنحه المزيد من الامتيازات، وأنه لن يحجم حتماً حتىٰ عن التفوق في مجال سفك الدماء علىٰ زياد نفسه.

وقد رأينا عهد معاوية المكتوب بعد ذلك وتوصيته أن يقوم ابن زياد بالجريمة التي خطط لها قبل ذلك.

ولعل معاوية أراد لهذه الرواية أن تنتشر لتحسّن صورة يزيد في أذهان الناس. . فرغم أن معاوية اشتهر بحلمه المعروف، إلا أن يزيد كان يبدو هنا أنه أكثر حلماً منه وأنه كان يعد مفاجآت عديدة ستبرز في المستقبل إذا ما أتيحت له فرصة الامساك بالحكم.

وهناك العديد من الحوادث التي حاول فيها معاوية إظهار يزيد وكأنه الرجل الوحيد الصالح لحكم الدولة الاسلامية.

وحسبنا من المسرحية كلها هذه الجملة الوحيدة من معاوية، عندما خاطب ابن زياد قائلًا: (فالزم إبن عمك، فإن لما قال حقاً)، كان ثمن ما قاله يزيد ان يظل عبيد الله في خدمته عبداً مطيعاً علىٰ الدوام.

بين لذة الحكم والخوف من فقدان الامتيازات

كانت لذة الحكم والامتيازات التي يتيحها السلطان المطلق هي الحلم النهائي الكبير الذي يحلم به ابن زياد، وقد رأىٰ أن الاستسلام للسّلطان يهون بجنب تحقيق حلمه ذاك، فما قيمة أن يخضع ليزيد وهو يرىٰ جميع الناس خاضعين له. .؟ ان تفكيره الذي ينصب علىٰ المتطلبات الدنيوية وحسب، ولا يحسب أي حساب لسلطان آخر، هو السلطان الوحيد والباقي بعد فناء كل شيء، وهو الله سبحانه وتعالىٰ، قد دار في محيط دنيا سيده الذي لم يعرف الله بدوره أيضاً.

ومن هنا كان حرصه علىٰ السلطان وما يتيحه له من حياة مرفهة، ومن هنا كان خوفه الدائم من زواله، لأنه عندها سيفقد كل رصيده في الحياة التي عاشها وسيواجه أمراً، ان لم يكن متيقناً منه حتىٰ الآن، فإنه محتمل جداً وهو الحساب العسير أمام الله، ورغم أنه يحاول أن يتناسىٰ هذا وينكره إلا أن هاجساً ما يظل يقلقه خصوصاً وأنه يتظاهر بعبادة الله ويحكم في جهازٍ للحكم جعل من الإسلام عطاءً شرعياً له وادعىٰ وحدانية الله وخلافة رسوله ﷺ.

(قال عبيد الله بن زياد، وكان خطيباً، علىٰ لكنةٍ كانت فيه: «نعم الشيء الامارة لولا قعقعة البُرُد والتشّزن للخطب»[1].

(١) البيان والتبين ١/ ١٣٤ـ ١٣٥ والبرد جمع بريد واصل البريد الدابة ثم جعل للرجل. وفي هامش النسخة «وإنما قال هذا لأن الوالي لا يدري بما يأتيه (البريد) من خير أو شر، فهو يجزع لرؤيته ويخاف».

وكان محقاً ـ من وجهة نظره ـ بهذه المخاوف لأن الامارة أتاحت له امتيازاً علىٰ سائر الناس، فهو لم يحكم في ظل دولة إسلامية حقة ليكون له ما لهم وعليه ما عليهم وإنما كان يحكم في ظل دولة الظلم والانحراف، وكان يحكم مساحة واسعة صنعت قبيل انتهاء حكم يزيد (العراق وسجستان وخراسان والبحران وعمان).

وهو أول من عرف العرفاء[1] ودعا النقباء، ونكب المناكب[2]، وحصل الدواوين، ومُشيَ بين يديه بالعمد[3]، ووضع الكراسي، وعمل المقصورة، ولبس الزيادي، وربّع الارباع بالكوفة، وخمس الأخماس بالبصرة، وأعطىٰ في يوم واحد للمقاتلة والذرية من أهل البصرة والكوفة، وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً، ومقاتلة البصرة ثمانين الفا، والذرية مائة ألف وعشرين الفا، وضبط زياد وابنه عبيد الله العراق بأهل العراق)[4].

(وأخبرنا مَسلمة أن النجارية الذين قدم بهم عبيد الله بن زياد البصرة الفان، كلهم جيد الرمي بالنشاب)[5].

ويصح اعتبار ابن زياد، من وجهة نظر غير المسلمين وأولئك الذين لا يتبنون النظرية الاسلامية في الحياة والحكم حتىٰ وان كانوا متجنسين به رسمياً، رجل دولة من الطراز الأول، فهو قد استحدث أساليب تضمن بقاء النظام القائم واستمراره.

وكان معنىٰ الاكثار من المقاتلة واستخلاص الحرية لحمايته الشخصية ولضبط الأمور في البصرة وتربيع الارباع في الكوفة وتخميسها في البصرة أيضاً، ما يدل علىٰ مواهب واستعدادات للقيادة الجيدة وارساء نظام حكم مستمر ومستقر، أما علىٰ أي شيء يقوم نظام الحكم هذا ولماذا تراد استمراريته فهو ما ينبغي مناقشة هؤلاء به، فنحن كما قلنا لا نتناول دولة جاهلية في أيام الرومان أو الفرس ولا نتناول دولة علمانية حديثة، تلجأ إلىٰ هذه الأساليب وغيرها لغرض تقوية نفوذ هذه الدولة وسلطانها وجيشها، وهو ما يبدو بحد ذاته هدفاً وغاية لزعيم هذه الدولة وأركان حكومته، وإنما

(١) العرفاء: جمع عريف، وهو القيم بأمر القوم وسيدهم.
(٢) المناكب: جمع منكب وهو عريف القوم.
(٣) العمد: جمع عمود.
(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٧٠.
(٥) الطبري ٣/ ٢٤٤.

نتناول دولة يفترض أن تكون في كل توجاتها وغاياتها وأساليبها دولة إسلامية حقاً، وهذه نقطة دقيقة ينبغي الالتفات إليها منذ البداية إذا ما أريد بحث أمثال هذه المواضيع.

يراد ابن زياد تقوية الدولة، لكن هل الدولة الاسلامية المحمدية الحقة؟ أم الدولة الفرعونية..؟ وهل حارب أعدائها واستعد لهم بجيش قوي لأنهم أعداء الاسلام أم لأنهم أعداء رئيس الدولة وأعداء حاشيته وعماله ومرتزقته؟.

هل حارب الحسين عليه السلام وقتله لأن الحسين عليه السلام لم يكن يجسد الخط الرسالي الحقيقي للإسلام ولجده رسول الله صلى الله عليه وآله أم لأنه كان يريد إزالة دولة الظلم والانحراف وإعادة الأمور إلىٰ مجاريها؟

وحتىٰ الخوارج الذين حاربهم ابن زياد، هل فعل ذلك لأنه كان يختلف معهم عقائدياً ويخشىٰ منهم علىٰ الإسلام أم لأنهم أعداء دولته؟

وهل تلك (البطولات) التي سيتحدث عنها كل أولئك المنخدعين بشخصيته ومواقفه، والتي أبداها بمواجهة الخوارج كانت نتاج غيرةٍ حقيقية علىٰ الإسلام أم نتاج خوف من زوال سلطته هو وامتيازاته التي حصل عليها في ظل تلك السلطة؟

لقد اتخذ اجراءات عديدة لحمايته الشخصية من أعدائه المحتملين.

أنّه قسم البصرة والكوفة وفق نظام مستحدث يكفل إقامة توازن فيهما يضمن سيطرته التامة عليهما ومن ثم سيطرة سيده قائد وزعيم دولة الظلم والانحراف.

علينا أن نفتش عن الدوافع من وراء أعماله قبل أن نكون مبهورين بتلك الأعمال علىٰ اعتبار أن أية دولة ستلجأ إليها لتقوية نظامها والحفاظ علىٰ أمنها ووحدتها.

وكان ابن زياد حريصاً علىٰ تحسين صورته الشخصية ولو علىٰ حساب الدولة التي يحكم فيها كقائد مرموق وعلىٰ حساب الأمة المظلومة التي سلبت مكاسبها في ظل دولة الظلم.

كان يرىٰ نفسه أهمَّ من بضعة ملايين من المسلمين، بل من كل ملايين المسلمين الذين كانوا تحت حكمه وحكم سيده، ولم يكن يتحرج من تنصيب موظفيه مهما كان سلوكهم واستهتارهم معلناً، ولعله وجد في استهتار قائد الدولة نفسها مبرراً لتنصيب أحد المشهورين بشرب الخمر أو من الذين يدمنون الشراب والياً علىٰ دام هرمز وهي بلد بولاية خوزستان، لمجرد أنه كان نديماً لأبيه زياد فيما مضىٰ وكان زياد عنه راضياً، وهذا ما توضحه الرواية:

(لما ولي عبيد الله بن زياد بعد موت أبيه، أطرح حادثة بن بدر[1] وجفاه، فقال له حادثة: مالك لا تنزلني المنزلة التي كان ينزلني أبوك؟ أتدعي أنك أفضل منه أو أعقل؟ قال له: ان أبي كان برع في الفضل بروعاً لا تضره صحبة مثلك، وأنا حَدَث أخشىٰ أن تحرقني بنارك[2]، فان شئت فاترك الشراب وتكون أول داخل وآخر خارج.

قال: والله ما تركته للّه فكيف أتركه لك؟

قال: فتخيّر بلداً أولّيكه، فاختار سُرَّقَ[3] من أرض العراق ـ فولاه اياها ـ.

فكتب إليه أبو الأسود الدؤلي وكان صديقاً له:[4]

أحارِ بن بدرٍ قد وليت ولايةً	فكن جُرذاً فيها تخون وتسرقُ
وباهِ تميماً بالغنىٰ، إن للغنىٰ	لساناً به المرءُ الهيوبةُ ينطقُ
وما الناس الا اثنان إمّا مكذبٌ	يقول بما يهوىٰ وأما مصدقُ
يقولون أقوالًا ولا يحكمونها	فإن قيل يوماً حقّقوا لم يحققوا
فدع عنك ما قالوا ولا تكترث بهم	فحظك من مال العراقين سُرَّقُ

فوقع في أسفل كتابه: لا بَعُدَ عليك الرشد[5].

وواضح من تهكم أبي الأسود الدؤلي أو أنس بن أنيس أن المجتمع كان يرصد حالات المخالفة التي يقوم بها رجال السلطة الكبار أمثال يزيد وابن زياد ويراقب تصرُّفاتهم ولكن لا يملك منعها أو الحد منها ويكتفي بموقف التفرج منها.

إنَّ جيلًا قديماً مثل جيل أبي الأسود عاصر الرسول ﷺ وعاش في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لا يستطيع أن يفهم كيف أن سكيراً يصرّ علىٰ عصيانه ـ رغم معرفته بذلك ـ يولىٰ علىٰ بلد إسلامي لأن به شراباً وصف له، ويتم الأمر وكأنه مسألة عادية

(١) وكان شاعراً أديباً ظريفاً يعاقر الشراب ويصحب زياداً.

(٢) وروىٰ المبرد أنه قال له: (فمتىٰ قربتك فظهرت رائحة الشراب منك لم آمن أن يظن بي) الكامل في الأدب ١/ ٢١٥.

(٣) قال له حادثة: توليني رام هرمز فإنها أرض عذاة (الأرض الطيبة)، وسرَّق فإنّ بها شراباً وصف لي، فولاّه إيّاهما. الكامل في الأدب ١/ ٢١٥.

(٤) وذكر المبرد في الكامل ان الذي قالها أنس بن أنيس ١/ ٢١٥.

(٥) العقد الفريد ٢/ ٣٧٣- ٣٧٤ والكامل في الأدب ١/ ٢١٤.

كانت تتم من قبل في دولة الاسلام الأولىٰ، وأن الأمر لا يدعو برمته إلىٰ القلق أو التذمر بأي حال من الأحوال.

ولنتذكر ثانية أننا نتحدث عن دولة (اسلامية) يحكمها (خليفة) ينوب عن رسول الله ﷺ نفسه، أو هكذا يفترض فيه أن يكون.

نظام جديد لملك جديد

بعد اقامته في خراسان سنتين من ٥٣ حتىٰ ٥٥هـ، ولي البصرة وعاد بألفين من الجنود النجادية، نظم البصرة بنظام الاخماس ولجأ إلىٰ نظام العرفاء والامناء والنقباء والشرطة لضبط البصرة التي كانت توجد فيها حركة قوية للخوارج.

وعندما دعا معاوية الناس إلىٰ بيعة يزيد ابنه وجعله ولياً للعهد بعد ذلك بسنة وبعد وفاة زياد كان ابن زياد من أول الداعين إلىٰ ذلك والمندفعين إليه بحماس منقطع النظير ولعله كان يريد بذلك ازالة الأثر الذي تركه موقف زياد السلبي من مبايعة يزيد ومعارضته لها.

وسنرىٰ كيف أن جهود معاوية قد أثمرت معه، إذ اندفع بعد أن أصبح يزيد رئيساً للدولة، إلىٰ أقصىٰ حد ممكن لتثبيت عرشه مستعملاً أكثر الوسائل دموية ووحشية لهذا الغرض، إذ كان الأمر في نظره يستحق ذلك، وكان عليه أن يبدو بمظهر الحريص الموالي لسيده المحب له، وقد قبض ثمن ذلك مسبقاً ووُعد بثمن آخر؛ دفعة أخرىٰ تضاف للدُّفعة الواسعة التي منحت له من قبل.

وكان يرىٰ الافادة من اقطاعيته الواسعة لأقصىٰ حد ممكن، فرغم ما تظاهر به من جد وحماس في خدمة الدولة، إلا أنه كشأن أي حاكم لا يحمل تصوراً إسلامياً صحيحاً ولا ينطلق من رغبة الأمة وإرادتها واختيارها؛ حاكم مستبد مطلق جعل سيفه وسوطه بديلين عن القانون الصحيح، تلوح له المتع الدنيوية السفلىٰ هدفاً بحد ذاتها، فما دام قد أخضع الجميع بهذا السيف فهو يرىٰ أن من حقه أن يجني ثمار نصره، مكاسب دنيوية عاجلة.

غير أنه أدرك أنه كان مرصوداً من قبل الأمة الواعية المدركة، وأنه سيكون محل نقدها وسخطها إذا ما تمادىٰ وأفرط في سلوكه الفاحش، وكان له بيزيد عبرة، رغم أن قوة مركز يزيد التي أعدَّها معاوية من قبل تجعله بعيداً عن التعرض للنقد والتجريح، خصوصاً وأنه بدا بعد الاقدام علىٰ الجريمة التي ارتكبت في الطف بحق الامام

الحسين وأصحابه عليهم السلام، أقوىٰ مما كان في السابق، رغم أن الثورة حملت معها بذور الموت للنظام كله وجعلت الأمة تدرك فداحة خسارتها إذا تستسلم للنظام الأموي ذلك الاستسلام المهين، وتفكر بجدية للخلاص منه بعد ذلك، ويظل تفكيرها الجدي قائماً أمام كل نظام منحرف بعد ذلك، وإن ادعىٰ الإسلام وحكم باسمه.

وقد عمر ابن زياد (البيضاء)، وهو قصر بناه في البصرة، وكان فيها تصاوير الحيوانات كالاسد والكلب والكبش، ويزعمون أنه لما تم بناؤها أمر وكلاءه ألا يمنعوا أحداً من دخولها ويسمعوا رأي الناس بشأنها، ولعله أراد أن يتباهىٰ امام جماهير البصرة بما أبدعه مجتمع الترف الذي تصدر سدة الحكم[1]. وقد زعم أنه انفق عليها ألف ألف أرسلها اليه يزيد[2].

وبتعميره (البيضاء) وتزيينه إيّاها برسوم الحيوانات في بيئة لم تشتهر بالبناء والرسم، كان ابن زياد يحسب أنه قد حقق أمنية كبيرة، وأصبح من حقه أن يلفت الأنظار المشدوهة بهذا الأمر الذي كان يريد أن يمتاز به ويسجل به تفوقاً علىٰ الآخرين، ولا نحسب أنه كان الوحيدة في هذا الأمر، فظاهرة الترف كانت قد بدأت تشيع قبل ذلك بأعوام عديدة، وبدأ افراد حتىٰ ممن حسبوا علىٰ الصحابة باقتناء الدور والقصور والظهور بأبهة لم تكن مألوفة عند العرب خصوصاً.

أما في أيام يزيد، فقد كان عمال الدولة ورجال الحاشية والحكم يتسابقون في

(١) وقد روىٰ الجاحظ في البيان والتبيين ٤ـ ١٨ قال: (لما بنىٰ عبيد الله بن زياد البيضاء، كتب رجل على باب البيضاء: «شيء، ونصف شيء، ولا شيء. الشيء: مهران الترجمان، ونصف شيء هند بنت أسماء [وهي زوجته ثم زوجة الحجاج فيما بعد] ولا شيء: عبيد الله بن زياد...) ولعل الرجل كان يعني أموراً عديدة، إذ يرىٰ دناءة نسب ابن زياد وسيطرة مهران عليه سيطرة تامة... وورد في الهامش أن البيضاء دار عمرها عبيد الله بن زياد بن أبيه بالبصرة، يزعمون أنه لما تم بناؤها أمر وكلاءه الا يمنعوا أحداً من دخولها وأن يتحفظوا كلاماً إن تكلم به أحد، فدخل فيها أعرابي ـ وكان فيها تصاوير ـ ثم قال: لا ينتفع بها صاحبها، ولا يلبث فيها إلاّ قليلاً، فأتي به ابن زياد وأخبر بمقالته، فقال له: لم قلت هذا؟ قال: لأني رأيت فيها أسداً كالحاً، وكلباً نابحاً وكبشاً ناطحاً، فكان الأمر كما قال، ولم يسكنها إلا قليلاً حتىٰ أخرجه أهل البصرة إلىٰ الشام، ولم يعد إليها، معجم البلدان.

(٢) الطبري ٣/ ٣٧٤.

التشبه بحياة سيدهم، كما بيّنّا ذلك في مكان آخر من هذه الدراسة، وكان الولاء ليزيد يبدو في بعض وجوهه، أن يعيشوا حياة يزيد (وغلب علىٰ يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب)[1] . وهو أمر طبيعي أن يفعل الجميع ذلك ممن لم يتحصنوا بحصانة الاسلام، ما دام (خليفة المسلمين) نفسه قد تمادىٰ فيه لأبعد حد.

كان ابن زياد صاحب لهو ورهانٍ علىٰ الخيل كما روىٰ لنا الطبري عن عيسىٰ بن عاصم الأسدي قال: (إن ابن زياد خرج في رهانٍ له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أديّة، أخو أبي بلال، فاقبل علىٰ ابن زياد فقال: خمس كنَّ في الأمم قبلنا، فقد صرن فينا ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[2] وخصلتين أخريين لم يحفظهما جرير [أحد ناقلي الخبر]، فلما قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يجترىء علىٰ ذلك إلا ومعه جماعة من أصحابه، فقام وركب وترك رهانه، فقيل لعروة: ما صنعت؟ تعلمنَّ والله ليقتلنك، فتوارىٰ، فطلبه ابن زياد، فأتىٰ الكوفة فأخذ بها، فقدم به علىٰ ابن زياد، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه، ثم قتله وأرسل إلىٰ ابنته فقتلها)[3] .

كان ذلك سنة ٥٨ أي قبل هلاك معاوية واستخلاف يزيد بسنتين، ومن الرواية السابقة نعلم أن ابن زياد صاحب رهانٍ ولهو، وأنه كان يعد حلبات لسباق الخيل تجتمع فيها الناس، وهو أمر ربما بدا شائعاً وربما رافقته ضروب من الملاهي الأخرى، وتدل الرواية علىٰ خوف ابن زياد وجبنه عندما هرب من ابن أديّة الخارجي حينما تصور أن معه جماعة من أصحابه.

كما تدل علىٰ قسوته المتناهية وولعه بالتمثيل بجثث ضحاياه، وإقدامه حتىٰ علىٰ قتل النساء.

وكان صاحب شراب رغم تظاهرة بغير ذلك، وقد رأينا كيف أنه كان من حاشية يزيد قبل تولية علىٰ خراسان والبصرة، ويزيد كما هو معلوم مشهور بالادمان علىٰ الشراب، كما رأينا كيف كان يجلس مع يزيد بعد مقتل الإمام عليه السلام ويزيد ينشد أبياتاً

---

(١) العقد الفريد ٥ـ ٨٢.

(٢) سورة الشعراء ١٢٨ـ ١٣٠.

(٣) الطبري ٣/ ٢٥٤.

من الشعر، يحث فيها ساقيه علىٰ أن يسقيه شربة تروي مشاشه ويسقي ابن زياد شربة مثلها، فهو صاحب السر والأمانة ومساعدة لتسديد مغنمه وجهاده، فقد (جلس ذات يوم علىٰ شرابه وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل علىٰ ساقيه فقال:

اسقني شربة تروّي مشاشي ثم مِل فاسقِ مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا به)[1].

اسطورة في الارهاب وسفك الدماء... مع الخوارج أولًا

علىٰ أن الصفة التي اشتهر بها آل زياد وخصوصاً زياد وعبيد الله، هي القسوة المتناهية مع الناس دون سبب، والجرأة علىٰ سفك الدماء، وذلك ما أكسبهم سمعة اسطورية في هذا المجال، لم يغلبهم فيها في ذلك العهد الا الحجاج.

وقد جعل إقدامهم علىٰ تنظيم حمامات الدم المتواصلة لأعداء الدولة الناس يخشونهم خشية شديدة، وقد سمعنا العديد من الاقاصيص التي رويت لنا عن ولع زياد وابنه بالقتل دون تحفظ... وهذا ما دعىٰ معاوية للتفكير بكتابة أمر يولي فيه ابن زياد الكوفة بعد وفاته اذا ما فكرت بالخروج علىٰ حكمه ورجعت إلىٰ قيادتها الشرعية المتمثلة بالإمام الحسين عليه السلام.

وقد مارس ابن زياد مهماته منذ أن ولاه معاوية خراسان عام ٥٣هـ،(بكفاءة) عالية الاداء جديرة أن ترضي سيده وتجعله يرىٰ أنه جدير بمهمات كبيرة في المستقبل.

فقد أقام بخراسان سنتين[2] ثم ولاه البصرة بعد أن وقعت فيها بعض المشاكل، وبعد أن رفضوا عامله السابق عليهم وهو عبد الله بن عمرو بن غيلان، ووفدوا إلىٰ معاوية يرجون عزله.

وفي سنة ٥٨ (اشتد عبيد الله بن زياد علىٰ الخوارج، فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرىٰ)[3].

وقد رويت قصة مقادها أن معاوية عزل ابن زياد سنة ٥٩ ثم أبقاه بتوصية من

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٢،

(٢) الطبري ٣/ ٢٤٤.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٥٤.

الأحنف كما زعم[١]، وأغلب الظن أن معاوية لجأ إلىٰ ما لجأ إليه لكي يريه أن أمر عزله بسيط وأن الأمر الوحيد الذي يتيح له البقاء هو التفاني المطلق في خدمة دولته.

وإن الأحنف لم يرد التدخل في أمر توليه أحد يراه هو مناسباً، وترك الأمر لمعاوية يتحمّل مسؤولية ذلك وحده، إذ أنه لم يكن ليولي من يرضىٰ عنه الأحنف بأي حال من الأحوال، وربما أراد جس نبضه ليرىٰ مدىٰ استعداده للتدخل في شؤون الدولة، وقد فوّت الاحنف هذه الفرصة عليه.

كما رويت قصة أخرىٰ عن عبث الشاعر ابن المفرغ بعباد، أخي زياد وقوله فيه اشعاراً تناقلتها الناس، كما رويت عنه أشعار ساخرة بشأن استلحاق زياد بأبي سفيان، وقد طلب عبيد الله من معاوية أن يقتله إلّا أنّ معاوية رفض ذلك وطلب منه أن يؤدّبه وحسب.

وقد تحمل ابن زياد هجاء ابن مفرغ وسخريته ولم يستطع فعل شيء معه لأن معاوية قد أمنه، بل وأعاده إلىٰ البصرة، إلىٰ حيث ابن زياد نفسه، ويبدو أن تلك كانت محاولات متكررة من معاوية لاختبار ولاء ابن زياد لقائد الدولة الأموية.

كم نشط ابن زياد ـ قبل اقدامه علىٰ جريمته الكبرىٰ في الطف ـ في محاربة الخوارج في كل مكان كان يكلف بادارته واشتهر باعتباره أكبر محارب وعدو لهم[٢].

---

(١) ذكر الطبري في تاريخه ٣/ ٢٥٧ أن عبيد الله بن زياد وفَدَ في أهل العراق إلىٰ معاوية فقال له: (إئذن لوفدك علىٰ منازلهم وشرفهم، فأذن لهم، ودخل الاحنف في آخرهم، وكان سيء المنزلة من عبيد الله فلما نظر إليه معاوية رحب به، وأجلسه معه علىٰ سريره، ثم تكلم القوم فأحسنوا الثناء علىٰ عبيد الله والاحنف ساكت. فقال: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ قال: ان تكلمت خالفت القوم. فقال: انهضوا فقد عزلته عنكم، واطلبوا والياً ترضونه. فلم يتبنىٰ في القوم أحد إلا أتىٰ رجلاً من بني أمية أو من أشراف أهل الشام، وقعد الأحنف في منزله، فلم يأت أحداً. فلبثوا أياماً، ثم بعث اليهم معاوية فجمعهم، فلما دخلوا عليه، قال: من اخترتم؟ فاختلفت كلمتهم، وسمّىٰ كل فريق منهم رجلاً، والأحنف ساكت. فقال له معاوية: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ قال: ان وليت علينا أحداً من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحداً، وان وليت من غيرهم فانظر في ذلك. قال معاوية: فإني قد أعدته عليكم، ثم أوصاه بالأحنف، وقبح رأيه في مباعدته، فلما هاجت الفتنة لم يف لعبيد الله غير الأحنف).

(٢) وقد روىٰ الطبري أن زياد وابنه قتلا من الخوارج ثلاثة عشر ألفاً وحبس عبيد الله منهم أربعة آلاف ٣/ ٣٧٥ وقد روي عنه قوله: (فما عملت بعد كلمة الاخلاص عملاً هو أقرب إلىٰ الله عندي في قتلي من قتلت من الخوارج) الطبري ٣/ ٣٧٤.

وبما أن الخوارج عرفوا باعتبارهم أسوأ مفسرين لآيات القرآن الكريم وبنود الاسلام عامة وكانوا علىٰ حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام ممن طلبوا الحق فأخطؤوه، وكان لهم دور كبير بمهزلة التحكيم وقد أجبروه عليه السلام بقبولها بايعاز خفي من أعوان معاوية المندسين في جيشه، ثم قتله بعد ذلك وتوبة الكثيرين منهم وقيامهم باعلان الثورة علىٰ الحكم الأموي، ورفض أي نمط للحكم سواء أكان مقارباً لحكومة أمير المؤمنين عليه السلام أو حكومة معاوية ودعوتهم للالتزام الحرفي بنصوص الكتاب الكريم بغض النظر عن المناسبات التي نزلت بها أو التقيد بأحكام النسخ والتفسيرات التي أوردها رسول الله صلى الله عليه وآله أو أمير المؤمنين عليه السلام وصيه من بعده، وكانوا معروفين بخروجهم الدائم علىٰ الدولة والمجتمع والاسلام في آن واحد، من هنا إنَّ ابن زياد ـ كأبيه ـ اكتسب شهرة بمقاومتهم وإبادتهم بشكل بدا فيه وكأنه بطل يؤدي للإسلام أفضل الخدمات.

فلا شك في أن الخوارج كانوا من أشد الفرق تخريباً للإسلام، ويستتبع ذلك أن يكون المحارب لهم، في نظر العديدين من أبطال المسلمين.

ألم يحاربهم أمير المؤمنين عليه السلام نفسه؟ وقد كان بذلك ينصر الاسلام...

وقد حاربهم معاوية، فلا بد أنه كان ينصر الاسلام أيضاً..!!.

بهذه الحجة قد يواجه المدافعون عن معاوية خصوصمهم...

ويواجه المدافعون عن أقطاب الدولة الأموية كزياد وعبيد الله خصومهم أيضاً...

وهي حجة تبدو قوية في الظاهر، غير أننا إذا ما درسنا وقائع التاريخ الاسلامي في ذلك العهد ونظرنا إلىٰ الدوافع وراء اعلان الحرب على الخوارج من قبل حكومة أمير المؤمنين عليه السلام أدركنا أن هؤلاء سيكونون بذرة اختلاف وفرقة بين أبناء الأمة، وأنهم بذلك ساعدوا علىٰ تمرير بعض المخططات الرهيبة عليها مثل مهزلة التحكيم، وأنهم سيكونون ذريعة لكل حاكم يريد ضرب خصومه فلا يجد أنسب من توجيه وإلصاق تهمة الانتساب إليهم للخصوم.

إن دوافع معاوية لم تكن بالتأكيد نفس دوافع علي عليه السلام، فمعاوية يريد تثبيت دولته وتحصينها ضد كل خطر محتمل مهما كان مصدره ويهمه استقرار هذه الدولة واستتباب الهدوء فيها ليمرر كل مخططاته وألاعيبه، وهؤلاء من الذين يقفون حجر عثرة في سبيل ذلك، فادار القضاء عليهم ليتم له ذلك.

ومن هنا جاءت توصية أمير المؤمنين عليه السلام:

(لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فاخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه.

قال الشريف: يعني معاوية وأصحابه)[1].

فمعاوية أدرك طلبه وأقام دولته علىٰ الباطل، وهذا ليس مبرراً لإلباس حكمه ثوب الشرعية نزولاً علىٰ نظرية الحكم الواقع، ولا يؤهله ذلك لأن يقف في مقدمة من يتصدىٰ للطرف الآخر الذي لا يقل عنه خطورة.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام واضح هنا، وكانت له اشارات عديدة واضحة ـ عن العلم الذي تعلمه عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ أن من سيلي أمور الأمة ومقدراتها هم معاوية ورهطه، وكانت علامات ذلك تبدو من خلال انحراف الأمة وراء الفتن والأهواء وقادة السوء الذين تزعمهم معاوية.

فأمير المؤمنين عليه السلام يرىٰ هنا طرفين، أحدهما طلب الحق فأخطأه وهم الخوارج الذين ضلوا بشبهات وتفسيرات غريبة تبنوها واعتقدوها وربما كانت نواياهم مخلصه رغم خطئهم القاتل الذي جر علىٰ الأمة الويلات.

والثاني معاوية ورهطه الذين لم تكن لهم أربة في الحق ولم يكونوا من أرباب الدين والصلاح (وكان مترفاً يذهب مال الفيء في مآربه وفي تمهيد ملكه، ويصانع به عن سلطانه وكانت أحواله كلها مؤذنه بانسلاخه عن العدالة واصراره علىٰ الباطل وإذا كان كذلك لم يجزأن ينصر المسلمون سلطانه وتحارب الخوارج معه وإن كانوا ضالين)[2].

فلم يكن تصدي الدولة الأموية وحربها للخوارج بدافع من حرصها علىٰ الإسلام، وإنما كان بدافع الحفاظ علىٰ كيانها كدولة مملوكة لمعاوية وأعوانه، وكان ابن زياد ـ علىٰ هذا الأساس ـ جديراً بأن يقوم بهذه المهمة بنفس الحماس الذي قام به أبوه من قبل، فأي طرف أو جهة تخرج علىٰ الدولة، فإن ذلك يعني الخروج عليه هو ويعني مزاحمته شخصياً علىٰ المكاسب والامتيازات التي حصل عليها والتي ما كانت تتاح له أبداً لو كان يعيش في ظل دولة إسلاميَّة حقيقية.

---

(١) نهج البلاغة ٩٤.

(٢) ابن أبي الحديد ـ شرح النهج ٥ـ ٤٤٧.

وهذا هو سر تفانيه في خدمة الدولة وخوض الحروب من أجلها حتىٰ اشتهر بذلك وحتىٰ اعتقد بعض من يعالجون الأمور دون النظر إلىٰ مسبباتها، أنه كان بطلًا من أبطال الإسلام ما دام قد حقق تلك النجاحات الباهرة في حروبه مع الخوارج الذين أضروا بالأمة فعلًا وكان مجيء معاوية للحكم في نهاية المطاف نتيجة لتصرفاتهم واندفاعهم الأحمق وراء الشبهات والأضاليل.

وقد بالغ ابن زياد في قسوته في معاملة الخوارج ولجأ إلىٰ أشد الأساليب عنفاً حتىٰ مع النّساء، فقد سمعه أحد الذين كانوا في مجلسه ذات يوم يذكر البلجاء الخارجية، فحذر أبا بلال، أحد أصحابها (فمضىٰ إليها أبو بلال، فقال لها: إنَّ الله قد وسع علىٰ المؤمنين في التقية[1] فاستتري فإن هذا المسرف علىٰ نفسه الجبار العنيد قد ذكرك. قالت: أن يأخذني فهو اشقىٰ بي فأما أنا فما أحب أن يضرَّ انسان بسببي فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأتي بها فقطع يديها ورجليها ورمىٰ بها في السوق.

ثم ان عبيد الله تتبع الخوارج فحبسهم)[2] ثم قتل من كان في الحبس منهم بعد ذلك[3].

وقد هزم مرداس الخارجي وأصحابه وعددهم أربعون شخصاً جيشاً جرده ابن زياد عليهم يتألف من الفي رجل.

وقد سخر أحد الشعراء وهو عيسىٰ بن فاتك من جيش ابن زياد الذي ضم المرتزقة (ذوي الجعائل) كما سماهم أي الذين يعطون أجوراً لينوبوا علىٰ آخرين في القتال، رغم تشجيع السلطة إيّاهم وتسميتهم بالمؤمنين عند استنفارهم لقتال أعدائها.

فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتىٰ أتاهم ... سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم ... بأن القوم ولّوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسك أربعونا[4]

(١) التقية والقتاة بمعنىٰ الوقاية والحفظ.
(٢) الكامل في الأدب ٣/ ١٣٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٤٠ـ ١٤١.

وفي معركة أخرى جرد لها ابن زياد أربعة آلاف من الجنود استطاعوا التغلب علىٰ الخوارج مستغلين انشغالهم بالصلاة، وهي حيلة ربما دبّرها ابن زياد لقائده.

(وكان عبيد الله لا يلبث الخوارج[1]، يحبسهم تارة ويقتلهم تارة، وأكثر ذلك يقتلهم ولا يتغافل عن أحد منهم)[2].

وهذه مأثرة ابن زياد الوحيد، غير أنه كان يريد أن يحمي بها دولته وسلطانه، ولم يكن ينتصر للإسلام بأي حال من الأحوال.

طاقة الشر التي أريد لها أن تتفجر في الكوفة

لقد كان عبيد الله بنظر معاوية، (طاقة كبيرة)، أراد لها أن تتفجر في أكثر الأوضاع حراجةً وحساسية، وكان يعده لهذه المهمة التي لم يرد أن يلطِّخ يد ابنه بها ظاهرياً ويلقي وزرها علىٰ ابن زياد ومنفذيه من شرطة العراق وأشرافه من أعوان الدولة.

وعندما أهم خروج الحسين عليه السلام إلىٰ العراق يزيداً كان عهد معاوية المكتوب والمودع لدىٰ مستشار الدولة المسيحي سرجون هو مفتاح القضية كلها بنظره.

ولعل ابن «زياد كان فخوراً بهذا الاختيار الذي كان الدافع إليه هو قسوته حتماً، ولعل فخره بتلك القسوة التي أتاحت له تلك المنزلة لدىٰ سيده حتىٰ أنه عهد إليه بمهمة التصدي للحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، جعله يصمم علىٰ أن يكون عند حسن ظنه فعلًا، كما كان عند حسن ظن أبيه من قبل، ويوغل في الجريمة إلىٰ أبعد حد ممكن بعد أن جعله يزيد أمام طريقين لا ثالث لهما، أما ان يظل معه ويتسع ملكه، أو يعود عبداً كما كان.

لقد كان ابن زياد يضع يزيد مثلًا أعلىٰ وحيداً، ويرىٰ فيه القوة الوحيدة القادرة علىٰ رفعه أو خفضه، ويرىٰ أن فشله في مهمته قد يعني الموت المحقق له إمّا علىٰ يد أنصار الحسين عليه السلام من أهل الكوفة أو غيرهم، أو بيد يزيد بعد ذلك، إذا ما أُتيحت له فرصة النجاة من هؤلاء، وهو أمر دفعه إلى فعل المستحيل في مواجهة مسلم الذي كان يبدو وكأن الوضع كله كان لصالحه.

---

(١) لا يدعهم يلبثون يوماً من غير أن ينكل بهم. والعقد الفريد ٢/ ٢٤٠ وما بعدها و١/ ١٨٢.

(٢) الكامل في الأدب ٣/ ١٤٥ والعقد الفريد ١/ ١٨٣.

وربما دفعه خوفه من عقاب يزيد إلىٰ إظهار تلك الشجاعة والتَّهوُّر في هذه المواجهة، مع أنه كاد أن يستسلم مرتين في تلك المواجهة: مرة لهانيء، ومرة لأصحاب مسلم عندما رأىٰ من دلائل الحال ما يشير إلىٰ أنهما كانا يتمتعان بقوة كبيرة، وأنَّ اعداداً غفيرة من جماهير الكوفة كانت تساندهما، لو لم يشجعه مستشاره وخادمه (مهران) علىٰ الصمود ولو لم يمل إلىٰ جانبه (أشراف) الكوفة ووجهاؤها وبعض المتنفذين فيها ويخذلون الناس عن نصرة مسلم، مستغلين سمعة ابن زياد كطاغية معروف لا يتورع عن اللجوء إلىٰ أقسىٰ الأساليب وحشية ودموية، وسمعة جيش الشام المتفاني في خدمة سيده، والذي أشاعوا أنه كان في طريقه إلىٰ الكوفة.

قانون دولة الظلم

وعندما قدم ابن زياد الكوفة وهو متلثم، ظن الناس أنه الحسين عليه السلام، فأقبلوا يسلمون عليه، (وقالوا: مرحباً بكِ يا ابن رسول الله، قدمت خيرَ مقدم، فرأىٰ من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءَه)[1] فهو لا يتحمل أن يزاحمه أحد في ملكه وحكومته، وبعد أن أقطعه يزيد الكوفة وجعله والياً مطلقاً عليها من قبله.

وقد علموا فيما بعد، عندما دخل القصر، أن من سلّموا عليه لم يكن سوىٰ عبيد الله بن زياد (فدخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد، وغاظ عبيد الله ما سمع منهم)[2].

وفي أول خطبة له فيهم لم يعد إلىٰ توجيه تهديداته القوية التي اعتاد توجيهها من قبل، وإنما مزج اللين بالشدة. ولعله خاف أنه إذا ما كان عنيفاً معهم منذ الوهلة الأولىٰ، فربما يكون رد فعلهم عنيفاً أيضاً، وربما تمكنوا منه فقتلوه أو طردوه في أحسن الأحوال، وهكذا فإنه خطب فيهم قائلًا: (فإن أمير المؤمنين، يقصد يزيداً، أصلحه الله ولّاني مصركم وثغركم، وأمرني بانصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلىٰ سامعكم ومطيعكم وبالشدة علىٰ مريبكم وعاصيكم، وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر، وسوطي وسيفي علىٰ

(١) الطبري ٣/ ٢٨١.

(٢) المصدر السابق.

من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق امرؤ علىٰ نفسه، الصدق ينبىء عنك لا الوعيد)[1].

وعندما لم يجد رد الفعل السلبي الغاضب، وكأول تدبير وقائي، عمد إلىٰ (أخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً، فقال: اكتبوا إليّ الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحروريَّة وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا فبرىء، ومن لم يكتب لنا أحداً، فيضمن لنا ما في عرافته، ألّا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة، وحلال لنا ماله، وسفك دمه، وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا، صلب علىٰ باب داره، والغيت تلك العرافة من العطاء، وسير إلىٰ موضع بعمان الزاره)[2].

ان هذه التعليمات المشددة التي آثرنا نقلها كاملة هنا، تبيّن ان النظام الحاكم كان قد طور جهازه الاداري بحيث تتاح له فرصة تعيين موظفين مأجورين تابعين له مباشرة دون الرجوع إلىٰ رؤساء قبائلهم (عرفاء أو مختارين أو رؤساء محلات أو شرطة أو عيون، الخ) يقومون بضبط محلاتهم ومناطقهم وأماكن عملهم لمصلحة الدولة.. وكان من جملة تلك الأعمال تنظيم قوائم بأسماء كل المطلوبين والغرباء والمشتبه بهم وهذا الأمر يتطلب ان يكون لكل عريف أو نقيب مجموعة من الشرطة أو العيون المتطوعين لقاء هدايا أو أجور معينة، ويتطلب أن يكون هذا العريف نفسه عيناً للدولة في منطقته، تعلم عن طريقه كل ما تريد معرفته، وهو أسلوب متطور في قياس ذلك الزمن، وقد رأينا انه قد لجأ إليه عندما كان في البصرة، وقد أرسيَ ذلك الأسلوب من قبل معاوية وزياد.

وما كان أحد ليلجأ إليه بالشكل الذي لجأ إليه من قبل لو كانت الدولة الاسلامية قد اخذت مسيرتها الصحيحة منذ البداية وابتعدت عن خطّ الإنحراف، وكانت الرقابة الطبيعية قد نمت ـ لا من قبل أناس مأجورين مرتزقة، يعملون وفق هواهم ومصالحهم وإنما من قبل الناس أنفسهم؛ رقابة ذاتية، يرىٰ فيها كل مسلم نفسه مسؤولًا عن الأمة كلها فيأخذ دوره الإيجابي للحفاظ عليها وعلىٰ مكاسبها التي تتحقق في ظل الاسلام.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٨١.

غير أن الدولة التي تريد تعزيز سلطانها وبسط نفوذها علىٰ أساس غير إسلامي، وتدرك أنها غير شرعية حتىٰ ولو ادعت ذلك، وتدرك مدىٰ المعارضة الشعبية الواسعة التي تواجهها، ترىٰ أن الأسلوب الامثل لإلزام الناس بالطاعة والخضوع هو تشديد الرقابة عليهم، وقمع المعارضين باشد الاساليب وحشية ودموية واللجوء إلىٰ أسلوب الرشوة والعطاء الكيفي، وهو ما فعلته الدولة الأموية بالضبط وأصبُح سنّة للدول التي جاءت بعدها.

وقد لجأ ابن زياد إلىٰ الدهاء والمكر اللذين طالما لجأ إليهما والده من قبل؛ فهو قد علم قبل مقدمه الكوفة أن أغلب الناس كانوا يميلون إلىٰ الحسين عليه السلام، ومن لم يكن يميل إليه لم يظهر ذلك أمام الثورة الشعبية التي ظهرت بعد هلاك معاوية، فحينما دخل الكوفة، وظن الناس أنه الحسين عليه السلام ورحبوا به، ثم شتموه بعد أن علموا من هو، رأىٰ أن لا يؤاخذهم علىٰ موقفهم ذاك وان يتناسىٰ كل موقف مناوىء له ولدولته. . لأنّه إن آخذهم في ذلك الوقت المبكر، فربما كان يفتح جبهة للحرب لم يكن عليه أن يفتحها الآن، وما عليه الا أن يسكت ويطمئنهم إلىٰ أنه لم يعرف أحداً قد شتمه أو رفضه أو أراد إلحاق الأذىٰ به، وهكذا قال في صبيحة اليوم التالي عندما جلس علىٰ المنبر وخطب في الناس: (اني لأعلم أنه قد سار معي وأظهر الطاعة لي من هو عدو للحسين حين ظن أن الحسين قد دخل البلد وغلب عليه، ووالله ما عرفت منكم أحداً)(١).

لقد تبرع بتسجيل نقطة لصالحهم أراد التملّق لهم بها وفتح باب الرجعة أمامهم. . وأوجد لهم عذراً مقبولًا لدىٰ الدولة، انهم فعلوا ما فعلوه معه لأنهم ظنوا أن الحسين عليه السلام قد دخل الكوفة واستتبت له الأمور، ولو لم يكن الأمر كذلك لما مالَ أحدٌ إليه. !!.

بهذا المنطق الملتوي الذي كان جديراً بمعاوية وزياد خاطبهم.

وبذلك طمأنهم وأتاح لهم الانتقال إلىٰ صفه، وهو ما تم له في النهاية.

ان أسلوب الدسيسة والمراقبة والتجسس، طالما نجح في كشف العديد من أعداء الدولة الأموية، وكان أسلوباً قديماً متبعاً في أنظمة الحكم الغابرة. . وقد رأينا

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٨٢.

خبرة معاوية بأساليب السياسات الفرعونيّة القديمة وكيف كانت الملوك تسوس رعيتها وتضبط شؤونهم، ولطالما لجأ أولئك الغابرون إلىٰ اعتماد المراقبين والجواسيس ونشرهم بين النَّاس لرصد أقوالهم وتحركاتهم ونقلها إليهم.

وهو أسلوب لا يزال سائداً حتىٰ اليوم وقد تطورت أنظمته وأساليبه إلىٰ حد بعيد.. غير أننا إذا ما لاحظناه في مطلع العهد الأموي نرىٰ أنه قد تطور بشكل هائل قياساً لما كان عليه في السابق، خصوصاً وأنه لم يعتمد في الحكم الاسلامي الذي أراد الرقابة أن تكون ذاتية، وأن يقوم هذا المجتمع بنفسه برد كل منكر، ويقوم كل فرد بمراقبة نفسه وتقويمها وعرضها علىٰ مبادىء الإسلام في عملية (جهاد أكبر) مستمرة لا تنتهي إلا بانتهاء حياة الإنسان نفسه.

وقد دعا ابن زياد (مولىٰ لبني تميم فأعطاه مالًا، وقال له: انتحل هذا الأمر، وأعنهم بالمال واقصد لهانىء ومسلم وانزل عليه)[1]، وقد نفذ الرجل مهمته بمهارة خبير متمرس ووصل إليها وأخبر زياداً بالأمر، وواجه هانىء بذلك أمام ابن زياد الذي استدرجه إلىٰ الجنود أمامه بعد أن آمنه، ثم نكل به وضربه وحبسه، وقتله بعد أن قتل مسلم في نهاية المطاف.

وقد أتيحت لمسلم وهانىء فرصة قتله في بيت نانيء، إلا أنَّهما أبيا ذلك لأسباب دينيَّة بحتة، حيث روي أنَّ مسلماً نقل حديثاً عن الرسول ﷺ مفاده أن الغدر ليس من شيم المؤمنين؛ وقد أوضحنا ذلك في كتابنا «مسلم بن عقيل».

وقد رأينا حواره المتشنج مع مسلم وادعاءاته الباطلة بأحقية يزيد وشرعية حكمه وشتمه أمير المؤمنين وآل البيت عليهم السلام في كتب التاريخ وكما ذكرها الطبري.

وقد رأينا كيف أنه أقدم علىٰ جريمة قتلهما بعد أن استتبت له الأمور وأيقن بخضوع أهل الكوفة وانصرافهم عن قضية مسلم، وكانت استجابتهم له قبل ذلك ربما

---

(١) ابن كثير ٨/ ١٥٥ والكامل في التاريخ ابن الأثير ٣/ ٣٨٩ وروىٰ الطبري أن ابن زياد اصدر اليه تعليمات مفصلة وقال له: (خذ ثلاثة آلاف درهم، ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف؛ فقل لهم: استعينوا بها علىٰ حرب عدوكم، وأعلمهم انك منهم، فانك لو أعطيتها اياهم اطمأنوا اليك ووثقوا بك، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم، ثم أغد عليهم ورح، ففعل ذلك، وملاحظات ابن زياد هذه ملاحظات خبير متمرس بامثال هذه المهمات التي يبدو أنه قام بالعديد منها فيما سبق... الطبري ٣/ ٢٨٣.

بدافع اعتقادهم بضعف الدولة الأموية التي مثلها أمامهم النعمان بن بشير الوالي الضعيف، وانهم إذ رموا به ـ أي بابن زياد نفسه ـ فقد تخاذلت الأغلبية منهم، كما ساعد علىٰ ذلك قيام (الاشراف) بمهمة تخذيل الناس عن مسلم[1] وكما سنوضحه فيما بعد بصورة أكثر تفصيلاً ـ بعون الله

مَنْ يحمي مَنْ؟ السلطان أم الجندي

ان مشاهد عديدة تبرز أمام الباحث المتأمل في تاريخ تلك الأيام القليلة الحاسمة، وهي جديرة بمزيد من الدراسة والبحث والنظر لأنها تتعلق بمنعطف كبير أثر علىٰ مجرىٰ تاريخ الأمة كله فيما بعد.

ومن تلك المشاهد ما يتعلق بعبيد الله بن زياد نفسه، قائد الحملة المضادة لمسلم والحسين عليه السلام فيما بعد ومرتكب مجازر الطف الرهيبة.

فرغم الشجاعة الظاهرية التي كان يدّعيها ويبدو بها كاد أن يتخاذل ويستسلم أو يهرب عدة مرات، لولا المصير المعد له من قبل يزيد لو فعل ذلك. . وسنرىٰ كيف أنه بعد هلاك يزيد سينسحب ويهرب من البصرة ويلجأ إلىٰ امرأة من قبيلة قوية لتجيره ريثما يلتحق بركب الأمويين المرعوبين إثم الحدث المفاجىء.

---

(١) ولخص ابن الأثير ٣/ ٣٩٣ـ ٣٩٤ دور الاشراف بتخذيل الناس عن مسلم عندما حاصر ابن زياد في القصر. . (فلما بلغ ابن زياد اقباله تحرَّز في القصر وأغلق الباب وأحاط مسلم بالقصر وامتلأ المسجد والسوق من الناس، ومازالوا يجتمعون حتىٰ المساء. وضاق بعبيد الله أمره وليس معه في القصر إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من الأشراف، وأهل بيته ومواليه. وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد من الباب الذي يلي دار الروميّين، والناس يسبون ابن زياد وأبيه فدعا ابن زياد كثير بن شهاب الحادثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج فيسير ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم، وأمر ابن الأشعث أن يخرج فيمن اطاعه من كنده وحضرموت فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وقال مثل ذلك لابن شور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن ابجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن الضبابي وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلة من معه.
وخرج أولئك النفر يخذلون الناس، وأمر عبيد الله من عنده من الأشراف أن يشرفوا علىٰ الناس من القصر فيمنّوا أهل الطاعة، ويخوفوا أهل المعصية ففعلوا فلما سمع الناس مقالة أشرافهم أخذوا يتفرقون. . .

إن الشجاعة الظاهرية مصدرها السلطان القابع في دمشق بجيوشه وأمواله، ولم يكن لابن زياد قضية حقيقية مقابل قضية الثورة لكي يندفع إلىٰ أبعد حدٍ محققاً احدىٰ الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

فقد كاد عبيد الله أن يتخاذل أمام هانيء لولا مهران مستشاره.

وتملكه الرعب عندما حوصر من قبل مذحج قبيلة هانيء لولا أن استنجد بشريح القاضي للادلاء بشهادة كاذبة امامها، ولولا تخاذل عمرو بن الحجاج القائد المنافس لهانيء والذي دفعته الجموع الثائرة أمامها لقصر ابن زياد للمطالبة ببهانيء، فاكتفىٰ بتقديم فروض الولاء والطاعة، واكتفى بشهادة شريح بأن هانيء كان لا يزال حياً.

كما تملكه الرعب ثانية عندما حاصره مسلم في القصر لولا أن سارع إلىٰ الاستنجاد بالإشراف ودعاهم لتخذيل الناس عن مسلم ملوحين بجيش الشام وقوة (الخليفة) المتربص هناك.

وقد أبىٰ عبيد الله ان يتصدىٰ لمسلم ويخرج لقتله عندما نصحه بعض أعوانه بالخروج فيمن معه من أتباعه وشرطه.. ورأىٰ أن القضية لا تستحق منه أن يجازف بحياته، فهل يضمن له يزيد الجنة بعدها؟ بعد أن ضمن له مكاسب عديدة بعد انجاز مهمته؟.

غير أنه عندما اطمأن إلىٰ ذهاب مسلم بعد ان لم يبق معه أحد من أهل الكوفة، أخذ يهدد أهل الكوفة مجرداً كل شجاعته وعجرفته وأعوانه داعياً الجميع لأكبر حملة تفتيش عن شخص، بدا وكأنه يشكل بمفرده خطراً حقيقياً علىٰ الدولة.. وألقىٰ خطباً نارية تهدد فيها وتوعد، وسلط رئيس شرطته الحصين بن تميم علىٰ دور أهل الكوفة دون النظر إلىٰ حرمتها.

وتم له في النهاية بعد وشاية من شاب سكير ـ هو ابن المرأة التي آوته ـ اكتشاف مكانه وتجريد قوة للقبض عليه بعد حيلة دنيئة وبعد أن أمنه قائد تلك القوة على حياته.

وبعد مقتل مسلم وهانيء قام بأكبر حملة اعتقالات للعناصر الموالية للإمام عليه السلام. ذكر بعض المؤرخين أن عدد المعتقلين تجاوز الألفين، ولعله جرد

لهذه المهمة كل ما لديه من شرطة وعرفاء وأشراف ووجهاء وعيون ونقباء وأمناء الخ مكملًا العملية بالقيام بأكبر عملية تعبئة لمواجة الإمام الحسين عليه السلام ، كما سنرىٰ في غضون هذه الدراسة بعون الله.

شجاعة أم سوء خلق

ان ما يلفت النظر عند استعراض سيرة ابن زياد هو سوء الخلق الذي امتاز به لا أمام أعدائه وحسب، وإنما أمام أنصاره والموالين له، حتىٰ وإن كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة بين قومهم، ولن نتعرض لسلوكه السيء مع هانيء ومسلم، وقد سبق أن تكلمنا عن ذلك في كتابنا، فقد يوجد التبرير اللازم لذلك وهو أنهما من أعدائه وخصومه.

لقد عاتبه أسماء بن خارجة وهو من أعوانه عتاباً خفيفاً علىٰ عدم الوفاء بعهده لهانيء، وكان أحد الذين دعوا هانئاً للحضور أمامه علىٰ أن له الامان، وقد التفت اليه ابن زياد، كأنه لا يشعر بوجوده ولم يحس به الا في تلك اللحظة التي تكلم فيها، وقال له: (وانك لهنا فأمر به فلهز وتعتع ثم ترك فحبس)[1] فترة قصيرة، مع أن أسماء قد يتبجح أمام الناس بمكانته (المرموقة) عند ابن زياد.

ومع أن محل ابن الاشعث كان مقرباً منه هو الآخر، وكان أحد وجوه وأشراف الكوفة المعروفين، الا أن ابن زياد نخسه بالقضيب في جنبه (وهو ما يفعله المرء مع حماره عادة) عندما سمع أن مسلم كان في احدىٰ دوره وأمره أن يأتي به حالًا، وقد استجاب ابن الاشعث استجابة ذليلة وقد حسب عندما استعصىٰ عليه أمر القبض علىٰ مسلم ان بامكانه إعطاءه الأمان، وفعل ذلك وأمنه، وعندما أخبر ابن زياد بما كان امانه اياه سخر منه ابن زياد وقال له: (.. ما أنت والامان، كأنّا ارسلناك تؤمنه، انما أرسلناك تأتينا به فسكت)[2].

انه يخاطبه باستعلاء وكأنه يقول له: انما أنت أحد عبيدنا وخدمنا وما عليك الا الطاعة، ونرىٰ العديد من هذه اللقطات الملفتة للنظر عندما نستعرض سلوكه قبيل معركة الطف وبعدها.

(١) الطبري ٣/٢٨٦ - ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق.

إن هذه الظاهرة تبدو لنا في سلوك أولئك الجافين الغلاظ الذين لا يحكمهم قانون سوىٰ قانونهم الشخصي ومصالحهم وامتيازاتهم وهواهم؛ وهيهات أن نجد لهذا الخلق السّيّىء أثراً لدىٰ الناس الرساليين الذي يرون أن أقل ما ينبغي أن يمنحوه للآخرين هو الخلق العالي القويم، وشتان ما بين طاغية وداعية إلىٰ الإسلام وإلىٰ اللّه.

ويبرز سوء سلوكه ببعض الفاظه البذيئة وحتىٰ مع الذين لا يستدعي الأمر معهم ذلك[1] وقد رويت لنا حوادث عديدة عن ذلك.

الشك أولًا

وثمة شيء آخر ملفت للنظر أيضاً هو حذر عبيد الله وشكه وعدم ثقته حتىٰ بالمقرَّبين منه، ومن يحسبون أنه قد أمن منهم ولجأ إليهم، فهو يدرك أن المبادىء ليست هي التي دعتهم لخدمته والسير وراءه، وانهم ربّما يتخلّون قريباً عنه لسبب أو لآخر وينحازون إلىٰ جانب عدوه إذا ما وجدوا أن الغلبة له في النهاية.

فعندما اختلىٰ مسلم بن عمرو الباهلي بهانىء بن عروة يريد أن يقنعه بتسليم مسلم إليه وجلسا (ناحية من ابن زياد، وهما منه علىٰ ذلك قريب حيث يراهما، إذا رفعا أصواتهما سمع ما يقولان وإذا خففا، خفي عليه ما يقولان. .)[2] . . فهو لا يريد أن يفلت أي منهما من مراقبته ومن نظراته، كما لم يرد أن يفلت مسلم وعمر بن سعد من نظراته أيضاً، عندما أراد مسلم قبيل مقتله أن يختار أحداً يبلغه سرّه، فاختار عمر باعتباره القرشي الوحيد الذي ينتمي بقرابة بعيدة إليه (. . فقام فجلس معه حيث ينظر إليه ابن زياد. .)[3].

---

(١) روىٰ المبرد في الكامل ٢-١٢٧ عن الرياشي قال: دخل أبو الأسود الدؤلي علىٰ عبيد الله بن زياد وقد أسنّ، فقال له عبيد الله يهزأ به: إيهٍ يا أبا الأسود، انك لجميل، فلو تعلقت تميمة ترد عنك بعض العيون. فقال أبو الأسود:

أفنىٰ الشباب الذي أفنيت جدته ... كد الجديدين من آت ومنطلقِ
لم يتركا لي في طول اختلافهما ... شيئاً أخاف عليه لذعة الحدَقِ

وروىٰ الجاحظ، البيان والتبين ٢/ ٢١١ (ان سويد بن منجوف كلمه في الهثهات بن ثور فقال له: يا ابن البضراء قال له سويد: كذبت علىٰ نساء بني سدوس، قال: اجلس علىٰ إست الأرض، قال سويد: ما كنت أحسب أن للأرض إستاً. . .)

(٢) راجع المصادر السابقة المذكورة عند الحديث عن مسلم.

(٣) المصدر السابق.

وعندما أرسل شريحاً القاضي يشهد لمذحج، قوم هانيء، بأنه حي وان عبيد الله لم يفعل شيئاً سوىٰ أن ضربه وأدبه!، أرسل معه حميد بن بكر الأحمري، وكان من شرطه، ممن يقوم علىٰ رأسه، ليرىٰ هانيء أولاً، ثم يدلي بشهادته الكاذبة أمامهم.

وقد ادعىٰ أبو موسى (شريع) ـ فيما بعد ـ أنّه لو لم يرسله ومعه (ولولا مكانه معي لكنت أبلغت أصحابه ما أمرني به)[1] هانيء وكان هانيء قد أوصاه أن يعلم أصحابه حقيقة حاله ويستنهضهم لنصرته.

وعندما أرسل الحر بن يزيد يأمره أن يجعجع بالحسين عليه السلام فلا ينزله الا بالعراء في غير حصن وعلىٰ غير ماء، قال في رسالته له (وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتىٰ يأتيني بانفادك أمري)[2].

كما بعث جويبرة بن بدر التيمي إلىٰ ابن سعد وأمره ان لم يقاتل أن يضرب عنقه وبعث شمر بن ذي الجوشن إلىٰ ابن سعد يأمره أن يعرض علىٰ الحسين وأصحابه عليهم السلام النزول علىٰ حكمه فان فعلوا فليبعث بهم إليه وان هم أبوا فليقاتلهم. وأوصىٰ شمراً أن يرىٰ مدىٰ التزام ابن سعد باوامره، فإذا نفذها (. . فاسمع له وأطع، وان هو أبىٰ فقاتلهم، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه، وابعث اليَّ برأسه)[3].

ولعل ابن زياد هنا كان متأثراً بابيه الذي يعد من (الدهاة) وبمعاوية الذي لم يطمئن إلىٰ أحد من أعوانه ومستشاريه.

قانون الطوارىء، سيف مسلط علىٰ الرقاب

وقد أدىٰ ابن زياد المهمة الأولىٰ التي عهد بها إليه يزيد، وهي التصدي لمسلم وقتله، وكان عليه استجابة لرغبة سيده أن يستمر إلىٰ النهاية فيتصدىٰ للحسين عليه السلام ويقتله أيضاً، وقد كتب إلىٰ يزيد مفتخراً بكيده ودهائه ومكره وتمكنه من انجاز المهمة بتلك الطريقة. . (، فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه، وكفاه مؤونة عدوه.

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبري ٣/ ٣١٣.

أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله ان مسلماً بن عقيل لجأ إلىٰ دار هانيء بن عروة المرادي، واني جعلت عليهما العيون ودسست اليهما الرجال وكدتهما حتىٰ استخرجتهما وأمكن الله منهما، فقدمتهما فضربت أعناقهما، وقد بعثت إليك برؤوسهما)[1].

وقد أبدىٰ يزيد رضاه التام عما قام به ابن زياد، بعد أن سأل رسوليه عن التفاصيل وكتب إليه: (. . عملت عمل الحازم، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت وصدّقت ظني بك ورأيي فيك)[2].

وفي هذه الرسالة أوصاه أن يستمر في مهمته والتربص بالحسين عليه السلام وقال له: (وأنه قد بلغني ان الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس علىٰ الظن وخذ على التهمة)[3].

وهو قانون طوارىء دائمي ينتصب سيفاً علىٰ رؤوس الناس ما دام معلناً من قبل السلطة الحاكمة نفسها التي يبدو أنها استساغت الأخذ علىٰ التهمة والاحتراس علىٰ الظن. ووجدت ان ذلك هو الأسلوب الأمثل الذي يتيح لها إذا ما أخذت به أن تستمر وتطول حياتها، وهذا شأن كل نظام فرعوني متجبر، يرىٰ أن اتباع أمثال هذه الأساليب أمر لازم لوجوده وبقائه، لأنه يدرك أنه لم يقم علىٰ أساس شرعي، وان جماهيرواسعة لا ترضىٰ عنه ولا تقبل به، لأنها تعلم أنه قانون جائر أعد من قبل سلطة وضعت نفسها موقف المعادي الدائم للجماهير التي تحسب أنَّ الدولة تبادلها العداوة، لأنها كانت البادئه بتلك العداوة حينما استغلتها وتلاعبت بمقدراتها وثرواتها وأرواح أبنائها.

وقد عمل ابن زياد بدأب وحماس علىٰ تنفيذ أوامر سيده الجديدة، فأمر بدوره جنوده وشرطته (بأخذ ما بين واقعة إلىٰ طريق الشام إلىٰ طريق البصرة فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج)[4].

ثم قام بأكبر حملة للتعبئة تقام في الكوفة لاستنفار الناس لقتال الحسين عليه السلام

(١) الطبري ٣/ ٢٩٣.
(٢) الطبري ٣/ ٣٩٣ وروى ابن الأثير ٣/ ٣٩٨ (واحترس واحبس علىٰ التهمة وخذ علىٰ الظنة)
(٣) المصدر السابق.
(٤) الطبري ٣/ ٢٩٩/ ٣٠٨.

كما أخبر بذلك الطرماح الامام الحسين عليه السلام قبل وصوله إلىٰ «عذيب الهجانات» قائلًا: (رأيت قبل خروجي من الكوفة اليك بيوم، ظهر في الكوفة جيش وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم فقيل: اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرّحون إلىٰ الحسين)[1].

لماذا اختار عمر بن سعد

وكان ابن زياد من الفطنة والدهاء، بحيث كلف عمر بن سعد للتصدي للامام عليه السلام وقتله إن أصر علىٰ موقفه المناويء لدولة يزيد، وذلك لعدة أسباب منها:

١ - أنه لمس لدىٰ ابن سعد رغبة كبيرة في خدمة الدولة ونيل رضا أسياده وكان من جملة البارزين لاعلام يزيد عن تحرك مسلم في الكوفة.

٢ - لمس فيه ضعفاً أمامه عندما لم يستطع كتم السر الذي باح له به مسلم رغم ان ابن زياد لم يجبره علىٰ كشفه، ولم يستطع ابن سعد الصمود أمام رغبته العارمة لكشف السر، وقد قال له فيما بعد: مادمت أنت الذي كشفت السر وأخبرتنا عن مقدم الحسين فكن أنت من يتولىٰ مهمة محاربته.

٣ـ كان ابن سعد مستعداً علىٰ رأس أربعة الآف مقاتل لغزو الري وليكون أميراً عليها، وهي قوة جاهزة تشكل نواة الجيش الضخم الذي جرده ابن زياد بعد ذلك، وقد أدرك ابن زياد تلهف ابن سعد علىٰ امارة الري فاستغل نقطة الضعف هذه.

٤ـ استغل ابن زياد خوف ابن سعد من سلطان الدولة، فقد سبق لمعاوية أن قتل اباه بالسم، ولم يستبعد أن يقدم يزيد أو ابن زياد وكيله في العراق علىٰ قتله بالسيف إن امتنع، وكان أي تهديد له كافياً لدفعه نحو حرب الحسين عليه السلام.

وسوف نكشف موقف ابن سعد بالتفصيل عند الحديث عن شخصيته في هذا الفصل بعون الله.

وكانت هذه الشخصية الذليلة الخانعة الطامعة في نفس الوقت هي التي استغلها ابن زياد لتنفيذ مآربه وقتل الحسين عليه السلام، ولعله كان يريد بتكليف (القرشي) الوحيد

(١) المصدر السابق.

معه بهذه المهمة أن يضفي لمسة خاصة ويصور النزاع علىٰ أنه بين أبناء قريش أنفسهم ولا شأن للآخرين به الا بقدر ما يتعلق الأمر بإطاعة (الخليفة) الذي أمرهم بقتال عدوه، وهو قرشي أيضاً، وهو أمر أريد به تأكيد مفتريات معاوية بأن الأمر أصبح الآن نزاعاً بين أولاد (المتنافسين) القدامىٰ، وأنه لم يبق إلا ابنه وأبناؤهم، هكذا..! وإنَّ ابنه خير من أبنائهم، كما أوضحنا ذلك من قبل.

ان لمسة ابن زياد هذه ربما كانت قد سرّت يزيد إلىٰ أبعد حد ورأىٰ فيها مبادرة طيبة منه عززت مكانته لديه فيما بعد رغم كل ما اشيع عن استنكاره وغضبه عليه كما رأينا ونرىٰ في الفصل القادم بعون الله.

افتراءات حول تراجع مزعوم.. مصدرها عمر بن سعد

لقد رفض الامام الحسين عليه السلام عدة عروض دعته إلىٰ وضع يده بيد ابن زياد أو مبايعة يزيد، وقد انتشرت إشاعة عمر بن سعد بأن الحسين عليه السلام طلب أن يسير إلىٰ يزيد فيضع يده في يده أو يذهب مرابطاً في أحد الثغور أو يعود من حيث أتىٰ، غير وأنَّ هذه الإشاعات ظهر زيفها.

إذ كيف يمتنع الحسين عليه السلام عن مبايعة يزيد ويرفض ذلك في كل وقت عرض عليه قبل هلاك معاوية وبعده، وبعد أن جرت محاولات محمومة مستمرة في سبيل ذلك، وحتىٰ آخر لحظة ثم يقال يمتنع عن وضع وعلىٰ لسان قاتله نفسه أنه ما كان ليمتنع عن وضع يده بيد يزيد غير أنه يمتنع عن وضع يده بيد ابن زياد.

وهل ابن زياد الا يزيد في صورة أخرى وشكل آخر؟

هل كان ابن زياد وحده ممثل دولة الظلم، ولم يكن يزيد ـ رأس هذه الدولة ـ كذلك؟ لقد رفض الحسين عليه السلام هذه الدولة كلها برموزها وأشخاصها وممارساتها، وكان الشيء الوحيد الذي يطمح إليه هو انتشال أكبر عدد ممكن من الناس من بين أنيابها وبراثنها واعادتهم إلىٰ الصواب.

وقد حاول في كل خطبه وبياناته توضيح المهمة الدقيقة التي انتدب لها وهي إزالة دولة الظلم والإنحراف وتوضيح طبيعة توجهات هذه الدولة التي انتسبت للاسلام مع انها لم تكن تمت اليه بأية صلة.

وكانت تعليمات ابن زياد للحصين وللحر بعد ذلك أن يجعجع بالحسين ولا يتركه إلا بالعراء في غير حصن وعلىٰ غير ماء تدل علىٰ أن العداوة اتخذت لها في نفسه

بعداً شخصياً، فقد كان يرىٰ أن الحسين يستهدفه هو، وكان ينطلق من عقدة حقد مقيته يرىٰ معها أن يقتل الحسين ويمثل بجُثته، مع أن هذا لم يكن يضير به عليه السلام بعد الموت. إلا أنه كان قد صمّم على ذلك وقرره امام الناس، وقرر أن يمضي في قراره إلىٰ النهاية، ان سمة الارهاب المتفردة التي تميز بها ابن زياد وأبوه من قبل جعلتهما يبرزان في هذا الشأن ويحصلان علىٰ رضا واستحسان سيديهما يزيد ومعاوية ومباركتهما لهما هذا الأسلوب الذي أصبح شائعاً بعدهما تعتمده دول الظلم وتتفنن فيه إلىٰ يومنا هذا.

كانت حجة الإمام عليه السلام واضحة لابن سعد عندما استوضحه عن سبب مقدمه الكوفة، قال الامام عليه السلام: لقد استدعيتموني ضد هذه الدولة الظالمة، وقد استجبت لذلك أما وقد تراجعتم فدعوني انصرف عنكم.

وهنا لم يرد ابن زياد أن يفرط بالفرصة الذهبية بعد أن حاصر الحسين عليه السلام بجيشه الكبير الذي استفزّه لقتاله، وعبّر عن حقده الكبير عليه ببيت من الشعر القاه شامتاً بعد أن ورد عليه كتاب عمر بن سعد، يقول فيه: (أما بعد، فاني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أتتني بهم رسلهم فأنا منصرف عنهم.

فلما قرىء الكتاب على ابن زياد قال:

الآنَ إذ علقت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولاتَ حين مناصِ)[1]

ورسالة ابن سعد هذه تناقض ما ادعاه بعد ذلك حول طلب الحسين عليه السلام للذهاب إلىٰ يزيد أو إلىٰ أحد الثغور أو الرجوع من حيث أتىٰ، ويبدو مضموناً منسجماً مع بيت الشعر الذي القاه ابن زياد هنا، إذ كيف يطلب إليه الحسين عليه السلام أن يبايع يزيد فيرفض وهي أمنية لكل أعضاء الدولة الأموية دون استثناء أن يبارك لهم الحسين عليه السلام دولتهم ويضع يده في أيديهم ليقولوا للناس بعدها: انظروا ها هو الحسين قد أقر بشرعية دولتنا، فلماذا لا يقر ذلك الجميع؟ وسيكون الظلم مبرراً عند ذلك والانحراف مشروعاً ما دام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه الحقيقي قد بارك العدو

(١) الطبري ٣/ ٣١١.

الحقيقي للأمة واعترف به خليفة عليها، بل ملكاً مطلقاً، وهل يصح هذا من الحسين عليه السلام؟ بل هل يصح هذا من أي مسلم لديه شعور حقيقي بالمسؤولية الرسالية كأصحاب الحسين مثلاً؟

هل يصح أن يتنازل الحسين عليه السلام عن هذه المسؤوليّة ويتركها ليتبنّاها أحد أفراد الأمة؟ وهل سيقوم أحد بتبّني قضايا الإسلام الرسالية المصيرية إذا ما تخلى عنها رجال أمثال الحسين؟.

كان الحسين عليه السلام يتبنىٰ قضيّة الاسلام بكاملها، وكان يريد لوجوده أن يكون الوحيد الواضح البارز في الساحة، وكان من يتصدىٰ له ويحاربه، يتصدىٰ للاسلام نفسه ويحاربه أيضاً، لقد وضع الحسين عليه السلام قضية الاسلام بمواجهة قضية الشرك الجديد الذي يدعو لفراعنة جدد، ألبسوا دعواهم هذه المرة رداء الاسلام وزيّه الخارجي وعرضوا أنفسهم علىٰ المسلمين كحماة وحيدين لهذا الدين وكمطبقين حقيقيّين لبنوده وأحكامه وتشريعاته، بعد أن وجدوا أعواناً من بين الفقهاء المأجورين ومدعي صحبه رسول الله صلى الله عليه وآله والوعاظ المرتزقين ورؤساء القبائل والأشراف والشعراء والقصاصين وواضعي الحديث والمفسرين.

وبدا اعجاب ابن زياد بقوته واستهانته بالنفر القليل الذي ضمه ركب الحسين عليه السلام وبدت عنجهيته واستهتاره اللذان اعتاد عليهما بجوابه لعمر بن سعد علىٰ رسالته التي أرسلها إليه بخصوص رفض الحسين عليه السلام الاستسلام لحكومة يزيد، (أما بعد ربطه، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض علىٰ الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية، هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا)[1].

ثم كتب اليه يأمره:

(.. أما بعد فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان)[2].

وقد استجاب ابن سعد استجابة ذليلة لاوامره وبعث عمرو بن الحجاج علىٰ خمسمائة فارس، فنزلوا علىٰ الشريعة (النهر) وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء ان يسقوا منه قطرة.

---

(١) الطبري ٣/٢١١ وابن الأثير ٣/٤١٢.

(٢) المصدر السابق.

لا تذكر الجريمة الا ويذكر المجرم، ابن زياد في الذاكرة

لقد لفتت جريمة ابن زياد الكبيرة بحق المسلمين ـ عندما أقدم بتلك الطريقة المروعة علىٰ قتل الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء ـ الانظار إليها علىٰ الدوام ؛ لا في وقت وقوع الحدث وحسب وانما طوال الفترة الممتدة من حدوثه وإلىٰ يومنا هذا، لعدة أسباب منها:

١ - ضخامة الجريمة التي استهدف بها آل الرسول صلى الله عليه وآله خاصة وفي مقدمتهم وصيه وخليفته الشرعي علىٰ الأمة، الامام الحسين عليه السلام، الذي رفض التنازل عن دوره في لفت نظر الأمّة إلىٰ الانحراف الكبير والمتسارع الذي كانت تشهده في ظل الدولة الأموية، رغم العنف الذي كان يأخذ به الأمويون أعداءهم عادة، ورغم العروض والاغراءات والتّحذيرات الموجهة له طوال ما يقارب عقد من الزمن، تركزت وازدادت بعد هلاك معاوية واستخلاف يزيد.

ورغم أن الأمة قد تخلت ظاهرياً عن قيادة آل البيت عليهم السلام، إلّا أنّها كانت تدرك أنهم كانوا وحدهم الكفيلين بتصحيح الأوضاع واعادتها إلىٰ مجراها الطبيعي وكانت تعتقد أنهم الأمل الأخير المتبقي لانجاز هذه المهمة، غير أن الأمة في الوقت الذي كانت تتمنىٰ ذلك، كانت تتمنىٰ أن يتم الأمر بارادة عليا وبفعل آخر غير ارادتها وفعلها هي، وربما كانت تتطلع إلىٰ معجزة تعيدها إلىٰ أحضان الإسلام أو تعيد الإسلام كما كان في العهد الأول لحكومة رسول الله صلى الله عليه وآله.

كان القضاء علىٰ هذا الأمل، عبر قتل الإمام الحسين عليه السلام، وهو سليل الرسالة ووصي الرسول صلى الله عليه وآله دون شك في ذلك، يعني القضاء علىٰ كل الآمال المتبقية، ويعني الاستسلام النهائي لدولة الانحراف والظلم التي بدت في أعقاب تنفيذ جريمتها قوية مزدهرة، وهذا ما أشاع اليأس بشكل نهائي، وجعل الأمة تسقط في أحضان النظريات والافكار الاستسلامية كنظرية الجبر والقدر واطاعة ولي الأمر وان كان فاسقا هذه الأفكار وجدت رواجاً كبيراً في غياب التصور الاسلامي الصحيح، وفي وجود منظّرين وفقهاء ومحدّثين ومفسرين نسبوا ذلك إلىٰ الإسلام وإلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، مما أوجد حالة من التخبط والضياع لا تزال تعاني منها الأمة حتىٰ اليوم.

٢ - الاداء المروع للجريمة، وطبيعة القائم بها والمنفّذ لها ابن زياد ـ وزبانيته من رجال الكوفة وأشرافها.

ورغم أن السلطة الحاكمة حاولت التخفيف من الحدث برمته، وأبرزته علىٰ أنه كان من الأحداث العادية المتكررة التي تحصل عادة، فإن أداء الجريمة والطريقة الوحشية التي نفذت بها جعل الجميع يتنصّلون من تبعاتها في النهاية بعد أن لمسوا الغضب الواسع والمستنكِر بشأنها، وحاول كل فرد من منفذيها ابتداء من رأس الدولة يزيد وابن زياد وابن سعد وحتىٰ أصغر جندي اشترك فيها، إلقاء التبعات علىٰ غيره وإيجاد مبررات معقولة للقيام بها.

كانت لمسة زياد الوحشية تظهر فيها، وكان، ابنه عبيد الله الذي أشبهه من بين كل من وطىء الحصىٰ ـ علىٰ حد تعبيره ـ قد ترك الأمة تعيش حالة فجيعة دائمية، وجعل كل فرد من الأمة يشعر بأنه هو المستهدف المباشر بهذه الجريمة، وقد فتحت تبريرات الجريمة المبتكرة الباب علىٰ مصراعيه دائماً أمام دول الظلم المتشابهة لجرائم مماثلة، وقد أخذ الحكّام يرفعون نفس المبررات والمزاعم والنظريّات التي رفعتها دولة الظلم الأموية الأولىٰ، لكي تفرض سلطانها وهيمنتها وانحرافها بمبررات جاهزة جعلت الدفاع عنها وتبنيها غاية كبيرة لها.

ورغم ما كان يبدو من النجاح الظاهري الذي تحققه هذه الدول لبسط سلطانها ونفوذها ورغم ما كانت تبدو عليه من قوة، فإن الهواجس والمخاوف الحقيقية تظل تساورها من ردود الفعل الغاضبة المتوقعة من جماهير الأمة المسلمة كل حين.

وقد برزت ردود الفعل تلك في ثورات متكررة كانت تستلهم من معطيات تلك الثورة الأولىٰ، وكان الثوار يرون أنهم مهما قدموا من تضحيات فان تضحياتهم لن تصل إلىٰ مستوىٰ تلك التي قدمها الامام عليه السلام وأصحابه.

وقد جرت محاولات محمومة لطمس ثورة الحسين عليه السلام والتعتيم علىٰ مشاهدها وأحداثها بحجة أنها أحداث فوظى ولا داعي بتحدّي ذكراها، لأن ذلك من شأنه أن يجلب المزيد من الحزن والكراهية والبغضاء بين المسلمين، بينما المسلمون بحاجة للتّفاهم والسلام والوئام، وهي حجج واهية، لأن من شأن مناقشة أحداث التاريخ والنظر إلىٰ مسبباتها ودوافعها والأشخاص المؤثرة فيها، أن يضعنا أمام تقييم جدي الأشخاص والاحداث علىٰ السواء، ويتيح لنا رسم منهج جديد في التعامل والحياة مبني على المصدر الصحيح الأول، حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه لا حكومة معاوية ويزيد التي كانت ولادة طبيعية للانحراف ولم تكن ولادة شرعية لتلك الحكومة الأولىٰ.

مضىٰ كل شيء الآن وانقضىٰ، ذهب الحسين عليه السلام وذهب يزيد وابن زياد وابن سعد وأشراف الكوفة وجنودها، وبقي الحدث الكبير، فكيف نقيم موقفنا منه، هل علىٰ ضوء أهمية الأشخاص؟ فمن المهم منهم هنا إن لم يكن الحسين عليه السلام نفسه؟ أم علىٰ عدالة القضية؟ فقضية من هي العادلة والصحيحة؟

هذا ما ينبغي أن نتعرّف عليه، رغم أنه واضح للعديدين منا.

لقد أريد منا أن نردد مقولات متهربة انهزامية تبعدنا عن واقعنا الإسلامي الذي ينبغي علنيا أن نعيشه، حتىٰ وان امتد بعيداً عنا في الماضي وان نقول كما قال البعض عن (الصحابة): أولئك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله اجتهدوا واختلفوا وتقاتلوا وكلهم علىٰ حق، أو أن من كان علىٰ حق منهم كان له أجران وأنَّ من كان علىٰ باطل كان له أجر، وتغلق المسألة برمتها، وكأن كل من عاش عهد رسول الله صلى الله عليه وآله هو من صحابته، وكأن كل من صحبة كان مجرداً من النزوات والرغبات والامنيات والطموحات الشخصية وغير قابل للخطأ وكأن كل ما كانوا يقومون به نابع عن اجتهاداتهم ومساعيهم وجهودهم لفهم الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله.

هكذا ونغلق السجل، ونبدأ صفحة جديدة وسجلًا جديداً.

أما كيف تكون البداية الجديدة وعلىٰ أي أساس، فهذا لا يهم ما دامت نوايانا مخلصة هكذا، ولا تميل إلىٰ أحد.!.

وكما أريد لتلك الصفحات الأولىٰ أن تطوىٰ دون تمحيص أو مناقشة أو بحث، أريد للصفحات الأخرىٰ أن تطوى أيضاً، ما دام معاوية قد ألحق بالصحابة المقربين وما دام رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال عنه بأنه أحد الأمناء الثلاثة (جبرائيل ومحمد ومعاوية) كما جاء في الحديث المزور الذي وضعه مرتزقة الدولة، وقد نُسب كل ما قام به إلىٰ الاجتهاد، ولم ينكر أحد أخطاءه غير أنهم قالوا أنه تأول فأخطأ.

هل تأول فأخطأ مرة أو مرتين أو عشرة مرات لنسكت عن ذلك ونغض النظر عن هذه الاخطاء المحدودة، أم أن حياته كانت سلسلة من الأخطاء الكبيرة المتعمدة التي لا يقع فيها الإنسان العادي البسيط لا (المجتهد الكبير والصحابي معاوية).

غير أن دولة معاوية في متناول يد الظالمين والمنحرفين علىٰ امتداد الأزمان، وتكاد تزودهم بمنهج كامل وتفصيلات مسهبة عن الاداء المنحرف المبرَّر بالاسلام

نفسه، وتزودهم بالحجج والذرائع التي يسكتون بها أعداءهم ومعارضيهم، لذلك فان الكلام عنها ممنوع الا في الحدود التي ينحاز فيها أصحاب الكلام إلىٰ هذه الدولة.

ويكاد فقهاء السلاطين ووعاظهم علىٰ امتداد التاريخ يكونون نسخة معادة من أولئك الفقهاء الأوائل الذين تُلقى عليهم كل شيء كما يُصدِّقون في كلّ شيء باعتبارهم كانوا أقرب إلىٰ وقوع الأحداث وأحدث صلة بالمصدر الرئيسي للتشريع، لذلك فهم أوثق وقولهم الفصل في اعتقاد الجَهَله، حتىٰ ذهب البعض إلىٰ الأخذ عنهم وسد باب الاجتهاد وكأن الحياة لا يوجد فيها ما يستجد ويتطلب المزيد من مقومات النظر والدراسة.

لقد سكت هؤلاء عن فعل يزيد ـ وفعله لا يستهان به علىٰ أي حال ـ لأنه من نتاج معاوية وتربيته وإعداده ولأنه جاء به وسلطه علىٰ الأمة بعدما اجتهد في ذلك ووجد أنه أصلح الناس لذلك، ولما كان معاوية ممن لا يمكن مناقشة آرائه واجتهاداته، فان النظر قد غض عن يزيد وأعوان يزيد وأعمالهم.

وبما أنَّ ابن زياد في مقدمة أعوان يزيد، بل أنَّه كان معداً من قبل معاوية نفسه كما رأينا للعب الدور الذي لعبه في قتل الحسين عليه السلام وأصحابه في الطف، كما كان مسلم بن عقبة معداً من قبله أيضاً للقيام بدور استباحة المدينة المنورة فيما بعد بواقعة الحرَّه.

فان التعرض لهما يثير الحساسية ضد معاوية نفسه، ناهيك عن يزيد.

ولم يستطع الإعلام الأموي وقف رد الفعل الكبير علىٰ الحدثين الهائلين في كربلاء والمدينة والتَّعتيم عليهما، كما لم يستطع الا أن يتراجع أمامه ويكتفي بإلقاء التبعة علىٰ المنفذين المباشرين للجريمة، الذين القوها بدورهم علىٰ آخرين ومنهم سيدهم الذي أمرهم بها.

القسوة مصدرها ونتائجها

علىٰ أننا نكرر ما سبق وأن قلناه هنا وهو: ان لمسة زياد القاسية الحاقدة برزت واضحة في سلوك ابنه عبيد الله الذي أضاف إليها لمسات شخصية أخرىٰ جديرة به، وقد أوضحنا بعض جوانب شخصيته وانحداره الذي كان يسبب له مهانة كبيرة وشعوراً بالدناءة أراد أن يعوض عنه بعرض مظاهر قوته الزائفة التي لم يكن بحاجة لاظهارها كلها لو كان يتمتع بشخصية سوية.

كانت القسوة المفرطة ومظهر استعراض العضلات، يبدو وكأنه يعبر عن شخصية ابن زياد أولًا وعن خوف الدولة من خطر صحوة الأمة علىٰ يد الامام الحسين عليه السلام.

وكانت الأساليب التي لجأ إليها ابن زياد تبدو محاولة لارضاء يزيد إلىٰ أقصىٰ حد ممكن واظهار صورة محسنة للولاء الذي يكنه أو الذي كان يدعيه له.

وكانت المظاهر الاحتفالية للجيش الضخم وبعض الممارسات البشعة التي رافقت الجريمة تؤكد حرص ابن زياد على تأكيد ولائه الشخصي ليزيد وتهديده المستمر للأمة، بأن أي فرد منها أو جماعة مهما كان مركزها وموقعها لن تنال أقل مما ناله الإمام إذا ما فكرت يوماً لتجدي الدولة والخروج علىٰ سلطانها.

هل كان ابن زياد يعلم أن أجل سيده قصير إلىٰ هذا الحد فلا يندفع معه إلىٰ ذلك المشوار الطويل الذي اندفع معه؟ وهل كان يعلم أنه سيكون ضحية من ضحايا العدالة عندما مثل دور الجلاد القاسي فيٰ معركة الطف خصوصاً؟ وهل كان يعلم أن رأسه سيقطع كما قطع رؤوس الآخرين؟

النفير العام لمواجهة الحسين عليه السلام ـ فتح خزانة المال والسلاح

قد أقيمت أكبر حملة استنفار أتيح للكوفة أن تشهدها في تاريخها منذ أن أصبحت حامية للجند بعد معركة القادسية، ولعل حجم الحملة وعدد المشاركين فيها يوحي أن الدولة (الإسلامية) كانت تستعد لمواجهة إحدىٰ الامبراطوريات الكبرىٰ، غير أنه متىٰ ما علم أن الغرض منها كان مواجهة الأفراد المعدودين الذين كانوا بصحبة الحسين عليه السلام، أدركنا مدىٰ فزع الدولة من خروجه العلني لمواجهتها، ومدىٰ الكراهية التي يكنها رموز وأقطاب هذه الدولة للرسول الكريم صلى الله عليه وآله، تجلت بعد ذلك في فلتات ألسنهم صريحة واضحة تعلن عداءها للإسلام وكفرها به.

جمع ابن زياد الناس في المسجد، وأشاد بالدولة الأموية ومنجزاتها ووعد الناس بمزيدٍ من الاعطيات إذا ما لبوا نداءه، وكانت تبدو في الخطاب لهجة من يحاول اقناع الناس باتخاذ الموقف المناسب وان الأمر موكول إليهم، ولم يبد فيه ما يدل علىٰ عزمه أخذ الناس قسراً وتسييرهم لمحاربة الامام عليه السلام، وهو أسلوب ماكر يلجأ إليه الطغاة عادة ليقنعوا أنفسهم بأن الناس ينحازون إليهم طواعية وبرغبة صادقة لأنهم أهل لذلك، متناسين أنهم قد استدرجوا الناس للخضوع لهم بمختلف الوسائل

والأساليب التي لجأوا إليها في السابق، وكان عدم الاستجابة لهم يعني لجوء الدولة إلىٰ موجة جديدة من العنف وحمامات الدم ضدهم.

قال ابن زياد في خطابه: (أيها الناس، انكم قد بلوتم آل أبي سفيان، فوجدتموهم كما تحبون، وهذا أمير المؤمنين يزيد، قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، ميمون النقيبة، محسناً إلىٰ الرعية، يعطي العطاء في حقه، وقد أمنت السبل علىٰ عهده، وأطفئت الفتن بجهده، وكذلك كان أبوه معاوية في عصره، وهذا ابنه يزيد من بعده يكرم العباد، ويغنيهم بالأموال ويزيدهم بالكرامة، وقد زادكم في ارزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفدها عليكم، وأمركم أن تخرجوا إلىٰ حرب عدوه الحسين بن علي، فاسمعوا له وأطيعوا)[1].

واتبع خطابه هذا بسلسلة من الاجراءات السريعة كان في مقدمتها توفير العطاء للناس، واعلانه النفير العام للالتحاق بجيش ابن سعد الذي كان معداً في السابق للذهاب إلىٰ الري، كما أنه قد خرج بنفسه إلىٰ (النخيل) ـ موقع بين الكوفة وكربلاء ـ وعسكر فيها، واستخلف علىٰ الكوفة أحد أعوانه عمرو بن حريث، وأصدر بياناً شديداً دعا فيه كل قادر علىٰ حمل السلاح للإلتحاق بمعسكره في النخيلة لتسريحه إلىٰ ابن سعد، وأمر أن يُقرأ بيانه في كل أرجاء الكوفة وأحيائها وسككها، وقد ورد في بيانه: (لا يبقىٰ رجل من العرفاء والمناكب والتجار والسكان الا خرج فعسكر معي. وايما رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً عن المعسكر، الا برئت الذمة منه).

ثم أن ابن زياد أمر القعقاع بن سويد بن عبد الرحمٰن المنقري بالتطواف في الكوفة في خيل، فوجد رجلًا من همدان قد قدم يطلب ميراثاً له بالكوفة، فأتىٰ به ابن زياد فقتله، فلم يبق بالكوفة محتلم الاخرج إلىٰ المعسكر بالنخيلة)[2].

ولنا أن نتصور الجو الذي صدر فيه هذا البيان والحملة التي جرت لتطبيقه، فابن زياد كان يعيش حالة احتفالية سببها تغلبه علىٰ مسلم وهانيء وقتلهما، ثم قيامه بسجن اعداد كبيرة من المعارضين أو ممن كان يحتمل قيامهم ضده، وفي جو الارهاب ذلك الذي كان الجميع يدركون فيه أنه ما كان ليتورع إلىٰ اللجوء إلىٰ أشد الاساليب دموية وعنفاً، وبعد ان سلط منفذيه وعرفاءه وشرطته وأشرافه وشيوخ القبائل الذين كانوا

(١) الأخبار الطوال للدينوري ٢٥٣ ومقتل الخوارزمي ١ـ ف ١١.
(٢) انساب الاشراف ـ البلاذري ٣ – ١٧٨.

يدينون بالولاء له، وعيونه وشرطته السرية الذين بثهم بين الناس، وبعد أن لوّح بدراهمه، وخرج بنفسه لاستعراض الجيش الذاهب (للمعركة).

لنا بعد كل هذا أن نتصور (النجاح) الذي حققه ابن زياد في استنفار كل قادر علىٰ حمل السلاح في الكوفة للذهاب إلىٰ كربلاء، ولم يكتف بالاعداد التي كانت مع ابن سعد، لأنه ربما احتمل تغير مواقف بعض الناس وانحيازهم للحسين عليه السلام وذلك ما يرجح المعركة ضده في النهاية، وقد أراد الكوفة أن تنتقل كلها إلىٰ كربلاء يقودها أعوانه ورجاله الذين لم يكن يشك في ولائهم ووقوفهم إلىٰ جانبه.

(خرج شمر بن الجوشن السلولي في أربعة آلاف والحصين بن نمير السكوني في أربعة آلاف، ومضاير بن رهينة في ثلاثة آلاف وكعب بن طلحة في ثلاثة آلاف ويزيد بن الركاب في الفين ونصر بن حرشه في الفين وحجار بن أبحر العجلي في ألف وشبث بن ربعي في الف)[1] فأصبح عدهم مع جيش ابن سعد والحر خمسة وعشرين ألفاً. واستمر بارسال من يلتحق به في النخيلة إلىٰ ابن سعد في كربلاء. وقد وردت روايات عديدة عن العدد النهائي للجيش. وتراوح العدد المذكور فيها بين ثلاثين ألفاً ومائة ألف.[2]

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٤ـ ٩٨ ومقتل الخوارزمي ١ـ ف ١١ وأنساب الاشراف للبلاذري ٣ـ ١٧٨ وقيل أن شبث تمارض وحاول التنصل من مهمة الخروج إلا أن زياد هدده وأمره أن يخرج بألف فارس من أصحابه. ففعل.

(٢) فقد ورد في مناقب ابن شهر آشوب أنهم كانوا خمسة وثلاثين الفا. وفي شرح شافية أبي فراس خمسين ألفاً، وفي سفينة النجاة للعيناتي سبعين الفا وفي تحفة الأزهار لابن شدقم ثمانين الفاً وفي هامش تذكرة الخواص مائة ألف أو أكثر... ومن المرجح ان عدد الفرسان الذين ذهبوا بقيادة شمر والحصين ومضاير وكعب ويزيد ونصر وحجّار وشبث مضافاً إلىٰ جيش ابن زياد ومن التحق به بعد ذلك بلغ ثلاثين ألفاً استنفروا بسرعة لمحاصرة الامام ...٥ وقد تكون اعداد الرجّالة وأصحاب الامدادات وأصحاب الحرف ومساعدي الفرسان والخدم وبائعي السلاح والسيّاس وغيرهم قد صعدت بالعدد النهائي إلىٰ أكثر من مائة الف... وقد ورد عن الامام زين العابدين ٥ وهو أوثق شاهد علىٰ هذه الحرب المجزرة قوله: (لا يوم كيوم الحسين، ازدلف اليه ثلاثون الف رجل يزعمون انهم من هذه الامة كل يتقرب إلىٰ الله بدمه، وهو بالله يذكرهم فلا يتعظون حتىٰ قتلوه بغياً وظلماً وعدواناً) ووردت رواية أخرىٰ عن الإمام الصادق ٥ أن الحسن خاطب أخاه الحسين ٥ قائلاً: (... لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، =

وبعد أن وثق ابن زياد من اجراءاته واستحكاماته وانحياز قادته وثبات الموقف إلىٰ جانبه، أرسل إلىٰ ابن سعد يحثه علىٰ منازلة الإمام ومنعه الماء.

وتنفيذاً لامر ابن زياد (بعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج علىٰ خمسمائة فارس، فنزلوا علىٰ الشريعة، وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يُسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث)[1] وذلك رغم محاولات بعض أصحاب الحسين عليه السلام لثنيه عن ذلك.

وكانت تلك خطة لئيمة أريد بها اجبار الحسين عليه السلام علىٰ الاستسلام، إذ كيف يتسنىٰ لمن كان في ركبه من النساء والاطفال الاستغناء عن الماء في ذلك الجو الحار.. ناهيك عن الآخرين من أصحابه.

وقد روي أن الحسين عليه السلام حفر بئراً فشرب منه هو وأهل بيته وأصحابه بأجمعهم، وملأو أسقيتهم، ثم غارت العين فلم ير لها أثر.

وكان يبدو من سياق الحوادث أن هناك من كان يتابع الأخبار وما يجري في كربلاء ويتصل بابن زياد اتصالاً مباشراً لينقلها إليه، ويبدو أن خبر ذلك وصل إليه، وقد استنفره إلىٰ حد بعيد فكتب إلىٰ ابن سعد رسالة شديدة اللهجة أيضاً:

(بلغني أن الحسين يحفر الآبار ويصيب الماء، فيشرب هو وأصحابه، فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فامنعهم من حفر الآبار ما استطعت وضيق عليهم ولا تدعهم أن يذوقوا من الماء قطرة، وافعل بهم كما فعلوا بالزكي عثمان)[2].

وهذه ثاني إشارة إلىٰ عثمان، وهي اشارة خبيثة موحية، لا علاقة لها بالمسألة كلها؛ غير أن الاعلام الأموي عرض قضيّة منذ البداية علىٰ أساس المطالبة بدم عثمان ورفع قميصه أمام أهل الشام، وصوّر الأمر وكأن أمير المؤمنين وأولاده هم

=يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل، يدعون أنهم من أمة جدك محمد صلى الله عليه وآله وينتحلون دين الاسلام، فيجتمعون علىٰ قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك ونسائك وانتهاب ثقلك) أمالي الصدوق م ٧٠.

(١) الطبري ٣/ ٣١١ عبر الامتناع عن نصرته ومناقب شهر آشوب ٤ـ ٩٧ وارشاد المفيد ـ ٢١١ وانساب الاشراف ٣ـ ١٨٠ ونهاية الارب ٢٠ـ ٤٢٨.

(٢) مقتل الخوارزمي ١ـ ف ١١ ومقتل العوالم للبحراني ٧٨ والبحار ٤٤ـ ٣٨٨ والايقاد للعظيمي ص ٥٨.

المحرضون الرئيسيون علىٰ قتله متناسين ما أشاعوه وما روي عن قيام الحسنين عليهما السلام بحراسة باب عثمان خوفاً عليه من هجمات الثوار، ومتناسين القاتل الحقيقي لعثمان والذي كان هو معاوية نفسه.

وكانت لذلك سابقة أخرىٰ عندما حاول معاوية منع أمير المؤمنين عليه السلام وجنده الماء في صفين بنفس الحجة[1]، إذ لابد لهم من قضية بمواجهة القضية التي رفعها أمير المؤمنين عليه السلام ومن بعده الإمام الحسين عليه السلام.

ولم يسع ابن سعد أيضاً إلّا الاستجابة الذليلة لسيده، ففعل ما أمره به.

خصومة الجبناء ــ بين ابن سعد وشمر

وتثير (الخصومة) التي جرت بين ابن سعد والشمر، سخرية المطلع علىٰ أحداث تلك الفترة.

فابن سعد كان علىٰ رأس جيش مستعد للذهاب للري، وابن زياد يأمره ليكون هو المتولي قتال الحسين.

ورغم استجابته الذليلة فإنه كان يطمع باقناع الحسين عليه السلام بالتنازل عن قضيته وإقناع ابن زياد بالتّساهل معه وفسح المجال للحوار والتفاهم، ناظراً للقضية كلها من وجهة نظره الخاصة.

وإذ اشتد ابن زياد عليه وطالبه بالتشديد علىٰ الحسين عليه السلام ومنعه الماء وأرسل اليه الشمر ليأمره بحسم الأمر والتصدي للامام، فإنه حسب ان ابن زياد كان يتصرف بوحي من الشمر وبنصائح منه، وهو ما أغاظه.. لأنه سيتحمل مسؤولية قتل الحسين عليه السلام امام الأمة بعد أن يتبرأ من ذلك القتلة الآخرون..

ورغم أنه يعلم أن الجريمة التي كان سيقدم عليها كبيرة، وانها ستكون وصمة في جبينه يتحمل وزرها شخصياً كمنفذ مباشر، إلا أن طمعه بولاية الري وخوفه من ابن زياد كانا أكبر من خشيته من تحمل عار تلك الجريمة.

---

(١) فقد روىٰ الطّبري ان الوليد بن عقبة قال لمعاوية يحثه علىٰ الاستمرار بمنع أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الماء (امنعهم الماء كما منعوه عثمان بن عفان... حصروه أربعين صباحاً يمنعونه برد الماء، ولين الطعام، اقتلهم عطشا. قتلهم الله عطشاً) الطبري ٣/ ٨٦ وقد رأينا في هذه الدراسة من كان القاتل الحقيقي لعثمان.

وعندما قدم عليه امر ابن زياد عن طريق الشمر للاستمرار بتنفيذ مخطط الجريمة والاسراع بذلك، والا التخلي عن القيادة واسنادها للشّمرقال له: (لا ولاكرامة لك، وأنا أتولىٰ ذلك..)[1]

كان جديراً به وقد غضب أن لا يمضي بمهمته إلىٰ النهاية وأن يعصي ابن زياد، غير أنه لم يستطع أن ينفس عن غضبه الجبان الا بتلك الكلمات التي وجهها للشمر، وحسب، ولعله أراد بذلك أن يظهر نفسه كصاحب موقف أمام جيشه السّاخر منه ولا شك، أو إلقاء تبعة الجريمة علىٰ الشمر، كما حاول ابن زياد إلقاءها عليه فيما بعد وحاول يزيد إلقاءها على ابن زياد.

كانوا كلهم يدركون بشاعة ما سيقدمون عليه، وأنه سيشكل ادانة دائمة لهم، غير أن مطامعهم الشخصية كانت أقوىٰ من شعورهم بالخزي أو العار الذي سيلحقهم فيما بعد، فما بدا لهم محققاً هو أنهم سيتمتعون بملك طويل عريض اذا ما أنجزوا جريمتهم، أما الحساب فأمر محتمل ربما كانوا يعتقدون أنهم لن يتعرضوا له فيما بعد.

(اتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟)

وحسب ابن زياد ـ عندما عرض عليه شمر وعبد الله بن أبي المحل ـ وكانت عمته ام البنين والدة العباس وأخوته عليهم السلام ـ ان يكتب لهم أماناً، أنه سيستطيع شق معسكر الحسين عليه السلام إذا ما استجاب اخوته لأمانه وتركوه، وقد سارع لكتابة هذا الامان، الا أن العباس عليه السلام فوت عليه الفرصة وأجاب شمراً عندما أخبره أنهم آمنون، وشاركه في ذلك أخوته قائلين للشمر، (لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟)[2].

وبذلك سجلوا في هذا الموقف الدقيق، موقفاً كبيراً لا يمكن أن ينسىٰ حتىٰ من قبل ابن زياد نفسه..

(١) الطبري ٣/ ٣١٤ وابن الأثير ٣/ ٢٨٤ والخوارزمي ١ ف ١١ والبحار ٤٤ ٣٩٠ـ ٣٩١ والارشاد ـ ٢١٣ والايقاد ـ ٥٧.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٤ وراجع المصادر السابقة..

(لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد) ـ إعلان المنتصرين

وحسب ابن زياد أنه كان يرىٰ المشهد الختامي من معركته مع الحسين عليه السلام، عندما نفذت أوامره وقطعت رؤوس الحسين وأصحابه عليهم السلام وطيف بها في شوارع الكوفة وأزقتها، ووضع رأس الحسين عليه السلام بعد ذلك بين يديه، فكانت فرحته غامرة (بانتصاره) التام!!.

فهذه الرؤوس بين يديه، أما الاجساد فقد تركت في كربلاء بعد أن داستها الخيول وشوهت معالمها، وهل نصر ابلغ من هذا النصر، وقد حقق ما أمره به سيده بكفاءة عالية وبفترة قياسية قصيرة.

ولم يبق عليه لكي يكمل مراسيمه الاحتفالية الا أن يتوج ذلك باستعراض عائلة عدوه أمام حشد من أشراف الكوفة، يتشدق أمامها بانتصاراته وعدالة قضيته سيده يزيد، وقد حسب أنه متىٰ ما تكلم وأشاد بنفسه وبدولة الظلم التي يتزعمها يزيد دون أن يجرؤ أحد ـ حسب ظنه ـ بمقاطعته، فإنه سيسجل نصراً آخر أمام أهل الكوفة، وسيخرس الألسنة إلىٰ الأبد بعد أن هزم (المغلوبين) في المعركة التي حشد لها كل قادر علىٰ حمل السلاح من أهل الكوفة.

كان ابن زياد مهزوماً في داخله وان حاول أن يقنع نفسه بأنه كان منتصراً، وكان أي إعلان من الحسين عليه السلام في ساحة المعركة وقبلها عن نفسه وقضيّة يشكّل طعنه مباشرة لابن زياد نفسه، فعندما كان يذكرهم بأصله ومَن هو وبقضيته كان يضع أمامهم الطلقاء وأبناءهم، وأبناء البغي والزنا (وقضيتهم) التي تبنّوها عندما تبنّوا حرب الإسلام.

وكان رفض الحسين عليه السلام القاطع الاستجابة لابن زياد ووضع يده في يده لكي يأخذه مغلوباً مقهوراً ليزيد يثير فيه كوامن الحقد والكراهية حتىٰ ليحسب أنه كان المستهدف الأول في تلك الثورة، وقد صرح الحسين عليه السلام بذلك عدة مرات في مواقف ما كان ليصمد فيها غيره وغير أصحابه:

(لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد)[1]

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٩ـ ٣١٥.

(أفتشكون أني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، انا ابن بنت نبيكم خاصة)[1].

(اللهم إني أحمدك علىٰ أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين)[2]

كان النسب العالي والقضية العادلة يقفان بمواجهة النسب المشبوه والقضية الخاسرة كما كانت صيحات أصحاب الحسين أمثال زهير بن القين تشكل ادانة شخصية وتشخيصاً دقيقاً للحالة الشاذة التي أفرزت تولية ابن زياد وجعلت الدولة ترصده دون غيره لمواجهة الامام الحسين عليه السلام.

وكان مما قاله زهير لجيش الكوفة (ان الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيّه محمد صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنَّا ندعوكم إلىٰ نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد، فانكم لا تدركون منهما الا سوء سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم علىٰ جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانىء بن عروة وأشباهه)[3].

ولم يكن ابن زياد ممن يغفل عن متابعة تفصيلات ما يجري في الساحة عن طريق عيونه وجواسيسه، ولم يكن ممن يتسامح لامثال هذا التعرض لشخصه وشخص والده، ولا بد ان حقده يزداد علىٰ أولئك الذين يرفضونه رغم وقوعهم بيديه، وهو ما لم يستطع فهمه وهضمه.

جزاء القاتل: اقتلوه أيضاً

وقد جرىٰ موقف طريف بخيمة ابن سعد، فقد قدم سنان بن أنس، أحد قتلة الحسين عليه السلام، وقيل أنه هو الذي طعنه بالرمح فوقع وأنه هو الذي نزل إليه واحتز رأسه بايعاز من شمر، قدم سنان هذا إلىٰ خيمة ابن سعد بعد أن حرضّه جماعة علىٰ ذلك قائلين: (قتلت الحسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، قتلت أعظم

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبري ٣/٣١٩.

الناس خطراً، جاء إلىٰ هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فأت امراءك فاطلب ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلًا.

فاقبل علىٰ فرسه وكان شجاعاً شاعراً، وكانت به لُوثه، فأقبل حتىٰ وقف علىٰ باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادىٰ بأعلىٰ صوته:

أَوقــر ركــابــي فــضــة وذهــبــا   أنــا قــتــلــت الــفــارس الــمــحَّــبــا

قــتــلــت خــيــر الــنــاس أمّــا وأبــا   وخــيــرهــم اذ يــنــســبــون نــســبــا

فقال عمر بن سعد: أشهد أنك لمجنون ما صححت قط، أدخلوه عليَّ، فلما أدخل حذفه بالقضيب ثم قال: يا مجنون، أتتكلم بهذا الكلام! أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك)[1].

كان ابن سعد يدرك دناءة أصل ابن زياد، وأنه اذا ما جوبه بمثل هذا الكلام فإنه سينزعج وقد يكون رد فعله عنيفاً أمام أتباعه وحاشيته الذين يحاول أن يتعالىٰ عليهم. وربما سينزعج ابن زياد منه هو إذا سمع لامثال هذا المهوس أن يتلفظ بأمثال تلك الكلمات.

وقد روي أن ابن زياد قد حرم ابن سعد فعلًا الجائزة التي وعده بها وهي ولاية الري فكان يردد بعد ذلك: (ما رجع أحد إلىٰ أهله بشر مما رجعت به، أطعت الظالم الفاجر ابن زياد، وعصيت الحكَمَ العدل، وقطعت القرابة الشريفة)[2]

كما أن توقعاته بخصوص سنان بن أنس ـ فقد قيل أنها تحققت أيضاً.

(فقد دخل علىٰ عبيد الله بن زياد بعد يوم عاشوراء بيومين، وهو يرتجز بقوله، فقال له ابن زياد: فان كان خير الناس أما وأباً فلم قتلته؟

وأمر، فضربت عنقه)[3].

ولم يشفع له ولاؤه وطاعته، فخير الناس أماً وأباً يذكر الناس علىٰ الدوام بشرهم أمّا وأباً.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٣٥ علىٰ أن العديد من المصادر تشير إلىٰ أن شمرا كان هو الذي احتز رأس الحسين عليه السلام كما سنتطرق إلىٰ ذلك.

(٢) أنساب الاشراف ـ البلاذري ٣ـ ٢١١.

(٣) نهاية الارب للنويري ط القاهرة ٢٠ـ ٤٦١ والعقد الفريد ٥/ ١٢٧.

وكان جديراً بابن زياد الا يقتله لئلا تتذكر الناس دناءة أصله كلما ذكروا هذه القصة.

الوعود كانت كاذبة، صغرت النفوس فهانت

ومن الطريف أيضاً أن نذكر هنا أن القبائل المشاركة بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام قد تسابقت للحصول علىٰ حصتها من الرؤوس لأخذها إلىٰ ابن زياد لكي ينال أشرافها من حظوته وأمواله، إلا أنه وقد أدرك هوانهم وصغر نفوسهم أجاز البعض منهم جائزة يسيرة، وحرم الباقين، مدركاً أنهم قد قنعوا من الإياب بالسلامة وبنظرة رضا يرمقهم بها، وحتىٰ هذه لم يحصلوا عليها فيما بعد.

عندما يملك العبد: اقتلوا الشيخ المحتجّ

ولعل ابن زياد لو كان صاحب قضية حقيقية لاكتفىٰ بما حققه في جريمته الطف ولما حاول المضي في جريمة إلىٰ الحد الذي يمضي فيه إلىٰ ضرب رأس الحسين عليه السلام بعصاه أمام الناس كأنه يأسف علىٰ عدم قيامه شخصياً بقطعه.

فقد روىٰ حُميد ابن مسلم ـ وهو أحد جنود ابن سعد ـ سرحهم إلىٰ أهله (ليبشرهم بفتح الله عليه وبعافيته)، وقد دخل ضمن الوفد الذي أرسله ابن سعد لابن زياد، قال حميد: (.. فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيَّتيه ساعة[1]، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب، قال له: أُعلُ بهذا القضيب عن هاتين الثَّنيَّتين، فو الذي لا إلٰه غيره لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ هاتين الشفتين يقبلهما، ثم انفضخ الشيخ يبكي؛

فقال له ابن زياد: أبكىٰ الله عينيك، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك؛ قال: فنهض فخرج.

فلما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن أرقم قولًا لو سمعه ابن زياد لقتله، قال: فقلت: ما قال؟

قالوا: مرّ بنا وهو يقول: ملَّكَ عبدٌ عبدا، فاتخذهم تلدا؛ أنتم يا معشر العرب

(١) (ويقول: ان أبا عبد الله قد كان شمط) الطبري ٣/ ٣٠٠.

العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمَّرتم ابن مُرجانه، فهو يقّتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل)[1]

كان احتجاج الصحابي الشيخ على ابن زياد وأهل الكوفة بالغاً، وقد حدث ما توقعه وتوقعه الحسين عليه السلام من قبله ومن قبلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام فالاستكانة للظلم والانحراف والسكوت عنهما، سيجعلان الظالم يتمادىٰ إلىٰ أبعد حد، ولن تكون لأحد في نظره قيمة إذا ما أقدم علىٰ قتل من يتفوق عليهم جميعاً نسباً ومكانة وعلماً.

وكان احتجاج أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لا يقل قوة عن احتجاج الصحابي الأول، لفظه بوجه ابن زياد عندما صعد هذا الأخير المنبر والقىٰ كلمة مدح فيها يزيد وسب الحسين وأمير المؤمنين عليه السلام، فقد (وثب اليه عبد الله بن عفيف الأزدي ـ ثم الغامديٰ ـ ثم أحد بني والبة ـ وكان من شيعة علي عليه السلام وكانت عينه اليسرىٰ ذهبت يوم الجمل مع علي، فلما كان يوم صفين ضرب علىٰ رأسه ضربة وأخرىٰ علىٰ حاجبه، فذهبت عينه الأخرىٰ، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلي فيه إلىٰ الليل ثم ينصرف.

فلما سمع مقالة ابن زياد، قال: يابن مرجانة، ان الكذاب بن الكذاب أنت، وأبوك، والذي ولاك وأبوه؛ يابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلّمون بكلام الصديقين! فقال ابن زياد: عليَّ به، فوثبت عليه الجلاوزة فأخذوه، فنادىٰ بشعار الازد: يا مبرور، وحاضر الكوفة يومئذٍ من الأزد سبعمائة مقاتل. فوثب اليه فيتةٌ من الازد فانتزعوه فأتوا به أهله، فأرسل إليه من أتاه به، فقتله وأمر بصلبه[2] رغم قومه الذين كانوا يحيطون به، والذين قدموا خدمات كبيرة لابن زياد حينما شاركوا جيشه بقتل الامام وأهله عليهم السلام.

فلم يعد ابن زياد يرىٰ أمامه أحداً، فالكل قد خضعوا له واستسلموا، ولم يعد أحد يجد أن له قبيلة يمكن أن تمنعه البطش والظلم. كانت قوة القبيلة تقاس بمدىٰ ولائها للحاكم وقربها منه واستسلامها له.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٦ وابن الأثير ٣/ ٤٣٤ وراجع الصواعق المحرقة ١١٨ وابن كثير ٨/ ١٩٠ ومجمع الزوائد ٩/ ١٩٥ وتاريخ ابن عساكر ٤ـ ٣٤٠.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٣٨ وابن الأثير ٣/ ٤٣٦ (وأول رأس رفع علىٰ خشبة رأس الحسين رضي الله عنه وصلىٰ الله علىٰ روحه) الطبري ٣/ ٣٠١ وابن الأثير ٣/ ٤٣٦.

أمام الحسين عليه السلام الذي بدا وحيداً الا من القلة من أصحابه، بدت القبائل قوية وذات شوكة، وأمام ابن زياد الذي بدا وكأن الجميع يحيطون به، تصاغرت أكبر القبائل وتضاءلت حتىٰ لم تعد ترىٰ نفسها شيئاً أمامه، وكان ابن زياد يدرك ذلك منذ أن رأىٰ انحياز أشرافها ورؤسائها إلىٰ جانب دولة الظلم الاموية دون تحفظ أو حدود، ومنذ أن رأىٰ الذلة والصغار في جباه أولئك الاشراف والرؤساء الذين لم يكن يهمهم سوىٰ رضاه عنهم وابتسامته في وجوههم.

ولم يكن ابن زياد يجازف عندما عامل أكبر قبيلة من القبائل تلك المعاملة السيئة التي اشتهر بها.

التنصل من الجريمة

(ثم ان عبيد الله بن زياد نصب رأس الحسين بالكوفة، فجعل يدار به في الكوفة، ثم دعا زحر بن قيس فسرّح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلىٰ يزيد بن معاوية)[١]

وقد حاول يزيد، أمام تصاعد النقمة عليه حتىٰ من داخل بيته أن يتنصل من الجريمة ويلقي بتبعتها على ابن زياد وحده، وقيل أنه قال لزحر: (قد كنت ارضىٰ من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه)[٢]، وهو قول فيما يبدو مفتعل موضوع علىٰ لسان يزيد اريد به تبرئته من الجريمة وهو يناقض ما فعله، مما روي لنا باسانيد موثوقة.

وكان فعل ابن زياد برفع رأس الحسين ورؤوس أصحابه علىٰ الخشب والدوران بها في الكوفة لا يقل عن فعله عندما أمر ابن سعد بقتله والتمثيل بجثته[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وكان ابن زياد قد بعث إلىٰ ابن سعد يحثه علىٰ أخذ البيعة من الامام الحسين عليه السلام ليزيد قائلاً: (.. انظر، فإذا نزل حسين وأصحابه علىٰ الحكم واستسلموا، فابعث بهم اليَّ سلما، وان أبوا فازحف اليهم حتىٰ تقتلهم وتمثل بهم، فانهم لذلك مستحقون. فان قتل حسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم وقد نفذ ابن سعد الأمر، وأمر أصحابه (فأتوا، فداسوا الحسين بخيولهم حتىٰ رضّوا ظهره وصدره) الطبري ٣/ ٣٣٥ - ٣١٣ وابن الأثير ٣/ ٤١٤ والمسعودي ٣/ ٧٧.

التظاهر بالعظمة محاولة للتعويض عن دناءة الأصل

ويبدو من دراسة شخصية ابن زياد ومواقعه المختلفة أنه كان مصاباً بداء العظمة بشكل لم يكن يرجىٰ له شفاء منه، ولعل متابعة سير طغاة التاريخ ترينا أن معظم من أصيب بهذا المرض الخطير الذي يترك آثاره علىٰ فئات كثيرة من الناس. خصوصاً إذا ما كان يحتل مركزاً مرموقاً، هم من أولئك الذين يتنابهم الشعور بالدونيّة والضِّعة. متأتٍ من نسب الأهل الذَّميم أو مركزهم الاجتماعي المتدني، فيحاولون التعويض عن ذلك باللجوء إلىٰ أساليب وانماط من السلوك والحياة غير مألوفة والتظاهر بما لا يرىٰ الانسان العادي حاجة اليه.

ولم يكن ابن زياد ممن يرتاح إلىٰ الأصل الذي ادعاه معاوية لآل زياد، وكان يشعر بهوان من ذلك، خصوصاً وأنه يُجابه دائماً بأصله الصحيح. وربما كان ابن زياد يرىٰ أن ذلك الأصل (الصحيح) المتدني كان أجدر أن يحقق له بعض الراحة النفسية لو لم يشهر معاوية قضية زياد بين جماهير المسلمين في كل اقطارهم مخترقاً بذلك قانوناً إسلامياً واضحاً. وواضعا آل زياد كلهم موضع الهزء والسخرية المعلنة والمكبوتة.

ولعل ابن زياد كان يرى ـ وهو ليس من الاغبياء ـ في كل نظرة موجهة اليه، سخرية كامنة وادانة لعمل لم يتركبه هو. وان جنىٰ من وراثة المكاسب والارباح، وربما كان يحسد حتىٰ أولئك الذين لم يحصلوا علىٰ ما حصل عليه من جاه وسلطان وثروة، علىٰ نسبهم الذي لم يكن محل مهمة ونقاش بين الناس.

ولعل أغلب كرهه للحسين عليه‌السلام خاصة، بعراقة من معرفته بعرافة نسب الامام وطهارة مولده ومنزلته الخاصة من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وشهادة القرآن والرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بحقّه وبحق آل البيت عموماً.

يظهر حقد ابن زياد ـ وهو من اقطاب النظام الاموي ـ في الكوفة فيحاول تشويه قضية الامام الحسين عليه‌السلام وقضية أمير المؤمنين عليه‌السلام وقضايا الاسلام عموماً، بما ينسجم ورغبات الدولة ونزعتها (للتحرر) من الاسلام، فإنه لم يكن من الغباء بحيث أنه لم يكن يعلم من هو الحسين وما هي منزلته من الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ومن المسلمين، كما لم يكن معاوية وزياد من قبل يجهلان ذلك.

إلا أنهم تبنّوا قضية مزورة مشوهة حمّلوا فيها أمير المؤمنين عليه‌السلام مسؤولية دم عثمان وأعلنوا أنفسهم ولاةً للدم، وأهلًا للشيخ المقتول، واستدرجوا فئات كبيرة من

الناس كانت مصالحهم تتحد مع مصالحهم، وأعلنوا الحرب علىٰ الاسلام بحجة اعلان الحرب علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام وقد رأينا أن معاوية كان المسؤول الأول عن قتل عثمان، ومشاركه في المسؤولية نفس أولئك الذين كانوا من أشد المحرضين عليه والساعين إلى قتله.

وكذلك محاولة التقليل من شأن الآخرين

وبقدر ما كان ابن زياد يحاول الرفع من شأن نفسه أمام الناس بادعاء العظمة والتظاهر بها، فقد كان يحاول التقليل من شأن أعدائه، وكان ينتهز الفرص التي يحسب نفسه متفوقاً فيها أو منتصراً ويحسب اعداءه مهزومين أو خائفين لمحاورتهم أملًا بتحقيق غلبة أخرىٰ عليهم، غير أنه غالباً ما يهزم بتلك المعارك رغم عنجهيَّة وقسوته وأوامره بالقتل، وقد رأينا موقفه المتشنج من هانيء ومسلم وحواره معهما، وفشله وهزيمته، وربما أراد أن يعوض عن ذلك بحوار آخر مع آل الحسين عليه السلام عسىٰ أن يحقق نصراً هذه المرة.

(.. فلما دخل برأس الحسين وصبيانه وإخوانه ونسائه علىٰ عبيد الله بن زياد، لبست زينب ابنة فاطمة ارذل ثيابها وتنكرت، وحفت بها إماؤها، فلما دخلت جلست. فقال عبيد الله بن زياد: من هذه الجارية؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثاً كل ذلك لا تكلمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة.

فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم، وأكذبَ أحدوثتكم!.

فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وآله وطهرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت، انما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر.

قال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟.

قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلىٰ مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجّون اليه، وتخاصمون عنده[1]

---

(١) وروي في اللهوف ص ٩٠ أنها قالت له أيضاً: ... فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يابن مرجانة.. وروى المبرّد في الكامل ٣/ ١٤٥ أنه قال لها: ان تكوني بلغت من الحجة حاجتك، فقد كان أبوك خطيباً شاعراً! فقالت: ما للنساء.

فغضب ابن زياد واستشاط.

فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير! إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها!

انها لا تؤاخذ بقول، ولا تلام على خطل!

فقال لها ابن زياد: قد أشفىٰ الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك، فبكت، ثم قالت: لعمري، لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطّعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا، فقد اشتفيت.

فقال لها عبيد الله: هذه شجاعة، قد لعمري كان أبوك شاعراً شجاعاً[1].

قالت: ما للمرأة والشجاعة! ان لي عن الشجاعة لشغلا، ولكنّ نفثي ما أقول)[2].

وكما هزم أمام هانيء ومسلم هزم أمام زينب هنا، وهزم أمام زين العابدين أيضاً، لجأ معهما الىٰ ما لجأ اليه من قبل باللجوء الىٰ الشدة والتهديد بالقتل، وربما لم يكن ير مانعاً من قتل زينب كما فعل ببعض النساء الخارجيات وفعل أبوه من قبل أيضاً.

وربما أراد تدارك فشله أمام زينب حينما راح يصفها بأنها (شجاعة) أو (سجّاعة) ـ كما ورد في بعض الروايات ـ وانها (شاعرة)، كأبيها أمير المؤمنين عليه السلام، وكأن أمير المؤمنين كان مشهوراً بالشعر أو السجع أو الشجاعة ومقاتلة الاقران فقط وكأن مواهبه كانت محدودة بما وصفه به ابن زياد!!.

كان يحسب أنه سيجد امامه امرأة خائفة مرعوبة تستعطفه وترجو الابقاء علىٰ حياتها بعد أن شهدت بطشه وحمام الدم الذي أقامه لآلها ورجالها، لكنه وجد أمامه امرأة صاحبة قضية كبيرة، هي قضية أخيها الحسين عليه السلام نفسها.

فهي لم تترك بيتها وتدفع ولديها بين يدي الحسين عليه السلام دون هدف معيّن،

---

(١) وروي أنه قال لها: هذه سجّاعة. ولعمري لقد كان أبوها شاعراً سجّاعاً فقالت زينب: يا ابن زياد وما للمرأة وللسّجاعة. وان لي عن السجاعة لشغلاً، ولكنّ صدري نفث بما قلت. البحار ٤٥ – ١١٦ والارشاد ٢٥٩ واللهوف ص ٦٧.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٧ وابن الأثير ٣/ ٤٣٥.

ولعلها كانت ترىٰ الجوانب التي كان يراها أخوها من القضية، وكانت بمسيرتها الملحمية معه طوال الاشهر الماضية تعد نفسها لأخذ دور كبير لإعلان الثورة واستمرارها وديمومتها ـ كما سنرىٰ بعون الله ـ عند التعرض لشخصيتها ودورها في المعركة.

(إنتصار) المهزومين

وقد حسب ابن زياد بعد فشله مع زينب وهزيمته أنه سيحقق نصراً مع زين العابدين عليه السلام الذي كان مريضاً خلال المعركة مرضاً منعه من المشاركة فيها.

وكان زين العابدين ـ باتفاق معظم المؤرخين ـ شاباً في الثالثة والعشرين من العمر، وقد كاد يتعرض للقتل عدة مرات علىٰ يد شمر وغيره، غير أنه نجا وأخذ مع النساء والأطفال ليعرض على ابن زياد ريثما يسرح بهم إلىٰ يزيد.

كان ظن ابن زياد ان زين العابدين سيتهاوىٰ أو ينحني امامه أو أنه سيعتذر نيابة عن والده، وإذا ما استطاع استخراج كلمات منه بهذا المعنىٰ، فلا بد أنه يكون قد حقق نصراً كبيراً ونال شهادة تبرر فعله بحق الاسلام والمسلمين.

روىٰ حُميد بن مسلم قال: (اني لقائم عند ابن زياد، حين عرض عليه علي بن الحسين، فقال له: ما اسمك؟

قال: أنا علي بن الحسين.

قال: أو لم يقتل الله علي بن الحسين؟ فسكت.

فقال ابن زياد: مالك لا تتكلم.

قال: قد كان لي أخ يقال له أيضاً علي، فقتله الناس.

قال: ان الله قد قتله..! فسكت علي.

فقال له: مالك لا تتكلم.

قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2]

(١) سورة الزمر، آية ٤٢.

(٢) سورة آل عمران ١٤٥.

قال: انت والله منهم ويحك، انظروا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلا؛ فكشف عنه مرّي بن معاذ الاحمري، فقال: نعم قد ادرك.

فقال: اقتله

فقال علي بن الحسين: من توكل بهؤلاء النسوة؟

وتعلقت به زينب عمته فقالت: يا ابن زياد حسبك منا، أما رويت من دمائنا[1]!.

وهل أبقيت منا أحداً؟ فاعتنقته فقالت: أسألك بالله ان كنت مؤمناً أن قتلته لما قتلتني معه.

وناداه علي فقال: يا ابن زياد، ان كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلًا تقياً يصحبهُن بصحبة الاسلام.

فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلىٰ القوم فقال: عجباً للرحم، والله إني لأظنُّها ودّت لو أني قتلته أني قتلتها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك)[2].

ويبدو من سياق هذه الرواية التي وردت علىٰ لسان أحد اتباع الدولة، حميد بن مسلم، مبعوث ابن سعد لأهله ليبشرهم (بفتح الله عليه وبعافيته)، ان هناك خللًا واضحاً فيها، فزين العابدين عليه السلام كان في الثالثة والعشرين من العمر، وهي سن ما كانت تخفىٰ بحيث تجعل ابن زياد يشك في بلوغه مبلغ الرجال ويأمر بالكشف عليه.

وربما أضيفت بعض العبارات في الرواية بشكل مقصود مثل قول زين العابدين لابن زياد (ان كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلًا تقياً يصحبهنّ بصحبة الاسلام..) فهل كان الامام عليه السلام يشك بمثل هذه القرابة ويتوهمها؟ أم أنه علىٰ يقين من أصل ابن زياد المفضوح والمعروف؟.

---

(١) ومن العجيب ما وقع بعد عدة سنوات من هذا الحادث الذي جيء فيه برأس الحسين عليه السلام والاسرىٰ من آل بيته بينما ابن زياد كان يتغدىٰ، فقد أرسل المختار الثقفي رأسه إلىٰ الامام زين العابدين ووصل إليه بينما كان عليه السلام يتغدّى كذلك.. وهذه من المفارقات الجديرة بالاعتبار والفهم...

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٧ وابن الاثير ٣/ ٤٣٤ـ ٤٣٥.

إنه يعلم أنه ابعد ما يكون عن آل البيت ﷺ، غير أنه يعلم أنه متلهف علىٰ ادعاء مثل هذه القراب، ولو عن طريق أبي سفيان وبعملية سفاح غير مقرّة من قبل أي قانون اسلامي، وإذا صحت قرابته بأبي سفيان الذي يتصل بقرابة عن طريق عبد مناف بآل البيت، فإن ابن زياد في ذلك الحين يستطيع أن يتشبث بذلك الخيط الواهي، ويرفع رأسه مفتخراً بهذه القرابة، التي لن يثير الادعاء بها الا الهزء والسخرية من قبل الناس.

هل كان ابن زياد يرتاح لقول الامام زين العابدين ﷺ، ولا يتصور انه يرميه به من باب السخرية أيضاً؟.

ام ان الإمام كان يتحدىٰ ابن زياد فيما إذا كان هو نفسه مقتنعاً بهذه القرابة التي تجعله يعطف علىٰ أقاربه في النهاية فيرسل معهم رجلًا تقيّاً يصحبهن إلىٰ الشام.

وحتىٰ هذه السفرة إلى الشام كانت غير مقررة بعد، وابن زياد لا يعلم بالأوامر النهائية ليزيد، فربما أمر تقبل الاطفال والنساء في الكوفة، وربما أمر بتسييرهم اليه، وهذا ما روي لنا مع هذه القصة بعد ذلك فعلًا.

روىٰ عَوانة بن الحكم الكلبي قال: (لما قتل الحسين وجيء بالاثقال والاسارى حتىٰ وردوا بهم الكوفة إلىٰ عبيد الله، فبينا القوم محتبسون إذ وقع حجر في السجن، معه كتاب مربوط، وفي الكتاب: خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلىٰ يزيد بن معاوية، وهو سائر كذا وكذا يوماً، وراجع في كذا وكذا، فان سمعتم التكبير، فأيقنوا بالقتل، وان لم تسمعوا تكبيراً فهو الامان ان شاء الله.

فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة اذا حجر قد ألقي في السجن، ومعه كتاب مربوط موسى، وفي الكتاب: أوصوا واعهدوا فانما ينتظر البريد يوم كذا، وكذا، فجاء البريد ولم يسمع التكبير، وجاء كتاب بأن سرّح الاسارى اليّ)[1]

وهذه الرسالة لا تدع شكاً في الاعتقاد بأن قرار البتّ بشأن الاسرىٰ من النساء والاطفال كان بيد يزيد، وان ابن زياد كان ينتظر أوامر منه، وانه لم يكن بصدد ارسالهم الىٰ يزيد حتىٰ يوصيه زين العابدين ﷺ بان يرسل معهن رجلًا تقياً.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٤٠ وابن الاثير ٣/ ٤٣٦.

شركاء الجريمة، أول من يتلقون (النبأ السار)

ولعل فرحة ابن زياد تقبل الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام لا تقل عن فرحة يزيد، بل لعلها تزيد عليها، فهو قد حقق أمر سيده، وهو ما يمكن أن يراه أمراً ملموساً يمكن أن يثيبه عليه ويجازيه، وهو ما فعله يزيد الذي حسنت حال ابن زياد لديه وقربه بعد ذلك.

(دعا عبيد الله بن زياد محفّز بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن، فقال: انطلقوا بالثَقل والرأس إلىٰ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية)[1] وأوصاهما بما سيقولانه له، وبالطريقة التي يعاملون بها الأسرىٰ، وهي طريقة نمّت عن القسوة المفرطة التي اشتهر بها واشتهر بها مبعوثاه، وخصوصاً شمر.

ولم يكتف ابن زياد بانجاز المهمة التي عهد إليه بها سيده، وانما أضاف إليها لمسات شخصية بدت في طريقة انجازه لها، وهو ما تحدثنا عنه.

وقد أراد أيضاً ـ بدافع من معرفته لاعداء أهل البيت الحقيقيين ومنهم عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة ـ ان يبشر هؤلاء بما نال الحسين عليه السلام وأصحابه علىٰ يديه، وكان يرىٰ ذلك أمراً ضرورياً وملحّاً لتحقيق شعوره بالنصر المزيف الذي حققه ابن زياد واشباع رغبته في التشفي من آل الرسول المتبقين في المدينة.

حدث عَوَانة بنَ الحكم قال: (لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن علي، وجيء برأسه اليه، دعا عبد الملك بن أبي الحارث السّلمي، فقال: انطلق حتىٰ تقدم المدينة على عمرو بن سعيد بن العاص فبشره بقتل الحسين، فذهب ليعتل له، فزجره ـ وكان عبيد الله لا يُصطلى بناره ـ فقال: انطلق حتىٰ تأتي المدينة، ولا يسبقك الخبر واعطاه دنانير، وقال: لا تعتلّ، وان قامت بك راحلتك فاشتر راحله، قال عبد الملك: فدخلت علىٰ عمرو بن سعيد، فقال: ما وراءك؟ لقلت: ما سرَّ الأمير، قتل الحسين بن علي؛ فقال: نادِ بقتله، فناديت بقتله، فلم اسمع والله واعيةً مثل واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين:

(١) المصدر السابق.

فقال عمرو بن سعيد وضحك:

عـجـت نـسـاء بـنـي زيـاد عـجّـةً　　كـعـجـيـج نـسـوتـنـا غـداةَ الارنـب[1]

وعمرو بن سعيد بن العاص الأموي هذا، هو الذي حاول احتجاز الحسين عليه السلام في مكة ومنعه من الذهاب إلىٰ الفرات، ولعله كان يترقب (النبأ السار) علىٰ أحر من الجمر.

جريمة السبي، تؤكد الحقد الأموي علىٰ الرسول وآله ﷺ

وكان منظر العائلة (المسبيّة) المزينة التي قتل رجالها وتعرضت للسلب والنهب (مال الناس علىٰ الورَس والحلل والابل وانتهبوها، ومال الناس علىٰ نساء الحسين وثَقَله ومتاعه، فأن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتىٰ تغلب عليه، فيذهب به منها)[2].

بعدما احرقت الخيام، وبعد ما أخرجت تلك العائلة تُستعرض أمام الجيش الغازي البمتهج (نبصره وغلبته) علىٰ الحسين ورجاله، (كان) منظراً لا يحتمل، فكيف تستطيع نساء ينتمين الى آل البيت عليهم السلام وهم مَن هم في منزلتهم ومكانتهم من الله ومن الرسول ﷺ ومن المسلمين، ومن نزلت شهادات أكيدة بحقهم وقدسهم وطهرهم من الله عز وجل.

نساء مسلمات غير متبرجات يمثلن طهارة الرسول ﷺ نفسه، وكل تلك القداسة التي كانت له في نفوس المسلمين، كيف يستطعن تحمل تلك الصدمة الاليمة، صدمة قتل ممثل الرسالة الامام الحسين عليه السلام، عميدهن واخوته وأبناءه وأبناء عمومته وأصحابه، القتلةَ القاسية المنفرة التي لم يرَ لها مثيلًا من قبل، تضاف لها

---

(١) الطبري: ٣/ ٣٤١ وابن الأثير: ٣/ ٤٤٠/ ٤٤١ والارنب وقعة لبني زبيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب، من رهط بني عبد الدّار؛ وهذا البيت لعمرو بن معد يكرب. ثم قال عمرو بن سعد: هذه واعية بواعية عثمان، ثم صعد المنبر فأعلم النّاس بقتله، ولعلّه لم يشأ أن يقول صراحةً أنَّ ذلك كان ثأراً لقتل بدر من الأمويين وأحلافهم؛ ولعلَّ ابن زياد أدرك الرغبة عند عمرو بن سعيد هذا للتشفي من الحسين وآل الرسول ﷺ فبادر إلىٰ اعلامه بتلك السرعة الفائقة.

(٢) الطبري ٣/ ٤.

صدمة استعراضن، وأخذهن الىٰ الكوفة حيث مقر المجرم الذي ارتكب كل تلك الجريمة المروعة.

كان امام عائلة الحسين عليه السلام مسيرٌ صعب قاس، تساق فيه لابن زياد الذي لم يُعرف منه ما يدل علىٰ احترامه لكل قداسة جاء بها الاسلام والذي اشتهر كما اشتهر أبوه من قبل قسوته المتناهية تجاه أعدائه ومنافسيه، ويكون مصيرها رهن كلمة تخرج من فمه. وهل عسىٰ أن تكون تلك الكلمة لصالح تلك العائلة التي جعل من شؤونه مناصبتها العداء علىٰ الدوام؟

وإذا ما أضيف لذلك خشيتهّن من إقدام الجيش المعتدي علىٰ قتل امام الامة المرتقب زين العابدين عليه السلام وكل الصبية الصغار، كما أراد ذلك شمرٌ فعلًا، لولا أن تصدى له بعض الرجال واستعطفوه لكي يتركهم، وإذا ما علمنا أن ذلك تم في ساعات معدودة تلت ساعات طويلة من الخوف والترقب والهواجس والآلام الجسمية والنفسية، أدركنا إلىٰ أيّ مدى بلغت تلك الآلام من العائلة الزكية المقدسة التي اعتادت ان تكون محل احترام وتقديس المسلمين كافة.

ان منظر اخراج النساء من الخيام واضرام النار فيها، وتسابق القوم علىٰ نهب بيوت آل الرسول ﷺ وفرار النساء (حواسر مسلبات حافيات باكيات)، اثار حفيظة نساء غريبات[1]، بل حزن نساء الكوفة كلهن فيما بعد، وشكل ادانة للنظام الاموي اضيف لجريمته البشعة في قتل الحسين وأصحابه بتلك الصورة المروعة، ولعلهم لو ارتكبوا الجريمة دون اللجوء إلىٰ ترويع النساء وسلبهن ومعاملتهن تلك المعاملة القاسية لجعلوها تخف في نظر الكثيرين من الناس إلىٰ يومنا هذا ولكان الفعل الاجرامي قد خف وقعه عليهم، إذ ما حاجتهم لذلك بعد اتمام جريمتهم بقتل الحسين وأصحابه الذين كانوا يقضون مضاجع رجال الدولة الاموية، سوىٰ أن يدللوا علىٰ الرغبة في الجريمة لا حماية الدولة التي ادعت قيامها علىٰ الحق والشرعية وهي بعيدة عن ذلك كل البعد.؟

(١) وقد روي أن امرأة من آل بكر بن وائل كانت مع زوجها في أصحاب عمر بن سعد، فلما رأت القوم قد اقتحموا على سلب بنات رسول الله ﷺ أخذت سيفاً، وأقبلت نحو القوم وهي تصيح: «يا آل بكر بن وائل، اتسلب بنات رسول الله؟ لا حكم الا الله، يا لثارات رسول الله» فأخذها زوجها وردها إلىٰ رحله. (اللهوف ٥٥ ومثير الاحزان ٤٠ ونهاية الارب ٢٠-٤٦).

كان مسير عائلة الامام عليه السلام إلىٰ الكوفة ومرورهن بالاجساد الصريعة التي قطعت منها الرؤوس، لا تقل آلامه عن تلك التي توقعنها وهن يسقن مع زين العابدين عليه السلام . إلى مقر الجريمة حيث ابن زياد الذي استقبل الجميع ذلك الاستقبال الذي كشف نفسيته الدموية وحقده علىٰ نبي الاسلام صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام ، وقد رأينا كيف كان يبدو فخوراً منتفخاً مختالاً بفعلته أمام جمع النساء والاطفال الخائفين المرعوبين، لو لم يفوت عليه ذلك الامام زين العابدين وزينب .

(سمية امسىٰ نسلها عدد الحصىٰ)

وبنفس الطريقة المريعة التي نقلوا بها من كربلاء إلىٰ الكوفة، ثم نقلهم منها ـ فيما بعد ـ إلىٰ دمشق، وقد أمر ابن زياد (بعلي بن الحسين فَغُلَّ بغلّ إلىٰ عنقه)[1] وقد أثار كل ذلك ـ بما فيه سلوك يزيد ورد فعله الاول ـ عندما وردت اليه السبايا والامام زين العابدين برفقة رأس الامام عليه السلام ـ غيظَ شاعر ينتمي إلىٰ العائلة الاموية نفسها، غير أنه لم يستطع السكوت امام انتهاكات ابن زياد، فقال في حضور يزيد مستنكرًا عملية الابادة التي قام ابن زياد بايعاز منه، بيتين من الشعر سخر فيهما من الاوضاع التي يُحاول فيها استئصال نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتكثير نسل الزواني وابنائهن ممثّلات بسمية أم زياد.

(لهامٌ بجنب الطف أدنىٰ قرابةً ... من ابن زياد العبدِ ذي الحَسَب الوغلُ
سمّية أمسىٰ نسلها عدد الحصىٰ ... وبنت رسول الله ليس لها نسلُ)[2]

فهل كان جزاء رسول الله صلى الله عليه وآله من امته ان يلقىٰ بنوه منها ذلك؟

ذلك ما حيَّر الشاعر وهيَّجَ شعره.

القتلة يتبادلون الاتهامات: ما لي ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه

وإذ يدرك الجميع جسامة الجريمة وبشاعتها بعد أن رأوا ردود الفعل الغاضبة من الأمة والتي امتدت حتىٰ إلىٰ داخل بيوت منفذي الجريمة انفسهم، بدأ فصل جديد

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٨ـ ٣٣٩ وابن الاثير ٣/ ٤٤١.

(٢) المصدر السابق؛ والشاعر هو يحيى بن الحكم، أخو مروان بن الحكم. وقد أنكر فعل الأمويين بالحسين وقال: (حُجبتم عن محمد صلى الله عليه وآله يوم القيامة. الطبري ٣/ ٣٤١)

تبادلوا فيه الاتهامات وحاول كل منهم القاء تبعة الجريمة على صاحبه، وهذا ما سوف نتحدث عنه في الفصل القادم.

غير أننا نشير هنا الى أن ابن زياد حاول تحميل ابن سعد مسؤولية ما قام به في كربلاء، وربما أراد أن يقول: صحيح أنني أمرته بقتل الحسين وأصحابه، ولكن ليس بتلك الطريقة التي قام بها.

وكأن ابن سعد أحسن منذ البداية ما كان يدبر له هو أيضاً، وقد أراد أن يعرض نفسه على أنه مجرد منفذٍ لا غير، وأنه لم يقم بما قام به من عند نفسه وإنما بايعاز من سلطان قاهر، هو ابن زياد وكيل الخليفة على المصر، وهل يملك أحد الا أن يطيع (الخليفة)، حتى وان كان ذلك بسخط الخالق!.

وكمحاولة منه لتبرئة ذمته قام بالاحتفاظ بالكتاب الذي أرسله اليه والذي يأمره فيه بقتل الحسين والتمثيل بجثته، ولم يعده إلى ابن زياد لكي يقوم باتلافه أو الاحتفاظ به.

(قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر اين الكتاب الذي كتبت به اليك في قتل الحسين؟

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئنَّ به.

قال: ضاع.

قال: والله لتجيئني به.

قال: تُرك والله يُقرأ على عجائز قريش اعتذاراً اليهن بالمدينة. أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص كنتُ قد أديّت حقه.
قال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل الا وفي أنفه خزامة الى يوم القيامة وان حسيناً لم يقتل.

فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله)[1].

وقد استمر مسلسل تبادل الاتهامات حتى اخريات أيام يزيد كما سنرى بعون الله، غير أننا نورد هذا الخبر لنستدل به على أن يزيد لم يكن نادماً على قتل

(١) الطبري ٣/ ٣٤٢.

الحسين عليه السلام الا لأن ذلك بغّضه إلىٰ الناس وزرع له في قلوبهم العداوة كا اعترف هو.

(لما قتل عُبيد الله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلىٰ يزيد بن معاوية، فسر بقتلهم أولّا، وحسنت بذلك منزلةُ عبيد الله عنده، ثم لم يلبث الا قليلًا حتىٰ ندم علىٰ قتل الحسين، فكان يقول: وما كان عليَّ لو احتملت الاذىٰ وأنزلته في داري، وحكّمته فيما يريد؛ وان كان علي في ذلك وكفٌ ووهن في سلطاني، حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وآله ورعايةً لحقّه وقرابته!

لعن الله ابن مرجانة، فإنه أخرجه واضطره وقد كان سأله ان يخلي سبيله ويرجع فلم يفعل، أو يضع يده في يدي! أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتىٰ يتوفاه الله عز وجل فلم يفعل، فأبىٰ ذلك ورد عليه وقتله،

فبغّضني بقتله إلىٰ المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة فبغضني البر والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسينا! مالي ولابن مرجانه لعنه الله وغضب عليه)(١).

فلنلاحظ الرواية هنا بدقه:

١ - سرَّ يزيد بقتل الحسين عليه السلام أولًا وحسنت حال ابن زياد عنده.

٢ - ندم يزيد مدعياً حزنه علىٰ ذلك وتمنىٰ لو عادت الايام فابقىٰ علىٰ الحسين عليه السلام وأنزله داره وحكّمه فميا يريد حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، مع أن السبب الحقيقي لذلك الندم كما صرح هو، ان الناس استعظموا قتل الحسين عليه السلام فبغضوا يزيد لأجل ذلك (البر والفاجر منهم) أي أن النقمة الشعبية العامة قد تصاعدت ضده.

٣ - لجأ يزيد إلىٰ شرح مطول ما كان ليلجأ اليه لو لم يرد ابراز أمر معين، وهو ترديد أكذوبة ابن سعد التي ادعىٰ فيها أن الحسين سأله ان يسيره الىٰ يزيد فيضع يده في يده أو يدعه يرجع أو يلتحق بثغر من ثغور المسلمين، كما أن ابن سعد كان قد أصبح من أعداء ابن زياد لأنه لم يولّه ولاية الري كما وعده.

ولما كان يزيد يريد تبرئة ساحته من الجريمة فإنه استغل كذبة ابن سعد ـ التي أوضحنا بطلانها ـ لتحسين صورته والقاء تبعة الجريمة على ابن زياد.

٤ - ربما أراد الاعلام الاموي الماكر ايهام الامة أن الحكم الاموي يتمتع

---

(١) الطبري ٣/ ٣٦٥ وابن الاثير ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠.

بشرعية مستمدة من قوانين الاسلام ما دام الحسين عليه السلام نفسه قد طلب أخذه الى يزيد ليضع يده في يده، لولا ان ابن زياد فوت عليه الفرصة وقتله، ألا لعنة الله على ابن زياد، وهنا يراد توجيه اللعنات والاتهامات إلى ابن زياد بدلًا من يزيد وابرازه على أنه المتهم الوحيد، بل القاتل الوحيد للحسين وأصحابه عليهم السلام .

بين حال وحال، قبل وبعد (يزيد)

وبدأ فصل جديد من حياة ابن زياد بعد وفاة يزيد الذي كان قد جفاه وأظهر الكراهية له. وقد توفي يزيد في منتصف شهر ربيع الأول سنة أربع وستين أي بعد حوالي ثلاث سنوات ونصف السنة من اقدامه على جريمة قتل الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام .

وفي أول خطاب له في البصرة بعد ورود خبر وفاة يزيد اليه عرّض ابن زياد مثالبه ونال منه، وقد تنكر له وكأنه لم يكن طوع يديه في أي يوم من الايام ولم يكن أداة لتنفيذ مخططاته ومآربه، مما جعل الاحنف يستنكر ذلك الموقف اللاأخلاقي منه، وقد قال له، (انه قد كانت ليزيد في أعناقنا بيعة، وكان يقال: أعرِض عن ذي فنن، فاعرض عنه)[1].

ويبدو أن مولاه مهران، ذلك الذي كان له دور كبير بتشجيعه في الكوفة لمواجهة مسلم وهانىء، وكان قد أرسله لاستطلاع أوضاع الشام، وهو الذي وافاه بنبأ وفاة يزيد، قد شرح له اضطراب الاحوال في دمشق بعد حادث الوفاة المفاجىء وتذبذب الولاء فيها بين ابن يزيد وبعض شخصيات الشام وابن الزبير، وكان من المحتمل أن ترجح كفة ابن الزبير وهو ما يعني نكسة كبيرة لابن زياد.

وبما أن منصب الخلافة الشاغر، قد شغله من قبل وترشح لاشغاله من كان يرىٰ أنه أقل منه كفاءة ومنزلة، فانه أراد أن يدلي بدلوه ورأى أنه قد يمكن أن ينال هذا المنصب أيضاً.

وقد حاول استمالة أهل البصرة بخطبة مطولة ـ لعلها أطول خطبة ذكرت له ـ عدد فيها الانجازات التي تحققت لهم علىٰ يدي والده ويديه وقد جاء فيها: (يا أهل البصرة انسبوني، فوالله لتجدُنَّ مهاجر والدي ومولدي فيكم، وداري، ولقد وليتكم،

(١) الطبري ٣/ ٣٦٦ - ٣٦٤ - ٣٦٧ وابن الاثير ٣/ ٤٦٨.

وما أحصي ديوان مقاتلتكم إلا سبعين الف مقاتل ولقد أحصيَ اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين الفاً، وما أحصىٰ ديوان عمالكم الا تسعين الفاً، ولقد أحصي اليوم مائة وأربعين الفا، وما تركت لكم ذا ظنة أخافه عليكم الا وهو في سجنكم هذا..)[1].

وحاول اللجوء معهم إلىٰ أسلوب الرشوة (وكان في بيت مال عبيد الله يوم خطب الناس ثمانية الاف الف (وقال علي بن محمد) تسعة عشر الف ألف ـ فقال للناس: ان هذا فيئكم، فخذوا أعطياتكم وارزاق ذراريكم فيه. وأمد الكتبة بتحصيل الناس وتخريج الاسماء، واستعجل الكتاب في ذلك، حتىٰ وكّل بهم من يحبسهم بالليل في الديوان، واسرجوا بالشمع)[2].

وقد أرسل مبعوثين الى الكوفة لاستمالة أهلها ودعوتهم لمبايعته، وقد رفضوا ذلك وقال أحدهم: يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني: (الحمد لله الذي أراحنا من ابن سمية، لا ولا كرامة)[3]. وطردوا وكيله عليهم.

وقد أثر موقف أهل الكوفة علىٰ البصرة، فرفضت مبايعته وقال الناس: (أهل الكوفة يخلعونه وأنتم تولونه وتبايعونه، فوثب به الناس)[4].

وقد هرب بالأموال التي ظلت طعمة لآل زياد ـ فهي علىٰ حد قول الطبري (إلى اليوم تردد في آل زياد، فيكون فيهم العرس أو المأتم، فلا يرىٰ في قريش مثلهم، ولا في قريش أحسن منهم في الغضارة والكسوه)[5].

واستجار بمسعود بن عمرو، بعد أن قدم رشوة لزوجته.

وبعد قتل مسعود لم ير ابن زياد بدّاً من التوجه الىٰ الشام والنجاة بجلده، (ولما هرب عبيدالله بن زياد اتّبعوه، فأعجز الطلبة، فانتهبوا ما وجدوا له، فقال في ذلك وافد بن اسماء:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٣٧٥ - ٣٦٧ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٨ وابن الأثير ٣/ ٤٦٩ - ٤٧٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

يا رُبَّ جبار شديدَ كَلبُه قد صار فينا تاجُه وسلبه
منهم عبيد اللّه حين نسلبُه جيادَه وبذَّه ونهبه
يوم التقىٰ مقنبُنا ومقنبُه لو لم يُنجِّ ابن زيادٍ هربه)[١]

عبد فرعون بمستوىٰ رغبات فرعون: (مروان) سيداً جديداً

وبقي فصل كان عليه أن يلعب فيه دوراً كبيراً إذا ما وصل الشام، وهو العمل على ابقاء (الخلافة) في آل أمية، وقد كان يخشىٰ من انتقالها إلىٰ غيرهم وخصوصاً ابن الزبير، كان ارتباك الامويين واضحاً، وكانوا يتخبطون في مسألة من يولّونه عليهم وكان من رأي (مروان أن يرحل فينطلق الى ابن الزبير فيبايعه. فقدم عبيد الله بن زياد واجتمعت عنده بنو أمية، وكان قد بلغ عبيد الله ما يريد مروان فقال له: استحييت لك مما تريد، أنت كبير قريش وسيدها، تصنع ما تصنعه فقال: ما فات شيء بعد)[٢].

كان الأمويون قلقين وكانوا بين نارين، نار مبايعة ابن الزبير والتخلي عن العديد من المكاسب التي حققوها في ظل معاوية ويزيد، ونار قيام أحدهم بالدعوة لنفسه، وهو ما لم يروا أنفسهم جديرين به حتىٰ مروان عميدهم نفسه، الذي بدا انه لم يجرؤ حتىٰ تلك اللحظة بالدعوة الى نفسه، وكان عبيد الله يبدو وكأنه كان أبعدهم نظراً وأصوبهم منطقاً حتىٰ أنهم تحلقوا حوله وحفوا به ليخرجهم من ورطتهم (فكأنهم كانوا معه صبياناً، قدم الشام وقد أبرموا، فنقض ما أبرموا إلى رأيه)[٣].

وقد حارب ابن زياد تحت راية مروان الضحاك بن قيس الذي كان يدعو لابن الزبير وقد بقي مع مروان بعد مقتل الضحاك.

وعندما أرسل ابن الزبير عاملًا من قبله علىٰ الكوفة. جهز مروانُ ابنَ زياد بجيش وامره بالتوجه إليها، وقد حاول عامل ابن الزبير ضرب عصفورين بحجر واحد، عندما أشار على، التّوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي أن يسيروا لحربه، وبذلك يضعف الطرفين أو يتخلص من أحدهما أو كليهما، غير أنه دعاهم بالتالي أن يتريثوا ويسيروا تحت قيادته لحرب ابن زياد وقد رفض التوابون ذلك، ورأوا ان القتال مع ابن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٣٧٥ - ٤٥١ وابن الاثير ٣/٤٨٦ وما بعدها.

الزبير في النهاية شأنه شأن القتال مع مروان نفسه، وقد رأوا أنه أصحاب قضية واحدة هي الثأر ممن قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وقد ساروا الى عين الوردة وفاجأوا جيش ابن زياد فقتلوا منه أعداداً كبيرة فاقت عددهم الا أن قادتهم استشهدوا في المعركة كما ان معظمهم استشهدوا ورجعت فلول قليلة منهم الىٰ الكوفة وكان ذلك سنة خمس وستين للهجرة، في شهر ربيع الآخر، والتحق من رجع منهم بالمختار الثقفي.

إلىٰ الكوفة، ثانيةً

ولأن ابن زياد أُصبح أسطورة في قمع أهل العراق خاصة وحقق (نجاحاً) كبيراً بنظر الأمويين فان مروان جعل له (اذ وجهّه الىٰ العراق ما غلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً)[1].

ويمكن الفرق هذه المرة بأن ابن زياد جاء علىٰ رأس جيش جرار من الشام، بينما ورد الكوفة في المرة الأولىٰ وحيداً إلا من جماعة قليلة من أصحابه وتغلب على أهل الكوفة بأهل الكوفة، فهو ما كان ليتسامح مع من حاربوه ثانية ـ وفي مقدمتهم المختار وأصحابه وكان المختار قد سيطر على الكوفة، وحتىٰ مع أولئك الذين سكتوا عنهم ولم يحاربوهم إذ أن موقفهم المتذبذب جعلهم موضع شكه وقد يستهدفهم بقمعه كما يستهدف اعداءه أيضاً.

وقد انشغل ابن زياد عن العراق نحواً من سنة بأرض الجزيرة لمكافحة قيس عيلان الذين كانوا علىٰ طاعة ابن الزبير، ثم دخل الموصل التي كانت تابعة للمختار، فانحاز عامله الى تكريت وكتب اليه بذلك.

فوجه المختار جيشاً صغيراً إلىٰ الموصل قوامه ثلاثة آلاف فارس، فارسل اليهم ابن زياد ستة آلاف، غير أن جيش المختار هزمهم هزيمة منكرة رغم مرض قائده الشديد واشرافه علىٰ الموت، وقد مات فعلًا بعد تلك المعركة.

وقد رأىٰ القائد الجديد الأثر السلبي الذي يمكن أن يتركه ذلك علىٰ جيشه الصغير المرهق وهو يواجه جيش ابن زياد الجرار الذي قيل ان قوامه ثمانون الف جندي، فآثر الانسحاب بعد ذلك النصر الذي حققوه على طليعة جيش ابن زياد.

---

(١) المصدر السابق.

الاسطورة الزائلة: لا تقبل الارض موتاهم إذا قبروا

وقد دعا المختار ابراهيم بن الاشتر نجل مالك الأشتر فعقد له على سبعة الاف رجل وأمره أن يذهب لمناجزة ابن زياد واعادة الجيش المنسحب معه.

وقد حاول اشراف الكوفة بزعامة شبث بن ربعي ـ الشريف المتقلّب استغلال غياب حوالي عشرة آلاف مقاتل من أصحاب المختار عن الكوفة ـ للوثوب عليه والقضاء علىٰ ثورته وأجمعوا علىٰ قتاله، وانتظروا حتىٰ إذا بلغ ابراهيم ساباط، وثبوا بالمختار[1].

وقد شاغلهم المختار وارسل يستدعي ابراهيم بن الاشتر الذي عاد مسرعاً، فكانت الدائرة على اشراف الكوفة، وقد اتيحت للمختار فرصة قتل العديد ممن اشتركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وقد عاد ابن الاشتر للمهمة التي انتدبه اليها المختار لمواجهة ابن زياد. وقد ودعه المختار وأوصاه وصايا مهمة بشأن مواجهة عدوه.

كان هاجس جيش الكوفة هو الانتقام من ابن زياد شخصياً، لقد بدا لكل فرد من أفراد ذلك الجيش انه عدو شخصي له، فقضية الحسين عليه السلام كانت ساخنة متجددة في نفوسهم وضمائرهم ولعلها كانت القضية الأولىٰ التي كان يحملها أفراد ذلك الجيش بمواجهة جيش آل مروان الذي تزعمه ابن زياد، ولو كان غيره، زعيم ذلك الجيش الذي تجاوز ثمانين الفاً لما استطاع جيش ابن الاشتر الذي يبلغ عشرة آلاف أن يتغلب عليه ويهزمه تلك الهزيمة المنكرة.

كان أهل الكوفة يرون أمامهم ابن زياد، عدوهم اللدود، وكان ابن الاشتر يلفت نظرهم إلى عدوهم هذا الذي تمنّوا ،ومن ورائهم جماهير الكوفة الخلاص منه، وها هي الفرصة امامهم لتحقيق حلمهم الكبير، بل الوحيد، (هذا عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه وهم ينظرون اليه، ومنعه الذهاب في الأرض

(١) ذكر الطبري أن هؤلاء كانوا شبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج وشمر بن ذي الجوشن ومحمد بن الاشعث وعبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس وحجار بن ابجر وغيرهم ومعظمهم من المشاركين بقتل الحسين عليه السلام ولعلهم خافوا أن تدور الدائرة عليهم وأن يستهدفهم المختار بعد ظهور الشعائر التي تدعو للثأر للحسين عليه السلام وأصحابه.. وكذلك ذكر ابن الاثير ٣/ ٤٩٥.

العريضة حتىٰ قتله وقتل أهل بيته؛ فواللّه ما عمل فرعون بجبناء بني إسرائيل ما عمله ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

قد جاءكم الله به، وجاءه بكم، فوالله اني لأرجو ألّا يكون الله جمع بينكم في هذا الموطن وبينه الا ليشفي صدوركم بسفك دمه علىٰ أيديكم، فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً لأهل بيت نبيكم)[1].

وهزم جيش ابن زياد الجرّار، وقتل ابن الاشتر ابن زياد (ضربه فقدّه بنصفين، ولما هزم أصحاب عبيد الله تبعهم أصحاب ابراهيم بن الأشتر، فكان من غرق أكثر ممن قتل، وأصاب عسكرهم فيه من كل شيء)[2].

كان ذلك عام سبع وستين بعد ست سنوات من إقدامه علىٰ جريمة قتل الحسين وأصحابه عليه السلام، وعمره قارب الاربعين، قتل بعد أن تيقّن ان كل شيء لا يمكن أن يسير دونه وبعد أن منحته الدولة الاموية بقيادة عبد الملك ثقتها المطلقة وأتاحت له التصرف في الارض التي يمتد سلطانه عليها، وبعد أن جاء مغيراً علىٰ الكوفة ثانية ليستأصل من أهلها كل من يمت الى أهل البيت عليهم السلام بود أو ولاء.

وصل رأسه الى الكوفة مع رؤوس قواده فالقيت في القصر الذي كان مقراً لجريمته التي استنكرها الجميع حتىٰ أمه التي قالت له: (يا خبيث، قتلت ابن رسول الله ﷺ لا ترىٰ الجنة أبداً)[3].

كان عبيد الله نتاجاً للدنس والخطيئة، ونتاجاً لولادة غير طبيعية لنظام التعسف والظلم والجور الخارج عن حدود الاسلام وقيمه وأحكامه، وكان وجوده رفضاً لأي تعامل طبيعي أرساه اسلام، وكان مثالًا مشوهاً للشر والجريمة والشك وسوء الظن والغدر أفرزته فلسفة معاوية في الحياة والحكم، ونسجته عقلية زياد الملتوية المتقلبة

---

(١) الطبري ٣/ ٣٨٠ - ٤٨١ وابن الاثير ٤/ ٦٢.

(٢) نفس المصدر. وقد قال عمير بن الحبّاب السلمي في جيش ابن زياد:

وما كان جيش يجمع الخمر والزّنا   محلّلًا إذا لاقى العدوّ لينصرا

(ابن الأثير: ٤/ ٦٣).

(٣) ابن الاثير ٤/ ٦٣.

الحقودة، وكان نسخة منه، أشبهه من بين من وطىء الحصىٰ ولم ينتزعه شبه خال ولا ابن عم كما قال هو عن نفسه وشهد بذلك عليها[1].

(فيا ابن زياد بُؤ بأعظم هالك وذق حد ماضي الشفرتين صقيل)[2]

وقد حاول ابن زياد بث العزيمة في جيشه عندما حاول الاستهانة بقائد الجيش المقابل، تساءل ابن زياد قائلًا: (من هذا الذي يقاتلني؟

قيل له: ابراهيم بن الاشتر.

قال: لقد تركته أمس صبياً يلعب بالحَمام)[3]

ولم يحسب أن مثل هذا الصبي يمكن أن يكبر ويذيقه الحِمام.

وبعث المختار برأس ابن زياد إلىٰ الإمام علي بن الحسين عليه السلام بالمدينة، فقدم به عليه الرسول عند انتصاف النهار وهو يتغدّىٰ، فلما رآه قال:

(سبحان الله، ما اغتر بالدنيا الا من ليس للّه في عنقه نعمة؛ لقد ادخل رأس أبي عبد الله على ابن زياد وهو يتغدىٰ)[4].

(قضيّة).. أم مصالح شخصية

انتهىٰ ابن زياد وهلك، غير أننا نتساءل: هل انتهت (قضيته) المرفوعة دائماً

---

(١) ورحم الله ابن مفرغ حينما يقول فيه:

إن المنايا اذا ما زرن طاغيةً هتكن استار حجّابٍ وأبوابِ
أَقول بعداً وسحقاً عند مصرعه لابن الخبيثة وابن الكودن الكابي
لا أنت زوحمت عن ملكٍ فتمنعه ولا متتَّ الى قوم بأسباب
لا من نزارٍ ولا من جذم ذي يمنٍ جلمود ذا ألقيت من بين الهاب
لا تقبل الارض موتاهم اذا قبروا وكيف تقبل رجساً بين أثواب

ابن الاثير ٤/ ٦٣.

واورد الاندلسي بيتاً منسجماً مع هذه الأبيات على لسان نفس الشاعر:

ان الذي عاش ختاراً بذمته وماتَ عبداً قتيل اللّه بالزاب)

العقد الفريد ٥/ ١٥٣.

(٢) الطبري ٣/ ٤٨٢ وابن الاثير ٤/ ٦٣.

(٣) العقد الفريد ٥/ ١٥٢.

(٤) المصدر السابق ٥/ ١٥٢ - ١٥٣.

بوجه قضايا الاسلام الكبرىٰ؟ وهل انتهت النماذج المعادة المكرّرة له؟ أم أنه لا تزال تظهر أمامنا نسخ حديثة من الصورة القديمة نسخ ملونة متحركة عصرية. تلبس ملابس أهل هذا العصر وتتحدث لغتهم وتستعمل أدواتهم؟ وهل لا يقول هؤلاء ان لنا (قضية) أيضاً ينبغي علينا الدفاع عنها حتىٰ الموت؟ أي موت أعدائهم بالطّبع.

فماذا كانت (القضية) التي حملها ابن زياد ودافع عنها طيلة حياته؟ هل كانت قضية منفصلة عن تلك التي حملها معاوية وزياد؟

ألم تكن سوى ترسيخ الحكم الاموي الذي قام علىٰ المغالطات والاكاذيب والتزوير والرشوة والارهاب؟

واذ يقوم هذا الحكم بديلًا لحكومة رسول الله ﷺ وخليفته من بعده ماذا كان عليه أن يفعل؟ كان عليه أن يحطم الاسس التي قامت عليها الحكومة الإسلاميّة ويزور أقوال الرسول ﷺ ويفسر القرآن على هواه، لكي يضع أسساً بديلة عن تلك التي حطمها، وكان عليه أن يقنع الامة كلها بصحة توجهاته وخطأ توجهات الآخرين.

إن المنافس الحقيقي الذي شكّل الخطر الأول علىٰ الحكومة الاموية هم آل البيت عليهم السلام بما فيهم رسول الله ﷺ نفسه، وإذ لم يستطيعوا النيل من الرسول الذي التفّت حوله الامة كلها فانهم اشهروا حربهم المعلنة والخفية على آله وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام.

لقد فتشوا عن نقيصة واحدة فيه فلم يجدوها، فراحوا يرفعون من شأن أعدائه ومنافسيه، وحاولوا طمس كل ما جاء بحق آل البيت عليهم السلام، وكان الاعلام الاموي المدعوم بالمال والسيف قد عمل طوال وجود الدولة الاموية على اخفاء الحقائق وتشويهها، حتىٰ إذا ولد الجيل الثاني من الامويين، الجيل المتلقي المقتنع بالآباء والاجداد، والذي وجد أمامه حصيلة سعيهم ملكاً واسعاً عريضاً، راح يعتقد أنه يرفع قضية حقيقية بمواجهة طامعين حاسدين وحسب، وهكذا كانت نظرة الجيل الثالث والاجيال اللاحقة.

لم ير من يحدثه الحديث الصحيح ولم يشهد موقعة أو حادثة ولم يكن طرفاً فيما مر من أحداث.

وإذا كان معاوية وعمرو بن العاص وزياد قد عرفوا لأمير المؤمنين عليه السلام فضله، فلأنهم قد عاصروه وسمعوا من يحدثهم عنه، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود

أمام اغراء الملك والجاه والثراء فضعفوا وسقطوا مبررين سقوطهم أمام الناس وأمام ابنائهم، أما أولئك الأبناء وخصوصاً الاحداث منهم، فلم يروا الا (فضائل) آبائهم والّا عروشهم وثرواتهم وتهافت الناس علىٰ أبواب قصورهم، وهل من دلائل (أفضل) من هذه الدلائل الملموسة التي جعلت الناس يقبلون اقدامهم؟، وهل ان ذلك يمكن أن لا يعود لغير فضلهم ومكانتهم من الاسلام ومن الرسول ﷺ.

حديث (الحوض) ادانة لاعداء محمد ﷺ وآله

لقد تطرقنا الى الحديث عن الحملة الاموية الواسعة لطمس فضائل آل البيت عليهم السلام ونشر (فضائل) مقابلة لأعدائهم ومنافسيهم.. ولم يكن ذلك من الأمور الاعتباطية التي أقدم عليها الاعلام الاموي، ولم يكن من الامور التي يمكن أن يستغني عنها...

اذ كيف يُبعد من يعترف بفضله قائدُ الدولة الاموية وأعوانه؟

وكيف تبرر ازاحته وأخذ مكانه؟

لقد وضع الاعلام الاموي ذلك نصب عينيه وجعله من أولويات عمله وفي مقدمته ولم يغفل أو يتهاون في ذلك ولو للحظة قصيرة.

وكان من جملة مفردات العمل الاعلامي الاموي التركيز علىٰ طمس أحاديث بعينها والتعتيم عليها ومنع روايتها وتداولها بين المسلمين حتىٰ ولو كانوا من جيل الصحابة الذين سمعوا تلك الاحاديث بأنفسهم، وبما أنّه يمكن تداول هذه الاحاديث الا بسرية بعيداً عن رقابة الدولة وعيونها وأتباعها، فإنها بدت ضرباً من العمل السري الممنوع، وبدا ضياعها أمراً محتملًا مقابل أحاديث أخرىٰ روجتها الدولة وشجعت عليها وأعطت لمن يرويها منحاً[1].

(١) وقد جرت حملة كبيرة مند عهد عمر بن الخطاب لمنع تداول الاحاديث النبوية بحجة عدم اختلاطها مع النصوص القرآنية وتأثيرها عليها، علماً أن النص القرآني معجز ولا يمكن أن يؤثر فيه أو يشابهه قول حتىٰ ولو كان قول رسول الله ﷺ نفسه.. وقد استغل توجه عمر لمنع رواية الأحاديث في الفترة اللاحقة لطمس تلك التي أكدت على لعن ونبذ من أصبحوا في مركز الصدارة بعد ذلك كآل ابي سفيان وآل مروان وغيرهم... اذ لو ظلت تلك الاحاديث متداولة لعرف الناس حقيقتهم ولما وصلوا إلىٰ المراكز التي وصلوا اليها في ظل عثمان=

وكان في مقدمة تلك الاحاديث حديث الغدير والولاية الذي ورد بخطاب للرسول ﷺ أمام حشد ضم عشرات الالاف من المسلمين في غدير خم وحديث الثقلين والحوض وغيرهما.

وقد أسهبنا في الحديث عن خطبة الرسول ﷺ في غدير خم عندما أعلن بأمر من الله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام على كل مؤمن ومؤمنة وألزمهم بها وجعله أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم كما كان هو ﷺ فهو أخوه ونفسه.

ولأن أمير المؤمنين عليه السلام كان يدرك الابعاد التي تضمنتها خطبة الغدير، وضرورة ان يعرف المسلمون كلهم محتوىٰ تلك الخطبة، لأنه كان بمواجهة التيارات التي أرادت الناس أن ينسوها، تلك التيارات التي أعلنت كراهيتها له بعد أن لم تجرؤ علىٰ مواجهة رسول الله ﷺ، ورأىٰ أن الإتجاه العام وقوىٰ التأثير التي تقف في مواقع الحكم كانت تريد صرف الانظار عن مكانته من الاسلام ومن رسول الله ﷺ ولأنه علم أنّه كان يواجه حملة تعتيم إعلاميّة على شخصه، وان الحملة كادت أن تتحول إلىٰ عداء اراد أعداؤه القدامىٰ أن يصبّوه في نفوس المسلمين كافة فقد أراد تذكير المسلمين بما قاله رسول الله ﷺ في حقّه (جمع علي الناس في الرحبة. ثم قال لهم: انشد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما قال لما قام، فقام اليه ثلاثون من الناس.

وفي رواية أخرىٰ قام اثنا عشر بدرياً، فقالوا نشهد أنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم: الست أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، فقلنا: بلىٰ يا

=ومعاوية كما منحت امتيازات للقصاصين والوضاعين ومحترفي الرواية والحديث على وضع احاديث مناقضة لتلك علىٰ لسان رسول الله ﷺ اشادوا فيها بمن لعنوا وكان أعداء للاسلام.. وذلك بعد أن بعدت الفترة وبدأت الناس تنسىٰ الاحاديث الأولىٰ (الممنوعة).. وكان من شأن ذلك الوضع ان تختلق فيه أحاديث اخرى على لسان الرسول الكريم ﷺ عملت على وضع أسس ومبادىء جديدة غير تلك التي كان ينادي بها ويدعو لها ﷺ فيما مضىٰ.. وقد حاول الامويون فيها نسخ الاسلام برمته والابقاء على بعض المظاهر القشرية والشكلية التي رأوا انها ضرورية لهم أيضاً ما داموا قد أقاموا (شرعية) جديدة مبنية على الاسلام نفسه وعلى الاقوال والاحاديث التي افتروها ونسبوها للرسول ﷺ نفسه.

رسول الله ﷺ قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه: اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه)[1].

وكان يدرك بحسه وبما كان يخبره به رسول الله ﷺ أنه إذا ما غاب عن الساحة، فإن الحملة لن تكون مجرد تعتيم وسكوت عن فضائله ومنزلته الخاصة، وانما ستتحوَّل الىٰ عمل هجومي يستهدفه وآل بيته بالدرجة الأولىٰ، لأن تلك كانت الواسطة الوحيدة التي تتيح لاعدائه اعلان شرعية وجودهم بمواجهته، فمتىٰ ما تم لهم التقليل من منزلته تمت لهم فرصة رفع منزلتهم هم.

وإذ يصل الأمر إلى سبه علناً من علىٰ منابر المسلمين طيلة ثمانين عاماً، فان ذلك يعني أن الحملة قد نجحت بتجريده من المنزلة المقدسة التي وضعه الله فيها وأعلن عنها رسول الله ﷺ والقرآن الكريم، وأن أولئك الذين أخذوا يسبونه جعلوا ذلك من (الفرائض) التي ارادوا التقرب بها الى الله[2].

لماذا ينكر (ابن زياد) حديث الحوض!؟

وبما أنَّ ابن زياد كان يمثل النظام الاموي، وكان وجهاً من وجوهه الحقيقية، فإنه رأىٰ أن كل ما يرد بحق أمير المؤمنين وآل البيت عليهم السلام يمثل تحدياً شخصياً له، وقد بلغ به الكره لهم، ان يقدم على قتل الحسين عليه السلام بتلك الطريقة المروعة، ولنا أن نتصور موافقه مع من يميل اليهم ويتحدث بفضائلهم، حتىٰ لو كان ذلك الشخص أحد أصحاب رسول الله ﷺ [3].

كان ابن زياد من جيل متأخر، وقد تأثر بشخصية والده وشخصية عميد الدولة الاموية نفسه، وبما أنه عاش في مجتمع جعل من كراهيته لآل البيت عليهم السلام ديناً، فإن تصديه لأتباعهم ومواليهم كان يمثل بنظره مهمة مقدسة.

وكان يروىٰ عنه انكاره لما يرويه بعض صحابة رسول الله ﷺ بخصوص

---

(١) رواه أحد وعبد الله بن أحمد والبزاز (الفتح الرباني ١٢٦/ ١٢٧ـ ٢٣) وابن كثير ٥/ ٢١١ والبزاز ـ كشف الاستار ٣/ ١٩٠ والمعجم الكبير ٥/ ١٧٥ ـ والهيثمي ـ الزوائد ٩/ ١٠٤.

(٢) وقد قيل أن أحدهم نسي سبّه عليه السلام بعد الصلاة، فقضىٰ ذلك فيما بعد..

(٣) ووصل به الأمر الىٰ هدم دار حجر بن عَدي الكندي، مع أن حجر قد أعدم بيد معاوية وقتل صبراً بدسيسةٍ من زياد حسب ما يذكر الطّبري.

حديث الثقلين والحوض، لأن بروز تلك الاحاديث في تلك المرحلة التي تلت اقدامه علىٰ مجزرة الطَّف كان يمثل ادانة واضحة له هو على الخصوص ولسيده يزيد.

وحديث الثقلين، ذلك الحديث الذي يجعل من أهل بيت الرسول ﷺ مساوين لكتاب الله في الدرجة والمكانة لأن الوصول إليه وفهمه والأخذ منه لا يتم بدونهم، ومتىٰ ما ابتعدت الامة عنهم وتركت تعاليمهم وهجرتهم، فإن آخرين سيعمدون الىٰ تشويه مضامين الحديث وتفسيره علىٰ هواهم، وهو ما تم فعلًا بعد ذلك عندما أقدم معاوية وآخرون علىٰ الخوض فيه وفق هواهم ومصالحهم وجندوا لذلك جماعة كبيرة من المرتزقة وواضعي الحديث ومؤولي السور والقصاصين وغيرهم.

قال رسول الله ﷺ في حديث الثقلين: (اني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء والارض، وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتىٰ يردوا عليَّ الحوض)[1].

وقال ﷺ: (انا فرطكم علىٰ الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ. وليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم)[2].

ان مجتمع الكوفة الذي عرف عظم الجريمة التي أقدم عليها ابن زياد، وادانه ادانة تامة، وندم على مسايرته والخضوع له، جعل يستعيد ما تعلمه بالامس وأجبر علىٰ تناسيه أو تركه بخصوص آل البيت عليهم السلام وفي مقدمتهم أمير المؤمنين وأولاده عليهم السلام الذين التفوا حولهم ثم تخلوا عنهم، فعلوا ذلك عدة مرات، وإذ يبلغ الندم حد الدعوة لأخذ بثأر الحسين عليه السلام من الدولة الظالمة، فإن البحث عن الاحاديث الصحيحة التي لا يزال بعض شهودها ورواتها من الصحابة حاضرين، يعيشون بين أظهرهم، يبدو أمراً طبيعياً لمواجهة حالة التخاذل والانحدار التي عاشوها ولتجنب حالة مماثلة في المستقبل.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وقال المناوي رجاله موثقون ـ الفتح الربّاني ١/ ١٨٦.

(٢) البخاري ك الدعوات. ف الصراط: جسر جهنم ـ الصحيح ٤/ ١٤١ـ صحيح مسلم ١٥/ ٥٣.

وكان تداول أمثال تلك الاحاديث بحق آل البيت عليهم السلام تعني عودة اليهم وإلىٰ منهجهم في الحياة والنظر، وكان يعني رفضاً للمنهج الأموي برمته.

وقد روي عن أبي سبرة الهذلي قوله (كان عبيد الله بن زياد يكذب بالحوض بعدما سأل عنه أبا برزة[1] والبراء بن عازب وعائذ بن عمرو ورجلاً آخر)[2].

كما كذب أنس بن مالك وزيد بن أرقم عندما رويا له حديث الحوض وأنكر عليهما روايتهما لهذا الحديث، وقد بلغ أنس انكاره فقال: (ما انكرتم من الحوض؟ قالوا: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يذكره؟

قال نعم. ولقد أدركت عجائز بالمدينة لا يصلين صلاة، الا سألن الله تعالىٰ أن يوردهن حوض محمد صلى الله عليه وآله [3]) ويبدو من المحاورة أن جماعة شايعوا ابن زياد علىٰ رأيه الذي انكره عليه انس بن مالك.

وقد ورد في رواية أخرىٰ أن ابن زياد تساءل: (ولمحمَّدٍ حوض؟ قالوا: هذا أنس بن مالك يحدث ان له حوضاً. فجاء أنس فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنَّ لي حوضاً وأنا فرطكم عليه)[4]

وقد روي عن زيد بن ارقم أنه قال: (بعث اليَّ عبيد الله بن زياد فأتيته، فقال: ما أحاديث تبلغنا وترونها عن رسول الله لا نسمعها في كتاب الله، وتحدث أن له حوضاً!؟

قال زيد: لقد حدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وأوعدنا. فقال ابن زياد: كذلك، ولكنك شيخ قد خرفت. قال زيد: إني قد سمعته اذناي ووعاه قلبي من

---

(١) وأبو برزة هو نفسه الذي انكر علىٰ يزيد قيامه بنكت ثغر الحسين عليه السلام عندما جلب الرأس اليه وقال له: (اتنكت بقضيبك في ثغر الحسين! أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذا، لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يرشفه، اما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء هذا يوم القيامة ومحمد صلى الله عليه وآله شفيعه، ثم قام فولىٰ) الطبري ٣/ ٣٤١.

(٢) رواه ابن أبي عاصم وقال الالباني اسناده ثقات (كتاب السنة ٢/ ٣٢٣).

(٣) رواه ابن أبي عاصم وقال الالباني اسناده صحيح على شرط مسلم وأخرجه أحمد (كتاب السنة ٢/ ٣٢١).

(٤) كتاب السنة ٢/ ٣٢٢.

رسول الله ﷺ وفي رواية (سمعته أول خطبة النبي في غدير خم، في الوصية بكتاب الله وأهل بيته)[1].

وقد وردت ملاحظة قيمة في كتاب (معالم الفتن)[2] حول هذه النقطة، قال فيها الكاتب (وكان تكذيب ابن زياد بالحوض تكذيباً له ثقافته الواسعة، علىٰ أرض اتخذت من قبل ثقافة سب أمير المؤمنين عليّ عنواناً لها. وتحت خيام هذه الثقافات نشأت أجيال يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وهذه الأجيال ما خرجت الا من تحت خيام بني أمية.

وثقافة انكار الحوض شقها ابن زياد بالسكين، وبالسيف، وجلد عليها الظهور، ومنع العطايا عن كل ما قال ان للنبيّ حوضاً. لأنه يعلم ان اثبات الحوض، سترتب عليه أمور تدينه، وتدين ملك بني أمية الطويل العريض.

وإذا كان ابن زياد قد جمع من حوله اتباع يقولون بقوله، فان طائفة الحق كان يدوي في اسماعهم قول النبي ﷺ: «إسمعوا»، قالوا: سمعنا؛ فقال: «إسمعوا»؛ قالوا: سمعنا، فقال: «إنّه سيكون عليكم أمراء، فلا تعينوهم على ظلمهم فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد عليَّ الحوض»[3] وكان في ذاكرتهم أيضاً قوله ﷺ: «أنا فرطكم علىٰ الحوض، ولأنازعنَّ أقواماً، ثم لأغلبنَّ عليهم فأقول: يا رب، أصحابي، فيقول: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[4] وقوله: «اني تارك فيكم الثقلين احدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يتفرقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»)[5] [6].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٢٢.

(٢) معالم الفتن ـ سعيد أيوب ـ دار الكرام ١٤١٤هـ ط ١ ج ٢.

(٣) رواه أحمد وابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه (الفتح الرباني ٣٠/ ٢٣) كتاب السنة ٢/ ٣٥٢.

(٤) رواه البخاري الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحيح ١٤١/ ٤) ومسلم (الصحيح ٥٩/ ١٥).

(٥) رواه أحمد والترمذي وحسنه والطبراني وقال المناوي: رجاله موثّقون .(الفتح الرباني ١/ ١٨٦.

(٦) معالم الفتن ٢/ ٣١١ - ٣١٢.

وبعد، فهل كان ابن زياد علماً من أعلام الثقافة الاموية، رغم أنه يبدو متمتعاً بكفاءات كبيرة لقيادة دولة فرعونية كبيرة أو خدمة فرعون كبير؟. أم أنه كان يفرض دوره ويناقش ويحاور من منطلق القوة والسلطان، ذلك الذي يرفض أن يتغلب عليه أحد أو يفرض عليه رأي أو سلطان، حتىٰ ولو كان سلطان الله سبحانه وتعالىٰ؟.

ان كل شيء يبدو مقبولًا لابن زياد وأمثاله ما دام يمهد لحكم الدولة الظالمة ويدعو لها ويقوي أركانها، حتىٰ ولو كان حديثاً موضوعاً مزوراً سخيفاً لا يقبله العقل والمنطق السليم، وكل شيء ينبغي رفضه ما دام ـ في محصّلته وفي نتائجه ـ يؤدي الى كشف دولة الظلم وتعريتها واسقاطها، وإذا ما وصلت المواجهة إلىٰ هذا الحد، فإن هذه الدولة ستكشف عن الباقي وتعلن نواياها بصراحة، وسيكون سقوط الاسلام اهون عليها من ذهاب سلطتها ومصالحها.

وهذا ما كشفه لنا سلوك يزيد وابن زياد ومن تلاهما من (خلفاء) الامويين وأعوانهم وأصبح سنة لكل سلالات (الخلفاء) الذين جاءوا بعدهم علىٰ امتداد التاريخ.

وفي الختام ان سيرة ابن زياد جديرة ان يتمعّن فيها وتدرس بعناية، لنرىٰ فيها النّماذج المعادة المكرّرة التي تنحاز للظلم وتتبنىٰ مواقفه، ثم تفقد بعد ذلك كل شيء وتنتهي الا من الصيت السيء ولعنة الاجيال. لعلها تكون عبرة لبعض من يريد أن يتفرعن ويعلو في هذه الأرض علوّاً كبيراً.

عمر بن سعد.. الجاسوس القاتل

البدايات

لم تبرز شخصية باهتة الملامح، عديمة اللون، تجد الذل في جانب منها والطمع والخيانة في الجانب الآخر، طيلة عهود التاريخ الاسلامي، مثلما برزت شخصية عمر بن سعد.

ولأنها شخصية باهتة، لا لون لها ولا حس ولا ارادة ولا موقف، وقد ظهرت في ظرف دقيق تزامن مع ابرز حدث في تاريخ الاسلام، ولعبت فيه دوراً لا يزال يذكر كلما مرت ذكرىٰ هذا الحدث أو تعرض الباحثون والدارسون له، وهو ثورة الامام الحسين عليه السلام علىٰ الانحراف المعلن للدولة الاموية؛ فإنها برزت كظاهرة جديرة بالتأمل والدرس، لأنها ظاهرة مكرّرة معاده على امتداد التاريخ. وغالباً ما تسند لأمثال هذه الشخصية بعض مهام الطغاة ـ باشرافهم وتوجيههم طبعاً ـ لتقوم بتأديتها علىٰ وجه يحقق رضاهم، ثم تذوب وتمّحي بعد ذلك ولا تجد لها أثراً في حركة المجتمع، بعد ان لم تكن أساساً ذات أثر في الماضي.

كانت هذه الشخصية إحدى نتاجات مجتمع الظلم والانحراف، افرزتها مجموعة العوامل التي شكلت هذا المجتمع وجعلته بالشكل الذي بدا عليه، وأصبح مجتمعاً موزعاً مشتتاً حتىٰ داخل بنية الشخصية الواحدة ـ القلب مع الحسين والسيف مع بني أمية.

ولن تتاح لأحد فرصة فهم هذه المعادلة المعقدة؛ إذ كيف يكون قلب امرىء معك وسيفه عليك، اللهم الا في وضع غير صحي وغير سليم، لن تتاح فرصة فهم ذلك، ما لم تدرس التحركات الدؤوبة المدروسة لمعاوية وحزبه، الذي استطاع العبث بالمفاهيم الاسلامية الصحيحة وتشويهها وتزويرها وعرضها بشكل جديد ترىٰ لمساته وأسلوبه عليه واضحاً، وهو اسلوب لا يستطيع أحد نسبته للاسلام. وقد اعتمد التطلعات الأرضية الدنيوية الدنيئة البعيدة عن تطلعات الاسلام، وشجّع عليها ودعا إليها كمثل عليا وأسس وحيدة للتعامل والبناء، بديلة عن أسس الاسلام ومثله وقيمه وتشريعاته.

ولن نتكلم عن بدايات ابن سعد، ونشأته الأولىٰ اذ لم نجد في سيرته أو شخصيته ما يلفت اليه الانظار، ويجعله مثار اهتمام أحد من الناس، ولم ترد بحقه الا شهادة واحدة، كانت مع ذلك كافية لكي تدينه، هي من والده، سعد بن أبي وقاص، الذي كان فيما يبدو حانقاً عليه، وقد ابعده بعد أن لم ير فيه خيرًا حتىٰ له هو، فقد كان صاحب لمسات خاصة ومواقف معينة، وصاحب كلمات مزوّقة خادعة، جعلها سبيلًا لتجارة خاسرة وطموحات فاشلة محدودة لم تستطع أن تنيله حتىٰ الدنيا التي كان يريدها.

روىٰ الجاحظ أن (سعد بن أبي وقاص قال لعمر ابنه، حين نطق مع القوم فبزّهم، وقد كانوا مكلموه في الرضا عنه قال: هذا الذي أغضبني عليه؛ اني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم، كما تلحس الارضَ البقرة بلسانها)[1]. كان يرىٰ ان ابنه من هؤلاء، ولعل ما تكلم به هذا الابن لم يكن من الدين في شيء، ولعله بدا أقرب إلىٰ كلام المنافقين الذين يحسنون تزويق الكلام، وربما كان هذا ما أغضب والده الذي ربما كان يريد إعداده لمكانة أرفع ولم يرد لطموحه أن يتوقف عند طموحات اقرانه العاديين اللاهين العابثين، ولعل الذي أغضب الوالد، ليس مجرد نطق ابنه وكلامه، بل ما عرفه عنه قبل ذلك، مما كان نتيجته هذا الغضب الذي روي عنه.

ولم يكن عمر بن سعد بن أبي وقاص ـ واسم ابي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهره بن مرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وام سعد حمدونة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ـ يبدو ممن كانوا يهتمون بأمور الدين الا بالقدر الذي يقربهم من الدنيا، وقد نشأ في ظلّ أبيه ـ في فترة شبابه ـ عيشة مترفة في داره التي بناها بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل علىٰ أعلاها شرفات كما ذكر ابن عساكر في تاريخه.

لقد كان لسعد بن أبي وقاص نفسه، مواقف مع أمير المؤمنين عليه السلام، اتهمه سعد في احدها بأنه كان حريصاً علىٰ الخلافة[2]، وذلك خلال أحداث الشورىٰ بعد

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ١/ ١٧٢.

(٢) وقيل ان الذي قال له هذا هو ابو عبيدة بن الجرّاح يوم السقيفة والرواية الأولىٰ أشهر، كما روىٰ ابن أبي الحديد في شرح النهج ٩ - ٤٧٥.

مقتل عمر، مع أنه كان أعرف الناس بمنزلته واحد الرواة الرئيسيين لقول رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ»، وقد ذكر أمير المؤمنين حادث اتهامه من قبل سعد وجوابه له[1]، ويبدو من ثنايا قول الامام عليه السلام أنّه كان يتألم بشده، خصوصاً وان من واجهوه بهذه الأقوال هم من أعرف الناس بمكانته وحقه[2]، وحتىٰ في حالة مجابهتهم بالحجة الواضحة، فإن ردهم الاخير هو السكوت، ثم الاستمرار بسعيهم لسلبه حقه، وسلب المسلمين حقهم بولايته وخلافته.

بين (سعد) و(علي)

اختار عمرُ بن الخطاب سعد بن أبي وقاص، كأحد أعضاء (مجلس الشورى) السته، وقد أدلىٰ بدلوه لصالح عثمان، وقد ناشده أمير المؤمنين عليه السلام ألّا ينحاز الا إلىٰ الحق، غير أنه لم ينحز الا الى مصالحه. فما عسىٰ ما سيناله من علي إذا ما أصبح خليفة، وقد حث عبد الرحمٰن بن عوف على اتمام مهمته التي كان يبدو انها تسير لصالح عثمان.

---

(١) (وقد قال قائل: انك علىٰ هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص، فقلت: أما انكم والله لأحرص وأبعد وأنا أخص وأقرب، وانما طلبت حقا لي وانتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه. فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هبَّ كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به. اللهم إني أستعديك علىٰ قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي. ثم قالوا: الا ان في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تتركه) ـ شرح نهج البلاغة ٩ - ٤٧٥.

(٢) اخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص ان رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ الا أنه لا نبي بعدي» تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ١٥٧.
وروىٰ مسلم في كتاب (فضائل الصحابة) بسنده عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: «قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ الا أنه لا نبي بعدي» قال سعيد: فأحببت أن أشافه بها سعداً، فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني عامر: فقال: انا سمعته. فقلت: أنت سمعته. فوضع اصبعيه على أذنيه، فقال: نعم، والا فاستكتا.
ورواه ابن الاثير في اسد الغابة ٤ـ ٢٦ والنسائي في الخصائص ١٥. وقد روي الحديث من طرق متعددة وعن رواة كلهم ثقاة (فضائل الخمسة من الصحاح الستة ـ السيد مرتضىٰ الفيروزآبادي، مؤسسة الاعلمي لبنان ط ٤ - ١٩٨٢ ج ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها)

كانت قريش مستنفرة كلّها لإنجاز المهمّة بذلك الإتّجاه.

وقد ارتفعت صرخة عمار بوجه ابن عوف: (إن أردت الّا يختلف المسلمون فبايع عليا). وارتفعت مقابلها صرخة ابن أبي سرح: (إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان).

وربما تردد ابن عوف امام مسؤوليته، الا أن سعد بن أبي وقاص حثه علىٰ المضي بمهمته قائلًا: (يا عبد الرحمٰن افرغ قبل أن يفتتن الناس)[1].

واختار عثمان، وانتصرت قريش علىٰ سائر المسلمين.

لقد ارادت فرض شروطها عن طريق ابن عوف علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام: العمل بكتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وآله (وعمل الشيخين) الذي اعتبرته مكملًا للسنة، وقد رفض ذلك، فعمل الشيخين ليس ملزماً، وقد قبل عثمان.

وحتىٰ لو قبل أمير المؤمنين عليه السلام فأنه كان سيُنحّى أيضاً قبل أن ينّصب، وكان سيقال عندئذٍ: أنه أقر أن عمل الشيخين جزء من السنّة واعترف به، غير أن هذا لا ينافي حرصه على نيل منصب الخلافة وان هناك من هو أجدر به منه.

هل يا ترىٰ أنه إذا ما قال: نعم، سيقول عثمان: لا؟، ستعادل كفتاهما في مسألة القبول بعمل الشيخين، وستترجح كفة عثمان لأن قريش ارادته ولأنها ستتداول الأمر بينها فيما بعد، وهكذا قال قولته المشهورة: (حبوته حبو دهر ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون؛ والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك، والله كل يوم هو في شأن)[2] [3].

---

(١) ويبدو أن كره ابن أبي وقاص لأمير المؤمنين عليه السلام كان قديماً فقد روي عنه أنه قال: (كنت جالساً في المسجد انا ورجلين معي، فنلنا من علي بن أبي طالب، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله غضبان، يعرف في وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه. فقال: ما لكم ومالي، من آذىٰ علياً فقد آذاني) ابن كثير ٧/ ٣٤٧ والزوائد ٩/ ١٢٩ رواه أبو يعلىٰ ورواته ثقات.

(٢) الطبري ٢/ ٥٨٢ وما بعدها حول تفاصيل قصة الشورىٰ، والعقد الفريد ٥/ ٣١.

(٣) ورغم معرفة سعد الاكيدة بمكانة أمير المؤمنين عليه السلام وصحة موقفه من الخارجين عليه بعد خلافته، فانه لم ينصره أو يلتحق به في حرب الجمل وحاول التشكيك بقعوده وقوله لأمير المؤمنين عليه السلام (اني أكره الخروج في هذه الحرب فاصيب مؤمناً. فان أعطيتني سيفاً يعرف المؤمن من الكافر قاتلت معك). الجمل/ الشيخ المفيد ط ٢ النجف ص ٢٩.

وقد ولاه عثمان الكوفة، (وكان أول عامل بعث به عثمان، سعد بن أبي وقاص علىٰ الكوفة)[1]، وقد عمل له سنة وأشهراً. ثم عزله بعد ذلك، وقيل ان السبب في ذلك هو أنه استقرض من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالاً، فلما تقاضاه لم يرجعه، وكان ذلك سبباً لخصومة بينهما، حتىٰ قيل أن ذلك كان أول ما نزغ به بين أهل الكوفة ـ وهو أول مصر نزغ الشيطان بينهم في الاسلام، على حد تعبير الشعبي. (فلما بلغ عثمان الذي كان بين عبد الله وسعد غضب عليهما وهمّ بهما، ثم ترك ذلك، وعزل سعداً، وأخذ ما عليه، وأقر عبد الله وتقدم اليه)[2].

وكانت لابن أبي وقاص سوابق جعلت عمر بن الخطاب أيضاً لا يطمئن اليه، فقد كان أحد العمال الذين قاسمهم عمر أموالهم[3].

ولما بنىٰ سعد قصر الكوفة إبّان انشائها وبلغ عمر انهم يُسمُّونه قصر سعد دعا محمد بن مسلمة فسرحه الىٰ الكوفة وقال: اعمد إلىٰ القصر حتىٰ تحرق بابه، فخرج، فأحرق الباب)[4]

وفي عام عشرين للهجرة (عزل عمر سعداً عن الكوفة لشكايتهم إياه، وقالوا: لا يحسن يصلي)[5]. إلىٰ أن أعاده عثمان ثم عزله بعد ذلك.

الكهل الاخرق.. طمعه قتله

ولو ابن سعد في عهد النبي ﷺ، كما ذكر الجاحظ، ولعب دوره المعروف بقتل الحسين عليه السلام عام (٦١)، ولا بد أن عمره كان في ذلك الوقت قد قارب الستين، وربما كان في منتصف العقد السادس، وهي سن يدرك صاحبها مسؤولياته، ويزن أعماله بدقه، لأنه محاسب عليها حساباً دقيقاً.

وقد عاش حتىٰ ذلك الحين عصور الخلفاء كلهم وعصر معاوية، ولعل مركزه كابن قرشي معروف ينتمي الى جيل الصحابة، وابن (بطل القادسية) وأحد أعضاء

---

(١) الطبري ٢/ ٥٨٢ وما بعدها حول تفاصيل قصة الشورىٰ والعقد الفريد ٥/ ٣١.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٥٩٦.

(٣) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ١٣٢.

(٤) الطبري ٢/ ٤٨٠ - ٥١٦.

(٥) المصدر السابق.

مجلس الشورىٰ وعامل خليفتين علىٰ الكوفة، أتاح له فرصة الا يكون مجرد مشاهد عادي للاحداث الكبيرة التي مرت بها الامة في ذلك الحين، وانما مشاهد مقرب عاش بالقرب من صناع تلك الاحداث ولم يفته منها الا ما اراد تناسيه هوَ.

أليس من العجيب أن ترد الاحاديث بفضل أمير المؤمنين عليه السلام ومناقبه مسندة عن ابراهيم بن سعد عن والده وكذلك عن مصعب بن سعد وعامر بن سعد وعبد الرحمٰن بن سعد وعائشة بنت سعد وعبد الله بن سعد، أي بيت سعد كله ولا يسمع بها عمر وهو أكبرهم؟ لماذا انكرها مع انه كان يعيش في بيت كله يتذاكر ويروي مناقب أمير المؤمنين عليه السلام؟ اشترك بيت سعد ابن أبي وقاص كله برواية حديث الرسول صلى الله عليه وآله مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام «لا ترضىٰ ان تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ الا أنه ليس نبي بعدي»[1]

وقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ الا أنه لا نبي بعدي»[2].

وسمع منه حديث الغدير أيضاً وحضر حوادث ومناظرات جرت بينه وبين بعض رواة الحديث وبعض صناع الاحداث، فلم لم يُرْوَ عنه، ولم انفرد عن إخوته وأخته بسكوته المطبق ذاك؟، الا يكون حديثه عن والده ادانة شخصية له؟ خصوصاً وأنه لعب دوراً سيظل يذكر علىٰ الدوام عندما ترأس الجيش الذي قتل الحسين وأصحابه عليه السلام.

وقد أراد معاويةُ سعداً أن يشترك في حملة سبّ أمير المؤمنين عليه السلام واجتمع به لهذا الغرض، وقد امتنع سعد عن ذلك عندما قال له معاوية: ما منعك ان تسب ابا تراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله صلى الله عليه وآله فلن اسبه لأن تكون لي واحده

---

(١) دوّنت ذلك كافة كتب الصحاح ـ (صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق وابن ماجة في صحيحه ص ١٢ وأحمد بن حنبل في مسنده ١ـ ١٧٠ـ ١٧٤ـ ١٧٩ـ ١٨٢ـ ١٨٥ـ ٣٣٨ والطيالسي في مسنده ١٥ـ ٢٨ـ ٢٩ وأبو نعيم في الحلية ٧ـ ١٩٤ـ ١٩٥ـ ١٩٦. والترمذي ٢ـ ٣٠٠ والنسائي في الخصائص ص ٤ـ ١٦ـ ١٧ والخطيب البغدادي في تاريخه ١ ٣٢٤ و٤/ ٢٠٤ و٣/ ٢٨٨ ومستدرك الصحيحين ٢ـ ٣٣٧ وغيرها من كتب الحديث والتاريخ.

(٢) المصدر السابق.

منهن أحب إلي من حمر النعم، وذكر له القصة التي قال ﷺ فيها لأمير المؤمنين: اما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ الا أنه لا نبوة بعدي (الحديث)[1].

وقد (قدم معاوية في بعض حجاته، فدخل عليه سعد فذكروا علياً فنال منه، فغضب سعد وقال: نقول هذا لرجل سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، وسمعته يقول: انت مني بمنزلة هارون من موسىٰ الا أنه لا نبي بعدي، وسمعته يقول: لأعطينَّ الراية رجلًا يحب الله ورسوله[2]) وعندما عتب معاوية على سعد لأنه لم يشاركه قتال علي عليه السلام قال له سعد: لقد ندمت علىٰ تأخري عن قتال الفئة الباغية، يعني بها معاوية ومن تابعه. [أحكام القرآن ٢ - ٢٢٤].

ومن الغريب أن سعداً هذا رغم روايته لهذه الأحاديث واعترافه بأنه سمعها عن رسول الله ﷺ مباشرة، وقف موقفاً معادياً لأمير المؤمنين عليه السلام، رغم مناشدته إيَّاه بان يلتزم طريق الحق والصواب، وانحاز إلىٰ جانب عثمان في مسألة الشورىٰ وضيع علىٰ المسلمين فرصة تاريخية والتحق بركب قريش التي أعلنت عداوته ومناوأته وحربه، وحرموا بذلك من عدله وعلمه، ولعله ندم على موقفه بعد أن آل الأمر لمعاوية، إذ لم ير وجهاً للمقارنة بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام بأي شكل من الأشكال.

نشأ ابن سعد وهو يحمل عقدة الكره القرشية المتكبرة المتجنية على أمير

---

(١) لما قال له معاوية: ما منعك أن تسب أبا تراب قال: (اما ما ذكرت ثلاثاً قالهنَّ رسول الله ﷺ لإن تكون لي واحدة منهنَّ أحبُ إليَّ من أن يكون لي حمر النَعم، فلن أسبَّه. سمعت رسول الله ﷺ يقول وقد خلَّفه في بعض المغازي فقال له علي: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: اما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ الا أنه لا نبوة بعدي. وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينَّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله فتطاولنا لها: فقال: ادعوا لي علياً. فأتاه وبه رمد، فبصق في عينيه ودفع اليه الراية ففتح الله عليه؛ ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال: اللهم ان هؤلاء أهلي». الاصابة لابن حجر ج ٢ ص ٥٠٩.

(٢) صحيح ابن ماجه ص ١٢.. وقد سأله معاوية: من سمع هذا معك؟ فقال سعد: سمعه فلان وفلان وام سلمة. قال معاوية: لو كنت سمعت هذا لما قاتلته. شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ١ - ٢٠١.

المؤمنين عليه السلام، وإذ عجزت قريش عن اظهار هذا الكره وأحنت رأسها أمام عاصفة الإسلام فإن فرصة إظهار هذا الكره اتيحت لها عندما توفي الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ووقفت تتحدىٰ علياً، وجعلت من نفسها حائلًا بينه وبين ممارسة حقه في قيادة الأمة على المنهج الصحيح الذي أعده ورسمه أخوه وابن عمه صلى الله عليه وآله، خالياً من شوائب الجاهلية وأقذارها.

افتراء تجسس وغدر.. عرفه فأوصاه

لقد كان ابن سعد خاملًا ولم يعرف عنه سوىٰ طموحه لنيل ولاية الري في عهد يزيد بن معاوية، وكان طمعه بهذه الولاية يناقض وصية أبيه(١). ويبدو أنه قرر أن يسير مخالفاً لها تماماً، وقد فعل ذلك، رغم أنه كان في حال ميسورة إلىٰ أبعد حد تجعله غنياً عما في أيدي الآخرين.

لقد لعب ابن سعد دور الجاسوس عندما كتب فيمن كتب إلىٰ يزيد عند قدوم مسلم الكوفة، يحذره من قدوم الحسين(٢). ولم يلزمه أحد أن يكتب إلىٰ يزيد، غير أنه ربما اراد أن ينظر إليه سيد الدولة الجديد بعطف ويوليه بعض شؤونها، وهذا ما تم فعلاً، إذ أن ابن زياد قد ولاه الري قبيل مقدم الحسين عليه السلام ووصوله كربلاء.

ولو شئنا أن نستعرض المشاهد التي برز فيها ابن سعد، لرأينا أنها ليست مما تشرف صاحبها بأي حال من الاحوال.

ففي أحدها، يظهر ابن سعد في حاشية ابن زياد عندما أحضر مسلم بعد اعطائه الامان والغدر به، وقد أراد أن يوصي قبل أن يقتل، فاختاره باعتبار أنَّ بينهما قرابة وانه القرشي الوحيد الذي كان يحضر ذلك المجلس، وفي ذلك تجاهل من مسلم لادعاء

---

(١) (قال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بني اذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد، واياك والطمع فانه فقر حاضر، وعليك باليأس، فانك لم تيأس من شيء قط الا أغناك الله عنه) العقد الفريد ٣ ١٥٥ـ ١٥٦.

(٢) ابن الاثير ٣/ ٣٨٧ والطبري ٣/ ٢٨٠ والبلاذري في الانساب ٢ـ ٧٨ والنويري في نهاية الارب ٢٠ـ ٣٨٨. وقد لعب دوراً قذراً آخر عندما شهد امام زياد عام ٥١ بأن حجر بن عدي قد (خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلىٰ الحرب والفتنة وجمع اليه الجموع يدعوهم الىٰ نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله..) الطبري ٣/ ٢٢٦.

آل زياد بأنهم من قريش أيضاً عندما الصقوا نسبهم بأبي سفيان، وهي لطمة قاسية لابن زياد لم تخفف منها عنجهيته وحدته وسلوكه الجاف.

ولعل ابن سعد قد خشي أن يختلي بمسلم لئلا يظن به ابن زياد الظنون ويتعرض لغضبه الجامح، الا أن ابن زياد أمره بذلك، وقد جلسا حيث ينظر اليهما ويراقبهما.

وبالتأكيد فان ابن زياد كان يدرك ان نظرة واحدة منه كانت كفيلة بجعل ابن سعد يفشي السر الذي سيدلي به مسلم اليه، وقد حصل ما توقعه ابن زياد.

إنه لا يخونك الامين

لقد أوصىٰ مسلم ابن سعد أن يبعث الى الحسين عليه‌السلام من يخبره بحال الكوفة وانقلابها عليه، ويوصيه بالعودة اذا ما كان قد أقبل اليها، كما أوصاه بأمور اخرىٰ تتعلق بدين عليه ودفن جثته.

وهنا بادر ابن سعد ـ حتىٰ دون أن يسائله ابن زياد عما أوصاه به مسلم ـ علىٰ البوح بسر مسلم ووصيته وقال لابن زياد: (أتدري ما قال لي؟ إنّه ذكر كذا وكذا)[1].

وقد اندهش ابن زياد من السهولة التي باح بها ابن سعد بالسر، فرغم معرفته بضعفه، الا انه لم يكن يتصور انه علىٰ تلك الدرجة من الضعف والخور. فأية قوة ارغمته علىٰ البوح بالسر؟ هل هو لاستجلاب عطفه عليه؟ أم لخوفه منه وتجنب شره؟ ام أنه نفسه كانت مطبوعة علىٰ الخيانة؟ أم انه كان يكنّ كرهاً خاصاً لأهل هذا البيت رأىٰ ان الفرصة كانت سانحة للافصاح عنه؟.

غير أنه لم يلح لابن زياد الا شيء واحد محقق؛ وهو خيانة ابن سعد لأمانة مسلم ووصيته، فالامين لا يمكن أن يخون وهو أمر بديهيّ، وابن سعد لم يكن أميناً وقد خان عندما ائتُمن، وردد ابن زياد مقولة مشهورة: (.. انه لا يخونك الامين، ولكن قد يؤتمن الخائن)[2].

لقد وصفه ابن زياد علانية بأنه خائن. وكانت صفعة قوية علىٰ وجهه امام مسلم الذي لم يكد يأتمنه علىٰ سره ويوصيه بعد، وأمام الحاشية كلها، ولم يتحرج منها ابن سعد ولم يحتج على ابن زياد رغم وصمه اياه بصفة الخيانة، ولعل وشايته بمسلم

(١) الطبري ٣/ ٢٩١.

(٢) المصدر السابق.

وهضمه الاهانة التي ألحقها ابن زياد به كانا مؤشراً جيداً لهذا الأخير أدرك منه أنه أمام ذليل خانع لا يأنف من الاهانة، بل انه يرمي اليها بنفسه طوعاً ان لم تأته كرهاً برغم كل ما قد يتشدق به من النسب القرشي!!.

لقد بلغ ذلّه حداً لم يأنف معه من خدمة الدولة التي قتلت أبيه نفسه، عندما سقي السم بأمر من معاوية لأنه كان منافساً محتملاً له في خضم الاحداث الكبيرة التي مرت بها الأمة، ومهد بذلك الأمرَ ليزيد، وأصبح هو خادماً له مع أن أحداً لم يدعه إلىٰ ذلك.. ومع أن والده كان أحد الضحايا.

ولقد صدق حدس ابن زياد فيه، ورأىٰ فيه ذلة واستجابة كفيلتين لأن تجعلاه يطيع أي أمر صادر إليه، حتىٰ وان كان الاقدام علىٰ جريمة قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام والتمثيل بجثثهم بعد ذلك، وسيكون اخراج الجريمة بعد ذلك متقناً، فان قريش قد اختلفت فيما بينها، و(تنافس) ابناؤها وتقاتلوا، وهو أمر (داخلي) لا شأن (للغرباء) فيه، وهو بالضبط نفس توجه معاوية وما أراد الايحاء به قبل ذلك.

الجريمة.. لا يبررها الخوف من القتل أو الطمع بملك الري

كان ابن سعد يمثل أحد عناصر مجتمع الظلم، كابن زياد نفسه، وربما كان تسلط ابن زياد وقسوته وعنجهيته هو حجته الوحيدة امام من استنكر عليه قتل الحسين عليه السلام وأصحابه، وربما برر اقدامه على الجريمة بالخوف منه. وهو ما فعله أيضاً.

فعندما طلب منه ابن زياد الكتاب الذي أرسله اليه وفيه يأمره بقتل الامام عليه السلام ، ادعىٰ أنه قد ضاع منه، ثم قال فيما بعد أنه أرسله الى المدينة ليقرأ على عجائزها ويثبت براءته من الجريمة وانه كان (مجبراً) عليها بالأوامر التي صدرت اليه منه.

(عن عوانة، قال: قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر، أين الكتاب الذي كتبت به اليك في قتل الحسين؟

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به.

قال: ضاع.

قال: والله لتجيئني به.

قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً اليهن بالمدينة؛ اما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها ابي سعد بن أبي وقاص كنت قد أديت حقه)[1].

وكان ابن سعد يحسب انه قد برأ ذمته بذلك، إذ أرسل الكتاب ليقرأ على عجائز قريش اعتذاراً اليهن، وانه بذلك قد نفض يديه من المسألة كلها والقىٰ بتبعتها على ابن زياد وحده، وكأنه كان مجرد آلة أو عصا مسلوبة الارادة بيد الطاغية وحسب؛ وقد أشرنا الى هذه القصة في معرض الحديث عن حملة تبادل الاتهامات التي جرت بعد الجريمة.

ولعل ابن سعد حسب ان قارىء هذه الرسالة سيتصور أنه كان غير راغب في قتل الامام عليه السلام وأصحابه عليهم السلام.

غير أننا نتساءل: ما دام ابن سعد قد نصح ابن زياد بعدم الاقدام على الجريمة، فلماذا أقدم عليها بنفسه ونفذها، وكان أول رام ومعتدٍ. أكان ذلك من قبيل (الانضباط العسكري) واطاعة الاوامر، وهل كان أمر مخالفة ابن زياد جريمة تفوق جريمة الاقدام على قتل الحسين عليه السلام التي اقدم عليها، رهل رأى في هذه الجريمة ما لا يضيره ما دام قد أمره بها سيده، وما دام قد جعل له ملك الري ثمناً لذلك؟.

كان ابن سعد أحد الظلمة المستضعفين الذين تخاذلوا امام أسيادهم، كحال سيده ابن زياد نفسه، الذي تخاذل امام سيده رأس الدولة يزيد، عندما هدده بأن يعيده عبداً، ما لم يتصد للامام الحسين ويمنعه أو يقتله، وقد اقدم على جريمته، ولم يضع أمامه مثله الأعلى (المنخفض)، ولم ير أنه محاسب الا من قبله هو وحده.

الكذب.. لتبرير الجريمة

كان ابن سعد أحد الاعوان الثانويين للظالم، وكان ضمن حاشية ابن زياد، ولم يرو لنا انه حاول ثنيه أو منعه من جريمة قتل الحسين عليه السلام ولم يثقل لنا الا انه أرسل رسالة ذليلة اليه يخبره فيها ان الحسين عليه السلام طلب الرجوع أو الذهاب الى أحد ثغور المسلمين للجهاد أو أخذه الى يزيد لوضع يده في يده.

وهي رسالة مفتعلة، راويتها الوحيد هو ابن سعد نفسه، ولم يقم عليها دليل؛ اذ

(١) الطبري ٣/ ٣٤٢.

لم يحصل ان طلب الحسين عليه السلام ذلك. وقد أوضحنا في بحث مستقل، بطلان رواية ابن سعد، وان الامام عليه السلام ما كان ليطلب مثل هذا الطلب ويقبل ان يضع يده بيد يزيد.. اذ لو كان قد أراد ذلك وقبل به، فما المانع ان يضع يده بيد ابن ابن زياد ـ وهو كيزيد ـ وينهي العملية برمتها إذ ما كان يريد أن يسلم من القتل وحسب؟.

ربما أراد ابن سعد أن ينفي عن نفسه تهمة الرغبة بقتل الامام عليه السلام، لأنه كان يعلم من هو، ويعرف منزلته ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن المسلمين، ويعرف أنه قد أقدم على جريمة نكراء لن تُغتفر له من قبل المسلمين على مر الايام، وربما سينال عليها جزاء عاجلًا، اضافة إلىٰ جزاءٍ آجل في الآخرة.

لذلك فإنه راح يرمي مسؤوليتها على ابن زياد، الذي رماها بدوره على يزيد، والذي ارجعها الى ابن زياد في لعبة مكشوفة مفضوحة، وهكذا كانوا يتخبطون ـ أمام استنكار المسلمين لذلك العمل الشنيع الذي ارتكبوه وحاولوا التنصل منه، باختلاق روايات وقصص (تثبت) أنهم كانوا غير راغبين بقتل الامام عليه السلام وأصحابه وقطع رؤوسهم والتمثيل بجثثهم وانه كان تصرفاً فردياً لا شأن له برأس الدولة، يزيد. علىٰ الخصوص. وهذا ما كرست له الدعاية الاموية جهودها.

طموح قديم عالجه سمّ معاوية: ان لله جنوداً من عسل

ولم يشر أحد من المؤرخين إلىٰ وجود طموح لدى ابن سعد قبل هذا التاريخ سوىٰ تلك القصة التي اشار اليها ابن ابي الحديد وفيها يدعو ابن سعد اباه لحضور دومة الجندل والمشاركة بمهزلة التحكيم لكي يصير الأمر اليه فيما بعد، وربما لكي يؤول اليه فيصبح هو بدوره خليفة على المسلمين.

(.. كان سعد بن أبي وقاص قد اعتزل علياً ومعاوية، ونزل على ماء لبني سليم بأرض البادية يتشوَّف الاخبار، وكان رجلًا له بأس ورأي ومكان في قريش، ولم يكن له هوى في علي ولا في معاوية، فأقبل راكب يوضح من بعيد، فإذا هو ابنه عمر.

فقال له أبوه: مهيم.

فقال: التقىٰ الناس بصفين، فكان بينهم ما قد بلغك، حتىٰ تفانوا، ثم حكموا عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، وقد حضر ناس من قريش عندهما، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أهل الشورىٰ، ومن قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم، اتقوا دعوته، ولم تدخل في شيء مما تكره الامة، فاحضر دومة الجندل، فانك صاحبها غدا.

فقال: مهلًا يا عمر، اني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون بعدي فتنة، خير الناس فيها التقي الخفي، وهذا أمر لم أشهد أوله، فلا أشهد آخره، ولو كنت غامساً في هذا الأمر لغمستها مع علي بن أبي طالب. وقد رأيت كيف وهب حقه من الشورىٰ، وكره الدخول في الامر، فرحل عمر، وقد استبان له أمر أبيه..)[1].

كان موقف سعد قد شجع ابنه لكي (يدعوه) لحضور التحكيم لكي يصيب بعض الأمر، بل ليكون الأمر كله اليه فيما بعد.

هل كان من يعرف عليا ومعاوية حق المعرفة يقف منهما موقف الحياد؟.

وهل مَن روىٰ تلك الاحاديث عن الرسول ﷺ مباشرة ويعرف فضل أمير المؤمنين عليه السلام، يرىٰ في تصديه لمعاوية فتنة؟ وهل هذه هي حقاً الفتنة التي أشار اليها رسول الله ﷺ؟.

وهل هناك شك في طبيعة توجهات أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية؟.

لقد تنازل سعد عن (حقه) في الشورىٰ، لأن هناك من كان يمكن أن ينافسه، أما اذا وصل الأمر إلىٰ حد ادعاء معاوية ذلك (الحق)، فان سعد أولىٰ ـ في تلك الحالة ـ منه، وأقرب وصولًا الىٰ الهدف.

أما مع علي عليه السلام، وهو من أعرف الناس بفضله، فماذا يمكن أن يفعل؟.

وكان معاوية قد حاول استمالته الى جانبه قبيل حرب الجمل، محاولًا دغدغة مشاعره، إلا أنه ـ فيما يبدو ـ لم يخدع مدركاً موقعه ومكانته في وجود أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أجابه اجابةً حاذقة تدل علىٰ فهم صحيح لموقعه عليه السلام ومكانته وقدراته الفائقة التي لم تجتمع في احد غيره، سوىٰ رسول الله ﷺ الذي سبقه بها بلا شك كتب اليه معاوية:

(أما بعد فان أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورىٰ من قريش الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكان في الأمر، ونظيرك في الاسلام، وخفت لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهن ما رضوا، ولا تردن ما قبلوا، فإنا نردها شورىٰ بين المسلمين.

---

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٢ ١٩٧ والطبري ٣/١١١.

فأجابه سعد:

أما بعد فان عمر لم يدخل في الشورىٰ الا من تحل له الخلافة من قريش، فلم يكن أحد أحق بها من صاحبه الا باجماعنا عليه، الا أن عليا كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه، وهذا أمر قد كرهت أوله وكرهت آخره، فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما، والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت)[1]

ورسالة معاوية حاذقة ذات لمسات شيطانية جديرة به، فهو يؤكد على أهل الشورىٰ ـ وسعد منهم ـ الذين اثبتوا (حق) عثمان وجدير بهم أن يأخذوا بثأره، وقد أشار إلىٰ طلحة والزبير باعتبارهما شريكان في الأمر وأتاح لسعد بذلك أن يدلي بدلوه فيكون ثالثهما لأنهما نظيراه، علماً أنه أرسل إلى كل واحد منهما موصياً بأنه هو الجدير بالأمر، وما داما قد رضيا الأخذ بثأر عثمان وردّها شورىٰ.. وتابعتهما علىٰ ذلك عائشة فينبغي عليه أن يقر ذلك ولا يرده خصوصاً وأنهم (ومنهم معاوية طبعاً) قرروا أن يردّوها شورىٰ بين المسلمين.. أما كيف ألحق نفسه بالركب وأصبح من أصحاب القرار والناطق باسمهم فذلك أمر لا يحقُّ لأحد أن يتساءل عنه.

ويبدو ان رسالة معاوية هذه وأسلوبه الماكر لم تنطل على سعد الذي أنكر تصدي معاوية لهذه المسألة وزجه نفسه بينهم.

ورغم شهادته بحق أمير المؤمنين عليه السلام وقوله عنه، أنه كان فيه ما لم يكن فيهم وأنه كان يملك امكانات وصفات نادرة، فهو لم يتحرك الى صالحه كما أنكر على طلحة والزبير وعائشة تحركهم ضده.. بل أنه بدا في بعض المواقف مناوئاً لأمير المؤمنين بصورة علنية[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٠.

(٢) يدل على ذلك موقفه منه عندما قال أمير المؤمنين عليه السلام: (سلوني قبل أن تفقدوني فوالله ما تسألوني عن شيء مضىٰ ولا عن شيء يكون الا أنبأتكم به، فقام اليه سعد وقال: يا أمير المؤمنين أخبرني كم في رأسي ولحيتي من شعرة، فقال عليه السلام: لقد سألتني عن مسألة حدثني عنها خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله انك ستسألني عنها، وما في رأسك ولحيتك من شعرة الا وفي اصلها شيطان جالس وان في بيتك لسخلاً يقتل ولدي الحسين وعمر يدرج بين يدي أبيه) كامل الزيارات ـ ابن قولويه ـ ص ٧٤. وبحار الانوار/ المجلسي/ مؤسسة الوفاء/ لبنان ج ٤٤ - ٢٥٦ والامالي للصدوق م ٢٨ ص ٨١م ٢٨. ويبدو أن أمير المؤمنين عليه السلام كان=

وهنا لا بد أن يبدو سكوته وعدم تحركه إلى جانب الامام عليه السلام أمراً محيراً خصوصاً وانه أعرف الناس بفضائله وأحد رواة الأحاديث الصحيحة بشأنه، ولا يمكن ان يبرر سكوته عن ظلم من سعوا لمناوأته الا بالتربص وانتهاز الفرصة للوصول إلىٰ الأمر والخلافة، وهو ما أدركه معاوية بالتالي، فسعىٰ إلىٰ تصفيته وقتله بالسم.

ذهبت اللقمة الكبيرة، فليقنع بالفتات

لقد أدرك ابن سعد منذ البداية ان اللقمة الكبيرة لن تكون من حصته، واكتفى من الغنيمة بالبقاء حياً وأكل الفتات الذي يتساقط من موائد (الكبار)، ولم يكن له دور في الاحداث التي مرت بعد ذلك، حتىٰ (برز) قبيل واقعة كربلاء حيث انيطت به مهمة قتل الامام الحسين وأصحابه عليهم السلام والتمثيل بجثثهم، وكانت مهمة قذرة جديرة بإنسان باهت الشخصية يتطلع إلىٰ أمر يحقق طموحه، وهو ولاية الري. التي يبدو أنها كانت حلماً كبيراً يفوق كل ما كان يفكر به.. إلا أنه قد وعد به بالتالي، ويبدو أنَّ ذلك مكافأة بعد أن أثبت ولاءه ليزيد وحرصه على بقاء ملكه، وبعد ارساله رسالة الانذار من (مخاطر) وجود مسلم في الكوفة، وبعد أن أفشى سره بعد أن أوصاه في مجلس ابن زياد الوصية التي أشرنا اليها في مقدمة هذا البحث.

(وكان ابن زياد قد بعث عمر بن سعد ـ قبيل شهر المحرم ـ قائداً علىٰ أربعة آلاف إلى (ثغر دستبي)لأن الديلم قد غلبوا عليها، وكتب له عهداً بولاية الري وثغر دستبي والديلم فعسكر ابن زياد في حمام أعين)[1].

وبما أن هذا الجيش كان جاهزاً ومعداً، وان قائده كانت لديه استعدادات لخدمة

=كثيراً ما يقول سلوني قبل أن تفقدوني كما ورد في حديث عباية الاسدي (أمالي الشيخ الطوسي ص ٣٧) سواء في خلافته أو قبلها.. ومن الاكيد ان خطابه هذا لم يكن في الكوفة اذ كان عمر في ذلك الحين قد تجاوز الثلاثين عاماً ولم يكن طفلاً يدرج بين يديه، ويؤكد تكرار قول أمير المؤمنين هذا تصدي رجلين آخرين له هما تميم بن أسامة بن زهير التميمي والد الحصين بن تميم الذي صار علىٰ شرطة عبيد الله بن زياد وشارك بمذبحة الطف بعد ذلك (نهج البلاغة ٢ـ ٥٠٨) وأنس النخعي الذي قال له عليه السلام نفس ما قاله لصاحبيه، وهو أبو سنان وكان يومئذٍ طفلاً يحبو (شرح النهج ٢ـ ٢٠٨).

(١) الطبري ٣/ ٣١٠ وابن الاثير ٣/ ٢٨٣ والخوارزمي ١ـ ف ١١ ونهاية الارب ٢٠ـ ٤٢٥ والاخبار الطوال ٢٥١ ومرآة الجنان لليافعي ١ـ ١٣٢ والري مدنية في فارس جميلة عامرة.

الدولة دون حدود، وربما كان تلهفه على استلام المنصب مؤشراً علىٰ تلك الاستعدادات فان ارساله لاستقبال الحسين عليه السلام والحاق الاعداد الأخرىٰ التي التحقت به حتىٰ وصلت ثلاثين الفاً، كان يبدو هو الاجراء المناسب في ذلك الظرف الدقيق الذي كان يبدو فيه العرش الأموي معرضاً للخطر الشديد.

كانت ولاية الري مشروطة بمسيره لقتال الحسين عليه السلام، وبما أنها كانت مهمة بنظره إلىٰ درجة بدت معها أن حياته مرهونة باستلامه مفتاح تلك الولاية، فإن أمر مقاتلة الحسين عليه السلام وقتله بدا في نظره أهون من ترك الولاية، التي لم يتقلدها في النهاية على أية حال، دعاه ابن زياد، وأمره قائلًا: (سر الىٰ الحسين، فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلىٰ عملك، فقال له عمر بن سعد: ان رأيت رحمك الله أن تعفيني فافعل، فقال له عبيد الله: نعم، علىٰ أن ترد لنا عهدنا.

فلما قال له ذلك، قال عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتىٰ أنظر، فانصرف عمر يستشير نصحاءه، فلم يكن يستشير أحداً الا نهاه.

وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ وهو ابن أخته ـ فقال: انشدك الله يا خال أن لا تسير إلىٰ الحسين فتأثم بربك، وتقطع رحمك؛ فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الارض كلها لو كان لك، خير لك من أن تلقىٰ الله بدم الحسين.

فقال له عمر بن سعد: فاني أفعل ان شاء الله.

وبات ليلته تلك قلقاً مفكراً في أمره..)[1] [2].

---

(١) وحول هذا الموقف المتردد قيل أن أمير المؤمنين عليه السلام لقي عمر بن سعد فقال له: (كيف بك يا ابن سعد إذا قمت مقاماً تخير فيه بين الجنة والنار فتختار النار؟) منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ج ٥ ص ١١٣ وتذكرة الخواص ص ١٤١ وابن الأثير ٤ـ ٩٤ ومثير الاحزان لابن نما، ص ٢٥ وقد ورد في الكامل لابن الاثير ان عبد الله بن شريك كان يقول: أدركت أصحاب الاردية المعلمة وأصحاب البرانس السود إذ مرّ بهم عمر بن سعد قالوا: هذا قاتل الحسين وذلك قبل أن يقتله، وكان عمر يقول للحسين: يزعم السفهاء اني اقتلك، فقال: ليسوا بسفهاء، تهذيب التهذيب ٧ـ ٤٥١ وراجع البحار ج ٤٤ـ ٢٦٣.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٠ والخوارزمي ١ـ ف ١١ والنويري ٢٠ـ ٤٢٥ وابن الاثير ٣/ ٢٨٣ والتنويري ـ ٢٥١ ومرآة الجنان لليافعي ١ـ ١٣٢. وورد في بعض هذه المصادر أنه سمع في أخريات الليل وهو يقول: =

أأترك ملك الري؟ تردد لأن الجريمة هائلة

كان ابن سعد يعلم أنه ينتدب لمهمة قذرة. . وأن ما من أحد سيوافقه على رأيه اذا ما قبل القيام بها، وبما أنه كان يحتمل وجود من يوافقه على رأيه، فإنه استشار بعض الناس، فان ظنه قد خاب عندما لم يوافقه أحد على رأيه، وهذا ما أثار قلقه إلىٰ أبعد حد، وظلت الابيات التي رددها، تعبر عن حالة القلق والتردد التيْ تنتاب الطامعين بولاية أو منصب أو جاه. . إذا ما كان ثمن ذلك الاقدام على جريمة أو فعل من شأنه أن يعرض صاحبه لسخط الله.

ولم يجد ابن سعد في نفسه القدرة على رفض الاوامر الصادرة اليه من ابن زياد، كما لم يجد فيها القدرة على التخلي عن ولاية الري الغنية التي بدت انها أصبحت في يده فعلًا.

وقد أتىٰ ابن زياد في نهاية المطاف معلناً قبول المهمة التي كلفه بها مع أنه حاول محاولة ذليلة التنصل منها والقاءها على غيره، غير أن الجيش الجاهز المستعد للذهاب معه الى الري كان يبدو وكأنه ضربة الحظ السعيدة التي اتيحت لابن زياد، وما عليه الا ان يرسل هذا الجيش ويدعمه بالامدادات بعد ذلك ليصل إلىٰ عدة عشرات من ألوف الجنود يقفون بمواجهة الحسين وأصحابه عليهم السلام للقضاء عليهم. .

قال ابن سعد لابن زياد: (. . أيها الأمير، إنك قد وليتني هذا العمل، وسمع به الناس، فإن رأيت أن تنفذه لي فافعل، وتبعث إلىٰ قتال الحسين من أشراف الكوفة من لست أغنىٰ في الحرب منه، وسمّىٰ له أناساً.

فقال له ابن زياد: لست أستأمرك في من أريد أن أبعث، فإن سرت بجندنا، والا فابعث الينا بعهدنا.

= أأترك ملك الري، والري منيتي أم ارجع مأثوما بقتل حسينِ
وفي قتله النار التي ليس دونها حجابٌ وملك الريّ قرة عيني
فوالله ما أدري واني لواقف أفكر في أمري علىٰ خطرين
ورد البيت الأخير في المناقب لابن شهر آشوب ٤ـ ٩٨.

قال ابن سعد: فإني سائر اليه غداً، فأقبل[1] حتىٰ نزل بالحسين من الغد، أي في اليوم الثالث من المحرم)[2].

كان ابن سعد يعلم أن ابن زياد لن يتخلىٰ عن المهمة التي انتدبه اليها يزيد وهي قتل الحسين عليه السلام، وكان يعلم أنه ـ وقد أصبح على رأس قوة جاهزة ومسلحة ـ لن يستطيع عصيان أوامر ابن زياد، ولعل طمعه بولاية الري اقترن بخوفه منه... ولم يجد في نفسه القدرة علىٰ التخلص من الطمع والخوف كليهما.

تتكرر حالة ابن سعد علىٰ مر التاريخ، ويكاد يكون نموذجاً واضحاً للظلمة المستضعفين، الذين يضعون في أذهانهم القاء مسؤولية أعمالهم على عاتق زعمائهم ورؤسائهم اذا ما اعتقدوا بوجود حساب في اليوم الآخر، وهي حالة أشار إليها القرآن الكريم بوضوح، ووضعها امام أنظار من قد ينزلقون امام ارادة سادتهم ورؤسائهم وكبرائهم.

﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[3].

انهم يبررون فعلهم بتلك الطاعة التي منحوها لسادتهم ورؤسائهم وكبرائهم، متناسين خالقهم الا في ساحة الحساب حيث يمثلون امامه.

ان القرآن الكريم يعرضها لكي يمنع تكرارها، ولكي يتدارك من لا يزال يعيش أمره قبل الانتقال من هذه الحياة حيث لا ينفع ندم أو عذر مثل هذا.

استجاب ابن سعد للأمر الذي أصدره اليه سيده، الذي استجاب بدوره الى سيده الآخر (الكبير)، واحنىٰ رأسه بخنوع وأخذ جيشه الذي كان عازماً علىٰ أن يسير به للري، إلىٰ كربلاء حيث واجه به الحسين وأصحابه عليهم السلام ودعاهم إلىٰ مبايعة يزيد أو التعرض للابادة والقتل على يديه.

---

(١) في أربعة آلاف.

(٢) وقد انضم اليه الحر الرياحي الذي أرسل لمحاصرة الامام الحسين عليه السلام وارساله لابن زياد، فأصبحت قوة جيش ابن سعد خمسة الاف، انضمت اليهم الكتائب التي جمعها ابن زياد وسرّحها للحرب.. مستنفراً كل قادر علىٰ حمل السلاح في الكوفة لهذا الغرض، حتىٰ أصبح الجيش الجرار يبدو وكأنه على استعداد لمواجهة امبراطورية الفرس أو الروم. راجع المصادر السابقة.

(٣) الاحزاب ٦٧.

وبما أنه شعر بالذلة امام اسياده، فإن هذا الشعور الحقيقي لا بد أن يواجه بشعور معلن يبدو فيه وكأن انحيازه الى جانب دولة الظلم نابع عن ارادة شخصية وقناعة بالدور الذي يقوم به. ولا بد ان يسعىٰ للظهور بمظهر القوة والبطولة والبسالة أمام عدو الدولة.

ولعله لا يفهم السبب الذي يدعو الامام عليه السلام للثورة ضد دولة يزيد مع أن بامكانه الحصول علىٰ مكاسب كبيرة لو هادنه وبايعه وقد يصل الأمر الى حد قبول يزيد بمقاسمته السلطة أو منحه ولاية كبيرة تفوق ولاية الري مرات عديدة، وهذا ما قد يزيد حنق ابن سعد إلىٰ أبعد الحدود. كيف يرفض إنسان هذه الدنيا التي تقدم اليه على طبق من ذهب ويختار الموت، مع أن الجميع قد اختاروا الحياة في ظل دولة الظلم رغم أنهم لم ينالوا ما يحتمل أن يناله الحسين عليه السلام لو قبل المهادنة والصلح مع يزيد؟.

ان من شأن موقف الحسين عليه السلام كشف كل المواقف الأخرىٰ، ومنها موقف ابن سعد نفسه، بل ان ابن سعد سيكون أول من يوضع أمام الانظار بعد الاقدام على فعلته المشينة، حتىٰ ولو نال ولاية الري، أو حتىٰ منصب يزيد نفسه.

المهزوم يتوقع اعتذار القوي المنتصر/المفاوضات

علىٰ أن حماقة ابن سعد تبرز بمحاولته تجاهل سبب قدوم الحسين عليه السلام إلىٰ العراق، وكأنه لم يكن يعيش في الكوفة ويعاصر أحداثها ويدرك السبب الحقيقي وراء ذلك، ولأنه كان ضعيفاً محاصراً، فقد كان يتوقع اعتذاراً من الإمام (المحاصر) بتصوره. كان يتوقع أن يتنازل الامام عليه السلام أمام ابن زياد وأمامه هو ويطلب العفو والمسامحة بعد أن وجد نفسه مواجهاً للآلاف من أعدائه، وبذلك يوفر له فرصة حسم المسألة سلمياً عندما يتيح له أخذه الى ابن زياد ليرى فيه رأيه وليتحمل هو تبعات تصرفاته معه.

وقد روي أنه حاول أن يبعث الى الامام من يسأله عن سبب قدومه (فعرض ذلك علىٰ الرؤساء الذين كاتبوه، فكلهم أبىٰ وكرهه)[1]، فهل كانت حركة هؤلاء الرؤساء الذين أبوا الذهاب إلىٰ الامام لسؤاله، بعد أن كانوا قد شاركوا بالكتابة اليه ودعوته

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٠ - ٣١١. والمصادر السابقة.

للقدوم تخفىٰ على ابن سعد؟ وهل كان من الذلة والهوان ـ رغم أنه قائد الجيش ـ بحيث لا يستجيب له هؤلاء الرؤساء المرؤوسون وينفذوا أوامره بالذهاب الى الامام عليه السلام وسؤاله؟ وهل لم يدرك هوَ هوانه وضعفه حتىٰ أمام مرؤوسيه؟ .

وأخيراً وجد من يتطوع لاداء هذه المهمة، مهمة سؤال الامام عن سبب مقدمه، إلا أن أسلوبه الفج وسلوكه الفظ جعلاه يفشل في الاقتراب من الامام عليه السلام ، غير أنه وجد شخصاً آخر كلفه بذلك، هو قرّة بن قيس الحنظلي، الذي ابلغ الامام رسالة ابن سعد.

وقد أجابه الامام عليه السلام إجابة مختصرة تنطوي على حجة قوية (كتب اليَّ أهل مصركم هذا أن أقدم، فاما إذا كرهوني فأنا انصرف عنهم)[1] .

وبما معظم رؤساء أهل المصر الذين كاتبوه كانوا ضمن الجيش الذي أرسل لقتاله يتزعمون بقية الجند وعامة الناس، فإن عليهم أن يلتحقوا به، وإلا تحملوا المسؤولية التاريخية امام الله وأمام أجيال المسلمين اللاحقة.

ألم يكن هو سيتحمل مسؤولية خذلانهم وانكسارهم لو لم يلبّ دعوتهم؟ .

أما كانوا سيقولون وتردد الاجيال بعدهم: ان الامام قد خذل الامة بعد أن استعدت لمقاومة الانحراف، ودعته الى القدوم لتزعم الحركة المناوئة للدولة الاموية؟ .

أما وقد تراجع أولئك الذين دعوه وانكشفوا امام الامة كلها، فان اقل ما سيطلبه الامام منهم هو أن يتركوه لينصرف عائداً.

ورغم علم الامام عليه السلام أنهم لن يلبوا طلبه هذا، الذي ربما كان من باب القاء الحجة عليهم، فإنه فعل ذلك ليحملهم مسؤولية التخاذل والتراجع، ويحمل كل المهزومين والمتخاذلين على مر التاريخ مسؤولية الهزائم التي تتعرض لها الامة بسببهم.

كانت الأمور كلها تشير الى ادراك الامام ومعرفته ان الجيش الذي جردته الدولة لمحاربته لن يرجع حتىٰ يؤدي المهمة التي كلف بها، وانه لا بد مقتول في النهاية، وقد أشرنا في عدة مواضع من الكتاب الى ذلك.

---

(١) نفس المصدر.

وليس أدل على يقين الامام وأصحابه عليهم السلام أنهم بمواجهة معركة حاسمة مع جيش ابن زياد، دعوة أصحاب الحسين مبعوث ابن سعد للانضمام اليهم في هذه المعركة.

قال له حبيب بن مظاهر: (ويحك يا قرة بن قيس! انىٰ ترجع الى القوم الظالمين! انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيدك الله بالكرامة وإيانا معك، فقال له قرة: أرجع الى صاحبي بجواب رسالته وأرىٰ رأيي)[1].

كان حبيب متيقناً من المعركة المقبلة، وان القوم لن يتركوهم حتىٰ يقاتلوهم، وكان نصر الحسين عليه السلام بنظره يعني نصر قضيته، نصر الاسلام بمواجهة الانحراف حتىٰ وان أدىٰ ذلك الى قتل جميع المنتصرين للاسلام، وغلبة أعدائهم في ساحة القتال، وهذا أمر لا يستطيع فهمه الا أولئك الذين فهموا الاسلام فهماً واعياً وانحازوا اليه انحيازاً تاماً.

ما كان قرة سيغني لو انتصر للامام الحسين وقضيته؟ انه لن يمنع عنه القتل، غير أن انحيازه سيعني ان القضية وجدت لها نصيراً آخر لم يتردد عن التضحية بحياته في سبيلها، وسيكون موقفه لو فعل ذلك حافزًا لاجيال المسلمين فيما بعد للوقوف نفس الموقف دفاعاً عن الاسلام وقضاياه العادلة واستقامته ووضوحه.

ومن هنا كانت أهمية موقف الحر فيما بعد لم يقل له الحسين عليه السلام أنك سبب المصائب التي حلت بنا مدركاً أنها لم تحلّ لهم لأسباب شخصية وغايات خاصة، بل رحّب به، لأن ذلك الرقم الصغير المضاف إلىٰ العدد الصغير من أصحاب الحسين قد جعل بانحيازه في ذلك الظرف الدقيق، أهمية لقضية الاسلام، فهل كان الحر يتوقع في ذلك الظرف سوىٰ القتل؟ ومع ذلك لم يتردد في الانضمام إلىٰ الحسين عليه السلام لأنه بذلك استطاع أن يقول ما عجزت عنه الملايين من أبناء الامة الخاضعين المستكينين للانحراف والظلم، وأن يكون موقفه الفريد نجاحاً محققاً بادراك الركب الرسالي الذي اخفقت الأمة اداركه والالتحاق به، وان يكون ذلك الموقف رسالة واضحة لأجيال الأمة بأن الحق رغم أن دربه موحش وأصحابه قليلون الا أنه مبين وواضح وان دربه سالك وان كان مليئاً بالمصاعب والعوائق، وان الباطل باطل رغم كثرة اعوانه ورواده وأصحابه.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١١.

وربما لم يفكر ابن سعد ـ حتىٰ ذلك الوقت ـ بتزوير أقوال الحسين عليه السلام معتقداً أن المسألة كلها يمكن أن تسوّىٰ سلماً، وقد أرسل لابن زياد رسالة يعلمه فيها بموقف الحسين عليه السلام وجوابه، (أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين، بعثت اليه رسولي، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب اليّ أهل هذه البلاد، وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم ففعلت، فأما اذا كرهوني فبدا لهم غير ما اتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم)[1].

ولا يختلف مضمون هذه الرسالة عن الجواب الذي ذكره الامام عليه السلام لابن قرة، كما روى لنا ذلك معظم المؤرخين.

وقد أكّد توقعات الامام الحسين عليه السلام وأصحابه أنهم مقبلون على مواجهة ساخنة مع الدولة الاموية المنحرفة.. وان هذه الدولة ستستغل فرصة وجود الامام عليه السلام مع قلة من أصحابه بمواجهة جندها وجيوشها لتقدم على قتلهم قتلة شنيعة يقصد منها ارهاب بقية الناس لكيلا يقدموا على عمل مماثل في المستقبل.

فقد أجاب ابن زياد عندما قرئ عليه كتاب ابن سعد قائلاً:

(الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولاتَ حين مناصِ!)

وكتب الى عمر ابن سعد:

(أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا)[2].

وحتىٰ ابن سعد نفسه كان يتوقع اقدام ابن زياد على عمل ارهابي فظيع يتسم بما اتسمت به أعمال ابيه من قبل، وانه كان يضمر فيه الاقدام على جريمة جديدة من شأنها أن تعرض الدولة للخطر وتلطخ سمعة القائمين بها إلىٰ الأبد، وقد عبر عن ذلك بقوله: (قد حسبت الا يقبل ابن زياد العافية)[3].

كان ابن سعد يدرك ان الاقدام علىٰ التصدي للحسين عليه السلام وقتاله يشكل أكبر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر ٣/ ص ٣١١ وتراجع المصادر السابقة.

(٣) نفس المصدر السابق ٣/ ٣١١ وتراجع بقية المصادر.

جريمة، وكان يحسب أن المسألة يمكن تسويقها بسهولة وان الحسين عليه السلام يمكن أن يتراجع أو يساوم إذا ما تأكد من الخطر المحدق به، وكأنه لم يكن متأكداً من ذلك قبلًا، وان الدولة يمكن أن تقبل عرضه بالرجوع من حيث أتىٰ بعد أن كشف زيف الدعوات الموجهة له وعدم جدية أصحابها وجبنهم وتخاذلهم، ومع ذلك لم يجد في نفسه القوة علىٰ الامتناع من الوقوف على رأس الجيش المكلف بقتال الامام وقتله، وكان الجبن والطمع قد عملا على سلب ارادته وجعلاه يبدو بمظهر العاجز الضعيف المتردد الخانع المستسلم الممتثل لارادة عليا قوية هي ارادة سيده ابن زياد التي جعل لها مكانة كبيرة في نفسه مستبدلًا اياها بالارادة الالٰهية التي كان ينبغي ان تسود وتتغلب وتنتصر، لو كان لديه اي شعور بالانتماء للاسلام.

أما وان ذلك الشعور كان ضعيفاً، فان تغلب النزعات الارضية المتدنية كان قوياً، وهو ما أتاح لسيده ابن زياد التمادي معه الى أبعد حد، وفرض ارادته عليه.

..فحِل بين الحسين وأصحابه، وبين الماء

أرسل اليه بعد كتابه الاول يأمره: (أما بعد، فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان)[1]..

وقد بادر ابن سعد إلى الإمتثال لأمر سيده دون نقاش (فبعث عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث)[2].

وبذلك اعاد صفحة قديمة اقدم فيها معاوية على منع أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الماء في صفين حاسباً انه بذلك سيكسب الحرب، وعندما استطاعوا هزيمة أصحابه كانت أكبر مفاجأة له هو لم أنهم يقابلوه بالمثل، وسمحوا له بورود الماء كما أمرهم أمير المؤمنين عليه السلام.

وعندما يعمد ابن زياد إلىٰ مثل ما عمد اليه معاوية من قبل، فإنه يحسب أن الحسين عليه السلام سيتراجع لمجرد حرمانه من الماء، ولم يدر في خلده ان هذه الخطوة

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر ٣/ ٣١١ وراجع المصادر السابقة.

الجبانة ستهز وجدان الامة وتجعلها تفكر بخطوة الامام الشجاعة، بل المتناهية في الشجاعة إلىٰ أبعد حد، وان الامام عليه السلام أراد لفت نظر الامه بالأداء الرائع لثورته والاقدام على مواجهة الانحراف بالدم والشهادة لتظل صورة ذلك الأداء ما ثلة أمامها علىٰ الدوام، وكأن أعداءه ساعدوا ـ بمنعه الماء واقدامهم على جرائمهم حتىٰ قتل الاطفال الرضّع ـ على أن تظل تلك الصورة شاهداً على انحرافهم وابتعادهم عن الاسلام، وعلى عدالة قضية الحسين عليه السلام ووضوحها وقوتها.

قميص عثمان يرفع ثانية، تلفيق وتزوير

ولا ندري هنا ما علاقة الامام عليه السلام بقضية عثمان (التقي الزكي المظلوم)؟ فهل كان هو الذي منع الماء عنه؟ أم أنه كان حسب ما تذكره بعض كتب التاريخ أحد الذين حاولوا منع الفتنة بقتل عثمان الشيخ الفاني والذي اراد معاوية ومروان وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وعائشة قتله، لكي يتسلحوا بذريعة القاء تبعتها على أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يبدو أمامهم المؤهل الوحيد لتسلم قيادة المسلمين.

ان ذرائع معاوية بالامس، تعيد نفسها اليوم على لسان ابن زياد فكأن الحسين عليه السلام هو الذي قتل عثمان ومنع الماء عنه، وكأن أباه أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن من أكثر الساعين لوقف الفتنة التي أججها معاوية ومروان وأصحابهما لتتاح لهم فرصة الحفاظ على مصالحهم ومكاسبهم غير المشروعة.

لقاء وحديث ملفق.. راويته ابن سعد وحده

وقد رويت قصة لقاء بين الحسين عليه السلام وابن سعد، قيل انه تم أكثر من مرة، ولم يحضره أحد غيرهما، ومع ذلك لفّقت على أثره اشاعة مفادها أن الحسين عليه السلام طلب من ابن سعد ان يتركا العسكرين ويخرجا سوية إلىٰ يزيد، وان ابن سعد رفض ذلك[1]، كما لفقت اشاعة أخرىٰ مفادها أن الحسين عليه السلام قدّم ثلاثة

(١) فقد روىٰ الطبري ٣/ ٣١٢ ان الحسين عليه السلام بعث الى ابن سعد (أن القني الليل بين عسكري وعسكرك.. فخرج عمر بن سعد في نحو من عشرين فارساً، واقبل الحسين في مثل ذلك، فلما التقوا أمر الحسين أصحابه أن يتنحوا عنه، وأمر عمر بن سعد أصحابه بمثل ذلك (قال الراوية وهو هانىء بن ثبيت الحضرمي): فانكشفنا عنهما بحيث لا نسمع أصواتهما ولا كلامهما؛ فتكلما فأطالا، حتىٰ ذهب من الليل هزيع، ثم انصرف كل واحد منهما الى=

مطالب: الرجوع من حيث أتىٰ أو وضع يده بيد يزيد أو الذهاب الى أحد ثغور المسلمين[1].

ويبدو أن هذه الاكذوبة التي لفّقها ابن سعد، لأنه كان مصدرها وراويتها الوحيد وربما لفّقها بعد انتهاء المعركة وتبادل الاتهامات ومحاولات التنصل من الجريمة من قبل كل أطرافها، بما فيهم يزيد قد راقت ليزيد نفسه، فإن الحسين عليه السلام عندما يعرض الذهاب اليه ووضع يده في يده، فإنه بذلك يؤكد شرعية قيام الدولة الأموية اليزيدية وخطأ موقفه الذي حاول تداركه عندما تعرض للخطر الاكيد.

وهذا ما نفته وقائع الاحداث وطبيعة الامام عليه السلام الذي رفض المساومة في كل موقف وفي كل مراحل الثورة، وقد تحدثنا في الفصل السابق عن كذب هذه المزاعم التي لم تستند الا علىٰ ادعاءات ابن سعد منفذ الجريمة.

ان محاولة التملص من الجريمة بدا أمراً ملحاً بعيد ارتكابها بوقت قصير كما ألمحنا الىٰ ذلك وكما سنوضحه بعون الله عند الحديث عن نتائج الثورة، وقد سارع يزيد بالقاء تبعتها على ابن زياد الذي حاول أن يلقيها على ابن سعد الذي سارع ـ وربما عرف هوى يزيد ـ بتحميل مسؤوليتها ابن زياد الذي حاول أيضاً أن يلقيها

=عسكره بأصحابه، وتحدث الناس فيما بينهما، ظناً يظنونه أن حسيناً قال لعمر بن سعد: أخرج إلىٰ يزيد بن معاوية وندع العسكرين؛ قال عمر: اذن تهدم داري؛ قال: أنا أبنيها لك، قال: اذن تؤخذ ضياعي، قال: اذن اعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز.. فتكرّه ذلك عمر... فتحدث الناس بذلك وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئاً ولا علموه) الطبري ٣/ ٣١٢ وابن الاثير ٣ـ ٢٨٣ وابن كثير ٨/ ١٧٥ وقد ورد في بعض كتب التاريخ أن الحسين عليه السلام قال لابن سعد: (اتقاتلني وأنا ابن من علمت، الا تكون معي وتدع فإنه أقرب لك من الله... وقال له عندما أيس من اقناعه: مالك، ذبحك الله علىٰ فراشك سريعاً عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله اني لأرجو ان لا تأكل من بّر العراق الا يسيرا.. فقال ابن سعد مستهزئاً: وفي الشعير كفاية..) مقتل الخوارزمي ١ـ ف ١١ والبحار ٤٤ـ ٣٨٩ والنويري ٢٠ـ ٤٢٩ مع اختلافات بسيطة في النصوص.

(١) روىٰ بعض المحدثين ان الحسين عليه السلام قال: اختاروا مني خصالاً ثلاثاً: إما ان ارجع الى المكان الذي اقبلت منه، وأما أن اضع يدي بيد يزيد بن معاوية فيرىٰ فيما بيني وبينه رأيه، وأما أن تسيّروني الى أي ثغر من ثغور المسلمين شئتم، فاكون رجلاً من المسلمين لي ما لهم وعلي ما عليهم) الطبري ٣/ ٣١٢.. وقد أوضحنا بطلان هذا الافتراء في الفصل السابق...

علىٰ يزيد وابن سعد كليهما، وهكذا تسارع مسلسل الاتهامات المتبادلة لينتهي بهذه الاشاعة التي تبنتها الدولة وروّجت لها ليتناقلها بعض المؤرخين فيما بعد وكأنهم حضروا مع الحسين عليه السلام وابن سعد اجتماعاتهما التي تمت كما رووا هم دون أن يحضرها أحد سواهما.

ويبدو تلهف ابن سعد لنشر هذه الاشاعة منسجماً مع شعوره بالاحباط عندما لم يوله ابن زياد ولاية الري كما وعدة فأراد ان يحمله وزر الجريمة التي قام هو بتنفيذها وادعىٰ انه أرسل رسالة اليه تتضمن الخيارات الثلاثة التي عرضها الحسين عليه السلام ـ بزعمه ـ والتي كانت تمثل الحلول المناسبة لحل المسألة بأسرها، لكي يتساءل الناس بعد ذلك قائلين: ما دام الحسين عليه السلام قد قبل مبايعته يزيد ووضع يده في يده،، فماذا يريد ابن زياد أكثر من ذلك؟.

ولكي يعتقدوا أيضاً: ان الحسين عليه السلام ما دام قد قبل بمبايعة يزيد، فلا بد وأنَّ وجود يزيد خليفة علىٰ المسلمين كان شرعياً، وان ابن زياد قد فوت عليه فرصة مبايعة وبقائه حياً، وأنه وحده يتحمل وزر ذلك، وهذا ما سعىٰ اليه يزيد الذي أراد التنصل من الجريمة بكل طريقه والقاء تبعتها على شخصية ما، حتىٰ ولو كان ذلك الشخص هو خادمه المخلص ابن زياد.

أمل بالتراجع.. واستسلام ذليل

وربما كان ابن سعد يأمل أن تراجع ابن زياد عن مواقفه المعادية لآل البيت وللحسين عليه السلام علىٰ الخصوص، رغم معرفته بعمق ذلك العداء المتأصل الذي كاد أن يكون حالة مرضية واضحة الاعراض... لأن ابن زياد لم يكن يتعامل بمبدئيه الاسلام وانما بحكم المصالح والمنافع وهذه تخضع للمتغيرات والمساومات.

أما مع الحسين عليه السلام فلم يكن ابن سعد يأمل أية مساومة أو تراجع، رغم كل ما أشاعه هو وادعىٰ فيه كذباً طلب الحسين عليه السلام أخذه إلىٰ يزيد لمبايعته أو إلى أحد الثغور أو العودة من حيث أتىٰ ولم يستطع أن يحبك كذبته الا بالقدر الذي أتاحه له موقفه القلق طيلة فترة إمرته علىٰ الجيش التي لم تدم أكثر من أسبوع، ولم يذكر لنا أحد المؤرخين أن ابن سعد حاول ثني الامام عليه السلام عن المضي في موقفه المعادي للدولة الاموية، وإنما ذكر لنا بعضهم ان الحسين عليه السلام هو الذي حاول اقناع ابن سعد بالتخلي عن موقفه المساند لدولة الظلم..

شهادة بحق الحسين عليه السلام : لا يستسلم والله حسين. إنّ نفساً أبية لبين جنبيه

وقد وردت شهادة له بحق الامام عليه السلام في تعقيب له على موقف ابن زياد المعادي والذي اراد منه الامام عليه السلام أن يستسلم له.

قال ابن سعد لشمر الذي كان يقوم بدور الموالي الحريص علىٰ بقاء الدولة والمحرض الشديد العداوة للحسين عليه السلام، والذي جاء برسالة ابن زياد التي تدعوه إلىٰ دعوة الحسين عليه السلام للاستسلام أو قتله والتمثيل بجثته.

(ما لكَ، ويلك، لا قرّب الله دارك، وقبّح الله ما قدمت به عليّ! والله اني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به اليه، أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح، لا يستسلم والله حسين، إنَّ نفساً أبيةً لبين جنبيه)[1].

لم يستطع ابن سعد أن يقول أن الحسين عليه السلام لن يستسلم لأنه يحمل قضية الإسلام الكبيرة بمواجهة الانحراف المعلن من قبل الدولة التي ادعت وصايتها وقيمومتها علىٰ المسلمين، وكل ما استطاعه ـ تحت وطأة غضبه البارد علىٰ شمر ـ أن يقول ان للحسين عليه السلام نفساً أبية بين جنبيه، أما لماذا كان ذلك الاباء ولأي غايه فهذا ما لم يرد أن يفصح عنه.

كان ابن سعد واعياً تمام الوعي موقف الدولة الظالم والمنحرف عن الاسلام، ولم يستطع الا ان يكون اداة طيعة بيدها عندما دعته إلىٰ ذلك، ولم يملك قدراً من الارادة الحرة يتيح له رفض ان يكون على رأس الجيش الذي سيتولىٰ قتل الامام وأصحابه والتمثيل بجثثهم.

كان جديراً به وقد غضب علىٰ شمر أن يرفض ما عرضه عليه، الا أنه لم يجد في نفسه الجرأة للقيام بذلك.

(قال له شمر: أخبرني ما أنت صانع؟ اتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوه؟

والا فخل بيني وبين الجند والعسكر؛

قال [ابن سعد]: لا ولا كرامة لك، وأنا أتولىٰ ذلك.

دونك، وكن أنت على الرجال.

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٣ - ٣١٤ وتراجع المصادر السابقة.

فنهض اليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم).[١].

خديعة أم تخادع.. لسان يلحس ويكذب: يا خيل الله اركبي وابشري

كان جديراً بمن يدعي الغضب لصنيع ابن زياد وشمر، أن يكون فعله بمستوىٰ الغضب الذي عبر عنه بتلك الكلمات الحادة التي واجه بها شمراً، وأن لا يجعل من المواجهة الكلامية مجرد خصومة كلامية وحسب بينهما، يقول فيه كلمة غاضبةً ثم ينتهي كل شيء ليستسلم بعد ذلك وينهض لتنفيذ أوامر سيده أو أميره على حد تعبير شمر، وكأنها أوامر عليا منزلة، لا حق له بماقشتها أو التردد بتنفيذها.

وهكذا لم يجد في نفسه الجرأة على التصرف والبقاء حتىٰ اليوم التالي لمناجزة الامام وأصحابه عليه السلام فقد نادىٰ بعد حواره (الغاضب) مع شمر مباشرة: (يا خيل اللّه اركبي وابشري، فركب في الناس، ثم زحف نحوهم بعد صلاة العصر)[٢].

ولعل كلماته الخادعة هذه وهو يتوجه ويحث الناس علىٰ قتال الحسين عليه السلام حامل الرسالة وممثلها الصحيح، تعيد إلىٰ اذهاننا رأي ابيه فيه وغضبه منه، اذ كيف اتفق ان دعا جنده بخيل الله، وكيف وبم بشرّهم؟ هل كانوا ذاهبين لمناجزة اعداء الله حتىٰ يدعوهم كذلك؟ وهل البشرىٰ الا بالجنة أو النصر، عندما يذهبون لمناجزة أولئك الاعداء؟

ألم يكن ابن سعد يعلم حقاً من هو الحسين عليه السلام وما هي المهمة التي انتدب لها نفسه؟ وهل كان جاهلا بطبيعة الدولة الظالمة التي كان يخدمها؟

أم أنه ـ يا ترىٰ ـ كان يريد اقناع نفسه بصحة موقفه، تحت تأثير خوفه وطمعه؟ أو اقناع جنده بصحة موقفهم.

وقديماً غضب منه أبوه حين نطق مع القوم فبزهم، وقد كانوا كلموه في الرضا عنه. قال: هذا الذي أغضبني عليه: أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم، كما تلحس الارض البقرة بلسانها»[٣].

كان يزيد أكل الدنيا بلسانه، وبلسانه وحده، الا أنه جرد سيفه مع لسانه حينما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣١٤ وتراجع المصادر السابقة الأخرىٰ.

(٣) الجاحظ/ البيان والتبيين ١/ ١٧٢.

وجد أن لسانه لم يكن يكفي وحده. . وقد وجد أنه بمواجهة ألسنٍ أخرىٰ أكثر منه حدَّةً وأمهر في ميدان الشر والجريمة والتزوير والتلاعب بالألفاظ والكلمات ومنها لسان سيده ابن زياد وخادمه شمر.

فلم يكن الأمر أمر منطق وتلاعب بالألفاظ والكلمات وحسب. . وانما أمر مصالح كبيرة ضخمة لم يرد أحد من اقطاب الحكم وأعوانه ومرتزقته التنازل عنها، وجعلوا السيف بينهم وبين من يدعوهم للعودة إلىٰ الاسلام وعدالته وقيمه الصحيحة.

قائد أم تابع

ويدل حوار آخر بين ابن سعد وبعض تابعيه وقواده علىٰ مدىٰ ضعفه وتردده وخوفه، فعندما أرسل الامام عليه السلام أخاه العباس وبعض أصحابه ليؤخر ابن سعد وأصحابه إلىٰ اليوم التالي قائلًا له: (ان استطعت أن تؤخرهم الى غدوة وتدفعهم عند العشية، لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم اني قد كنت أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار)[1]، وذهب العباس لاداء الرسالة. (قال عمر بن سعد: ما ترىٰ يا شمر؟

قال: ما ترىٰ أنت، أنت الأمير والرأي رأيك؟

قال: قد أردت الا أكون، ثم أقبل علىٰ الناس فقال: ماذا ترون؟ فقال عمرو بن الحجاج بن سلمة الزبيدي: سبحان الله! والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم اليها.

وقال قيس بن الاشعث: أجبهم الى ما سألوك، فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوة؛ فقال: والله لو أعلم أنهم يفعلون، ما أخرجتهم العشية)[2].

كان يحسب أنه إذا ما تأخر عن قتال الامام وأصحابه عليه السلام، فان ذلك سيثير غضب سيده، وكان يعلم منزلة شمر منه، تلك المنزلة التي استطاع أن يخطى بها في وقت قصير جداً لاندفاعه اللامحدود بخدمة الدولة واستعداده للدفاع عنها بكل جهده وقوته. . وهكذا وجه الكلام له أولًا مع أنه لم يكن أكبر قادته طالباً رأيه حول مسألة تأجيل القتال.

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٥ وراجع المصادر السابقة.

(٢) المصدر السابق.

وكان جواب الشمر صفعة قوية له لو كانت قد بقيت له كرامه، اذ كيف يقدم أمير مثله على طاعة احد مأموريه، لو لم يكن يخاف منه، اليس هو الأمير، وقد منح تفويضاً بالعمل والتصرف.

ولعله أراد مداراة خجله بجوابه للشمر ثم سؤاله الناس ليبدو كمن عرض رأيه علىٰ الناس جميعاً لا علىٰ شخص واحد.

وعندما استقر الرّأي على تأجيل القتال، أجاب اجابة اراد منها مداراة خجله وتردده ثانية، وأثبت بذلك هوانه وضعفه واستسلامه.

إرادة مسلوبة: لو كان الأمر إليّ لفعلت. اشهدوا اني أول من رمىٰ

لقد عوتب ابن سعد ابن سعد عدة مرات علىٰ موقفه من الحسين عليه السلام، وركوبه ذلك الركب الصعب، ولقد كان يجيب في كل مرة:

(أما والله، لو كان الامر اليّ لفعلت، ولكن أميرك قد أبىٰ ذلك)[1]

كانت أجوبته كلها تدل علىٰ أنه كان ضعيفاً مسلوب الارادة مستسلماً لأوامر لا يرىٰ مجالًا في الخروج عليها أو حتىٰ التصرف فيها.

وحتىٰ أسلوبه وطريقته في بدء القتال دلّا على ذلك... علىٰ أنه انما كان ينفذ أمداً صادراً اليه من جهات عليا مفروضة الطاعة، وقد اراد اثبات ولائه لها بطريقة تثير السخرية، اذ كيف يريد أمير الجيش شهادة أعوانه وهو قائدهم ورئيسهم الكبير؟.

(وزحف عمر بن سعد ثم نادىٰ: يا دريد، أدن رايتك.. فادناها، ثم وضع سهمه في كبد قوسه ثم رمىٰ، فقال: أشهدوا أني أول من رمىٰ)[2]

ولعله أول قائد يطلب شهادة جنده على حسن طاعته وانقياده لأميره، فلم تعرف سابقة لهذا العمل من قبل، وهو أمر يستدعي المزيد من التأمل والدراسة في شخصية هذا القائد العجيب.

وعندما حاول عمرو بن الحجاج تحريض الناس علىٰ عدم الخروج فرادى لمبارزة الحسين عليه السلام وأصحابه قائلًا: (يا حمقىٰ، أتدرون من تقاتلون؟ فرسان

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٠ـ ٣٢١ ـ ٣٢٤ وراجع المصادر الاخرىٰ..

(٢) المصدر السابق.

المصر، قوماً مستميتين، لا يبرزنّ لهم منكم أحد، فانهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم. . .

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت، وأرسل الىٰ الناس يعزم عليهم الا يبارز رجل منكم رجلًا منهم. .)[1].

لقد رأىٰ عمرو فتك الحسين عليه‌السلام وأصحابه بأعوان ابن سعد، ورأىٰ أن المعركة قد تخرج عليهم بمفاجآت عديدة، وقد ينحاز للحسين عليه‌السلام بعض أفراد الجيش، ومن شأن المبارزات الفردية أن تثير بعض الناس وتجعلهم يقفون موقف الحر بن يزيد الرياحي، ولهذا عواقبه فيما بعد، فأشار على ابن سعد بما أشار به عليه، فرأىٰ منه استحساناً وربما كان ابن سعد يراقب الموقف ويأمل أن تنتهي المعركة بلحظات معدودة، ولعله أصيب باحباط قوي عندما رأىٰ شدة الحسين عليه‌السلام وأصحابه واستبسالهم، فكان اقتراح عمرو بن الحجاج مخرجاً له من ورطته.

ويبدو من موقف عمرو بن الحجاج واقتراحه وموقف ابن سعد وقبوله ذلك الاقتراح، ثم قول ابن الحجاج:

(يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الامام)[2] انهما كانا يريان احتمال تغير موقف الجيش برمته، وان هناك بوادر ثورة محتملة توشك ان تهب بين صفوفه، والا فما الذي دعاه إلىٰ استصراخ الناس والاستنجاد بهم بهذه الطريقة المستجدية؟

وحتىٰ في المعركة لم يثبت ابن سعد أنه قائد كفوء، فرغم كثرة افراد جيشه بمواجهة جيش الامام عليه‌السلام، القليل العدد، فان هزيمة منكره ألحقها جيش الامام بحوالي اثنين وثلاثين فارساً من فرسانه (وأخذت لا تحمل علىٰ جانب من خيل أهل الكوفة الا كشفته)[3] ولم يستطع تدارك الموقف. الا بعد أن استنجد به قائد الفرسان، عزرة بن قيس قائلاً: (أما ترى ما تلقىٰ خيلي مذ اليوم من هذه العدّه اليسيرة؟ إبعث اليهم الرجال والرماة)[4]، وعندها فقط استطاع تدارك موقفه حيث (دعا الحصين بن

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري: ٣/ ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٨ وبقية المصادر.

(٣) الطبري ٣/ ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٨ وبقية المصادر.

(٤) المصدر السابق.

تميم [بعد أن لم يستجب له شبث بن ربعي] فبعث معه المجففة وخمسمائه من المرامية، فأقبلوا حتىٰ إذا دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل، فلم يلبثوا ان عقروا خيولهم، وصاروا رجالة كلهم)[1].

خوف أم يقظة ضمير

كان تردد ابن سعد يبدو واضحاً في العديد من المواقف لأنه لم يكن واثقاً من عدالة قضيته وهو يواجه قضية خصمه العادلة الواضحة.

ففي المعركة، أخذ شمر هلالاً الجملي، بعد أن ضرب حتىٰ كسرت عضداه، أسيراً إلى عمر بن سعد، وقد طلب شمر من ابن سعد أن يقتله، الا أنه قال له: (أنت جئت به، فان شئت فاقتله، فانتضى شمر سيفه، فقتله)[2].. فكأن ابن سعد كان يرىٰ نفسه محملاً بكثير من الذنوب لم يشأ اضافة ذنوب جديدة اليها.

الا أنه كان يعود إلىٰ طبيعة الشر التي ألفها والتي جبل عليها، ربما لكي يسجل مواقف (مشهودة) لدىٰ أميره، فعندما خرج عابس بن أبي شبيب الشاكري، البطل المعروف وكان من أشجع الناس وطلب المبارزه قائلاً: الا رجل لرجل؟

فقال عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة. فرمي بالحجارة من كل جانب، فلما رأىٰ ذلك القىٰ درعه ومغفره، ثم شد علىٰ الناس يكدر أكثر من مائتين من الناس، ثم انهم تعطفوا عليه من كل جانب، فقتل: قال [ربيع بن تميم راوية هذا الخبر] فرأيت رأسه في أيدي رجال ذوي عده، هذا يقول أنا قتلته، وهذا يقول: أنا قتلته، فأتوا عمر بن سعد فقال: لا تختصموا، هذا لم يقتله سنان واحد، ففرق بينهم بهذا القول)[3].

القائد المتخاذل... بكاء أم دموع التماسيح

كان قائد جيش ابن زياد متخاذلاً حتىٰ أمام جنده، ولم يستطع ردعهم عن ممارساتهم الاجرامية بحق الامام عليه السلام، وربما كانت صورة سيده المخيفة تتراءىٰ له علىٰ الدوام.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٣٢٩ - ٣٣٤ وتراجع بقية المصادر.

ففي الجولة الاخيرة للامام عليه السلام مع أعدائه، عندما كانوا يحيطون به، وكان يشدّ عليهم وحيداً ويفرقهم، قيل أن السيدة زينب خرجت من خيمتها وواجهت ابن سعد بكلمات مؤنبة قائلة: (يا عمر بن سعد، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر اليه)[1] ولا شك أن هذه الكلمات لو وجهت الى قائد آخر يعتز بدينه أو عروبته أو نسبه لكان قد اتخذ موقفاً آخر من ذلك الذي ادعىٰ القرابة منه، غير أن ابن سعد لم يملك الا أن يبكي بكاء صامتاً وتسيل (دموعه على خدّيه ولحيته، وصرف بوجهه عنها)[2].

كيف يفسر بكاء ابن سعد هذا ودموع التماسيح التي ذرفها امام المجموعة التي اقدمت على قتل الحسين عليه السلام بقيادة شمر، هل كانت دموعه إيذاناً لهم بقتل الامام عليه السلام والتشديد على حصاره والاجهاز عليه.

انه بذلك يقول: أنا لست قادراً على دفع الشر عن الامام عليه السلام ومنع عصابة الشر من قتله، ولا أملك الا أن أبكي مثل النساء، ولعله حسب انه بتلك الدموع وبمحاولاته الواهنة لمنع الحرب أو تسليم قيادة الجيش المحارب لشخص آخر، قد برأ ذمته وأصبح في حل من فعل أي شيء، حتىٰ وان تجاوز قتل الامام، إلىٰ التمثيل بجثّته وجثث أصحابه.

كان يستطيع أمام طلب ابن زياد التمثيل بالجثث، ان يمتنع عن تلبية ذلك الطلب، وان يقول: لقد نفذت ارادة الدولة وقتلت الحسين، وهو هدف كبير حققته لها، أما التمثيل بالجثث فهو رغبة شخصية غير ملحة ولا ضرورية أو ملزمة، ولن يكون عليه ـ علىٰ الأغلب ـ ضير، إن هو امتنع عن تلبيتها، غير أنه رغم ذلك لم يجد في نفسه القدرة علىٰ الامتناع عن تلبية أدنىٰ رغبات ابن زياد وأشدها وحشية وعنفاً.

انه لم يستطع حتىٰ ردع جنده عن نهب متاع الامام عليه السلام، قال لهم: (الا لايدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد، ولا يعرضن لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئاً، فليرده عليهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

فوالله ما رد أحد شيئاً)[١].

كانوا يطيعونه إذا ما كانت أوامرة، منسجمة مع روح الشر التي عرف بها أميره، أما إذا ما خطر له تحت أي دافع أن يصدر أمراً يتسم بقدر من الرحمة أو الانسانية، فإنهم يعصونه ولا يحسبون له حساباً.

ابن زياد من ينفع ويضر: لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك

ويتجلىٰ خوف ابن سعد من ابن زياد، وحسابه لامره كل حساب عند جوابه لسنان بن أنس الذي كان علىٰ رأس قتلة الحسين عليه السلام بقيادة شمر.

حسِبَ (الحاسدون) و(الغابطون) سناناً علىٰ (شجاعته) أنه سينال أموالًا طائلة لما قام به. قالوا له: (قتلت حسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله قتلت أعظم العرب خطراً، جاء إلىٰ هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فات امراءك فاطلب ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلًا)[٢].

كان منطقهم منطق الربح بالأموال وحسب، فلم تكن (معركتهم) تلك مما يمكن التفاخر به. أرادوا اقناع أنفسهم بأن القضية كلها قضية منافسة علىٰ ملك وسلطان، وأقروا (واقعاً) أن بيوت الأموال التي استولىٰ عليها الحكام انما هي (بيوت أموالهم) لا بيوت أموال المسلمين، وان من حقهم ان يتصرفوا بها كيف شاءوا.

ذهب سنان على فرسه (وكان شجاعاً شاعراً، وكانت به لوثة، فأقبل حتىٰ وقف على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادىٰ باعلىٰ صوته:

أوقر ركابي فضةً وذهباً   أنا قتلت الملك المحجّبا

قتلت خير الناس أماً وأبا   وخيرهم اذ يُنسبون نسبا

فقال عمر بن سعد: أشهد انك لمجنون ما صححت قط. أدخلوه عليّ.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٥ وراجع المصادر الأخرىٰ السابقة ويبدو من مجمل كتب التاريخ أن الذين شاركوا بقتل الحسين عليه السلام وجرحه وذبحه جماعة كان في مقدمتهم شمر، الذي تولىٰ بنفسه المساهمة بهذه المهمة رغم أنه كان يمكن أن يكتفي باصدار الاوامر ونشير الى ذلك في حينه بعون الله.

(٢) المصدر السابق.

فلما أدخل حذفه بالقضيب ثم قال: يا مجنون، أتتكلم بهذا الكلام، أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك)[1].

كان هاجسه، وحلمه والهه الوحيد في ذلك الحين ابن زياد وحده، فهو الذي كان يستطيع الارتفاع به وجعله أميراً أو خفضه وجعله كسائر الناس المغمورين؛ وكان الأمر كله رهيناً بكلمة تخرج من فمه بل أنه حسِب أن حياته نفسها كانت رهينة بتلك الكلمة.

استسلام مهين، أم حقد دفين

ومرة أخرىٰ أثبت ابن سعد ضعفه واستسلامه المهين لابن زياد اذ انتدب عشرة من فرسان جيشه (فاتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتىٰ رضّوا ظهره وصدره)[2] حسب أوامر ابن زياد اليه قبيل بدء المعركة.

وكان ابن زياد قد كتب له: (فان قتل حسين فأوطىء الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم، وليت دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً، ولكن عليَّ قول لو قد قتلته فعلت هذا به. إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع)[3].

كانت رسالة ابن زياد تدل على حقده وعداوته للحسين عليه السلام كان بنظره الشخص الذي يسعىٰ لسلب سلطانهم ومكاسبهم ودولتهم، وكان المعركة معه ـ بنظره ـ معركة وجود، ولعله لو استطاع ـ سيعمد إلىٰ قتله شخصياً والتمثيل بجثّته بل والولوغ بدمه. غير أنه فضل البقاء قريباً من الكوفة، في معسكره بالنخيلة، خوفاً من ثورة محتملة ولغرض تحشيد المزيد من المقاتلين يدفع في ظهورهم لانجاز المهمة الخطيرة للدولة، مهمة القضاء على الحسين عليه السلام وأصحابه.

وهكذا عهد لقائده الخائف الطامع القيام بتنفيذ أمنيته مع أنه كان يعلم أنها أمنية سخيفة: (ليت دهري في هذا ان يضر بعد الموت شيئاً). غير أنه ربما اراد بذلك أن

(١) الطبري ٣/ ٣٣٥ـ ٣١٣ وراجع المصادر السابقة وذكرت بعض كتب التاريخ أن ابن زياد أمر بقتله لدى سماعه الأبيات المذكورة ـ كما أشرنا لذلك في حينه.

(٢) الطبري: ٣/ ٢٣٥ـ ٣١٣.

(٣) المصدر السابق.

يساهم بلمسة شخصية خاصة يثبت فيها انحيازه لسيده يزيد واستبساله من أجله، فهو كمن يريد أن يقول له في النهاية: لقد قتلت الحسين كما أمرتني، غير أن حقدي عليه جعلني أصدر أوامري لقاتله بان يمثل بجثّته، وما حقدي عليه الا بسبب ولائي وشغفي بك.

وقد تبدو حقارة تلك الامنية امام الامة فيما بعد، وقد تنزعج لذلك كثيراً. حتىٰ يصل صوتها إلىٰ يزيد، وقد وصل ذلك الصوت فعلًا، وربما أبدى يزيد انزعاجه الظاهري من أمنية ابن زياد، ورأىٰ أنها أمر زائد لا ضرورة له ما دام قد قتل الحسين عليه السلام، وقد يستطيع ابن سعد أن لا يستجيب لنزوة ابن زياد أيضاً ويقول له: لقد نفذت أوامرك وقتلت الحسين، وهذا هو الامر المهم، أما الرغبات الخاصة، غير المهمة، وكما تقول أنت، فلست ملزماً بتنفيذها.

لو أنَّ ابن سعد كان قد خرج ثأراً للإسلام وحرصاً على وحدة المسلمين.لقال ما كان ينبغي ان يقوله هنا ولما استجاب لرغبة ابن زياد في التمثيل بجثث الحسين وأصحابه عليهم السلام، غير أنه وقد تنازعه عاملا الخوف والطمع وأخذا بزمامه، فإنه لم يملك الا أن يستجيب استجابه ذليلة لتلك الرغبة الحقودة من ابن زياد.

ومع ذلك فإنه كان من الصفاقه وعدم الحياء وانعدام الحس ان اعتبر معركته مع الحسين وأصحابه عليهم السلام فتحاً، كان هو المنتصر فيه في النهاية، وقد أرسل حُميد بن مسلم إلىٰ أهله (ليبشرهم بفتح الله عليه وبعاقبته) لعله كان ـ رغم عدد جيشه الهائل ـ خائفاً حقاً من أن تدور الدائرة عليه ويقتل في تلك المعركة وعندها ستكون تلك خسارة ما بعدها خسارة، وسيفقد كل شيء، وخصوصاً ملك الري الذي (ناضل من أجله كل ذلك النضال) وتنازل كل ذلك التنازل وبلغ به الأمر تنفيذ أتفه امنيات سيده الشرير. أما وقد (نجح) في مهمته وقتل الحسين عليه السلام فإنه امنياته باتت وشيكة التحقيق وبدا كأنه قاب قوسين أو أدنىٰ من امارة الريّ، وهل هناك (نصرٌ) كهذا النصر الذي يجعله قريباً من امارة الري؟.

آلة الظلم الخرساء: لا حاجة لنا به بعد الآن

لم يحدثنا التاريخ بعد ذلك أن ابن زياد قرب ابن سعد منه بعد أن أنجز مهمته وقام بتلك المجزرة المروعة في كربلاء، كما أنه لم يف بما وعده به، بجعله والياً علىٰ الري. ولعله لم يلمس منه خطر الشأن وعلو المكانة مما يُخاف منه إذا لم يف بوعده له. وقد أهمله، وأهمله التاريخ بعد ذلك لولا قيام المختار بن عبيد الثقفي بقتله في

النهاية، مع مَن قتلَ من قَتَلةِ الحسين بعد ثورة التوابين ـ كما سنشير إلى ذلك في حينه بعون الله.

ولم ترو لنا الا تلك القصة التي تشير إلىٰ ارساله الكتاب الذي أرسله اليه ابن زياد وفيه يأمره بقتل الحسين، وامتناعه عن ارجاعه اليه، ولعله امتنع بعد أن أبعدَه ابن زياد عن مجلسه ويئسَ من (ملك الري).

(قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر، اين الكتاب الذي كتبت به اليك في قتل الحسين؟ قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب، قال: لتجيئنّ به؛ قال: قد ضاع؛ قال: والله لتجيئني به؛ قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً اليهن بالمدينة. أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص كنت قد أديّت حقه)[1].

هل حسب ابن سعد حقاً أنه قد نصح ابن زياد بعدم قتل الحسين، ثم أقدم هو علىٰ تنفيذ الجريمة، لأنه كان ينفّذ أمراً أعلىٰ صادراً اليه لا يمكن مخالفته أو تجاهله، وبرأ نفسه من الجريمة لينام بعد ذلك قرير العين، وتنتهي المسألة برمتها.

هل كان يحسب نفسه آلةً للقتال كعصا أو رمح أو سيف، لا ارادة له ولا عقل. ليعتذر بعد ذلك بقوله: انه قد نصح، وعندما لم يؤخذ بنصيحته فإنه لم يملك الا الاستجابة لرغبة القاتل، حتىٰ ولو كانت رغبة ظالمة حمقاء.

أكان منطق ابن سعد، الظالم المستضعف، وآلة الظلم الخرساء، وحليف الظلمة، أن يجوز علىٰ أولئك الذين يرون أن الخضوع لا يكون الا الله، وأن الأمر لا يكون الا لمن يدين بأمر الله ويطيعه طاعة حقة، أم أنه منطق يجد له مكاناً بين الاشباه والنظائر من الظلمة الذين يقنعون أنفسهم بأنه المنطق الصحيح.

هل تملك أدوات الظلم، وأعوان الظالم الا أن يقولوا ما قاله ابن سعد إذا ما كانوا ينفذون أوامر الظلمه.. ثم حاولوا الاعتذار بعد ذلك؟.

وما عذره بالمعاملة السيئة لنساء الحسين وبناته ونساء أصحابه وأطفالهم عندما سيّرهم بحالة مزريه من كربلاء الىٰ الكوفة، لعل ابن زياد نفسه لم يأمره بمعاملتهم تلك المعاملة السيئة حيث سيّرهم على أقتاب الجمال بغير رحل ولا وطاء وساقهم كما يساق السبي.

---

(١) الطبري: ٣/ ٣٤٢ وتراجع بقية المصادر.

هل كانت تلك لمسة شخصية أخرىٰ يثبت فيه ولاءه للعرش الأموي الذي لم يحسب له حساباً في يوم من الأيام، ولم يفكر باستخدامه إلا بتلك الجريمة القذرة، وبعد ان بدىٰ استعداده للتعاون منذ أن نصب نفسه جاسوساً يبلغ يزيد عن مقدم مسلم بن عقيل وتحركاته؟.

كان خاملًا.. وعاد خاملًا

عاد ابن سعد خاملًا ـ كما كان ـ ولعله كان يقضي أيامه متنعماً في قصر أبيه في الكوفة بما (أغدقته) عليه الدولة من أعطيات لعلها لم تكن أكثر من الاعطيات التي أغدقت على أي شريف آخر لم يشارك بنفس حماسه وفاعليته في جريمة الطف.

لم تستمر أيامه الهادئة لأكثر من الايام التي عاشها يزيد الذي توفي عام ٦٤ للهجرة (يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول. وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر الا ثمان ليال، وكان بين قتل الحسين وهلاك يزيد بن معاوية ثلاث سنين وشهران وأربعة أيام)[١].

وبعد تلك السنين الثلاث بدا أن العرش الأموي كان معرضاً للإنهيار بعد وفاة يزيد، وبدت الرياح أحياناً كأنها إلىٰ جانب ابن الزبير، وطرد ابن زياد من البصرة ووكيله عمرو بن حريث من الكوفة (واجتمع الناس في المسجد فقالوا: نؤمر رجلًا إلىٰ أن يجتمع الناس علىٰ خليفة، فأجمعوا على عمر بن سعد، فجاءت نساء همدان يبكين حسيناً، ورجالهم متقلدو السيوف، فاطافوا بالمنبر. فقال محمد بن الاشعث: جاء أمر غير ما كنا فيه. وكانت كنده تقوم بامر عمر بن سعد لأنهم أخواله، فاجتمعوا على عامر بن مسعود، وكتبوا بذلك الى ابن الزبير، فأقرّه)[٢]و[٣].

---

(١) الطبري ٣ـ ٣٦٢ـ ٣٧٥ـ ٣٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وقد أورد المسعودي في (مروج الذهب) ٣ـ ١٠٢ انه بعد وفاة يزيد (خلع أهل الكوفة ولاية بني أمية وامارة ابن زياد، وأرادوا أن ينصبوا لهم أميراً إلىٰ أن ينظروا في أمرهم، فقال جماعة: عمر بن سعد بن أبي وقاص يصلح لها. فلما هموا بتأميره، أقبلت نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان والانصار وربيعة والنخع، حتىٰ دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسين ويقلن: أما رضي عمر بن سعد بقتل الحسين حتىٰ أراد أن يكون أميراً علىٰ الكوفة؟ فبكىٰ الناس وأعرضوا عن عمر).

وبعد أن حسب ابن سعد ان فرصةً ذهبيةً قد اتيحت له، عندما طرد وكيل ابن زياد من الكوفة، وفكر أخواله الكنديون بتنصيبه أميراً علىٰ الكوفه. طارت تلك الفرصة علىٰ الفور بموقف نساء همدان ورجالها الذين لم ينسوا موقفه في كربلاء، وكانت واقعة الطف تتراءىٰ لهم في اللحظة التي فكر بها بعض أبطال تلك الواقعة بتولي المسؤولية في الكوفة، وبدا رد الفعل ممن ساهموا بالجريمة سريعاً وحاسماً، بكت فيه النساء علانية علىٰ الحسين، وتقلدت فيه الرجال سيوفها لمنع قتلته من التسلط علىٰ رقابها.

وبدت الأمور بنظر ابن سعد وكأنها تنذر بعاصفة مرتقبة بعد ظهور أمر التوابين والمختار. (وكان عمر بن سعد تلك الايام التي كان سليمان [زعيم التوّابين] معسكراً فيها بالنخيله لا يبيت الا في قصر الاماره مع عبيد الله بن يزيد [والي الكوفه] مخافة أن يأتيه القوم في داره، ويدمروا عليه في بيته وهو غافل لا يعلم فيقتل)[1]، فأيام الهدوء والطمأنينة بدت وكأنها ولت إلى الأبد بعد الغليان الشعبي في الكوفه، وجاءت أيام الرعب وتسديد الحساب. خصوصاً وان المختار بدا جاداً بمتابعة قتلة الحسين عليه السلام واستئصالهم بعد سيطرته علىٰ الكوفة.

المختار.. اختار الثار: لأقتلن غداً رجلًا عظيم القدمين غائر العينين

ويبدو أن وقعة المختار بقتلة الحسين عليه السلام بذلك الأسلوب المثير ولجوئه إلىٰ أساليب جديدة في التعامل مع أعدائه، وفهمه لواقع مجتمعه، جعل أعداءه، أعوان دول الظلم كلها يعمدون إلىٰ تشويه صورته وإبرازه كشخص ذي طموحات ومطامع ونزوات وشطحات وأنه لم ينطلق بدافع من شعور ديني حقيقي.

ان قتله قتلةَ الحسين عليه السلام وأصحابه، قد يكون من شأنه أن يشكل رادعاً لأشخاص محتملين يساندون دول الظلم، ولذلك فإنه بالقدر الذي سعت فيه الدولة الاموية لتشويه صورته، كما عمدت في ذلك مع جميع أعدائها ومنهم أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، فإن الدول اللاحقة ومن يتبنىٰ مواقفها من الكتاب المؤرخين اتخذت نفس الموقف منه باعتباره عدو الدولة الاموية (النموذج) لهذه الدول، وقد حذا الزبيريون وأعوانهم أعداء آل البيت عليهم السلام حذو الامويين في هذا المجال.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٤١٠ـ ٤٦٤.

وسنحاول بعون الله التطرق إلىٰ شخصية المختار وأسلوبه في التعامل مع أعدائه عند الحديث عن نتائج الثورة.

لقد أعلن المختار عزمه على قتل عمر بن سعد، وقد حدّث جلساءه ذات يوم: (لاقتلن غداً رجلًا عظيم القدمين، غائر العينين، مشرف الحاجبين، يسر مقتله المؤمنين والملائكة المقربين)(١). وكان يصف ابن سعد بقوله هذا، وهو وصف ما كان يخفىٰ عن جلساء المختار، الذين سارع أحدهم باخبار ابن سعد بنواياه نحوه.

وقد حاول ابن سعد التوسط لدىٰ المختار عند ظهور أمره وغلبته لأخذ أمان منه، ويبدو أن المختار كان يتوقع سعيه هذا فكتب صيغة أمان تحتمل تأويلًا آخر لمعناه الظاهري وقد نوىٰ حقاً علىٰ الايقاع به في الوقت المناسب(٢).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وكانت صيغة الامان الذي كتبه المختار لابن سعد.. (.. هذا أمان المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد، انك آمن بامان الله على نفسك ومالك وأهل بيتك وولدك، لاتؤخذ بحدث كان منك قدر ما سمعت واطعت ولزمت رحلك وأهلك ومصرك. فمن لقي عمر بن سعد من شرطة الله وشيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس فلا يعرض له الا بخير. شهد السائب بن مالك واحمر بن شميط وعبد الله بن شداد وعبد الله بن كامل.
وجعل المختار علىٰ نفسه عهد الله وميثاقه ليفينّ لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان. إلا أن يحدث حدثاً وقد ورد قول مهم يشير إلىٰ قصد المختار بقوله (.. الا أن يحدث حدثاً فإنه كان يريد به اذا ذهب الى الخلاء فاحدث) الطبري ٣/ ٤٦٤.. ولا نعتقد ـ من اطلاعنا علىٰ سيرة المختار ـ انه كان بقصد الحدثَ الخروج عليه، بل نرجّح الامر الثاني لأنه كان منذ بداية أمره يكن كرهاً شديداً لقتلة الحسين عليه‌السلام ويرىٰ قتالهم والقضاء عليهم كما يرد بوضوح عند استعراض حركته... ولعل توريته بـ(الحدث)، الدخول إلىٰ بيت الخلاء يؤكد استهانته بشخصية ابن سعد المهزوزة وعدم اهتمامه به وقد تركه الى النهاية لاعتقاده أنه لن يجرؤ على الهرب وسيقنع نفسه بصيغة الامان التي تحتمل التأويل.. وقد ورد خبر آخر مفاده أن الذي جعل المختار يقدم على قتل ابن سعد، أن أحد أهل الكوفة التقىٰ بمحمد بن الحنفية، (فجرىٰ الحديث الى أن تذاكروا المختار وخروجه وما يدعو اليه من الطلب بدماء أهل البيت: فقال محمد بن الحنفية: علىٰ أهون رسله يزعم أنه لنا شيعة، وقتلة الحسين جلساؤه على أريكته يحدثونه) الطبري ٣/ ٤٦٢.. وقد أُخبر المختار بذلك.. فقتل عمر بن سعد وابنه وبعث برأسيهما الى ابن الحنفية وكتب اليه رسالة ورد فيها: (.. فان الله بعثني نقمة على أعدائكم، فهم بين قتيل وأسير وشريد، فالحمد لله الذي قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم، وقد بعثت=

سعىٰ لحتفه بظلفه

حاول ابن سعد الهرب، وخرج من داره، ثم عاد اليها، وبخروجه عن (رحله واهله) كما ورد بوثيقة الامان، خرق ظاهرياً بنود الاتفاق التي وردت في الامان.

أرسل أحد جلساء المختار ابنه لابن سعد محذراً اياه من عزم المختار قتله، وعندما أخبره بذلك (خرج من تحت ليلته حتىٰ أتىٰ حمامه، ثم قال في نفسه: أنزل داري، فرجع، فعبر الروحاء ثم أتىٰ داره غدوة، وقد أتىٰ حمامه.

فأخبر مولىٰ له بما كان من أمانه وبما أريد به، فقال له مولاه: وأي حدَثٍ أعظم مما صنعت؛ انك تركت رحلك وأهلك واقبلت الى ها هنا، ارجع الىٰ رحلك، لا تجعلن للرجل عليك سبيلا، فرجع الى منزله.

وأتىٰ المختار بانطلاقه، فقال: كلا أن في عنقه سلسلة سترده، لو جهد ان ينطلق ما استطاع، وأصبح المختار فبعث اليه أبا عمرة، وأمره أن يأتيه به، فجاءه حتىٰ دخل عليه فقال: أجب الأمير، فقام عمر، فعثر في جبة له، ووضربه بسيفه ابو عمرة، فقتله، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتىٰ وضعه بين يدي المختار فقال المختار لابنه حفص بن سعد وهو جالس عنده: أتعرف هذا الرأس؟ فاسترجع وقال: نعم، ولا خير في العيش بعده، قال له المختار: صدقت، فانك لا تعيش بعده، فأمر به فقتل، وإذا رأسه مع رأس ابيه.

ثم ان المختار قال: هذا بحسين، وهذا بعلي بن حسين سواء.

والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله)[1].

=إليكم برأسي عمر بن سعد وابنه،، وقد قتلت كل من اشترك في دم الحسين وأهل بيته ـ رحمة الله عليهم ـ كل من قتلهم... ولا يبلغني أن على أديم الارض منهم آدمياً).

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٦٤. وقد ورد في بحار الأنوار ٤٥/ ٣٧٨ ان عمر بن سعد لما علم بما قاله المختار عنه (.. عزم على الخروج من الكوفة، فأحضر رجلاً من بني تيم اللات اسمه مالك، وكان شجاعاً، وأعطاه اربعمائة دينار، وقال: هذه معك لحوائجنا، وخرجا، فلما كانا عند حمام عمر أو نهر عبد الرحمٰن، وقف وقال: أتدري لم خرجت؟ قال: لا: قال: خفت المختار، فقال: ابن دومة؟! يعني المختار، فقال: ابن دومة أضيق استأمن أن يقتلك، وان هربت هدم دارك، وانتهب عيالك ومالك، وخرب ضياعك وأنت أعز العرب، فاغتر بكلامه فرجعا على الروحاء فدخلا الكوفة مع الغداة.. (هذا قول المرزباني، وقال غيره: ان=

وبذلك انتهت حياة عبد ذليل من عبيد دولة الظلم الأموية، وما كان التاريخ سيلتفت اليها ولا أن تذكر، لولا أن صاحبها اشترك بجريمة قتل الحسين وأصحابه عليه السلام، وكان قائد الجيش الذي ارتكب هذه الجريمة، وقد ضاعت امنياته هباء بعد أن لم يف له أميره بما وعده به، ولم تدم حياته أكثر من المدة التي دامت بها حياة سيده يزيد، الا أياماً معدودات، ولم تكن أمرته الا كلعقةِ الكلب أنفه.

=المختار علم بخروجه من الكوفة فقال: وفينا له وغدر، وفي عنقه سلسلة لو جهد أن ينطلق ما استطاع، فنام عمر على الناقة فرجعت، وهو لا يدري حتىٰ ردته الى الكوفة، فارسل عمر ابنه الى المختار، قال له: أين أبوك؟ قال في المنزل، ولم يكونا يجتمعان عند المختار، وإذا حضر أحدهما غاب الآخر خوفاً أن يجتمعا فيقتلهما) ولم يغنهما ذلك شيئاً اذ قتلهما المختار جميعاً.

شمر بن ذي الجوشن الضبابي

الكلب الابقع الذي يلغ في دماء أهل البيت

شخصية شمر من الشخصيات التي تتكرر وتلوح أمامنا دائماً كصورة بشعة تجسد الجريمة والشر، وإذا ما ارتبط شمر بابن زياد في وقت احتاج فيه هذا الاخير الى تحشيد لا كل طاقات الشرور لتنفيذ جريمته، فان شعوره بحاجة سيده اليه ورغبته فيه، جعله يتفوق في ادائه وفي شكل الانحياز المطلق وفي تصعيد وتائر الشر في نفسه لتكون طاقة مرعبه تخيف حتىٰ قائده ـ بالاسم ـ عمر بن سعد، وتسعر نار الجريمة في نفس من كان مستعداً لها من جند ابن زياد.

ويبدو أن شعور الامتنان والاندفاع التام لتنفيذ مخطط الجريمة، هو ما كان يراه واجباً عليه كرد علىٰ الاختيار السامي لسيده وملاحظته اياه وترشيحه قائداً بديلًا عن ابن سعد اذا ما خطر لهذا أن يتخلىٰ عن مهمته أو يتهاون فيها.

ولعل ولاية الري الغنية بدت له هو الآخر قريبة المنال، أو لعل ولايات أخرىٰ بدت أمام أنظاره، ومفتاحها الاقدام دون تردد علىٰ تنفيذ الجريمة.

وقد قال رسول الله ﷺ، ولعله ما قال ذلك الا عنه «كأني انظر إلىٰ كلب أبقع يلغ في دماء أهل بيتي»[1]، فقد كان شمر مصاباً بالبرص، وكانت جرأته المروعة علىٰ الحسين عليه السلام، بداية لجرأة مستديمة على آل الرسول ﷺ وأتباعهم من المسلمين الحقيقيين.

لقد ناصبهم شمر العداء. أما لماذا! هل لسبب شخصي؟ أم لأمر اعتقده أو رأي، انحاز فيه إلىٰ جانب واتخذ موقفاً يدافع عنه حتىٰ النفس الاخير؟ أم أنه كان أمر تحزُّب وتحيز للاسياد ـ الذين رأىٰ فيهم شمر اندفاعا مستميتاً للحفاظ علىٰ مصالحهم فاندفع مثلهم واستمات؟.

(١) كنز العمال ـ رواه ابن عساكر ص ١٢٨.

ولو أننا تمعنّا بحوادث تلك الفترة من التاريخ، لما رأينا أنه كان محسوباً من العلماء أو القادة أو الزعماء المرموقين، ولعله لم يكن الا أحد الذين بدلوا ولاءهم وآثروا خط معاوية المنحرف علىٰ خط الاسلام، وقد رويت لنا حادثة وقعت في صفين، حاول فيها الانتقام لنفسه من عدو ضربه علىٰ وجهه بالسيف[١]، ومنها نعلم أنه ممن يحملون روحاً انتقامية عنيفة ولعل تطرفه بهذا المجال يشكل حالة مرضية قد يكون فيها مفتاح التعرف علىٰ شخصيته واكتشاف سبب اندفاعها في طريق الشر المدمر، وقد يكون السر الاخر وراء تلك الشخصية اصابته بمرض منفّر يجعل المجتمع لا يخالط من يحمله المصاب ويتجنّبه، كما يتجنب الطّاعون، وهو البرص الذي أصيب به، ولعل سبب اندفاعه يعود إلىٰ تغيير موقفه ومحاولة إثبات أنه تغيّر عن قناعة اراد البرهنة عليها بالاندفاع اللامحدودة بخدمة من حسب ان له الغلبة والظفر، وهو أمر يحدث لمن يغيّرون مواقفهم وخصوصاً إلىٰ صف الظلم ليثبتوا لأسيادهم الظالمين أنهم تغيروا بعد قناعات وتدبر، وأنهم اذ ينحازون اليهم انما ينحازون إلىٰ جانب الحق، ويحاولون ان يثبتوا ولاءهم الجديد بممارسات وخدمات استثنائية يحاولون بها لفت الانظار إليهم[٢].

---

(١) (خرج ادهم بن محرز الباهلي من أصحاب معاوية الى شمر بن ذي الجوشن. . . فاختلفا ضربتين، فضربه ادهم على جبينه فأسرع فيه السيف حتىٰ خالط العظم، وضربه شمر فلم يصنع شيئاً، فرجع إلىٰ عسكره فشرب ماء وأخذ رمحاً، ثم أقبل وهو يقول:

إنـي زعـيـم لأخـي بـاهـلة   بـطـعـنـة ان لـم أُصـب عـاجـله

او ضـربـة تحـت الـقـنـا والـوغـى   شـبـيـهـة بـالـقـتـل او قـاتـلـه

ثم حمل علىٰ أدهم وهو يعرف وجهه، وأدهم ثابت له لم ينصرف فطعنه فوقع عن فرسه، وحال أصحابه دونه فانصرف شمر وقال: هذه بتلك).

(٢) وقد حاول شمر التقرب من زياد عندما طلب هذا شهوداً ضد حجر بن عدي، وقد تطوع مع مجموعة كبيرة لهذه الشهادة الكاذبة. . . وكان ضمن الشهود مجموعة ممن شاركوا بالمجزرة الوحشية في كربلاء مثل عمر بن سعد وكثير بن شهاب وشبث بن ربعي والقعقاع بن شور وحجار بن أبجر وعمرو بن الحجاج ومخفر بن ثعلبة وزحر بن قيس وغيرهم. . وقد شهدوا (ان حجر بن عدي خلع الطّاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا الى الحرب والفتنة، وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء) الطبري ٣/ ٢٢٦.

ولم يبرز شمر الا عند قدوم ابن زياد الكوفة إثر قدوم مسلم بن عقيل، وقد حاول التقرب اليه باعلان موالاته المطلقه للصف الأموي وكرهه للحسين وآل البيت عليهم السلام. وربما حسب ان فرصته قد حانت أخيراً لكي ينال حصة مما يغدقه أسياده الامويون دون حساب علىٰ خدمهم وأعوانهم ومواليهم، ويبدو أنه لم يكن من خطورة الشأن بحيث يتطلع إلىٰ القرب من العرش حاشية ليزيد أو وجهاً مقرباً منه، ولعل لمرضه المنفّر ـ اصابته بالبرص ـ أثره في شعوره أنه لن يساغ في المجالس الخاصه لاقطاب الحكم التي غالباً ما يسودها جو الترف والابتهاج والطرب والاقبال علىٰ الشراب واللذات، ولم يكن يطمع بأكثر مما يطمع به الكلب الذي يرمي اليه سيده باللقمة من بعيد فيرمي نفسه عليها فرحاً مسروراً، وحسبه أن سيده لم ينسه لأنه له ساعة قد يحتاجه فيها لحراسته والدفاع عنه واقتناص فرائسه وطرائده.

وربما لم يستطع أن يحقق طموحه برؤية يزيد والقرب منه والحصول على ابتسامة رضا، الا عندما طار اليه فرحاً مع محفز بن ثعلبه وجماعة من أتباعه حاملين رأس الحسين ورؤوس أصحابه عليهم السلام (. . ثم دخلوا علىٰ يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحدثوه. .)[1]، بعدما كان قد طار فرحاً إلى ابن زياد بعيد واقعة الطف مع جماعة من رفاقه الاذلاء حاملين اليه الرؤوس الشريفة.

خادم جديد وطاقة كبيرة للشر.. اخلاص مفتعل وحقد أصيل

ولو تتبعنا سير الاحداث منذ دخول مسلم الكوفة. . لوجدنا أن شمر قد ظهر مع حاشية ابن زياد عند محاضرة مسلم القصر، وقد طلب ابن زياد منه أن يخرج مع بقية اشراف الكوفة مثل كثير بن شهاب والقعقاع الذهلي وشبث بن ربعي وحجار بن أبجر فيسيرون في الكوفة ويخذلون الناس عن مسلم ويخوفونهم الحرب ويحذرونهم عقوبة السلطان، ويرفعوا راية أمان لمن يتخلىٰ عن مسلم ويلتحق بهم[2].

ويبدو أنه بذل جهوداً استنائيه بهذا المجال، جعلت ابن زياد يثق به ويقربه

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٤٣٧ والطبري ٣/ ٣٤٠.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ـ مؤسسة الوفاء ـ بيروت لبنان ج ٤٤ ص ٣٤٩ ط ٣ ـ٩٨٣ والطبري ٣/ ٢٨٧ وابن الأثير ٢ـ ٢٧٢ والارشاد للمفيد ط ١ ايران ص ١٩٣ ونهاية الأرب ج ٢ ص ٣٩٨ – القاهرة.

ويجعله مستشاره في تلك الفترة الدقيقة الواقعة بين استشهاد مسلم واستشهاد الحسين عليه السلام وبعيد ذلك عند مرافقته الرؤوس الشريفة وقافلة الاسرىٰ إلىٰ دمشق.

كان شمر خادماً نموذجياً تطوع في جيش دولة الظلم، وكان كرهه الواضح للحسين عليه السلام بشكل متميز حقاً، جعل الانظار تتجه اليه كمجند لهذه الغاية فقط وكمستميت من أجل تحقيق الغلبة لسيده، وبهذا وحده كان معروفاً من الجميع، حتىٰ من قبل عمر بن سعد، قائد الجيش المتردد الذي كان يكره الحسين عليه السلام دون شك، وكان يريد يقتله التقرب من رئاسة السلطة وأعلن استعداده لذلك وذهب في النهاية لينفذ الأوامر، ومع ذلك فقد كان يأمل أن تنتهي المسألة وأن يستسلم الحسين عليه السلام عندما يجد نفسه في ذلك الموقف الدقيق بمواجهة جيشه الضخم، ومع ذلك فان كرهه المعلن للحسين عليه السلام ما كان يفوق ما ابداه شمر، وقد قال له في احدىٰ المناسبات عند وفوده عليه من قبل ابن زياد، وبعد تحريضه اياه بعدم الاستجابه لطلب الحسين عليه السلام بالرجوع، والطلب منه أن يستسلم وينزل علىٰ حكمه (مالك ويلك، قبح الله ما جئت به. والله اني لاظنك أنت ثنيته ان يقبل ما كنت كتبت اليه به. أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح، والله لا يستسلم الحسين أبداً، والله أن نفساً ابيه لبين جنبيه)[1].

ومهما يكن من أمر صحة هذه الرواية، التي ربما اريد بها تحميل شمر وحده مسؤولية الجريمة في النهاية وتبرئة الآخرين الذين أريد لهم أن يظهروا بصورة المخدوعين أو المترددين أو المجبرين علىٰ اتخاذ الموقف الذي وقفوه، فلا شك ان محصلة اعمال شمر في تلك الفترة الدقيقه، كانت تنبىء عن وجود طاقة هائلة للشر بين جنبيه، وقد جعل مهمته الأساسية وغايته العليا قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام و(النجاح) بهذه المهمة و(الفوز) بمشاركة شخصية رجا ان ينال بها حظوة الدولة ورضاها حتىٰ ولو كان الثمن الحصول علىٰ مجرد ابتسامة لا غير من ابن زياد أو يزيد؛ وكان هذا ما يرضيه ويسعده الى أبعد حد.

كان يشع بالكراهية والشر ـ ان صح التعبير وكان موقف الكراهية الثابت هذا حافزاً لثبات ابن زياد نفسه وعزمه على المضي في مهمته الىٰ النهاية ان تطوعه في

---

(١) ابن الاثير ٣/ ٤١٥ والطبري ٣/ ٣١٣.

خدمة سيده، شجع ذاك (السيد) المستفيد من (قضيته) أصلًا للمضي في استثمار الموقف والافادة منه إلىٰ أبعد حد، فلئن يجد (صاحب القضية) من يندفع معه في (قضيته) إلىٰ أبعد حد فانه يجد في ذلك أيضاً عاملًا مشجعاً ومساعداً لكي لا يتماهل أو يتقاعس أو يتصرف بأقل من مستوىٰ الحماس الذي يبديه المتطوع الذي لعله لا يجني ثمار مساعيه في النهاية الا أذىٰ وتعباً وسوء مصير.

وقد أدىٰ شمر دوراً آخر لعله كان مألوفاً وغير مستهجن في أوساط الاشراف، وهو دور العين أو الجاسوس. الذي قام به غيره كما رأينا، وكان منهم عمر بن سعد الذي حسب أنه الوسيلة المثلىٰ للتقرب من أقطاب السلطة.

التحريض علىٰ الجريمة

وربما حسب ابن سعد أن المسألة كانت قابلة للمساومة وان الحسين عليه السلام قد يتنازل عن موقفه أو ان ابن زياد ربما يقبل بعودته إذا ما طلب ذلك، وذلك ما أشرنا اليه في غضون هذه الدراسة، وأشرنا فيه إلىٰ التلفيق الواضح الذي ذكره ابن سعد حول طلب الامام عليه السلام العودة من حيث أتىٰ أو الذهاب الى أحد الثغور أو الذهاب الى يزيد لكي يضع يده في يده، وهو ما أثبت الوقائع بطلانه وزيفه.

وقد زُعِمَ ان ابن سعد كتب حول هذه المطالب المزعومة الى ابن زياد ظاناً أن الأمر قد حسم بها و(ان الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة)[1] على حد تعبيره، وقد قيل ان ابن زياد قد قبل بهذه العروض المدّعاة وقال:

(هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه، وأراد أن يجيب ابن سعد بالقبول، فقام اليه شمر بن ذي الجوشن وقال: أتقبل هذا منه وقد نزل بارضك وإلىٰ جنبك؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولىٰ بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه المنزله فإنها من الوهن، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فان عاقبت وانت ولي العقوبة، وان غفرت كان ذلك

(١) وأغلب الظن أن ابن سعد أراد أن يعرض هذه الخيارات على الإمام الحسين عليه السلام ظاناً أنه لا بد أن يقبل بأي خيار يوافق هوى ابن زياد منها. . وقد سارع استناداً لما ظنه ذاك إلىٰ كتابة الرسالة المزعومة الى ابن زياد. . هذا اذا لم يكن أمر الرسالة قد لفق بعد ذلك لإلقاء تبعة الجريمة على ابن زياد وحده وهو الأمر الذي تحدثنا عنه باسهاب وتفصيل في غضون هذه الدراسة.

لك، والله لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل.

فقال له ابن زياد: نعمَ ما رأيت! الرأي رأيك)[1].

لقد عرف شمر هوىٰ سيده، فأشار عليه بما يهوىٰ، وعلم ابن زياد بحرص خادمه على متابعة كل ما يجري على الساحة، والا فهل كان يغيب عن عين ابن زياد ما كان يبدو لشمر ويراه؟ وهل لم يبلغه ما بلغ هذا الخادم المطيع من أمر الحسين عليه السلام وابن سعد واجتماعهما؟ ولعل ذلك عزز من مكانته لديه، وجعله يفكر باسناد مهام أكثر خطورة له.

حاول شمر دغدغة غرور ابن زياد، واضفىٰ على كل ما يمكن أن يقوم به ثوباً من الشرعية المزيفة، سواء أقدم على القتل أو لم يقدم، وبذلك جعله يطمئن الى صحة تصرفاته ويقدم على ارتكاب جريمته دون تردد، ومن المؤكد أن آخرين وقفوا نفس موقف شمر، الا أنهم ربما لم يكونوا بمستوى حماسه واندفاعه.

ومن الواضح ان شمر نجح في التقرب من ابن زياد بما أبداه من حماس ومتابعه دقيقة ومراقبة شاملة للموقف، وبما عرفه من ميول واستعدادات للشر والجريمة عند سيده، تقاربت مع ميوله واستعداداته، حتىٰ لكأن الحسين عليه السلام استهدف دولته وسلطانه هو، لا دولة آل أميه التي لم يكن فيها في العير ولا في النفير.

مقرّب جديد ومستشار موثوق

ويبدو ان شمر قد اشتهر في تلك الفترة بأنه من المقربين من ابن زياد ومن حاشيته وربما كان أحد مستشاريه الموثوقين، ولعل ذلك جعل الناس تخشاه خشية شديدة وتحسب له حساباً كبيراً، وقد اتسع نطاق الخوف منه ليشمل حتىٰ قائد الجيش نفسه، عمر بن سعد كما سنرىٰ في غضون هذا البحث.

وقد اختاره ابن زياد مبعوثاً خاصاً له مضيفاً بذلك رصيداً كبيراً له كصاحب شهرة معروفة بخدمة الدولة والانحياز اليها، وقد آثر ان يكون ممثله في ساحة المعركة

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٣ وابن الاثير ٣/ ٤١٤ والارشاد ـ٢١٢ والايقاد ص ٥٦ وانساب الاشراف ٣/ ١٨٣ وبحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨٩ـ ٣٩٠ ونهاية الأرب ج ٢ ص ٤٣١ ومناقب ابن شهرآشوب ٤ – ٩٧.

وزوده بكتاب خاص الى ابن سعد، وتعليمات خاصة أيضاً أتاحت له التصرف المطلق واستعمال كافة الوسائل لتحقيق الغلبة ومنع الجيش من التراجع حتىٰ ولو اقتضىٰ الامر قتل ابن سعد قائد الجيش نفسه، وقد روىٰ حميد بن مسلم أحد أصحاب ابن سعد المقربين، (ان عبيد الله بن زياد دعا شمر بن ذي الجوشن فقال له: أخرج بهذا الكتاب الى عمر بن سعد، فليعرض علىٰ الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فان فعلوا فليبعث بهم اليَّ سلما، وان هم أبوا فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وان هذ أبىٰ، فقاتلهم، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه، وابعث اليَّ برأسه.

ثم كتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد: أما بعد، فاني لم ابعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله، ولا لتمنّيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعاً. انظر، فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا، فابعث بهم اليَّ سلما، وإن أبوا فازحف اليهم حتىٰ تقتلهم وتمثل بهم، فانهم لذلك مستحقون، فان قتل حسين فاوطىء الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق، قاطع ظلوم، وليس دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً، ولكن علي قول لو قد القتلة فعلت هذا به، إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وان أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فانا قد امرناه بأمرنا)[1].

ولا شك ان تعليمات ابن زياد للشمر قد سبقته الى ابن سعد الذي كان يخشاه خشية شديدة كما كان ـ بنفس الوقت ـ يطمع أن يوليه ولاية الري، ولعله كان من أعلم الناس بجرأته علىٰ القتل وسفك الدماء، والذهاب إلى حد التمثيل بالجثث.

الجريمة لا بد أن تتم.. ليحرم شمر من الفوز: لا ولا كرامة، أنا أتولىٰ ذلك

أن تعليماته بخصوص التمثيل بالجثث بعد قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام تدل علىٰ عزمه بالمضي في الجريمة الى النهاية، مهما كان من أمر المنفذ المباشر، سواء أكان هو أو شمر، وقد علم ابن سعد بتصميم ابن زياد على اتمام جريمته؛ وكان يعلم عاقبة عصيانه، خصوصاً اذا ما كان القائد الجديد هو شمر، صاحب طاقات الشر الهائلة ومعتمد ابن زياد الجديد.

ان رسالة ابن زياد تدل على أن ابن سعد كان يتمنىٰ تنازل الحسين عليه السلام عن

(١) نفس المصدر السابق.

موقفه، ولم تدل على أن الحسين عليه السلام قد تنازل فعلًا وطلب وضع يده بيد يزيد، إذ لو كان قد فعل ذلك لحسمت المسأله وانتهت، ولما طلب ابن زياد من ابن سعد أن يدعو الحسين عليه السلام للنزول على الحكم أو الاستسلام، وهذا ما يؤيد بطلان مزاعم ابن سعد حول رغبة الحسين عليه السلام بالصلح أو الاستسلام. اضافة لما ذكرناه من وقائع وشهادات أخرىٰ تثبت بطلان تلك المزاعم.

لقد أدرك ابن سعد ان شمراً كان ينتظر جواباً سريعاً منه، وان أية بادرة للتردد أو التباطيء قد تعرضه للقتل خصوصاً وأنه في موضع دقيق ربما كانت فيه حركاته وسكناته موضع رصد ومراقبة من قبل عيني شمر الفاحصتين المدققين.

ولم يحتمل الأمر ـ بنظره ـ مراجعة واستشارة أخرىٰ، وكان عليه أن يبث في المسألة بشكل قاطع ونهائي والا سبق السيف الى عنقه، وبدت آماله بتسوية المسألة قد انتهت إلىٰ الأبد، وبدا كما لو كان محصوراً في زاوية ضيّقة، وهذا ما أثاره وجعله يتهم شمراً ـ بشكل خاص ـ بتحريض ابن زياد، وربما حسب أنه يفوت الفرصة عليه إذا ما مضىٰ بمهمته إلى النهاية، وحاول أن يبين أمام مرؤوسيه وتابعيه ـ ربما من باب رد الاعتبار، ان ما كان يجري هو نوع من النزاع الشخصي بينه وبين شمر، أو نوع من السباق والمنافسة الشخصية يثبتان فيه ولاءهما واخلاصهما لدولة الظلم الاموية، ومن هنا كان غضبه البارد على شمر، وقوله له، عندما أقبل اليه بأوامر ابن زياد (مالك، ويلك، لا قرب الله دارك، وقبح الله ما قدمت به علي، والله اني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به اليه، أفسدت علينا أمراً كنا رجونا ان يصلح، لا يستسلم والله حسين، إن نفساً أبية لبين جنبيه.

فقال له شمر: أخبرني ما أنت صانع؟ أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوّه، والا فخلّ بيني وبين الجند والعسكر؛ قال: لا ولا كرامة لك، وانا أتولىٰ ذلك دونك وكن أنت على الرجال.

فنهض اليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم)[1].

ويبدو من سياق الحوار ان شمر لم يُعر غضبة ابن سعد أية أهمية، وربما لأنه لم يعره هو شخصياً أية أهمية، وبدا مصمماً على سماع رأيه الواضح وجوابه الصريح

(١) الطبري ٣/ ٣١٣ وابن الاثير ٣/ ٤١٤ وتراجع المصادر السابقة.

على رسالة أميره حالًا، وهو ما فعله ابن سعد، وكان رد فعله هو الاستجابة لرغبة أميره، وقد حرم شمر (كرامة) قيادة الجيش القاتل واسند إليه قيادة المشاة، وهو صنف قليل واطىء من أصناف الجند، وقد حسب بذلك أنه ينكّل به أو يهينه، ولم يحسب أن الشمر قد ظن نفسه منتصراً عليه عندما أجبره على الاستجابة الفورية لأمر سيده والبدء بالقتال حالًا، وأية أهمية كان شمر سيعيرها لأية اهانة، إذا ما أبدىٰ استعداده المعلن للخضوع وتنفيذ أي أمر يفرح له أسياده.

محاولة لشق صف أصحاب الحسين عليه السلام

علىٰ أن دوراً خبيثاً حاول شمر لعبه مع ابن زياد، وهو محاولة شق صف أصحاب الحسين عليه السلام وتفريقهم عنه، وقد كانت بداية المحاولة مع العباس وإخوته عليهم السلام الذين فوتوا عليه الفرصة باصرارهم على البقاء إلىٰ جانب أمينهم وإمامهم، وكان نجاح تلك المحاولة كفيلًا بجعل ابن زياد بل وحتىٰ يزيد نفسه وكل أقطاب الحكم ومسانديه يطيرون فرحاً، إذ يتمكنون من استغلال تلك الفرصة وتعزيز موقفهم (وشرعية) اقدامهم على قتل الحسين وبقية أصحابه وسيقولون: انظروا الى العباس واخوته، أليسوا هم أولاد علي بن أبي طالب أيضاً،؟ انظروا اليهم كيف تخلفوا عن الحسين وكيف تركوه بعد أن بانت لهم شرعية خلافة يزيد وخطأ الحسين بالخروج عليه.

انهم سيجعلون من ذلك وسيلة اعلامية يشوشون بها الأذهان حول مشروعية الثورة، كما حاولوا بالفعل، مستغلين قعود العديدين من أقارب الحسين عليه السلام وبعض وجهاء المسلمين وعدم مشاركتهم بالثورة لتمرير كل أكاذيبهم ومخططاتهم وردع كل من يحاول الخروج على سلطانهم وحكمهم.

(لما قبض شمر بن ذي الجوشن الكتاب، قام هو وعبد الله بن أبي المحل وكانت عمته أم البنين ابنة حزام عند علي بن أبي طالب عليه السلام، فولدت له العباس وعبد الله وجعفراً وعثمان ـ فقال عبد الله بن أبي حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب: أصلح الله الأمير، ان بني اختنا مع الحسين، فإن رأيت أن تكتب لهم أمانا قال: نعم ونعمةَ عين.

فأمر جانبه، فكتب لهم أماناً، فبعث به عبد الله بن أبي المحل مع مولى له يقال يقال له كزمان. فلما قدم عليهم دعاهم، فقال: هذا أمان بعث به خالكم، فقال له

الفتية: أقرئ خالنا السلام، وقل له: أن لا حاجة لنا في أمانكم، أمان الله خير من أمان ابن سمية)[1].

ويبدو أن عبيد الله بن زياد وجد أنها كانت فرصة طيبة تتاح له عندما يتقدم عبد الله بن أبي المحل بطلبه الامان للعباس وأخوته. لتفريق صف الحسين عليه السلام، كما أسلفنا.

وقد حاول شمر الاستفادة من هذا الأمر الذي رفضه العباس وأخوته بحسم معلنين وقوفهم النهائي مع الحسين عليه السلام قائلين: لا حاجة لنا في أمانكم، أمان الله خير من أمان ابن سمية.

وهو جواب من شأنه أن يثير ابن زياد إلى أبعد حد، كما أن من شأنه أن يثير شمراً ويجعله أكثر شراسة وتصميماً على تنفيذ المذبحة غير أنه وجد أن الامر يستحق بذل محاولة أخرىٰ لعزل العباس وأخوته، وأراد استغلال قرابته البعيدة منهما ـ إذ أنه كان كلابياً ينتمي لقبيلة أمهم ـ للتأثير عليهم.. لذلك فإنه جاء (حتىٰ وقف على أصحاب الحسين، فقال: اين بنو اختنا؟ فخرج اليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا له:

مالك، وما تريد؟ قال: أنتم يا بني اختي آمنون.

قال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟)[2].

وبوقفتهم الرسالية الحاسمة وجوابهم الواضح فوتوا عليه الفرصة ثانية لكي يشق صفهم ويفرقهم ويعزلهم عن أخيهم وقائدهم.

ولا نحسب ان شمراً كان يستطيع هضم تلك الاهانة دون أن يرد عليها رداً مصبوغاً بالدم، وكان انزعاجه وتوتره عاملًا لتوتر الجيش كله.. فمبعوث ابن زياد جاء ليدق ناقوس الحرب ويعد حمام الدم، ولا يهمه ان كان في عداد الضحايا (أبناء أخته) أنفسهم الذين ادعىٰ الحرص على حياتهم خصوصاً وأنهم واجهوه بذلك الاسلوب الشديد الذي كان حرياً أن يخجل منه وان يطأطىء له رأسه، وحرموه من

---

(١) المصادر السابقة والنص عن الطبري ٣/ ٣١٤.

(٢) نفس المصادر السابقة.

رؤيتهم مستسلمين خاضعين اذلاء بين يدي ابن زياد، ومن رؤية الحسين عليه السلام وحيداً دون أهل بيته وصفوة أصحابه.

شمر.. القائد الحقيقي لجيش ابن زياد

كان ابن سعد يرىٰ طاقة الشر الهائلة في شمر ولعله كان يخافه أشد الخوف ويحذره أشد الحذر، خصوصاً بعد أن زوده ابن زياد بصلاحيات خاصة تتيح له قتله نفسه إذا ما تردد أو تخاذل أو جبن، وبدا مبعوث ابن زياد هو القائد الحقيقي للجيش بنظر القائد الذي لم يكن يملك حرية التصرف الا بمشاورته واستحصال موافقته.

فعندما نادىٰ ابن سعد الجند للركوب والحرب وزحف نحو الامام عليه السلام بعد صلاة العصر من يوم التاسع، استجابة للأوامر المفاجئة من ابن زياد والتي حملها شمر إليه، بعث الامام أخاه العباس ليردهم عنه تلك العشية حتىٰ يأمر بأمره ويوصي أهله، (فلما أتاهم العباس بن علي بذلك، قال عمر بن سعد: ما ترىٰ يا شمر؟

قال: ما ترىٰ أنت فقال: أنت الأمير والرأي رأيك، قال: قد أردت ألّا أكون)[1].

ولعل شمراً لو أمر ابن سعد بالهجوم في تلك اللحظة لفعل الا أن جوابه ربما كان قد جعله يشعر بالحياء من بقية قادة جيشه الذين وجه اليهم السؤال نفسه، وقد اشاروا عليه بتأجيل القتال، وقد فعل وأرسل مبعوثه يبلغ الامام عليه السلام بذلك.

كان شمر على ميسرة ابن سعد الذي تناسىٰ أمره السابق يجعله على الرجاله، ولم يشأ شمر ان يكون (كالمقاتلين) الآخرين، بل أراد أن يظهر (لمساته ومبادراته) الشخصية في التصدي لآل البيت، لعل حماسه الاستئصال الذي يحاول به تصعيد حماس الجيش ضد الحسين وأصحابه يصل صداه إلى سماع سادته في الكوفة والشام، فتحسن حاله عندهم ويكون من مقربيهم وحاشيتهم.

فعندما أمر الحسين عليه السلام باضرام النار في الحطب والقصب وراء معسكره لئلا يباغت من الخلف، أقبل شمر يركض علىٰ فرس كامل الاداة، فلم يكلم أصحاب الحسين حتىٰ مر على الابيات، فنظر الىٰ الأبيات (فإذا هو لا يرىٰ الا حطباً تلتهب النار فيه، فكر راجعاً، فنادىٰ بأعلىٰ صوته: يا حسين، استعجلت النار في الدنيا قبل يوم

(١) المصدر السابق.

القيامة، فقال الحسين: من هذا؟ كأنه شِمر بن ذي الجوشن، فقالوا: نعم، فقال: يابن راعية المغزى، أنت أولىٰ بها صليّا.

فقال له مسلم بن عوسجه: يا ابن رسول الله، جعلت فداك، الا أرميه بسهم، فإنه أمكنني، وليس يسقط مني سهم، فالفاسق من أعظم الجبارين.

فقال له الحسين: لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم)[١].

أترىٰ أن أوامر صريحة صدرت الى شمر من ابن زياد أو ابن سعد، ليكون أول من يأتي صوب معسكر الحسين عليه السلام ويخاطبه بذلك الأسلوب الفظ الذي عرف به..؟ أم أنها مبادرة شخصية منه يحاول فيها اشعار الناس بانحيازه التام لدولة الظلم ورموزها الفاسده؟

ولعل شمر كان يحسب نفسه بهذا القول الذي وجهه للامام عليه السلام تحد بلغ منتهىٰ الظرف وغاية البلاغة، وهو يحتمل أنه كان يوجه كلامه الى أناس مكسورين مغلوبين، ولعله كان يريد اقناع نفسه وأصحابه أنهم كانوا على حق ما داموا في طلعة أميرهم، وان الحسين وأصحابه على باطل ما داموا قد رفضوا هذه الدولة الظالمة والاستجابة لسلطانها.

وقد ظل شمر سائراً بمحاولاته الشيطانية في التصدي للحسين وأصحابه في كل المواقف محاولًا محو الآثار التي تتركها خطبهم وتحدثها في نفوس أفراد الجيش المعادي.

فبعد خطبة بليغة للامام عليه السلام فيهم (حمد الله وأثنىٰ عليه، وذكر الله بما هو أهله وصلىٰ على محمد صلىٰ الله عليه وعلى آله وعلى ملائكته وانبيائه، فذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يحصىٰ ذكره)[٢]، ثم عرفهم بنفسه ومركزه من رسول الله صلى الله عليه وآله وقوله صلى الله عليه وآله فيه وفي أخيه «هذان سيدا شباب أهل الجنه» وطلب منهم سؤال بعض الصحابة المعروفين عنه ان كانوا في شك من أمره بفعل الاعلام الأموي المضلل، وتساءل بعد ذلك (أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟)[٣].

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

وكان من المحتمل أن تغير هذه الخطبة مجرىٰ الأمور، وقد ينحاز اليه العديدون من أفراد الجيش ـ كما فعل بعضهم فعلًا أمثال الحر وجماعة معه ـ لولا مقاطعة شمر له اذ قال كالمستهزىء: (هو يعبد الله على حرف ان كان يدري ما يقول)[1] يريد بذلك تكذيب الامام عليه السلام ومنع الآخرين من الاستجابة لخطابه.

ظاهرة (شمر).. تلفت الانظار دائماً

وقد لفتت ظاهرة شمر هذه وتصرفاته المتحيزة إلى جانب ابن زياد نظر أصحاب الحسين عليه السلام، كما أنها لا بد أن تكون قد لفتت أنظار أصحاب ابن سعد، (فقال له حبيب بن مظاهر: والله اني لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد انك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله علىٰ قلبك)[2].

وقد أكمل الامام عليه السلام خطبته وأمر عقبة بن سمعان فعقل ناقته، مصمماً علىٰ القتال إلى النهاية.

ولعل شمر كان مسروراً بتقريع هانىء له وإهانته اياه، وربما كان يحسب أنه ينبغي أن يتحمل ذلك في سبيل أسياده ومصالحهم وعرشهم، ولم تثنِهِ هذه الاهانه من التعرض ثانية لزهير بن القين عندما خرج على فرس له ذنوب، شاكٍ في السلاح منذراً إياهم من عذاب الله ونصرة الحسين وخذلان عبيد الله بن زياد (فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال: أسكت، اسكت الله نأمتك، ابرمتنا بكثرة كلامك، فقال له زهير: يابن البوال على عقبيه، ما اياك أخاطب، انما أنت بهيمه، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال له شمر: ان الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

قال: أفبالموت تخوفني؟ فوالله للموت معه أحب الي من الخلد معكم، ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلد الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم)[3].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تراجع نفس المصادر السابقة.
(٣) المصدر السابق.

كان زهير يدرك الدور التحريضي الذي لعبه شمر، وقد عرّفه لهم بأنه بهيمة لا يحكم من كتاب الله آيتين وأنه جلد جافي لا ينبغي أن يكون قدوة لهم.

ولم يجد شمر ما يرد به على زهير سوىٰ تهديده بالموت، مستخدماً نفس أسلوب سادته، بأن ما سيجري على الحسين وأصحابه عليهم السلام إنما هو بمشيئة الله، وكأن المشيئة الإلٰهية مرهونة بتصرفاتهم وعبثهم.

وقد اندفع بعد ذلك في المسيرة على أهل الميسرة من أصحاب الحسين (فثبتوا له فطاعنوه وأصحابه، وحمل علىٰ الحسين وأصحابه من كل جانب)[1] وقد قتل جماعة من أصحاب الحسين في تلك الحملة.

كان شمر يعزز رصيده في التصدي المحموم للحسين وأصحابه في كل مرة يتاح له فيها ذلك، وكان يعمل بشتىٰ السبل وكأنه (يستثمر) الوقت، بل كل دقيقة وكل ساعة منه ليحقق (انجازاً) يرضي أسياده اذا ما وصل إلى مسامعهم، فلم يكتف بما فعله من تحريض علىٰ الحسن وأصحابه عليهم السلام. بل ذهب الى حد اصدار أوامره لقتل امرأة أحد الشهداء الذين كانوا يقاتلون بين يدي الحسين عليه السلام وهي امرأة الكلبي. (خرجت امرأة الكلبي تمشي الى زوجها حتىٰ جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول: هنيئاً لك الجنة.

فقال شمر بن الجوشن لغلام يسمىٰ رستم: اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها)[2].

لقد استفزّه منظر تلك المرأة الباسلة التي جاءت تودع زوجها في ساحة المعركة الوداع الأخير وتصب في أذنيه كلمة المواساة الصادقة وتبشره بالجنة، وقد علمت أن ما فعله هو الصواب، وربما رأىٰ شمر في فعلها ذاك وخروجها الى ساحة المعركة تحدياً شخصياً له، ففعلها نقيض فعله تماماً. انها تنحاز بشكل تام، طوعي واختياري إلىٰ جانب الحسين عليه السلام وهو ينحاز بشكل تام إلىٰ جانب ابن زياد، وربما أثر موقفها على أفراد الجيش، وربما انقلبوا أو انقلب بعضهم وانحازوا الى جانب الحسين عليه السلام هم أيضاً، وكان التفكير بذلك يعيقه ويخيفه الى أبعد حد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣٢٦ وتراجع بقية المصادر السابقة.

وقد أتبع شمر فعلته المشينة تلك بفعلة مشينة أخرىٰ اذ حمل (حتىٰ طعن فسطاط الحسين برمحه، ونادىٰ: عليّ بالنار حتىٰ احرّق هذا البيت على أهله. فصاح النساء وخرجن من الفسطاط.

وصاح به الحسين: يابن ذي الجوشن، أنت تدعو بالنار لتحرّق بيتي على أهلي، حرّقك الله بالنار)[1].

فهل كانت المعركة بين الحسين عليه السلام وبين شمر وحدهما؟ وهل كانت العداوة شخصية حتىٰ يقدم شمر على سابقته الخطيرة تلك ويأمر بحرق الخيام، بل أنه يطلب النار ليحرق الخيام بنفسه؟

لا شك أن موقف شمر يستحق الدراسة والاهتمام، لأننا نجد على أعتاب الظلمة والطغاة ظواهر معادة مكررة من شمر، ونسخاً منه نهجت نفس منهجه في الشر والجريمة دون أن تؤثر بذلك ودون أن تصدر الهيا تعليمات بالتفاصيل التي (تبدعها).

وقد روي عن حُميد بن مسلم، أحد أعوان ابن سعد ومرافقيه، قوله لشمر: (سبحان الله، ان هذا لا يصلح لك أتريد ان تجمع على نفسك خصلتين؟ تعذِّب بعذاب الله، وتقتل الولدان والنساء؟ والله أن في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك)[2].

لقد أوجز حميد بن مسلم أمراً كان ينبغي على شمر وأشباهه أن يفهموه وأن لا يتمادوا في جرائمهم الى أبعد حد (ان في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك)، فهو قد أرسل لمهمة محددة: قتل الحسين وأصحابه، أما أن يتمادىٰ الى الحد الذي يريد به حرق البيوت وقتل النساء والولدان، فهو أمر أراد أن تبدو عليه لمساته وبصماته الشخصية لتحسّن صورته عند أميره ليقربه أو يغدق عليه الأموال، وهو ما لم يؤمر به من قبل هذا الأمير، أليس هذا ما يفعله أشباه شمر إلى يومنا هذا؟

ويبدو أن حُميد بن مسلم قد لمس وتراً حساساً في قلب شمر، وأوجز بعبارته

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

تلك ظاهرة اجتماعية متدنية وحالة سفلىٰ لم يرد شمر أن يعترف بها، كما لا يريد من هم علىٰ شاكلته الاعتراف بها أيضاً[1]، وقد تساءل شمر ـ في غمرة غيظه منه ـ من ترىٰ يكون هذا المشير (فقال: من أنت، قلت [والقول لحميد بن مسلم] لا أخبرك من أنا. قال: وخشيت والله لو عرفني أن يضرني عند السلطان)[2] والا فهل يستطيع أحد تقديم النصح لامثال هؤلاء دون أن يشوا به عند السلطان؟

وقد حاول شبث بن ربعي، الذي كان من أعوان أمير المؤمنين عليه السلام وانحاز بعد ذلك إلى معاوية وكان ممن راسلوا الحسين عليه السلام وطلبوا منه القدوم ثم انضم لجيش ابن سعد أن يثني شمر عن محاولة حرق البيوت، وقد استغل موقعه كقائد في الجيش المعادي للحسين عليه السلام وأحد أعدائه البارزين أن ينجح في مهمته مع شمر قال له: (ما رأيت مقالًا أسوأ من قولك، ولا موقفاً اقبح من موقفك، أمرعباً للنساء صرت؟ قال: [والقول لا يزال لحميد بن مسلم] فأشهد أنه استحا، فذهب لينصرف)[3].. ويبدو أنه لم يفعل ذلك طواعية، وانما رده أصحاب الحسين عليه السلام بقوه وأجبروه علىٰ التراجع... إذ (حمل عليه زهير بن القين في رجال عشرة من أصحابه، فشدّ على شمر بن ذي الجوشن وأصحابه، فكشفهم عن البيوت حتىٰ ارتفعوا عنها، فصرعوا ابا غرّة الضبّابي فقتلوه، فكان من أصحاب شمر وتعطف الناس عليهم فكثروهم، فلا يزال الرجل من أصحاب الحسين قد قتل، فإذا قتل منهم الرجل والرجلان تبيّن فيهم، وأولئك كثير لا يتبّين فيهم ما يقتل منهم)[4].

---

(١) كان شمر يدرك الحد الادنىٰ المطلوب منه، لكنه لم يكتف بهذا الحد الأدنىٰ وإنما أراد أن يستعرض انحيازه أمام الآخرين وخصوصاً أمام سادته، بعمل لم يؤمر بعمله أصلاً.. وبالتأكيد لم يكونوا معنيين بحرق البيوت وقتل الأطفال والنساء ولم يكن همهم سوىٰ قتل الحسين عليه السلام، لذلك فان أعمال شمر هذه قد أراد يدلل بها أنه يتبنىٰ مواقف أسياده لا لأنهم أمروه بذلك، ولكن لقناعته الشخصية التامة بها، وكان بهذه التصرفات المضافة الى تصرفات أمثاله من الجبناء والمهزومين يتيح لهؤلاء الأسياد فرصة التمادي في انحرافهم وظلمهم إلىٰ أقصىٰ حد...

(٢) الطبري ٣/ ٣٢٦ وتراجع المصادر السابقة.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الطبري ٣/ ٣٣٣ وتراجع المصادر الأخرىٰ.

انحياز تام للشر

فقد كان هجوم شمر على مخيم الحسين عليه السلام بداية القتال الفعلية، إذ لم تجر قبل ذلك سوىٰ مناوشات طفيفة قتل فيها بعض أصحاب الحسين ـ رضوان الله عليهم، أما بعد هجوم شمر فقد بدأ الهجوم الواسع الذي قتل فيه كل أصحاب الحسين الآخرين.

وعندما بقي الحسين عليه السلام وحيداً بعد أن قتل أصحابه وأصيب بجراحات عديدة أقبل شمر بن ذي الجوشن (في نفر نحو من عشرة من رجّالة أهل الكوفه قبل منزل الحسين الذي فيه ثقله وعيالهُ، فمشىٰ نحوه، فحالوا بينه وبين رحله، فقال الحسين: ويلكم ان لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب، أمنعوا رَحلي وأهلي من طغامكم وجها لكم.

فقال ابن ذي الجوشن: ذلك لك يابن فاطمة.

وأقدم عليه بالرّجالة منهم أبو الجنوب، والقشعَم الجعفي وصالخ اليزني وسنان بن أنس النخعي، وخَوَلي بن يزيد الأصبحي، فجعل شمر بن ذي الجوشن يحرضهم، ثم أن شمر بن ذي الجوشن أقبل في الرجالة نحو الحسين؛ فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه، ثم إنهم أحاطوا به إحاطة)[١].

لم ير الامام أن يطلب منهم باسم الاسلام أن يمنعوا رَحله وأهله من طغامهم وجهالهم، ان لم يكن لهم دين ولم يكونوا ممن يخاف يوم المعاد، بل أراد استنهاض البقية الباقية مما قد يميلون الى التفاخر به من حسب وشهامة عرف بها العرب ليمنعهم بذلك عما تأنف العرب منه قبل أن يعرفوا الاسلام ويدينوا به.

ولعل ابن ذي الجوشن حسب أنه باستجابته لطلب الحسين عليه السلام ومخاطبته أياه بابن فاطمة أنه كان يتنازل فيسلك سلوك الاحرار، وأنه كان يقلل من قيمة الامام عليه السلام وكأنه لم يكن يعلم من هي فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين. كان يدين نفسه اذ يذكرها في هذا المقام، وهي من هي في شرفها وعلو مكانتها ونسبها.

لقد تولىٰ شمر مهمة التحريض على قتل الحسين، وتولىٰ قيادة قتلته، ولعل أحداً غيره ما كان ليجرأ على قتله لو لم يقم شمر بهذه المهمة.

---

(١) المصدر السابق.

جبن وغدر

ويكشف لنا حوار بين شمر واحد رجاله، أبي الجنوب، عن جبن شمر وغدره واستعداده للدس عند سيده، حتىٰ على من آزروه بمهمته القذرة تلك؛ (مر بابي الجنوب وهو شاكٍ في السلاح فقال له: أقدم عليه.

قال: وما يمنعك أن تقدم عليه أنت؟

فقال له شمر. ألي تقول ذا؟

قال: وأنت لي تقول ذا؟ فاستبّا.

فقال له أبو الجنوب وكان شجاعاً: والله لهممت أن أخضخض السنان في عينك، فانصرف عنه شمر وقال: والله لئن قدرت علىٰ أن أضرك لأضرنّك)[1].

وكيف يستطيع أن يضرّه، ان لم يكن بالنميمة والوشايه، وهو ما بدا على استعداد لفعله دائماً.

وعندما أصيب الامام عليه السلام اصابات بالغة وسقط على الأرض لم يقترب منه أحد (ولقد مكث طويلًا من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكن كان يتقي بعضهم ببعض، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء)[2] فقد أدركوا أنهم كانوا يقدمون علىٰ أكبر جريمة بحق الرسول صلى الله عليه وآله وحق الاسلام، وان من سيضع اللمسات الأخيرة لها سيظل بالخزي والعار الى الأبد.

وكان لا بد من رجال أمثال شمر يقومون بارتكاب جريمة قتل الحسين عليه السلام، (فنادىٰ شمر في الناس: ويحكم ما تنظرون بالرجل، اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، فحمل عليه من كل جانب)[3] فجرّأ الناس عليه بذلك وكان هو في مقدمتهم اذ نزل اليه (فضربه برجله، والقاه على قفاه ثم أخذ بكريمته المقدسة، فضربه بالسيف ثم حز رأسه ودفعه الى خولي بن يزيد)[4].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٤ وتراجع بقية المصادر السابقة، وقيل ان الذي نادىٰ في الناس هو عمر بن سعد، ولا تناقض في الحالين فربما ناديا كلاهما بهذا النداء وحرضا الناس على الحسين عليه السلام.

(٤) مقتل الحسين/ للخوارزمي ج ٢ ص ٣٦ وبحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٦ وقد ذكر الطبري والبلاذري ان الحسين عليه السلام حين قتل وجد به ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة=

وقد روي أن شمر كان في لحظات قيامه بجريمته وهو يرىٰ الحسين عليه السلام يلوك بلسانه من شدّة العطش، يستهزىء بحوض النبي صلى الله عليه وآله الذي حدث عنه صلى الله عليه وآله [(١)]؛ كما روي أنه كان يقوم بجريمته وهو يردد كلمات يؤكد فيها معرفته بالحسين عليه السلام ومنزلته عند الله ورسوله صلى الله عليه وآله؛ وكان مصراً على انتهاك حرمة الرسول صلى الله عليه وآله وحرمة الاسلام، بقتله بتلك الطريقة البشعة.

القتل.. ثم القتل

ولم يكتف شمر بجريمته هذه، وأراد الاقدام على جريمة كبيرة أخرىٰ وهي قتل الامام علي بن الحسين بن علي عليه السلام (الامام زين العابدين)، وكان مريضاً (وهو منبسط على فراش له، وإذا شمر بن ذي الجوشن في رجالة معه يقولون: الا نقتل هذا؟ فقلت [والقول لحميد بن مسلم أيضاً]: سبحان الله، اتقتل الصبيان، وإنما هذا صبي.

فما زال ذلك دأبي ادفع عنه كل من جاء)[(٢)].

ذهب شمر مع هوازن بعشرين رأس من رؤوس الحسين عليه السلام وأصحابه وقد حسب ان الدنيا ستقبل عليه وان أبواب أسياده ستظل مفتوحة أمامه إلى الأبد.

وربما اراد ابن زياد أن يكافئه بدوره فأرسله مبعوثاً عنه إلىٰ يزيد مع محفزّ بن ثعلبه العائذي مع النساء والصبيان وقد (أمر بعلي بن الحسين فغُلَّ بغلّ الى عنقه؛ فانطلقا بهم حتىٰ قدموا على يزيد، فلم يكن علي بن الحسين يكلم أحداً منهما في الطريق كلمة حتىٰ بلغوا)[(٣)].

=وقد أورد الطبري ٣/ ٣٣٤ والنويري ٢٠ - ٤٥٢ وبعض المؤرخين أن الذي حمل على الحسين عليه السلام وهو في تلك الحال سنان بن انس النخعي (فطعنه بالرمح فوقع... فنزل اليه فذبحه واحتز رأسه، ثم دفع إلى خولي بن يزيد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف) غير أن الاشهر هو قيام شمر بذبحه رغم أنه كان يستطيع تكليف من يقوم بالمهمة نيابة عنه وهو ما أراد إظهاره لأسياده من انحياز كامل اليهم وتفانٍ في خدمتهم للأسباب التي ذكرناها في هذه الدراسة.

(١) وردت أحاديث بشأن الحوض وأشرنا اليها في هذه الدراسة.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٥ وتراجع بقية المصادر وقد ورد في تاريخ القرماني ص ١٠٨ (انما هو مريض).

(٣) اللهوف ص ٦٠ والانساب للبلاذري ٣/ ٢٠٧ ونهاية الارب ٢٠ ص ٤٦١ والطبري ٣/ ٣٣٩.

عودة إلىٰ الخمول.. بعد ظهور مؤقت

ولم يذكر لنا أحد من المؤرخين أن شمراً التقىٰ بيزيد أو كلّمه، ولم يذكر الا تقريع يزيد لمحفر بن ثعلبة صاحب شمر، لعل شمراً كان بحالة منفّرة بسبب البرص الذي أصيب به ولم يسمح له يزيد بالمثول بين يديه.

ومهما يكن من أمره خُمل ولم يعد يذكر طيلة السنوات التي حكمها يزيد وابن زياد فلقد أدىٰ دوراً قذراً ربما خجل منه حتىٰ مسبّبوا الجريمة الحقيقيون، فحاولوا تبادل الاتهامات فيما بينهم ـ كما أوضحنا ـ وكان تقريب شمر ادانة فاضحة لهم، وربما لم ينل ما أراده من مال أيضاً، ولقد راحت جهوده عبثاً، اذ حسب في لحظة قصيرة، استخدم فيها استخداماً شريراً أنه حاله سيتغير وزينت له أوهامه أنه سيغدو ثرياً مطاعاً عزيزاً بعد أن تفتح له أبواب سادته، غير أن أي شيء من ذلك لم يتحقق، وظلت لعنة شمر تلاحق كل أولئك الذين شاركوا بالجريمة الى يومنا هذا.

الظهور من جديد بوجه الثوار

وقد ظهر شمر ثانية بعد هلاك يزيد وهروب ابن زياد من البصرة إلىٰ الشام، وبعد أن صحت الكوفة على صيحات التوابين وثورة المختار بن عبيد الثقفي؛ وكان الثأر للحسين عليه السلام وأصحابه هو هاجس الثوار ومطلبهم الأول.

وقد أدرك شمر أن الثوار لا بد أن تطاله قبل أن تطال غيره، فحاول مع بقية الاشراف وشيوخ القبائل الذين انحازوا للنظام الأموي أو يوحدوا صفوفهم ويتصدوا للثوار فعندما حدد المختار موعداً لثورته، وكان على الكوفة عبد الله بن مطيع، من قبل ابن الزبير وذلك عام ٦٦. رأىٰ أشراف الكوفة ممن اشترك بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه أن يعلنوا ولاءهم للنظام الزبيري لكي يحموا أنفسهم من الثوار المطالبين بدمهم؛ وكان شمر بن ذي الجوشن أحد هؤلاء، فقد بعثه ابن مطيع (في جماعة من أهل الطاعة) إلىٰ جبّانة سالم لكي يتصدوا للمختار، (وأقبل شمر بن ذي الجوشن في الفين، فسرح المختار اليه سعيد بن منقذ الهمداني فواقعه)[1] وقد هزمه ابراهيم بن الأشتر مع من هزم من القادة الآخرين أمثال مجار بن أبجر وشبث بن ربعي

(١) الطبري ٣/٣٤٦ - ٤٥٤ - ٤٥٦.

ومحمد بن الاشعث وعمرو بن الحجاج وغيرهم، وقد سيطر المختار بعدها على الكوفة.

وقد استغل هؤلاء خروج ابراهيم من الكوفة لملاقاة جيش ابن زياد (وأجمع رأي اشراف الكوفة على قتال المختار)[1]، وحاولوا استمالة الاشراف الآخرين إلى جانبهم وحاولوا تحريضهم على المختار... وكان شمر في مقدمة المحرضين مع شبث بن ربعي ومحمد بن الاشعث وعبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس، (وخرج شمر بن ذي الجوشن حتىٰ نزل بجبانة بني سلول في قيس)[2] ثم أنه (أتىٰ أهل اليمن فقال لهم: أن اجتمعتم في مكان نجعل فيه مجنبتين ونقاتل من وجه واحد فانا صاحبكم، والا فلا، والله لا أقاتل في مثل هذا المكان في سكك ضيقة ونقاتل من غير وجه، فانصرف إلى قومه في جبانة بني سلول)[3]، غير أن المختار فوت عليهم الفرصة ثانية واستدعىٰ إبراهيم الىٰ الكوفة ثانية ووحد قواته في وجوههم وهزمهم شر هزيمة.

وقد حاول شمر الهرب الى مصعب ابن الزبير في البصرة، ويبدو أنه اراد أن يحمي نفسه بكل طريقة وقد وجد في عدو المختار ملاذاً حاول أن يلجأ اليه بحجة خدمته والحرب تحت لوائه.

لولا جريمته.. ما أشار اليه التاريخ

وليس في حياة شمر ما يستحق الذكر، ولو أنه لم يشترك بهذه الجريمة المروعة لمضىٰ مع الاف من غيره، لا يعنىٰ أحد بتسجيل أي شيء عنهم ولكن سوء طالعه جعله يبدي تلك الحماسة الشاذة في مناوءة آل محمد ﷺ والحث على قتالهم واستئصالهم في وقت كان يخوض فيه الحسين عليه السلام أكبر معركة لانقاذ المسلمين من ربقة الحكم الأموي المنحرف.

وقد شارك كثيرون غيره بتلك الجريمة، غير أنهم لم يبلغوا مبلغه من حرص علىٰ لفت الانظار إليه وهو يتطوع لخدمة أسياده الذين حسب أن كل شيء كان رهن

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

اشارتهم وطوع يمينهم، لم تكن له قضية محددة يدعو لها ويدافع عنها الا قضية اثبات انتمائه لأولئك الأسياد، ودفاعه عن (المكاسب) التي كان يرىٰ أنها تلوح له في الأفق.

وقد رأىٰ من ابن زياد ميلًا كبيراً اليه ما دام يخدم (قضيته) بذلك الحماس الذي أبداه، ورأىٰ أنه أصبح (مهاباً) مسموع الكلمة في ذلك الجو المتقلب المشحون بالكراهية والخلاف والاطماع.

مسمار صغير في عجلة الدولة الكبيرة

وعاد شمر بعد الواقعة التي كانت له فيها يد طولىٰ، لا يشكل الا مسماراً صغيراً في عجلة الدوله الأموية الكبيرة.

ومع هذا فقد تخلىٰ عنها عندما وجد أن الريح لا تسير معها، وحاول الانضمام إلىٰ مصعب بن الزبير، غير أن الفرصة فوّتت عليه من قبل المختار وأصحابه.

أرسل المختار غلامه (ذربيا) في طلب شمر، غير أن شمر استطاع قتله عندما انقطع عن أصحابه، وربما حسب أن لا أحد سيلاحقه بعد الآن وأنه سيكون آمناً حتىٰ يلتحق بمصعب، وربما علقت به بقايا عنجهية قديمة عندما كان يمثل ابن زياد في جيش ابن سعد، يأمر وينهىٰ، كأنه ابن زياد نفسه، وقد جنت عليه عنجهيته واستهتاره بالآخرين وكلفته حياته، مع أنه كان حريصاً على النجاة بها بكل وسيلة(١).

وقد روي عن مسلم بن عبد الله الضبابي، رفيقه عند الهروب الى البصرة، قال: لما خرج شمر بن ذي الجوشن، وأنا معه حين هزمنا المختار. مضىٰ شمر حتىٰ

(١) ذكر الطبري في تاريخه ٣/ ٤٥٩ قال: (بعث المختار غلاماً له يدعىٰ ذِربّيا في طلب شمر بن ذي الجوشن قال أبو منحنف: فحدثني يونس بن أبي اسحاق، عن مسلم بن عبد الله الضبابي قال: تبعنا ذربي غلام المختار، فلحقنا وقد خرجنا من الكوفة على خيول لنا ضمّر، فأقبل يتمطر به فرسه، فلما دنا منا قال لنا شِمر أركضوا وتباعدوا عني لعل العبد يطمع فيَّ؛ قال: فركضنا، فأمعنا، وطمع العبد في شمر، وأخذ شمر ما يستطرد له، حتىٰ إذا انقطع من أصحابه حمل عليه شمر فدق ظهره، وأتىٰ المختار فأخبر بذلك فقال: بؤساً لذربي، أما لو يستشيرني ما أمرته أن يخرج لأبي السابغة)

وربما حسب شمر ـ استهانة منه بأصحاب المختار ـ مع أنه خرج هرباً منهم، وبعد قتله غلام المختار أن لا أحد منهم يستطيع قتله، وهو ما جعله لا يحترس بما فيه الكفاية حتىٰ تمكنوا منه بعد ذلك وقتلوه..

نزل ساتِيدَمَا، ثم مضىٰ حتىٰ ينزل إلىٰ جانب قرية يقال لها الكلتانية علىٰ شاطىء نهر، إلىٰ جانب تل، ثم أرسل إلى تلك القرية فأخذ منها علجاً فضربه، ثم قال: النجاء بكتابي هذا الى مصعب بن الزبير وكتب عنوانه.. للأمير المصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجوشن.. فمضىٰ العلج حتىٰ يدخل قرية فيها بيوت، وفيها أبو عمرة، وقد كان المختار بعثه في تلك الأيام الى تلك القريه لتكون مسلحة فيما بينه وبين أهل البصرة. فلقي ذلك العلج علجا من تلك القريه. فأقبل يشكو اليه ما لقي من شمر، فإنه لقائم معه يكلمه، اذ مرّ به رجل من أصحاب أبي عمره، فرأىٰ الكتاب مع العلج، وعنوانه: لمصعب من شمر، فسألوا العلج عن مكانة الذي هو به، فأخبرهم، فإذا ليس بينهم وبينه الا ثلاثة فراسخ، فأقبلوا يسيرون اليه)[١].

وقد أشار عليه أصحابه بالارتحال من المكان الذي كانوا فيه، إلا أنه أبىٰ وأصرّ علىٰ البقاء فيه ثلاثة أيام، وقد وصل اليهم أصحاب المختار وأشرفوا عليهم.. (فكبروا [والحديث لا يزال لمسلم بن عبد الله رفيق شمر] ثم أحاطوا بابياتنا، وخرجنا نشتد على أرجلنا، وتركنا خيلنا، فأمرّ على شمر وإنه لمتزر ببرد محقق ـ وكان أبرص فكأني أنظر إلى بياض كشحيه من فوق البرد، فإنه ليطاعنهم بالرمح، قد اعجلوه أن يلبس سلاحه وثيابه، فمضينا وتركناه، فما هو الا أن امعنت ساعة، إذ سمعت: الله أكبر، قتلَ اللّهُ الخبيث)[٢].

وبذلك فوتت عليه فرصة نقل الولاء من طاغية الى طاغية آخر، بعد ان لم يجد طاغيته الأولى في الميدان، ولم تتح له فرصة الخوض بمزيد من الدماء كما فعل في كربلاء.

---

(١) الطبري ٣/ ٤٦٠ وابن الاثير ٤/ ٤٤.

(٢) نفس المصدرين السابقين، وقد روي عن عبد الرحمٰن بن عبيد ابي الكنود قوله: (أنا والله صاحب الكتاب الذي رايته مع العلج، وأتيت به أبا عمرة، وأنا قتلت شمراً... خرج علينا، فطاعتنا برمى ساعة، ثم القىٰ رمحه، ثم دخل بيته فأخذ سيفه ثم خرج علينا وهو يقول:

نبهتمُ ليثَ عرين باسلا   جهماً محياه يدقّ الكاهلا
لم يرَ يوماً عن عدوّ ناكلا   الا كذا مقاتلا أو قاتلا
يبرحهم ضرباً ويزوي العاملا

الطبري ٣/ ٤٦٠.

شمر نتاج مجتمع الظلم

ولم نكن لنشير إلىٰ شمر لو لم يكن سوء طالعه قد جعله يلعب ذلك الدور الذي لعبه في الكوفة وكربلاء، وأبدى فيه ذلك الحماس الاستثنائي الذي ما كان يبديه الا صاحب قضية حريص على قضيته أو مصلحة حريص عليها، مع أن شمر لا قضية له ولا مصلحة تذكر، وكل ما في الأمر أنه أراد أن يظهر صورة محسنة لاسياده لكي يكرموه ويقربوه، ولم يكن العطاء الذي ناله أو المكانة التي حصل عليها بمستوىٰ الحماس والاندفاع الذي أبداه في خدمتهم.

ولم نكن لنشير إلىٰ شمر أيضاً لو لم يظهر لنا شمر في كل الأوقات والأزمان يسير في ركاب الطغاة ويبدي حماساً من شأنه أن يثير جيشاً بأكمله ويوجهه نحو الجريمة، ولا يزال شمر يلوح أمامنا إلىٰ اليوم، خادماً ذليلًا أمام أسياده، وجباراً أمام المستضعفين من الناس وأمام أعداء الظلم ومناوئيه.

ان (ظاهرة شمر) ينبغي أن تدرس بعناية لنجد الأسباب الحقيقية وراء اندفاعه في طريق الشر والعدوان والجريمة، فقد يشخّص علاج لِأمراض خطيرة من النوع الذي أصيب به شمر فاندفع بتلك الطريقة الشرسة في طريق الابادة والقتل، إذا ما درسنا تلك الأسباب، لكي نمنع بالتالي من استفحال تلك الظاهرة التي غالباً ما ترىٰ في مجتمعات الظلم والانحراف.

ألم يكن شمر نتاج مجتمع الظلم الذي أوجده معاوية؟

أليس أشباهه نتاج مجتمعات الظلم المشابهة؟

في دولة الاسلام والعدالة لا يمكن أن ترىٰ شمراً وظاهرة شمر. إذ لا حاجة لأحد به، فقانون الاسلام وشريعة الله هي التي تحكم وتسيطر على الجميع.

أشراف الكوفة ـ الظلمة المستضعفون

تمهيد

ترد لفظة (الاشراف) في معرض الحديث عن عناصر المجتمع، لتعني الملأ أو الطبقة، أو الفئة الوجيهة أو المتنفذة أو المقربة من السلطة، سواء على نطاق زعامة الدول أو حكام الولايات أو الأقاليم أو المدن.

ومع أن الاسلام لا يكرس لأي لون من الوان التباين الطبقي أو الاجتماعي، ولا يشجع عليه أو يدعو له اطلاقاً، ولو اتيح لمسيرته أن تأخذ نفس النمط أو الأسلوب الذي اتخذته أيام حكومة الرسول ﷺ، ولم يتسع الانحراف ذلك الاتساع الذي بلغ مداه في أواخر عهد معاوية وعهد يزيد، لما أتيح لنا أن نسمع هذه اللفظة تذكر عند الحديث عن المجتمع الاسلامي ـ إلا أن الانحراف الذي شجع على ظهور طبقة، أو فئة، بشكل أصح، ثرية، وحاشية قوية، وقادة يسعون لخدمة السلطان، ويتخذونه مثلًا أعلى، ورؤساء للقبائل أعيدت لهم السلطات المطلقة التي قيدها الاسلام وسلبها منهم وأرادها أن تتركز في الدولة الاسلامية وحدها، وزعماء للفتن والأحزاب والتيارات التي اتجهت لخدمة مصالحها ونفوذها وسار معظمها في ركاب السلطان الأموي الغاشم، جعل من وجود طبقة الاشراف أمراً واقعاً لا مجال لانكاره أو اهماله.

وقد أعيد لهذه الطبقة أو الفئة مجدها الذاهب مع الشرك والجاهلية، مع أن الاسلام أراد لكل مسلم أن يكون شريفاً وعزيزاً وقوياً وممتنعاً به وأن تمحي كل الزوائد الطفيلية ولا يعد لها وجود في الواقع الحياتي، وأضيف إلى امتيازاتها امتيازات جديده، أتاحها توسع العالم الاسلامي والفتوحات الاسلامية وزيادة ثروة الدولة واستثناءها بهذه الثروة لتحقيق طموحها في المجال الشخصي وتثبيت الملك، لا طموح الاسلام لنشره في ارجاء المعمورة ونشر العدالة والاخوة معه.

وهكذا أتيح لامتنا أن تشهد وتعيش هذه الحالة الاجتماعية التي كان للأشراف حضوراً متميزاً ومؤثراً فيها، باعتبارهم عنصر ثبات وهدوء واسقترار وكبح، يتيح

للدولة السيطرة على الفئات الشعبية الأخرىٰ وأبناء القبائل وتسخيرها لمهمات الدولة ومنع حدوث المشاكل والاضطرابات، مما يؤثر علىٰ هيبة الدولة وسلطانها.

لقد أصبح حضور هذه الطبقة ووجودها أمراً واقعاً ومكملًا لوجود الدولة وكيانها، وأصبح لا غنىٰ عنه لبقائها وديمومتها.

وكان لا بد ـ لكي تضمن دولة الظلم والانحراف هذا البقاء وهذه الديمومة أن تعنىٰ بطبقة الاشراف وتستميلهم إلىٰ جانبها بكافة الطرق المتاحة، وما أكثرها لدىٰ الدولة الاموية الثرية المتمكنة.

الشريف: وجهان

كان لابد، في ظل الظروف التي تتحكَّم فيها الدولة وحدها بمقدارات الأمة وثرواتها وحياتها أن يكون مَثلُ الشريف الأعلىٰ هو رأس الدولة، فيسعىٰ بكافة الطرق والأساليب لاسترضائه وكسب وده وود حاشيته وعماله والعمل على كل ما من شأنه أن يجعله ماثلًا أمام انظارهم غير منسيّ أو مهمل، وبذلك يضمن استمرار العطاء وزيادته، ونيل المزيد من الخطوة والمكانة المرموقة، وكان لا بد أن يتنافس الشريف في ذلك مع بقية الاشراف، فيعلن عن مبادرات خاصة متميزة ويضفي على الأوامر الرسمية لمسة شخصية خاصة ليثبت عمق صلته وولائه للدولة وقادتها.

وكان لا بد للشريف أن يحقق مطامح الدولة ومساعيها وصدق ظنها فيه، ولا بد أن يدفع ثمن مكافآتها وامتيازاتها، فهي لا تدفع له دون مقابل.

وبعبارة: لا بد أن يكون انتهازياً متملقاً ضعيفاً أمام جبابرتها وأعوانها، وجباراً عنيفاً ومتكبراً أمام بقية الناس يظهر بوجهين، ويلبس لباسين، ويستخدم لغتين ويتكلم بنبرتين.

اشراف الكوفة: خضراء الدمن في دولة النفايات

كان أشراف الكوفة من أولئك الاشراف، وكانوا مثلهم نتاجاً غير طبيعي لدولة غير طبيعية، وكانوا كخضراء الدمن في دولة النفايات والدمن، يلوحون وجهاً مشرقاً زاهياً، غير أنه عرضة للذبول والاضمحلال لأدنىٰ هبة ريح لكي تحل نبتة خضراء جميلة محل نبتة خضراء جميلة أخرىٰ، سرعان ما تذوي دون أن تترك رائحة أو أثراً الا رائحة الدمن والنفايات.

وكان أولئك الاشراف ينغلون في جسم الدولة الاموية المترهلة وينتشرون ويتكاثرون ويموتون ويعودون للتكاثر والانتشار، بالسرعة التي انتشر فيها أمثالهم وتكاثروا في الدولة الرومانية المنقرضة، الذين أصبح شرفهم مضرب المثل للانتهازية والاباحية والابتذال والفجور، والذين ملكوا كل شيء الا الشرف الحقيقي، وبالسرعة التي تنتشر فيها الارانب والفئران في بيئة مناسبة لنموها وتكاثرها.

أصبح وجود الاشراف أمراً واقعاً، فرض حضوره على المجتمع الاسلامي، فأصبحت تسمية (الشريف) لا تعني ما كان ينبغي أن تعنيه في المفهوم ـ الاسلامي، إذ قد يكون الانسان الشريف ـ وفق هذا المفهوم، هو الذي يتمتع بمستوىً خلقي رفيع ووضع اجتماعي يتيح له تحقيق خدمات كبيرة للآخرين، والذي يتمتع بمميزات استثنائية تجعله جديراً بهذا اللقب، لا أن يكون مرادفاً للبطالة واللهو والعبث والتسلط والانتماء لدولة الظلم وأعوانها.

وإذا ما اخترنا هذا النص الذي يرد فيه وصف عفوي عرضي لرجل (شريف) من جند ابن سعد كان يقوم بمراقبة معسكر الحسين عليه السلام ليلة المعركة وكان يحاول أن يسخر من الحسين وأصحابه عندما كانوا يقرأون القرآن ويحيون الليل بالصلاة والعبادة، وهو وصف وصفه به لأحد أصحاب الحسين (بُريد بن خُضير) من عرفه قال: (فعرفته.. قلت هذا أبو حرب السبيعي عبد الله بن شهر، وكان مضحاكاً بطّالًا، وكان شريفاً شجاعاً فاتكا ـ وكان سعيد بن قيس ربما حبسه في جناية ـ فقال له برير بن خُضير: يا فاسق، أنت يجعلك الله في الطيبين؟

فقال له: من أنت؟ قال: أنا برير بن خُضير. قال: انا للّه، عزّ علي هلكت والله يا برير.

قال: يا أبا حرب، هل لك أن تتوب الى الله من ذنوبك العظام.. فوالله انا لنحن الطيبون.

ولكنكم لأنتم الخبيثون. قال: وأنا على ذلك من الشاهدين، قلت: ويحك، أفلا ينفعك معرفتك، قال: جعلت فداك، فمن ينادم يزيد بن عذره العَنزيّ، ها هو ذا معي، قال: قبح الله رأيك على كل حال، أنت سفيه، ثم انصرف عنا)[1].

(١) الطبري ٣/٣١٧.

لم تكن لفظة شريف هنا ترادف ما يمكن أن يفتخر به حقاً، ولم تكن تعني الا أحد عناصر طبقة استجدت وتوسعت ونمت بشكل طفيلي على حساب المجتمع.. ولم يكن مما يخل بالشريف كونه مضحاكاً بطالًا فاسقا شارباً للخمر أو فاتكاً أو سائراً بركاب الظالمين... فالمجتمع قد أخذ يتساهل إلىٰ الحد الذي كان يعتبر أمثال هذا الشخص شريفاً لمجرد أنه كان مقرباً من أحد المقربين من السلطة، ولم يكن يجهد نفسه بالعمل والكدح.

وربما كان الشريف مرفوعاً الى انتهاج المسلك الانتهازي بدافع المنافسة مع الأشراف الآخرين الذين يتفتون في وسائل ارضاء الدولة وكسب عطفها والتقرب اليها.

ان تساهل الدولة بالمثل والقيم والأخلاق الاسلامية واعتبارها أمراً ثانوياً لا أهمية له الا من الناحية الشكلية، سهلت مهمة الاشراف ووضعت عنهم الشروط التي كان ينبغي توفرها فيهم بنظر الاسلام ليكونوا مؤهلين للتصدي لقيادة الشرائح الاجتماعية المختلفة وتوجيهها وتزعمها وأخذ الأدوار البارزة فيها.

لقد كان معاوية نفسه رغم تستره بالدين يتبجح صراحة بأنه كان يشتري من الاشراف دينهم(١)، وكانت أغلبيتهم لا تأنف من الدخول في مساومات لقاء تقديم تنازلات وخدمات لدولة الظلم الاموية.

اشراف الكوفة: مصالحنا أولًا

وقد لعب (أشراف الكوفة) دوراً بارزاً لإحباط مهمة مسلم بن عقيل وافشالها، واسناد عبيد الله بن زياد، الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية كانت كلها تقف وراءه

(١) (وفد الاحنف بن قيس وجارية بن قدامة... والجون بن قتادة... والحتات بن يزيد.. إلىٰ معاوية بن أبي سفيان، فأعطىٰ كل رجل منهم مائة الف، وأعطىٰ الحتات سبعين ألفاً، فلما كانوا في الطريق سأل بعضهم بعضاً فأخبروه بجوائزهم، فكان الحتات أخذ سبعين الفا، فرجع إلى معاوية، فقال: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم، أما حسبي بصحيح؟ أو لست ذا سن؟ أو لست مطاعاً في عشيرتي؟ قال معاوية: بلىٰ. قال: فما بالك خسستَ بي دون القوم؟ فقال: اني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفان ـ وكان عثمانيا ـ فقال: وأنا فاشتر مني ديني، فأمر له بتمام جائزة القوم) الطبري ٣/ ٢١١ ولا يخفىٰ أن معاوية كان يرىٰ الأمر أمر مساومة على الدنيا.. ولم يأنف الحتات من الدخول في هذه المساومة..

في هذه المهمة الطارئة، مهمة التصدي للامام الحسين عليه السلام وافشال ثورته لتصحيح مسيرة الأمة الاسلامية وتقويم انحرافها.

لقد كان هؤلاء (الاشراف) يظهرون رؤوسهم في كل وقت يرون فيه أن من مصلحتهم أن يفعلوا ذلك، ويخفونها عند ظهور أية بادرة خطر أو ثورة ضدهم.

وهذا ما رأيناه خلال فترة زمنية قصيرة (على سبيل المثال) امتدت منذ وفاة معاوية عام ٦٠ هـ وحتىٰ وفاة يزيد ثم إلىٰ حكم عبد الملك وقتل مصعب، وهي فترة لا تتجاوز عدد أصابع اليدين.

وإذا ما عدنا إلى بداية الاحداث؛ منذ أن عزم الحسين عليه السلام المسير إلىٰ الكوفة، نجد أن بعضاً من أشرافها، قد كتبوا اليه يعرضون عليه ولاءهم ويطلبون منه أن يقودهم ضد الدولة الأموية الفاسدة، ولعلهم قد عملوا ذلك بايعاز من الدولة نفسها في محاولة لاستدراج الامام عليه السلام وقتله أو محاصرته هناك. . أو لعلهم قد حسبوا أن يزيد ما كان ليصمد طويلًا في الموقع الذي أعده له أبوه، وهو خلافة المسلمين كلهم، وأنهم لو كانوا قد بادروه إلىٰ اعلان الثورة والحرب والانضمام الى قائد لن تختلف عليه الأمة فيما بعد كالحسين عليه السلام، ونجحوا فيما بعد نجاحاً سهلًا عاجلًا، لكانوا هم أول من سيجني مكاسب هذا النجاح السهل العاجل.

ولم يدر بخلدهم ان التصدي للحسين عليه السلام وبمبعوثه مسلم، سيكون بذلك العنف، وأنه سيواجه بتلك الشراسة والوحشية، وأن معظمهم، هم أنفسهم، سيكونون اداة لذلك التصدي الشرس. اذ سينحازون بسهولة إلىٰ جانب السلطة، لأنهم لا يملكون الحصانة اللازمة لجعلهم يستمرون على ما عقدوا العزم عليه منذ البداية والتزام الخط الرسالي الصحيح الذي سار عليه الحسين عليهم السلام وأصحابه.

ولعل تطرف بعضهم باعلان العداوة للحسين وأصحابه عليهم السلام فيما بعد، أي أثناء المعركة وقبلها، وبعد أن أحاط بهم الجيش الضخم الذي جرد لمحاصرتهم وقتلهم أو طلب الاستسلام منهم دون قيد أو شرط، أريد منه تبيان أنهم كانوا يفعلون ذلك بوحي من مبادئهم وقناعاتهم، وبوحي من حبهم وولائهم للنظام الأموي المتمثل بيزيد، وأرادوا به البرهنة على أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام أعداء للدوله الأموية، وكأنهم كانوا بموقفهم هذا يوقعون صكوك براءة عن مواقفهم السابقة إلىٰ جانب أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام، وأرادوا به اعلان ان الرسائل ـ وقد انكروها فيما بعد كما رأينا، كانت مكذوبة على السنتهم وموضوعة من قبل خصومهم.

وقد أرادوا بذلك كله التقرب الى ابن زياد، ممثل السلطة وحاكمهم المطلق، معتقدين بأنهم ما لم يكونوا مندفعين بذلك الحماس الزائد الذي أعلنوه، فربما لفت ذلك نظر ابن زياد اليهم، وهو ما تجنبوه اذ حسبوا ان فيه تعرضهم المحقق للعقوبة والموت، مع أن ابن زياد الذكيّ الماكر، ما كانت لتفوته حركتهم منذ البداية، إلا أنه آثر التغاضي عنها لئلا يفتح عليه أبواب وجبهات جديدة تضاف للجبهة التي فتحها عليه مسلم عليه السلام؛ فقد قال حين وروده الكوفة في أول خطاب له مزكياً كل أعوانه ومن يحتمل أن يسير في ركابه، وموحياً لهم أنه يعتقد أنهم جميعاً إلىٰ صفهِ يناوؤن الحسين عليه السلام، وأنه لا يعلم أحداً يناوىء الدولة الأموية التي يمثلها هو في العراق، محاولًا بذلك استدراجهم الى صفهِ فعلًا وقيامهم ببذل أقصىٰ جهد في خدمته بعد أن أمنوا العقوبة والوشاية من قبل بعضهم البعض، (اني لأعلم أنه قد سار معي وأظهر الطاعةَ لي من هو عدو للحسين، حين ظن أن الحسين دخل البلد وغلب عليه، ووالله ما عرفت منكم أحداً[1]

وقد كانت هذه خطة ماكرة منه؛ إذ جعل أعداءه بالأمس، يطمئنون اليه ويأمنون عقابه، وأتاح لهم الفرصة لتغيير ولائهم بسرعة والتعبير عن ذلك الولاء بالتسابق بتسجيل المواقف الجديدة للدلالة على انحيازهم الى جانبه، بعد أن لم يكونوا كذلك بالفعل، وقد أعفى بالفعل فيما بعد عن مرسلي الرسائل إلىٰ الحسين عليه السلام وفيما يدعونه للقدوم إلىٰ الكوفة وتزعمهم.

وعندما واجه الامام عليه السلام بعض أولئك في ساحة المعركة وكشف أسماء بعض الذين كانوا يقودون قبائلهم ومرتزقة الدولة الآخرين وأوضح لهم أمام جندهم طبيعة الموقف الذي كان عليهم أن يتخذوه، وهو الوقوف إلى جانبه ونصرته والاستمرار في ذلك الى النهاية.

لم يملكوا أمام بيانه ذاك سوىٰ الانكار والكذب، اذ كيف يعترفون بأنهم كانوا من دعاته وسيف ابن زياد الذي سلّوه هم كان مسلطاً على رقابهم؟.

(فنادىٰ يا شبث بن ربعي ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الاشعث ويا يزيد بن الحارث ألم تكتبوا اليّ أن قد ايعنت الثمار واخضر الجناب وطمّت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجنّدة فأقبل.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٢.

قالوا له: لم نفعل، فقال: سبحان الله، بلىٰ والله لقد فعلتم)[1].

وما كان ذلك الموقف ليفوت عيون وجواسيس ابن زياد، ولا بد أن خبرهم قد وصله، غير أنه، وقد رآهم في خدمته وتحت تصرفه فعلًا، آثر أن يسكت عنهم ولا يحاسبهم، أو يحاسبهم فيما بعد اذا ما اظهروا فتوراً أو تهاوناً، أو يهملهم عند انقضاء المهمة، وهذا ما فعله مع معظمهم بالفعل؛ إذ لم يكن لهم شأن أو دور يذكر فيما بعد.

ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض من كتبوا اليه، ظلوا على مواقفهم نفسها تجاهه مثل حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجه وغيرهما، وقد استمروا الى النهاية في نصرته، الا أن هؤلاء كانوا قلّة، لا يقاس عددهم بعدد أولئك الذين تخلوا عنه فيما بعد ووقفوا الى صف عدوّه.

كما أن بعض من لم يكتبوا اليه أصلًا، وكانوا غير منحازين اليه مند البداية اتخذوا مواقف مغايرة لمواقفهم الأولىٰ منه مثل زهير بن القين والحر بن يزيد الرياحي وأبو الشعثاء الكندي وغيرهم.

اشراف الكوفة: نلبس لكل حالة لبوسها

ان موقف الملأ أو الاشراف من أهل الكوفة، كان يتميز بالرخاوة والذلة وعدم الثبات والاستقرار؛ فقد شهدوا أحوالًا متغيرة في جو مضطرب عاصف بدأ قبيل حكومة أمير المؤمنين عليه السلام وخلالها ثم حكومة معاوية وما أخذهم به من الشدة والعسف، وربما رأوا أن حالة (الثبات) والاستقرار لن تدوم في ظل حكومة بعينها، وان الثبات خلف أمير المؤمنين عليه السلام أو الثبات خلف أعدائه ربما ستعرضهم لسخط وغضب هذا الحاكم أو ذاك عند تغير الحال، التي حسبوا انها ستتغير حتماً ولن تدوم على نمط أو شكل واحد، وأنهم تبعاً لذلك لا بد أن يلبسوا لكل حالة لبوسها وأن يغيروا ازياءهم وأشكالهم ولغاتهم حسب ما يقتضيه حال الزمان المتغير المتلون.

ولعل سبب تغيرهم المستمر في ظل انماط متنوعة من الحكم وأغلبها انماط حكم ظالمة طاغوتية يعود إلى عدم اطمئنانهم الى دوام الاوضاع واستقرارها وإلىٰ توقعهم المستمر للمفاجآت في ظل تلك الانماط المختلفة، ولعلهم كانوا يعدون

(١) الطبري ٣/٣١٩.

لذلك من دواعي الحذر والحيطة ومتطلباتهما ليحفظوا به أرواحهم وأموالهم، وهو ما بدا لهم بمرور الزمن غاية كبيرة بحد ذاتها.

وقد يستعدي أمر الحذر التدقيق الزائد في أمر الحكام والناس والبحث عن أحوالهم والشك في أمرهم ليأمنوا شروراً متوقعة ومخاطر محتملة[1].

لا بأس من العذر ما دام يرضي الأمير

حاول الشريفان محمد بن الاشعث وأسماء بن خارجه بالتعاون مع الشريف عمرو بن الحجاج الزبيدي اقناع هانىء بن عروه للمثول بين يدي ابن زياد، رغم ما في ذلك من مخاطر محتملة، وأقسما عليه أن يذهب معهم مؤكدين له أن الخير كل الخير في ذلك وان ابن زياد لم يرد به الا خيرا، وكانت نتيجة استدراجهم، الايقاع به في فخ ابن زياد.

وحاول الشريف مسلم بن عمرو الباهلي اقناعه بتسليم مسلم بن عقيل بحجة أن هذا الرجل، ويقصد به مسلم ابن عم القوم، وليسوا بقاتليه ولا ضائريه. وهو يعلم أن الأمر على العكس من ذلك تماماً، (يا هانىء، اني انشدك الله أن تقتل نفسك وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك، فوالله اني لأنفس بك عن القتل ـ وهو يرىٰ أن عشيرته ستحرّك في شأنه ـ أن هذا الرجل ابن عم القوم، وليسوا قاتليه أو ضائريه، فادفعه اليه، فإنه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة انما تدفعه الى السلطان)[2].

ان الباهلي لا يرىٰ أمامه الا قوة السلطان ولا يرىٰ وراءها قوة، وهو يعتقد ان استجابته العمياء حتىٰ ولو كانت مناقضة لقوانين الاسلام ليس فيها مخزاة ولا منقصة، فالسلطان هو القوة الوحيدة التي يجب أن تطاع.

وقد عمل هذا السلطان (ابن زياد) على اهانة أحد الاشراف أسماء بن خارجه،

---

(١) ولأبي عثمان الجاحظ رأي وجيه في علة عصيانهم وتقبلهم.. يقول: (العلة في عصيان أهل العراق على الامراء، وطاعة أهل الشام أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الامراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد لا يرون النظر ولا يساءلون عن مغيب الاحوال، وما زال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة وبالشقاق علىٰ أولي الرئاسة) شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ١/ ١١٤.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٥ وابن الاثير ٣/ ٣٩٢.

(فأمر به فلهز وتعتع به، ثم ترك فحبس)[1] لمجرد أنه اعترض على حبس هانىء وضربه بعد ان استخدم هو وسيلة لجلبه للقصر، وقد عمل ذلك على تأديب بقية الأشراف ومنهم محمد بن الاشعث الذي قال بعد أن رأىٰ فعل ابن زياد بصاحبه (قد رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أم علينا، انما الأمير مؤدب)[2] وبذلك يعلن استسلامه الكامل للسلطان أو الأمير، مهما فعل، فالأمير مؤدب. وهو وأمثاله قد يحتاجون لمن يؤدبهم.

أما عمرو بن الحجاج ثالثهما، فرغم ما كان يتمتع به من نفوذ بين قومه الذين ربما دفعوه الى الذهاب للقصر لتخليص هانىء من ابن زياد، وكان يستطيع تغيير الموقف كله لو وجد في نفسه الارادة الصادقة لفعل ذلك؛ فقد اسمع ابن زياد كلمات بدت كأنها كلمات اعتذار عن موقفه وقد أتىٰ بقومه، وبدا كأنه مكلف بالحديث نيابة عنهم وحسب، وكان حريا به وقد أتىٰ بتلك الجموع ان يطالب باخراج هانىء اليه لا أن يكتفي بسماع كلمات مطمئنة عن وجوده حياً، أقبل ابن حجاج في مذحج (حتىٰ أحاط بالقصر ومعه جمع عظيم، ثم نادىٰ: أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مذحج ووجوهها، لم تخلع طاعة ولم تفارق جماعة، وقد بلغهم أن صاحبهم يقتل، فاعظموا ذلك)[3].

ولو أنه نادىٰ أنا عمرو بن الحجاج، وهؤلاء قومي، وقد بلغنا أن صاحبنا يقتل فاخرجوه الينا، لكان بذلك قد بلّغ رسالة واضحة صارمة، غير أنه بكلماته هذه عزل نفسه عن قومه، وأوحىٰ اليهم أنه انما كان يبلّغ كلماتهم وحسب، وأنه قد يكون غير مقتنع بموقفهم. . إنَّه مهزوم بداخله أمام ابن زياد، حتىٰ وإن امتلك قوة قد تفوق قوته عشرات المرات في تلك اللحظة التي لم يكن فيها مع ابن زياد سوىٰ عدد ضئيل من الاشراف والشرطة والاعوان والخدم.

ولم يأنف (الشريف) شريح القاضي ـ رغم أنه قاض ـ من شهادة الزور طالما أنه يرضي بها سيده الذي لقّنه تلك الشهادة المزورة التي سيرمي بها في وجوه المحتجّين من مذحج بقيادة عمرو بن الحجاج الذي كان مستعداً لسماع أي عذر

(١) الطبري ٣/ ٢٨٦ـ وابن الاثير ٣/ ٣٩٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

للانسحاب بقومه والتراجع عن القصر. . خرج اليهم شريح قائلًا: (ان الأمير لما بلغه مكانكم ومقاتلكم في صاحبكم أمرني بالدخول عليه، فاتيته فنظرت اليه، فأمرني أن القاكم، وان أعلمكم انه حي، وان الذي بلغكم من قتله كان باطلًا.

فقال عمرو وأصحابه: فأما إذ لم يقتل فالحمد لله، ثم انصرفوا)[1].

صحيح أن هانيء لم يقتل حتىٰ تلك اللحظة ولكن، ألم يكن معرَّضاً للقتل بعد أن ضرب ذلك الضرب المؤلم من قبل ابن زياد نفسه. وقد هدده أن يقتله فعلًا؟ وتم هذا الامر تحت سمع القاضي وبصره؟

فكيف تمت شهادة القاضي الشريف؟ وكيف يستطيع تبريرها أمام الناس وهو يعلم حكمهم عليها مسبقاً؟

إنه لم يستطع سوىٰ ترديد أقوال بدا أنه لم يجد سواها، (فخرجت اليهم ومعي حميد بن بكير الاحمري، أرسله معي ابن زياد، وكان من شرطه ممن يقوم على رأسه، وأيم الله لولا مكانه معي، لكنت أبلغت أصحابه ما أمرني به)[2].

وبعذره هذا يعترف بشهادته المزورة ويدين نفسه الى الأبد.

مع (ابن زياد) ضد (مسلم) القوة والمال معه أيضاً

وعندما أحاط مسلم بعدة الاف من أهل الكوفة جاءوا معه، بقصر ابن زياد، أثر حادث القبض المفاجىء على هانيء تحرز ابن زياد في القصر وغلّق الابواب، وقد ضاق به ذرعه، (وكان كبر أمرِه ان يتمسك بباب القصر، وليس معه إلا ثلاثون رجلًا من الشرط وعشرون رجلًا من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه، وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد من قبل الباب الذي يلي دار الروميِّين، وجعل من بالقصر مع ابن زياد يشرفون عليهم، فينظرون اليهم، فيتقون إن يرموهم بالحجارة، وأن يشتموهم وهم لا يفترون على عبيد الله وعلى أبيه.

ودعا عبيد الله كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي فأمره أن يخرج فيمن اطاعه

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٦ وقد ورد في ٣/ ٢٧٦ قوله: (لا بأس عليه، انما حبسه الامير ليسأله وورد في طبعة اخرى قوله (. . ما هذه الرعّة السيئة، الرجل حي، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه فانصرفوا ولا تحلوا بانفسكم ولا بصاحبكم، فانصرفوا). ٦/ ٢٠٣ وابن الاثير ٣/ ٣٩٣.

(٢) المصدر السابق.

من مذحج، فيسير بالكوفة، ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم الحرب، ويحذرهم فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك لمحمد بن الاشعث وللقعقاع بن شور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن ابجر العجلي، وشمر بن ذي الجوشن العامري، وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشاً اليهم لقلة عدد من معه من الناس.. وخرج كثير بن شهاب يخذّل الناس عن ابن عقيل.

فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم اليه ثم قال: أشرفوا على الناس، فمنّوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، واعلموهم وصول الجنود من الشام اليهم..)(١).

وقد تحدث أحد أهل الكوفة، عبد الله بن خازم الكثيري من الازد، من بني كثير، قال: (أشرف علينا الاشراف، فتكلم كثير بن شهاب أول الناس حتىٰ كادت الشمس ان تحجب، فقال: أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطىٰ الله الامير عهدا ولئن اتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم ان يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ وابن الأثير ٣/ ٣٩٣ - ٣٩٤ وهناك موقف لأشراف الكوفة مشابه لهذا الموقف عندما حرضوا الناس على حجر بن عدي وشهدوا ضده بايحاء من زياد عندما هددهم قائلاً: (.. انتم معي واخوانكم وابناؤكم وعشائركم مع حجر.. هذا والله من دحسكم وغشكم! والله لتظهرن لي براءتكم او لآتينكم بقوم أقيم بهم أوَدكم وصعركم، فوثبوا الى زياد فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هاهنا رأي الا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا ان فيه رضاك وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به، قال: فليقم كل امرىء منكم إلىٰ هذه الجماعة حول حجر، فليدع لكل رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته، حتى تقيموا عنه كل من استطعتم أن تقيموه، ففعلوا ذلك، فأقاموا جل من كانوا مع حجر بن عدي..) الطبري ٣/ ٢٢٠ـ ٢٢١ وقد شهد الاشراف من رؤوس الارباع وغيرهم شهادة مزورة ضد حجر ادعوا فيها انه خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا الى الحرب والفتنة، ومن المعلوم ان نفس أولئك الاشراف السائرين بركاب زياد كانوا في ركاب ابنه وأعادوا نفس أدوارهم القديمة ومنهم عمر بن سعد وكثير بن شهاب وشبث بن ربعي والقعقاع بن ابجر وعمرو بن الحجاج وأسماء بن خارجة وشمر بن ذي الجوشن.

بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتىٰ لا يبقىٰ له فيكم بقيّه من أهل المعصية الا أذاقها وبال ما جرّت أيديها، وتكلم الاشراف بنحو من كلام هذا، فلما سمع مقالتهم الناس أخذوا يتفرقون)[1].

وقد روىٰ المجالد بن سعيد قائلًا: (ان المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك. ويجيء الرجل الى ابنه أو أخيه فيقول: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر، انصرف. فيذهب به، فما زالوا يتفرقون ويتصدعون حتىٰ أمسىٰ ابن عقيل وما معه الا ثلاثون نفساً في المسجد)[2].

وهكذا وقف اشراف الكوفة ووجوههم في أدق ظرف وأصعبه مرّ به ابن زياد على الاطلاق منذ مجيئه الكوفة، موقفاً مناصراً له معرضين أنفسهم لما تعرض له هو من مخاطر وإهانات مستغلين مراكزهم كزعماء للقبائل وذوي نفوذ واسع وكلمة مسموعةٍ بين أوساط الناس، وحاولوا أن يضعوا كل فرد في زاوية بدا فيها وكأنه كان لوحده يواجه سطوة الدولة كلها، اعلموهم أن مسألة التغيير ومسائل الحكم ليست من اختصاصهم وما هم الا أدوات صغيرة في عجلة الدولة الكبيرة، وان عليهم أن يهتموا بشؤونهم الحياتية اليومية ولا يعرّضوا أنفسهم للسلطان القوي المدمر الذي خبروه وعرفوه من قبل وكانت جولات صراعهم معه من قبل لصالحه.

وذهبوا الى حد استغلال النساء وضعفهن وخوفهم وأثاروهن ضد اخوانهم وأبنائهن يحرضنهم على التخلي عن مسلم، ورجحوا الكفة الى جانب ابن زياد بالتالي بشكل تام بعدما تفرق انصار مسلم عنه، وغدا وحيداً في الكوفة لا ناصر له ولا معين، كما ذهبوا الى حد التصدي لمسلم بأنفسهم (وان ابن الاشعث والقعقاع بن شور وشبث بن ربعي قاتلوا مسلماً وأصحابه عشية سار مسلم الى قصر بن زياد قتالًا شديداً)[3].

يرفضون التغيير.. ثبات الاوضاع يحقق لهم المنافع والامتيازات

لقد حرص أولئك الاشراف على ديمومة وثبات الاوضاع في ظل حكومة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٢٩٤.

الامويين التي أتاحت لهم المزيد من المكاسب والامتيازات الشخصية والمنح اندسمة التي ما كانت تتاح لهم في ظل أوضاع صحيحة، وقد كانوا مستعدين للمساومة مع أية جهة تتقدم بعروض مناسبة لهم تحقق لهم مكاسب محققة ومكانه مرموقة في المجتمع وان كانت على حساب الآخرين وعلى حساب البناء الصحيح الذي أراده الاسلام.

كانوا وجهاً جديداً متكرراً لوجوه الاشراف القدامىٰ، برزوا في كل المجتمعات القديمة وتحلقوا حول الطواغيت وانتشروا في دول الظلم يحمونها ويشيدون بناءها ويقيمون عروشها، فهم (زينة) مناسبة لهذه العروش التي أصبحت قبلتهم ومحط أنضارهم على امتداد التاريخ.

ان استقرارها يعني استقرارهم هُم في مراكزهم وعروشهم الصغيرة التي أقاموها من مخلفات وفضلات العرش الكبير، انهم كتلة واحدة متساندة تشعر أن في التصدي لمصلحة خلية واحدة منها متمثلة بشريف واحد، استعداداً للتصدي لجميع الاشراف المتحلقين حول العرش، بل للعرش نفسه، وهم ليسوا على استعداد للتنازل بسهولة والتراجع أمام (اعتداء) كهذا يرون أنه يستهدفهم جميعاً.

وهذا هو سبب رفضهم التغيير في كل العصور، سواء في زمن الانبياء السابقين وفي ظل سيادة الاباطرة والقياصرة والفراعنة، أو في زمن الرسالة المحمدية أو فيما بعد، مع (الخلفاء) والملوك والسلاطين وغيرهم، ويبدون رفضهم التغيير بأنه استجابة لسنن الاباء الاشراف الذين أرسلوا لهم دعائم (شرفيّتهم) ووجاهتهم ونفوذهم وثرواتهم، ومهدوا لهم الطريق لكي يكونوا على راس المجتمع وفي قمته، ولا يعني التغيير ـ بنظرهم ـ الا منافستهم على الثروة والنفوذ وأزاحتهم عن تلك المراتب التي رتبوها لأنفسهم أو رتّبها آباؤهم لهم، وظهور طبقات جديدة من (الاشراف) تحل محلهم، وهذا أمر قد يتعلق بالاشراف في كل زمان ومكان.

وفي القرآن أمثلة عديدة على تصدي أولئك الملأ أو الاشراف للرسالات السماوية ووقوفهم الى جانب الفراعنة والطواغيت لمنع انتشارها، معتبرين ان مساواتها بينهم وبين عبيدهم وفقرائهم وسوقتهم على المستوىٰ الانساني العام لا يؤهلها لكي تكون رسالات عظيمة والا لكانت قد كرست لمصالحهم ومكانتهم

ونفوذهم، وذهبوا الى حد اعتبار تلك الرسالات غير صحيحة أو مؤهلة ما دامت قد أنزلت علىٰ أناس فقراء لا يبلغون مستواهم في الثراء والنفوذ[١].

فلما لم يكن الانبياء منحازين اليهم فانهم اعداء لهم وحرب عليهم. وأحرىٰ بهم أن يتصدوا لهم بنفس الشراسة التي يتصدون بها لمن يقصد الاضرار بهما شخصياً.

الوشاية والغدر لا تؤثران علىٰ شرف (الشريف)

ولم يتحرج الشريفان محمد بن الأشعث وابنه عبد الرحمٰن من الوشاية بمسلم عندما بلغهما أمر وجوده في دار طوعة، ولم يحتج ابن الاشعث على إهانة ابن زياد أياه ونخسه بالقضيب كما ينخس عبيده وخدمه وقد أمره أن يأتي به حالًا.

لقد حسب، وقد زج له ابن زياد ثناءً كاذباً عندما رأىٰ موقفه في الوقوف ضد مسلم الى صفه وقال له عندما وفد عليه صبيحة اليوم التالي: (مرحبا بمن لا يستغش ولا يتهم، ثم أقعده الى جنبه)[٢]، أنه كان مرموقاً حقاً وأثيراً عند سيده، لشخصه ومكانته في قومه، ولم يحسب أنه كان يقرب طالما كان يتطوع بتلك الخدمات لصالح أسياده، وقد اعتقد أن مكانته كانت تؤهله لتقديم الامان لمسلم بعد أن (أثخن بالحجارة وعجز عن القتال وانبهر)[٣]، فقال له: (ان القوم عمك، وليسوا بقاتليك ولا ضازيك، لك الامان)[٤].

وقد أدرك مسلم أن الدولة كانت تسعىٰ سعياً محموماً لحربه والقضاء عليه وان ابن الاشعث لم يكن بالمكانة التي تؤهله لدفع الاذىٰ عنه طالما أنه كان عدو الدولة الرئيسي الذي جردت كل قوتها لحربه، وقد أوصىٰ ابن الاشعث أن يبعث إلى الحسين عليه السلام من يمنعه من القدوم إلى الكوفة، وقد وعده ابن الاشعث أن يفعل

---

(١) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ سورة الزخرف، آية٣١.
وقد تعرضنا في هذه الدراسة بشكل موجز لموقف الملأ من الرسالات والانبياء.

(٢) الطبري ٣/ ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

ذلك وأصرّ علىٰ موقفه بتقديم الأمان لمسلم قائلًا: (والله لأفعلن، ولأعلمن ابن زياد أني قد امنتك)[١].

ولم يذكر لنا أحداً أنه بعث أحداً الى الحسين عليه‌السلام لمنعه من القدوم، كما أنه فضل امام ابن زياد، عندما لم يبد الحماس المطلوب للدفاع عن مسلم وقد أمنه.

أخبره (محمد بن الاشعث بما كان منه وما كان من أمانه أياه، فقال عبيد الله: ما أنت والامان، كأنا ارسلناك تؤمنه، إنما أرسلناك لتأتينا به، فسكت)[٢]

لقد أهانه مرة أخرىٰ واشعره أن دوره لا يتعدىٰ دور خادم أو شرطي مستخدم لدى الدولة لقاء ثمن، وأنه ليس بالاهمية التي يستطيع بها تقديم امان لأحد نيابة عن سيده، ولم يكلف نفسه عناء رده بعبارات لطيفة وأسلوب مؤدب لأنه علم أنه سيسيغ تلك الاهانه وغيرها، وسيظل فرحاً مغتبطاً بوجوده في حاشيته وضمن أتباعه، ولم يتحرك حتىٰ عندما استنهضه مسلم قائلًا: (يابن الاشعث أما والله، لولا أنك آمنتني ما استسلمت، قم بسيفك دوني، فقد اخفرت ذمتك)[٣] ولم ينهض فقد اخفرت ذمته منذ زمن بعيد.

ان ذلة ابن الاشعث امام ابن زياد كانت تلوح بوجوه كل أشراف الكوفة، فما كان لأحد منهم، وهو يهان أمامهم أن يقول له أنه أكثر كرامة منه وأنه عزيز قومه، بل ان الذلة قد ضربت عليهم جميعاً.

ولم يجد الشريف مسلم بن عمرو الباهلي، الذي قدم في ركاب ابن زياد الى الكوفة، حرجاً من التظرف أمام مسلم بن عقيل الجريح العطشان وقد طلب ماء، فقال له وهو يشير إلى قُلّة بارده موضوعة على باب قصر ابن زياد: (أتراها، ما ابردها، لا والله لا تذوق منها قطرة أبدا حتىٰ تذوق الحميم في نار جهنم.

قال له ابن عقيل: ويحك، من أنت؟

قال: إنا ابن عرف الحق إذ أنكرته، ونصح لامامه إذ غششته، وسمع وأطاع اذ عصيته وخالفت، أنا مسلم بن عمرو الباهلي.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٠ - ٢٩١ وابن الاثير ٣/ ٣٩٦ - ٣٩٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

فقال ابن عقيل: لامك الثكل! ما أجفاك، وما أفظك؛ وأقسىٰ قلبك واغلظك! أنت يابن باهلة أولىٰ بالحميم والخلود في نار جهنم مني)[١].

وبالتأكيد فإن ابن زياد لم يكلف الباهلي بالتصدي لمسلم وملاقاته بذلك الاسلوب الفظ، وإن كان سيرتاح فيما لو بلغه ذلك عنه.. غير أن الباهلي حسب أن (مبادرته) هذه وابداء التطرق في خدمة سيده سيرجح كفته ويرمقه بنظرة، وحسب أنه أمام انسان مغلوب منهزم ذليل، ولم يحسب ان الأسير المجروح سيواجهه بكلمات قوية وثبات واضح، وإن موقفه سيكون عاراً عليه. إذ بماذا كان سيحتج بعد ذلك اذا ما قيل له: انك لست بحاجة لمواجهة مسلم بمثل ذلك الكلام وانت تراه أسيراً جريحاً؟ هل سيقول انني أجبرت على ذلك، كما سيقول أمثاله إذا ما سيقوا إلى الحرب مثلًا؟ بالتأكيد أنه لن يلجأ إلى هذا العذر، وسيضطر إلى تكرار تبجّحاته وادعاءاته بأنه في خدمة الدولة وأنه ينصح لأميره وامامه يزيد وأنه قد سمع وأطاع وحسبه بذلك فخراً وشرفاً.

هوىٰ فرعون أولًا

لقد كان يضع أمامه فرعونه وهواه، يزيد، ويفخر بذلك، ويرىٰ أن مهمته الأساسية في هذه الحياة السمع والطاعة وسد العيون والآذان والأفواه، ولا غير.

ولم يأنف من تقريع مسلم له بعد ذلك وسكت عنه، ولعله عدّه مما يمكن أن يضاف لرصيده أمام سادته، فهو قد تحمل في سبيلهم، وهكذا سيكسب رضاهم وعطفهم، وهكذا ابتلع كلمات مسلم المقرعة المنددة.

لقد أخجل موقفه الاشراف الآخرين الذين كانوا على باب القصر ينتظرون الإذن وحاولوا تدارك موقف الباهلي وأمروا غلمانهم ليسقوا مسلماً الماء، الذي لم يتح له أن يشربه، وقتل عطشاناً كما قتل أمامه وقائده الحسين عليه السلام بعد ذلك عطشاناً.

ولا حاجة لنا بذكر مواقف (الشريفين) عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن، فقد تطرقنا إلى الحديث عن بعض ملامح شخصيتهما وسلوكهما عند الحديث المختصر عنهما.

---

(١) المصدر السابق.

لم تستمل السلطة الأموية الناس عن طريق المبادىء التي جاء بها الاسلام ودفعها، ولم تكن قضية ابن زياد عند أهل الكوفة قضية خلاف عقائدي مع الحسين عليه السلام، فقد كانوا يعرفون أبعاد الصراع معرفة تامة، ويعرفون أن دوافعه هي اسناد العرش الأموي المتسلط على رقاب الناس بشتىٰ الاساليب والسبل غير المشروعة.

وكانت بيوت الأموال الموضوعة تحت تصرف ابن زياد في الكوفة أحد الاسباب التي ساعدته في مهمته لاستقطاب الاشراف ورشوتهم.. كانت الكوفة كغيرها من الولايات التابعة للعرش الاموي (بلداً فيه عماله وامراؤه، ومعهم بيوت الأموال، وانما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار)[١]، وكان لا بد أن يكون للاشراف حصة الاسد من هذه الأموال، ما داموا في مركز القيادة والتأثير، وكان لا بد أن ينحازوا لمن يمنحهم تلك الأموال ويفرقها عليهم.

وهكذا قال مجمع بن عبد الله العائذي للحسين عليه السلام، عندما سأله عن خبر الناس في الكوفة: (أما أشراف الناس فقد اعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم، فهم إلب واحد عليك)[٢].

إنهم يسعون لتثبيت الاوضاع ما دامت لصالحهم، وما داموا باقين في مركز الصدارة والوجاهة والشرف، وإذا ما أضيف لكل تلك الأموال والأمتيازات التي تشبع حاجاتهم وغرائزهم، جعل أولئك الأشراف من قضية السلطان، مهما كان تصرفه قضيتهم الخاصة، يدافعون عنها بكافة السبل المتاحة.

كل ما يفعل الامير مقبول حتىٰ وان شتمهم أو أهانهم

قد يسيغ أولئك الاشراف ضربة أو دفعة أو شتيمة أو لهزاً أو همزاً أو تعتعة من السلطان، وقد يرونه مؤدباً لهم، على حد تعبير بعضهم، فمن حقه أن يفعل ذلك وهو أمر عائد إليه، غير أنهم يتأذون بالتأكيد عند أقل كلمة أو شارة أو تصريح يصدر عن أناس قد يكونون أقل منهم أهمية ضمن مواصفاتهم الاجتماعية المتعارفة. إنهم عند

(١) الطبري ٣/ ٢٩٤ وابن الاثير ٣/ ٣٩٩ من قول لأحد الذين نصحوا الحسين عليه السلام بعدم المسير الى الكوفة.

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٨.

ذلك يظهرون تعالياً وشموخاً وأنفة، ويبدون كما لو أن الحمية الجاهلية قد لفتهم من شعور رؤوسهم وحتىٰ أظافر أقدامهم، والويل لمن يتصدىٰ لهم من عامة الناس أو فقرائهم.

أمر ابن زياد بأسماء بن خارجة فلهز وتعتع ثم ترك فحبس، كما ذكرنا عند التطرف لسيرة ابن زياد لمجرد احتجاج بسيط صدر منه حول معاملة ابن زياد لهانيء، وكان ذلك دافعاً لكي يتأدب محمد بن الاشعث ويسكت ويصرح بعد ذلك بأن الامير مؤدب، وقد أقدم ابن زياد على نخس الشريف المؤدب هذا بالقضيب في جنبه دون أي اعتبار لشرفيته عندما علم أن مسلم في احد بيوته وأهانه بعد ذلك عندما قال له بأنه قد آمن مسلم وقال له: ما أنت والأمان، وكأنه مجرد تابع صغير عليه أن ينفذ أوامر سيده وحسب. كما رأينا كيف أهان ابن سعد وغيره. اننا نلمس منه هذه المعاملة الجافية الغليظة المتعالية مع كل الأشراف عندما يسيطر ويقوىٰ ويشتد، أما حين يضعف ويحاصر، فإنه يكون هيناً ليناً متساهلًا شأنه شأن أشرافه الآخرين.

ولقد أهانه يزيد وأهمله كما أهمله وأهانه معاوية من قبل وأوعده بأنه سيرجعه عبداً وينكر النسب الذي افتعله وادعاه له وأنه سيقتل كما ادعىٰ ان لم يقتل الحسين عليه السلام، فرأىٰ أن يستعمل نفس لغة يزيد ونفس وعيده وتهديداته مع الاشراف الآخرين الذين هم دونه شرفاً ومنزلة، وكانت رسالته لإبن سعد نموذجاً آخر من رسالة يزيد له.

كان ابن زياد عارفاً بنفسيات (أشرافه)، لأنه شريف منهم، فلم تكن تلك النفسيات ترىٰ مجالًا للابداع والمنافسة الا في عالم المصالح والمكاسب الشخصية، وقد لا يرون أي اعتبار لأي قيمة أو شيء يقف في طريق تحقيق تلك المكاسب حتىٰ ولو كان ذلك هو الاسلام نفسه

وكان سباق الأشراف في كسب ود شريفهم الكبير يبدو من خلال اللمسات والتصرفات والمبادرات الشخصية التي يقوم بها كل منهم، فهم لا يكتفون أغلب الأحيان بتنفيذ المهمات التي يكلفون بها وحسب، وإنما يضيفون إليها أفعالًا يبتكرونها هم، لكي يرىٰ أميرهم ذلك، ويرىٰ أنهم منحازون فعلًا الى صفه وأنهم يرون متعة بتنفيذ أوامره وتوجيهاته، وأنهم لا يفعلون ذلك لأنها أوامر واجبة الاداء، بل لأنها تعبر عما يرونه هو، ولعله لو لم يصدرها لقاموا هم بفعلها لأن ذلك ما ينبغي

القيام به فعلًا لتكون لهم يد عنده وتحسن صورهم بنظره لتكون المكاسب ـ بعد ذلك ـ أدسم وأكثر وأضمن.

(مبادرات) شخصية.. لكي يرضىٰ الأمير

لقد رأينا كيف نادىٰ شمرٌ الامامَ قائلًا: (تعجلت النار في الدنيا قبل القيامة)[1] فابن زياد لم يكلفه ـ بالتأكيد ـ بمثل هذه المهمة والتصدي للامام عليه السلام بمثل تلك الاقوال، التي شجعت آخرين مثل ابن حوزة ويزيد بن معقل وغيرهما ليقولا مثلما قال، محاولين التقرب من شمر مثلما يحاول التقرب من ابن زياد مثلما يحاول هذا التقرب من يزيد!

كما أن شمراً لم يكن مكلفاً بالتصدي للإمام عليه السلام عند محاولته إقناع الجيش بالتراجع عن مهمته، وإلقاء الحجة على أفراده للتخلي عن القيادة الظالمة التي استخدمتهم لتنفيذ مآربها وأغراضها، وان يجبهه بتلك الأقوال التي ما كانت لتعمل الا علىٰ تجسيم جريمته وتضخيم عمله الذي اقدم عليه بتلك الروح المنحازة التي لم تتطلع على الاسلام أبداً.

ولعل ابن زياد لم يكلفه باحراق البيوت وترويع النساء وقتل الاطفال كما أراد أن يفعل هو ورجاله.

وقد أدرك ذلك حميد بن مسلم ذلك بعد أن رأىٰ اندفاعة شمر وخاطبه قائلًا: (والله ان في قتلك الرجال لما ترضي به أميرك)[2] غير أن شمر كان يرىٰ ان ذلك كان الحد الأدنىٰ المطلوب الذي أمر به أميره، أما الحد الذي يرضيه فعلاً، فقد حسب أنه ما كان يقوم به فعلاً من أفعال ومبادرات شخصية.

وبالتأكيد، فإن عمرو بن الحجاج كان يستطيع السكوت وعدم تحريض الناس علىٰ الحسين عليه السلام وأصحابه والمناداة بأعلىٰ صوته: (لا يبرز اليهم منكم أحد، فإنهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم، يا أهل الكوفة. الزموا طاعتكم وجماعتكم، لا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف

(١) ابن الأثير ٣/٤١٨ وورد في الطبري ٣/٣١٨ (استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة).
(٢) الطبري ٣/٣٢٦ - ٣٢٥ - ٣٢٤ وابن الاثير ٣/٤٢٣ - ٤٢٦.

الامام)[1]، كان يمكن أن يكتفي بحمل سيفه كما فعل الكثيرون ولا يؤدي ذلك الدور الاستثنائي المحرض مع أنه ربما اعتذر بعد ذلك عن فعله وقال أنه أجبر على فعل ما فعله بعد ذلك.

وما كان الحصين بن نمير مكلفاً بالرد على الحسين عليه السلام وأصحابه حين سألوا أصحاب ابن سعد أن يكفّوا الحرب حتىٰ يصلّوا، فقال لهم الحصين: انها لا تصل، فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت ان الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله لا تقبل، وتقبل منك يا حمار؟)[2]، وقد أوشك حبيب على قتل الحصين، الا أن أصحابه استنقذوه منه وقتلوا هانئاً، وأراد الحصين بعد أن ضرب هانىء على رأسه بالسيف واحتزه أحد شركائه في الجريمة، أن يأخذ رأس هانىء قائلاً لشريكه: (إني لشريكك في قتله أَعطنيه أعلقه في عنق فرسي كيما يرىٰ الناس وسيعلموا أني اشتركت في قتله ثم خذه أنت من بعد فامض به) [3] وقد استجاب له شريكه ودفع اليه الرأس، فجال به في العسكر قد علقه في عنق فرسه، ثم دفعه بعد ذلك اليه.

ولا شك أن الحصين أراد تسجيل موقف متميز لدىٰ أسياده، فلا بد أن يعلموا أنه شارك بقتل شخصية مهمة من أصحاب الحسين عليه السلام لتحسن صورته في نظرهم ويحتل مكانة مرموقة فيما بعد أو لعله لم يكن ينشد الا رضاهم وحسب.

وربما كان لبعض أشراف الكوفة دور ظهروا فيه بمظر الذي لم يكن يحب قتال الحسين عليه السلام، إلا أنهم شاركوا في المعركة وكان مجرد حضورهم كافياً لحث الكثيرين من غير الاشراف ومن الاشراف أيضاً لأداء ما كلفوا وما لم يكلفوا به.

وقد رأينا كيف أن شبث بن ربعي قد حاول التنصل من مقاتلة الحسين عليه السلام، بنفسه، رغم أنه كان ضمن الجيش المقاتل، حاول في البداية عدم الذهاب إلىٰ كربلاء مدعياً المرض، إلا أنه خاف ابن زياد وذهب، وقد أراده ابن سعد أن يتقدم لقتال الحسين عليه السلام في جماعة من الرماة، إلا أنه تنصل من ذلك وقال له: (سبحان الله،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

أتعمد إلى شيخ مضر وأهل المصر عامة، بحثه في الرماة، لم تجد من تندب لهذا ويجزيء عنك غيري، ومازالوا يرون من شبث الكراهة لقتاله)[1].

فقد كان من أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه وقاتل تحت لوائه معاوية وأصحابه ثم وجد نفسه بعد أن انفرد معاوية بالسلطة وواجه أهل الكوفة بالعسف والغشم والإرهاب والرشوة مدفوعاً إلى خدمة صاحب العرش الذي تسلط على رقاب المسلمين، وخدمة إبنه بعد ذلك ومسلطاً سيفه وسهامه هذه المرة على رقاب من والاهم قبلًا ورأىٰ أنهم أحق الناس بالأمر، ولعله لا يزال يعتقد بذلك، إلا أنه لم يجد في نفسه القوة على التصريح بذلك وإعلان شجبه للحرب أو التخلي عنها.

وقد عبّر عن ذلك بكلمات متألمة ـ في إمارة مصعب ـ وفي غياب سلطة الأمويين عن الكوفة قائلًا: (لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً، ولا يسددهم لرشد، ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل ابي سفيان خمس سنين، ثم عدونا على ابنه وهو خير أهل الارض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية! ضلال يا لك من ضلال)[2].

الكذب لا يضر بشرف (الشريف)

وقد تمادىٰ اشراف الكوفة بعد ذلك الى أبعد حد، فراحوا يضيفون الكذب إلىٰ امجادهم وفضائلهم! وقد رأينا كيف أنكروا دعوتهم الحسين عليه السلام إلىٰ الكوفة ووعدهم اياه بالنصر وأنه يقبل على جند مجندة له، وكان ذلك أمام الجيش كله الذي ربما كان بعض أفراده مطلعين على مراسلاتهم للحسين عليه السلام.

كانت مواقفهم كلها تفيض بأكاذيبهم المعلنة وغير المعلنة، لم يجدوا أي حرج منها ما داموا يحفظون بها حياتهم ويحققون المزيد من المكاسب والارباح والفوائد.

وقد أضافوا إلى أكاذيبهم الكثيرة كذبة أخيرة، حاولوا أن يشوهوا بها الصورة المشرقة التي ظهر بها الحسين عليه السلام وأصحابه خلال المعركة، فلم يسجل أحد، حتىٰ أعداؤهم أنفسهم ـ أن الحسين عليه السلام أو أحد أصحابه قد خاف أو تردد أو أحجم عن القتال، ولم يذكر لنا أحد أن الحسين عليه السلام قد تنازل أمام ابن زياد أو ابن

(١) الطبري ٣/ ٣٢٥ وابن الاثير ٣/ ٤٢٤.
(٢) المصدر السابق.

سعد، أما روايتهم ليزيد، فقد كانت تناقض ما صرحوا به ورووه هم في عشرات الروايات الأخرىٰ التي تحدثوا فيها عن استبسال الحسين عليه السلام وأصحابه.

فكيف يهرب ويلوذ بالآكام والحفر من لم يكن أحد (اربط جأشاً ولا أمضىٰ جناناً ولا أجرأ مقدماً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله؛ إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزىٰ اذا شد فيها الذئب)[1].

وهل يهرب من يهازل صاحبه وهما يتزاحمان للإطلاء بالنورة قبيل نشوب المعركة، ويكاد يطير فرحاً وهو يخاطب صاحبه: (والله إني لمستبشر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين الا أن يميل هؤلاء علينا باسيافهم، ولوددت أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم)[2].

وهل يهرب من كان مثل زهير بن القين، وهو يخاطب الجيش المعتدي قبل بدء القتال بهذه الكلمات القوية الواثقة: (إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون، أنا ندعوكم الى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فانكم لاتدركون منهما إلا بسوء عمد سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وارجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم)[3].

ومن يخاطب الشمر بقوله: (أفبالموت تخوفني! فوالله للموت معه [مع الحسين عليه السلام] أحب إليَّ من الخلد معكم)[4].

لا شك أنها فرية كبيرة أن يقول أحد بعد ذلك أن أي أحد من أصحاب الحسين عليه السلام قد خاف ذلك المشهد الرهيب وقد أحاط بهم عشرات الالاف من الأعداء وإنهم لم يقاتلوا وانما لاذوا بالاكام والحفر على حد تعبير مندوب ابن زياد الشريف زحر بن قيس.

---

(١) عن عبد الله بن عمار بن عبد يغوث البارقي، وهو ممن شارك في الجيش الذي قتل الامام عليه السلام الطبري ٣/ ٣٣٤.

(٢) وهو برير بن حضيره الطبري ٣/ ٣١٨.

(٣) الطبري ٣/ ٣١٩.

(٤) المصدر السابق.

لقد رويت لنا عشرات الروايات عن مواقف أصحاب الحسين عليه السلام وإرجوزاتهم وهم يقاتلون أعداءهم، فلم يذكر أي مؤرخ أن أحداً منهم قد خاف أو تخاذل أو تراجع أو طلب الامان، أو تخلّىٰ عن الحسين عليه السلام؛ بل إن سباقهم للموت بين يدي الحسين عليه السلام لم يساوه إلا سباق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بين يديه في بدر، بل إن حماس أصحاب الحسين عليه السلام واستبسالهم امتد ليشمل حتىٰ النساء والأطفال، ولعلنا سنستعرض عند الحديث عنهم بعض تلك المواقف الفريدة التي لم نشهد لها مثيلًا طوال تاريخنا الاسلامي وتاريخ الشعوب والأمم كلها.

كانت شهادة الشريف زحر بن قيس الذي كان يرافقه الشريف شمر بن ذي الجوشن أمام يزيد تناقض نفسها، فبينما يقول في القسم الأول منها: (أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله وبنصره، ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا علىٰ حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام)[1] وهي شهادة تدل علىٰ أن الحسين عليه السلام وأصحابه قد قرروا القتال ورفضوا الاستسلام رغم مواجهتهم جيش ابن زياد الضخم وهو قرار بدا أن لا رجعة فيه... يقول في القسم الثاني: (فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية، حتىٰ إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، جعلوا يهربون إلى غير وزر، ويلوذون منا بالآكام والحفر، لواذاً كما لاذ الحمائم من صقر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان الا جزر جزور أو نومة قائل حتىٰ أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مرملة، وخدودهم معفرة، تصهرهم الشمس، وتسفىٰ عليهم الريح، زوارهم العقبان والرخم بقيّ سبسب)[2] وهو أمر فندته الاحداث والوقائع، فالمعركة قد استمرت حتىٰ بعد صلاة الظهر وربما دامت حتىٰ العصر، حيث أدى الحسين وأصحابه عليهم السلام الصلاة في وقتها المحدد، وقد جرت مبارزات فردية أدىٰ كل واحد منهم فيها دوراً بارزاً وقتل عدة أفراد من الجيش الذي أحاط بهم، وقد بلغت خسارة الجيش مبلغاً رأى فيه قادته أن المبارزة الفردية ستلحق بهم أفدح الخسائر وأنه لا بد من اتباع أسلوب الهجوم الشامل بعد أن

(١) الطبري ٣/ ٣٣٨ـ ٣٢٥ وابن الاثير ٣/ ٤٣٧.
(٢) نفس المصدر السابق.

(قاتلهم أصحاب الحسين قتالاً شديداً، وأخذت خيلهم تحمل، وانما هم اثنان وثلاثون فارساً، وأخذت لا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة الا كشفته)[١].

حتىٰ إستنجد قائد فرسان ابن سعد به قائلًا: (أما ترىٰ ما تلقىٰ خيلي مذ اليوم من هذه العدة اليسيرة، أبعث إليهم الرجال والرماة)[٢].

لقد بلغ من أمر استبسالهم وأقدامهم إن أحد قادة ابن سعد، عمرو بن الحجاج، ناشد الناس ألا يبرزوا اليهم، وقد رأى ابن سعد رأي قائده هذا.

(صاح عمرو بن الحجاج بالناس: يا حمقى، أتدرون من تقاتلون، فرسان المصر، قوماً مستميتين، لا يبرزن لهم منكم أحد، فانهم قليل، وقلّما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم، فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت، وأرسل إلىٰ الناس يعزم عليهم الا يبارز رجل منكم رجلًا منهم)[٣].

كان زحر يحسب أنه بذلك يسر سيده ويرضيه اذا ما بالغ ببطولة قادته وجسارتهم المزعومة أمام الحسين عليه‌السلام وأصحابه، وهو الأمر الذي دعا الحسين وأصحابه علىٰ حد زعمه لكي يهربوا ويلوذوا بالحفر والآكام، وحسب أنه بذلك يقدم وصفاً شائقاً ليزيد وما علم أنه يضيف إلىٰ جريمة القتل رذيلة الكذب، ليذكره الناس بعد ذلك وهم يلوون برؤوسهم اشمئزازاً من رائحة الكذب المنفرة المقيته، فللكذب رائحة كريهة تظل ولو بعد الوف السنين تزكم الانوف وتخدش المسامع.

ولعل هذه الرواية قد وضعت على لسان زحر بعد ذلك، وهو أمر كان يسره حتماً. ليبيّن اعلام الدولة فيها، ان عداءها غير جادين حقاً بمواقفهم، وأنهم بمجرد أن يتعرضوا لسطوة الدولة وسلطانها، فانهم سرعان ما ينهزمون وينكسرون، حتىٰ أن القضاء عليهم لا يستغرق الفترة التي تستغرقها فترة ذبح ناقة أو شاة.

وهو تحذير لمن تحتمل أن يثور على سلطانها في المستقبل خصوصاً وان الرواية قد حفلت بوصف دقيق للحسين وأصحابه عليهم‌السلام بعد قتلهم، وهو ما يرجح انها موضوعة عمداً.

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٣٢٤ وابن الأثير ٣/ ٤٢٣.

الخوف على المصالح: المبرر الدائم للإستسلام

ان أشراف الكوفة قد يبررون وقوفهم إلى جانب السلطة، بخوفهم منها على أنفسهم ومصالحهم خصوصاً وأن هذه السلطة الغاشمة قد اعتمدت شبكة واسعة من الشرطة والمخبرين والعرفاء والنقباء والجنود المرتزقة والأشراف الآخرين ممن انحازوا اليها قبلًا، وعمدت إلى إبعاد الإسلام عن الحياة، اللهم إلا تلك الممارسات الظاهرية التي تتيح لها الإدعاء أنها سلطة إسلامية تحكم دولة إسلامية، وجعلت تطلعات الناس وهمومهم تطلعات وهموماً عادية لا تعنىٰ إلا بالشؤون الخاصة وترىٰ في التعرض لأي شأن من الشؤون العامة أمراً خطيراً ينبغي أن لا يناقش من قبل عموم الناس، كما أنها عمدت وبنيّة مبيتة على إثارة العصبية القبلية والخلافات بين القبائل واستمالت بعضها إلى جانبها ولم تترك القبائل الأخرى، وانما جعلت لها في كل قبيلة قاعدة ورصيداً وقد (بقي التنظيم القبائلي سائداً، وبقي زعيم كل قبيلة هو الشخص الذي يرتبط كهمزة الوصل بين قبيلته وبين السلطان. وهذا التنظيم القبائلي بطبيعته يخلق جماعة من الزعماء ومن شيوخ هذه القبائل الذين لم يريهم الاسلام في المرتبة السابقة، ولم يعيشوا أيام النبوة عيشاً صحيحاً، مما جعل من هؤلاء طبيعة معينة ذات مصالح وذات أهواء وذات مشاعر في مقابل قواعدها الشعبية مما يوفر لهم أسباب النفوذ والاعتبار. . ان كل قبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة تلك القبيلة التي تشكل همزة وصل بين القبيلة وبين الحاكم الذي يسهل عليه أن يرشي رؤساء هذه القبائل بقدر الإمكان، وهذا ما كان يفعله غير علي عليه السلام وكان عاملًا من عوامل القوة بالنسبة الى معاوية[1] وقد ساعد اعتماد رؤساء القبائل على منح الدولة وعطاياها السخية على وقوعهم واستسلامهم لها استسلاماً تاماً، وكانوا اداة لإخضاع قبائلهم والوقوف بوجه من يقف ضد الدولة.

إن من شأن هذا الأمر أن يعزل من يريد التصدي للأمور العامة التي غالباً ما تتبناها الدولة ولا تسمح لأحد بالتدخل فيها، بل وتعاقب على ذلك بعنف وبقسوة وبالغبن، ومن شأنه أن يزيد عدد المنسحبين من ساحة الإهتمامات العامة، التي تعني بنظر السلطة التدخل في شؤونها والتآمر عليها، إلىٰ ساحة الهمج الرعاع الذين قد لا

(١) أهل البيت: ١٠٧.

يحسون حتىٰ بالظلم الواقع عليهم شخصياً والذين يمكن السيطرة عليهم وسوقهم لتنفيذ أغراض الدولة ومآربها طالما أنهم مفرغون من العلم والمبادىء.

لقد أوضحت مؤشرات عديدة إن أشراف الكوفة كانوا يتصرفون بحذر ووجل، فكأن سيفاً كان يبدو على الدوام مسلطاً على رؤوسهم، ان أياً منهم يمكن أن يستبدل بسهولة، كما إن قتل من يخرج على الدولة يبدو سهلًا كذلك دون أن ينهض من قومه أو من قبيلته من يمكن ان يخلصه رغم أن عدد المقاتلين من بعض القبائل يمكن أن يفوق حتىٰ عدد الذين جندتهم الدولة لقتال الحسين عليه السلام أو يقترب منه غير أن الأواصر قد قطعت كلها حتىٰ الآصرة القبلية التي لم يحاربها الاسلام طالما كانت قائمة على مبادئه وقيمه والتزاماته، وأصبحت مراكز القوىٰ المتنافرة تبدو حتىٰ داخل القبيلة الواحدة وليس بين القبائل المختلفة وحسب، وأي رئيس أو شريف منها يوالي الدولة وينحاز اليها يبدو هو المرجع لنيل مركز الرئاسة فيها، فالثروة والقوة بيد الدولة تمنحها لمن تشاء من أعوانها ومرتزقتها.

أشراف الكوفة: نماذج معادة مكررة

إن ملأ الكوفة وأشرافها شخصيات جديرة بالتأمل والدراسة، وهي نماذج مكررة لشخصيات أخرىٰ، رافقت فرعون، ورافقت القياصرة والأكاسرة والطواغيت، ورافقت معاوية ويزيد، وكانت قيمتها تبدو من خلال الثمن الذي قدّره هؤلاء لها، وبالقدر الذي أبدته من ولاء وحماس إلى جانب السلطان والعمل الذي قامت به لتثبيت حكمة وعرشه وكيانه. أما القيم والمثل العليا فقد كانت ترىٰ أن من مصلحتها أن تنساها لأنها ستكون عقبة في طريق صعودها وتقربها إلىٰ العرش، وأن لا تضع أمامها إلا قيمها ومثلها العليا المتمثلة بالسلاطين والطواغيت الذين تحلقت حولهم وحققت عن طريقهم أكبر المكاسب وأكثرها.

وقد تكررت هذه الشخصيات فيما بعد، وبرزت على مسرح الأحداث طيلة الحكم الأموي وطيلة حكم السلاسل المتعاقبة في العالم الإسلامي وغيره.

وقد تطرفنا إلى الحديث عنها من خلال بعض نماذج أشراف الكوفة في فترة الاحداث التي تناولناها هنا، لأنها لعبت دوراً كبيراً لجعل الأحداث تتخذ المسار الذي اتخذته، والذي لا زالت إمتنا تعاني من آثاره ونتائجه.

أهل الكوفة... وسائر الناس

لا يدركون أن في الحياة ظلما

لقد رأينا، عند الحديث عن أشراف الكوفة و(وجوه الناس)، الذين شكلوا طبقة الظلمة المستضعفين علىٰ حد تعبير القرآن الكريم، أو أعوان الظلمة على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام [1]، الدور الذي لعبه هؤلاء في ظل التركيبة الاجتماعية المستحدثة التي ظهرت في عهد معاوية ومطلع الدولة الأموية، لترسيخ هذه الدولة وتثبيت قواعدها وأسسها، ورصّ صفوف الناس حولها وإبعادهم عن قيم الاسلام الحقيقية وآل البيت عليهم السلام، واستعرضنا العملية الضخمة التي قام بها معاوية بمؤازرة هؤلاء لنقل ولاء الناس، من الاسلام وقادته الحقيقيين رسول الله صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام، إلىٰ شخصه وإلىٰ أفراد عائلته وفي مقدمتهم ابنه زيد، وسعيه الدؤوب طيلة سبع سنوات لتثبيت مركز يزيد كولي للعهد وقائد مرشح للأمة الإسلامية من بعده.

ورأينا كيف استدرج الأمة بخطوات منسقة متصاعدة لتقبل انحرافها وتقبل وجود يزيد وأمثاله على رأس الدولة الإسلامية خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

وكان من الطبيعي أن يجد معاوية، بعد أن استدرج فئات الأشراف، ذات النفوذ والثروة والرأي إلى جانبه ووظفهم في خدمته وجعلهم يتبنون نظريّاته واطروحاته وأساليبه في الحكم والحياة، في سائر الناس الآخرين، المستضعفين، المفرغين من الثروة والنفوذ والجاه والعلم، مادة خصبه لتمرير مخططاته وزرع ما يريد زرعه في هذه الطبقة الواسعة، والتي جعلها أكثر اتساعاً من ذي قبل، والتي لا تعي طبيعة وسبب وجودها وحياتها، والتي لا تكرس اهتماماتها إلا للأمور اليومية، المعاشة البسيطة ولا تتطلع إلىٰ أبعد من مواطىء أقدامها. فهي مشلولة، محدودة الإدراك مقيدة إلىٰ إهتماماتها البسيطة، مسلوبة الإدراك والشعور في أغلب الأحيان، مسيّرة من قبل غيرها، و(غيرها) هنا هم (الأشراف)، ذوو الإتصال المباشر بالسلطة، فهم وحدهم

(١) راجع عناصر المجتمع ـ الشهيد الصدر.

أصحاب القوة والمؤهلات لقيادة المجتمع والتأثير فيه، كما أنهم يقفون علىٰ رأس التركيبات الهرمية البسيطة التي تشكلها عموم القبائل، لتكوّن فيما بعد التركيب الهرمي الكبير، المعقد نسبياً، للدولة التي هي كل شيء وفوق كل شيء.

وقد رأينا أن السياسة الأموية سادت منذ البداية على تقريب المتنفذين من رؤساء القبائل وبعض الوجهاء والشخصيات ورشوتهم بالأموال والمناصب، وخلق مراكز قوىٰ حتىٰ داخل هذه القبائل لزعزعتها وإضعافها وتغيير ولاءات افرادها للدولة ورموزها بشكل مباشر.

إن من شأن التركيبات الإدارية المستحدثة في المدن مثل نظام الارباع وأجهزة الشرطة، والشرطة السرية (العيون) والعرفاء والنقباء وقادة الجند وغيرهم، أن تعمل على تفتيت مجتمع المدينة المتألف من قبائل عديدة وتجعل منه مجتمعاً خاضعاً للإدارة والرقابة المباشرة للدولة وتجعل من الفرد غير مدين بالولاء حتىٰ لقبيلته التي أخذ يبتعد عنها بعض الشيء وينشغل عنها باهتماماته المعيشية اليومية المحدودة، وإذا ما أضفنا إلىٰ ذلك التنافس والتناحر المقبليين اللذين غالباً ما يؤجج أوارهما رئيس النظام نفسه بخطط منظمة مدروسة، أدركنا إلىٰ أي حد أصبحت القبائل وأشرافها وزعماؤها أداة رخيصة بيد السلطة تتلاعب بها كيف تشاء.

إن الفرد العادي في غمرة انشغاله بأمور حياته البسيطة وهمومها المتكررة وحاجاته اليومية يفقد الشعور بأية اهتمامات أخرىٰ تصل إلىٰ حد مناقشة الأمور العامة ومشاكل الأمة، كما يفقد حتىٰ إحساسه وشعوره بالظلم، ويتصرف بشكل آلي معاد مكرور مشابه لتصرفات الآخرين من أشباهه، كما يفقد الشعور والإهتمام بكل مثل أعلىٰ ما عدا المثل الأعلىٰ الواطىء القائم أمامه، وهو القوة التي يرىٰ أنها تسيّره وتتحكم به وفي مصيره ومعيشته، وهو هنا رأس الدولة (فرعون) الذي يراه شاخصاً أمامه كأنئاً هائلاً يتمتع بإمكانات غير محدودة وقادراً على محوه واستئصاله أو رفعه وجعله ذا شأن إذا ما كان (مخلصاً) في خدمته وتحقيق أهدافه ومآربه.

إن هؤلاء يشكلون الطائفة الثالثة في عملية التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم، فهذه الطائفة تتشكل من (أولئك الذين عبر عنهم الإمام علي عليه السلام «بالهمج الرعاع»، لا تدرك أنها مظلومة، ولا تدرك أن في المجتمع ظلماً؛ هي الآن تتحرك تحركاً آلياً، تحرك التبعية والطاعة دون تدبر، دون وعي، سلب فرعون منها تدبرها، عقلها، وعيها، ربط يدها به، لا عقلَها به، ولهذا فهي تحرك يدها تحريكاً آلياً، وتستسلم

للأوامر، للأوامر الفرعونية، دون أن تناقشها، حتىٰ دون أن تتدبرها، حتىٰ بينها وبين نفسها، لا بينها وبين الآخرين.

هذه الفئة طبعاً تفقد كل قدره علىٰ الإبداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة، تفقد كل قابليات النمو لأنها تحولت إلىٰ آلات، إذا وجد أن هناك إبداع في هذه الفئة، إنما هو إبداع من يحرك هذه الآلات، ابداع تلك الفرعونية التي تحرك هذه الآلات، وأما هذه الفئة، فلم تعد أناساً وبشراً يفكرون ويتدبرون، لكي يستطيعوا أن يحققوا لوناً من الإبداع على هذه الساحة، قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[1]، لا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم كانوا يحسون بالظلم أو كانوا يحسون بأنهم مظلومون، وإنما هو مجرد طاعة، مجرد تبعية[2].

هدف أمير المؤمنين عليه السلام: تقليص فئة الهمج الرعاع

لقد أراد أمير المؤمنين عليه السلام في مطلع حكمة أن يستأصل هذه الطبقة، لا بالقضاء عليها جسدياً، وانما بتقليصها وتحويلها إلىٰ طبقة مدركة واعية متعلمة (علىٰ سبيل نجاة)، تدرك مهماتها وواجباتها، وتعرف موقعها من المسيرة الإسلامية الشاملة، تتصرف علىٰ ضوء وعي ومعرفة وعلم وتتطلع إلىٰ المزيد منها، في ظل مشاركة فاعلة واعية بالأحداث، لا كفئة متلقية مستسلمة، وإنما كفئة مفكرة متدبرة لها مواقفها الواضحة في مجمل المسيرة الإسلامية، وقد نجح فعلًا بجعل الكوفة تنحاز إلىٰ صفه وتمتاز بطابعه، وهذا ما أدركه عدوه اللدود معاوية المحاط بالحاشية القرشية الحاقدة التي رأت أنها مقبلة علىٰ حالة إنهيار في ظل أوضاع حكومة أمير المؤمنين عليه السلام فعمل علىٰ إيجاد ثغرات واسعة في سور الكوفة وبذل جهوداً كبيرة لإستمالة أشرافها وزرع الفتن بين قبائلها وتصوير المعركة كلها على أنها خلاف بين أناس (كبار) ينتمون لعبد مناف، وإن علىٰ الآخرين أن يتدخلوا بقدر ما يروا مصلحة شخصية كبيرة لهم في هذا التدخل وقد لوّح للجميع بالأموال والمناصب في إشارة واضحة إلىٰ أنهم لن يحققوا هذه المصلحة إلا في ظل حكمة هو، لا حكم أمير المؤمنين عليه السلام. أو أي حكم آخر.

---

(١) الاحزاب ٦٧.

(٢) عناصر المجتمع ـ المدرسة القرآنية ٢٣١ - ٢٣٢.

هدف معاوية، زعيم دولة الظلم: توسيع طبقة الهمج الرعاع

ولم تكن الظروف الصعبة التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة ملائمة بشكل تام لتشكيل هذه الفئة الواسعة التي أرادها أن تكون طليعة إسلامية تقتدي به وتفتح عيونها وبصائرها علىٰ الرؤىٰ والأطروحات الإسلامية الصحيحة بعد تنقيتها من الشوائب التي علقت بها بفعل الفترة المزدحمة بالأحداث والصراعات السياسية والشخصية على الحكم والمناصب والمكاسب المختلفة، وتكون نموذجاً للأجيال الإسلامية اللاحقة. فئة يُربّيها ويعدها هو بنفسه لتكون لها أصالة تلك التي ربّاها وأعدّها رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل.

لقد رأينا كيف تصدىٰ له مدة حكمة الفعلي أولئك الذين رأوا أن من مصلحتهم أن يقفوا في طريقه واستماتوا في سبيل منعه من تطبيق مشروعاته الرسالية الشاملة القائمة علىٰ نفس الأسس الأولىٰ التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وآله. والتي كان تطبيقها سيتيح له منع الإنحراف والخدر والشلل الذي لحق بجسم الأمة، ويمكنه من تلافي الأوضاع المأساوية التي جرت إليها ويراد جرّها إلىٰ المزيد منها، فشنوا عليه حروبهم المدمرة التي لا زالت تعاني منها إلىٰ اليوم.

ومن الطبيعي أن عمل أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عمل الرسول صلى الله عليه وآله من قبل، ما كان يستهدف الأمة الإسلامية القائمة في زمانه وحسب، وإنما كان يستهدف الأمة علىٰ امتداد الأزمان، ما دام أبناؤها يعيشون علىٰ هذه الأرض ويتعاملون مع الأسلام كدين وحيد وأمل وحيد وهدف وحيد يجنبهم كل المزالق والتناقضات التي تنشأ نتيجة التعاملات البشرية البحتة المنفصلة عن قيم السماء، وهي قيم الإسلام بكل تأكيد.

إن تحقيق هذا الهدف، وهو تحويل الأغلبية من أبناء الأمة إلىٰ عناصر واعية مفكرة متدبرة تتصرف بوحي من علم وإدراك ومسؤولية، كان سيقطع الطريق أمام أي فرعون محتمل قد يسعىٰ للتسلط على هذه الأمة والقفز علىٰ أكتاف أبنائها ونهب كل المكاسب التي حققتها في ظل الإسلام، وكان سيمنعه من بسط سلطانه المطلق عليها والذي سيكرسه للتمهيد لجلوس خلفائه وأبنائه علىٰ العرش والاستئثار به إلىٰ الأبد.

وإذ أنه قد أتيح لهذا الفرعون ـ بفعل الحدث المأساوي الكبير الذي فقدت فيه الأمة قائدها الحقيقي وأملها القائم لتحقيق الرسالة الإسلامية وتطبيق الحكم الإسلامي

الصحيح ـ أن يسيطر علىٰ الأمة فعلًا ويقودها لتحقيق كل ما لم يتمكن من تحقيقه من قبل، ورأىٰ أن هذه الأمة قد استسلمت بعد فترة المتاعب والاضطرابات والفتن السابقة التي كان هو أحد مسببيها الرئيسيين، فإنه رأىٰ أن الفرصة قد أصبحت سانحة أمامه لجرها إلىٰ المزيد من التنازلات والانحرافات، وقد قبلت في النهاية، بفعل الحملة المنظمة الدؤوبة التي قادها ورصد لها كل إمكانات الدولة وأموالها أن تقع في الشرك الذي أعده لها وتدخل فيه طواعية، وأن تقبل يزيد خليفة وإماما، وأن تعد نفسها لتقبّل كل ممارساته الخارجة عن الإسلام جملة وتفصيلا.

وعي مجتمع العراق: ذنب ينبغي أن يحاسب عليه منهج متكامل لتحطيمه

ولم يكن معاوية بالذي يهمل الحلقات التي يرىٰ أنها لا تزال تتمتع بقدر من القوة والارادة الحرة الواعية المستقلة كمجتمع العراق، والكوفة على وجه الخصوص الذي رأىٰ أنه سيكون عقبة في طريق طموحاته ومشاريعه، ولهذا فإنه تعامل مع العراقيين وأهل الكوفة بشكل مغاير لتعامله مع الآخرين، وضع منهجاً لهذا التعامل، رأينا بعض أسسه من خلال وصاياه لخلفيته من بعده وولاته وعماله. ثم رأينا كيف رماهم بأقسىٰ أنصاره، وأشدّهم وحشية مثل زياد بن ابيه، وكيف عمل هذا علىٰ قتل كل أولئك الذين عرفوا بالولاء لأمير المؤمنين عليه السلام، ولم يبق إلا علىٰ من أسرَّ ولاءه وسكت عن ممارسات الدولة وأعمالها المشينة، وقد أصدر معاوية تعليماته: (ان برئت الذمة ممن روىٰ حديثاً في مناقب علي وفضل أهل بيته، وكان أشد الناس بلية أهل الكوفة، لكثرة من بها من الشيعة، فاستعمل زياد بن أبيه وضم إليه العراقين، البصرة والكوفة، فجعل يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، يقتلهم تحت كل حجر ومدد، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وصلبهم في جذوع النخل، وسمل أعينهم وطردهم وشردهم، حتىٰ نفوا عن العراق فلم يبق بها أحد معروف مشهور، فهم بين مقتول أو مصلوب أو محبوس أو طريد أو شريد.

القتل علىٰ التهمة والظنة والشبهة: قانون دولة الظلم

وكتب معاوية إلىٰ جميع عماله في الأمصار: أن لا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وانظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ومحبي أهل بيته وأهل ولايته، والذين يرون فضله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقدموهم، وأكرموهم، واكتبوا بمن يروي من مناقبه باسمه واسم أبيه وقبيلته، ففعلوا، حتىٰ أكثرت الرواية في

عثمان، وافتعلوها لما كان يبعث إليهم من الصلاة والخلع والقطائع من العرب والموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في الأموال والدنيا، فليس يجيءمن مصر من الأمصار، فيروي في عثمان مقبة أو فضيله الا كتب إسمه وقرّب وأجيز، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلىٰ عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر، فادعوا الناس إلىٰ الرواية في معاوية وفضله وسوابقه، فإن ذلك أحب الينا وأقر لأعيننا وأدحض لحجة أهل هذا البيت، وأشدّ عليهم.

فقرأ كل أمير وقاض كتابه علىٰ الناس، فأخذ الناس في الروايات في فضائل معاوية علىٰ المنبر، في كل كورة وكل مسجد زوراً، وألقوا ذلك إلىٰ معلمي الكتاتيب، فعلموا ذلك صبيانهم، كما يعلمونهم القرآن، حتىٰ علموه بناتهم ونساءهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله...

وكتب زياد بن أبيه اليه في حق الحضرميين أنهم على دين علي، وعلىٰ رأيه، فكتب اليه معاوية: أقتل كل من كان علىٰ دين علي ورأيه، فقتلهم ومثّل بهم.

وكتب معاوية إلىٰ جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، وكتب كتاباً آخر: انظروا من قبلكم من شيعة علي واتهموه بحبه فاقتلوه، وإن لم تقم عليه البيّنة، فقتلوهم علىٰ التهمة والظنة والشبهة، تحت كل حجر، حتىٰ لو كان الرجل تسقط منه كلمة ضربت عنقه.

وحتىٰ كان الرجل يرمىٰ بالزندقة والكفر كان يكرم ويعظم، ولا يتعرض له بمكروه، والرجل من الشيعة لا يأمن علىٰ نفيه في بلد من البلدان، لا سيما الكوفة والبصرة، حتىٰ لو أن أحداً منهم أراد أن يلقي سراً إلىٰ من يثق به لأتاه في بيته، فيخاف خادمه ومملوكه فلا يحدث إلا بعد أن يأخذ عليه الإيمان المغلظّة ليكتمن عليه.

ثم لا يزداد الأمر إلا شدة حتىٰ أكثر وظهرت أحاديثهم الكاذبة، ونشأ عليه الصبيان يتعلمون ذلك، وكان أشد الناس في ذلك القراء المراؤون المتصنعون الذين يظهرون الخشوع والورع، فكذبوا وانتحلوا الأحاديث وولدوها، فيخطون بذلك عند الولاة والقضاة، ويدنون مجالسهم، ويصيبون بذلك الأموال والقطائع والمنازل، حتىٰ صارت أحاديثهم ورواياتهم عندهم حقاً وصدقاً، فرووها وقبلوها وتعلموها وعلموها، وأحبّوا عليها وأبغضوا من ردها أو شك فيها.

فاجتمعت على ذلك جماعتهم وصارت في يد المتنسكين والمتدينين منهم الذين لا يستحلون الافتعال لمثلها، فقبلوها، وهم يرون انها حق، ولو علموا بطلانها وتيقنوا أنها مفتعلة لأعرضوا عن روايتها ولم يدينوا بها، ولم يبغضوا من خالفها، فصار الحق عندهم في ذلك الزمان باطلًا والباطل حقا، والكذب صدقاً والصدق كذبا)[1].

وقد كانت أساليب السلطة الغاشمة المتمتعة بالمال والنفوذ مع مُواليها ومَن أعلن استعداده لخدمتها والسير في ركابها بتقريبهم ومنحهم المناصب والأموال، وإفقار من تميزوا بمواقفهم السلبية منها ومحاربتهم وقتلهم وسجنهم ونفيهم، وتشكيل مواصفات وأسس اجتماعية جديدة قائمة علىٰ مدىٰ الولاء للسلطة. من شأنها العمل علىٰ تفتيت المجتمع وجعله يفقد المرتكزات السابقة التي كان يقوم عليها منذ عهد الرسول ﷺ، كما أن أسلوب محاصرة الناس ومراقبتهم واستحداث أساليب جديدة في تقسيم المدن مثل نظام الأرباع وأجهزة الشرطة والشرطة السرية والعرفاء والنقباء.

كل تلك الأساليب، مع ما رافقها من حملة منظمة لتشويه الحقائق وتزوير الوقائع والأحداث والأقوال والأحاديث النبوية الشريفة وتأويل الآيات القرآنية، والتأكيد علىٰ إبراز معاوية كرمز كبير من رموز المسلمين ومن أقرب المقربين من الرسول الكريم ﷺ! كما أوضحنا عند الحديث عن شخصية معاوية ساعدته علىٰ أضعاف الحلقات التي رأىٰ أنها لا تزال قوية بما فيه الكفاية للصمود بوجهه أو بوجه من سيأتي بعده.

الكوفة ينبغي أن تظل مستهدفة بظلم فرعون، حتى بعد غياب فرعون

إن توقعه بقاء حلقة الكوفة صامدة بوجه خليفته يزيد، جعله يكتب عهداً قبيل وفاته لابن زياد علىٰ الكوفة إضافة لولايته علىٰ البصرة، لأنه توسم فيه قسوة وغلظة كتلك التي تميز بها أبوه زياد من قبل، ولأنه قد ربّي ونشأ على كره آل البيت عليهم السلام وكل من يواليهم أو يسير على خطهم، وقد أودع عهده ذاك سرجون الرومي خادمه

---

(١) المجلسي ـ بحار الأنوار ج ـ ٤٤ ص ١٢٥ـ ١٢٧ عن الاحتجاج، وقد اسهبت كتب التاريخ عن ممارسات معاوية وزياد ضد العراق، وهو أمر يحتاج إلىٰ أن يفرد له كتاب مستقل لما للموضوع من أهمية تاريخية كبيرة.

ومستشاره وطلب منه إبرازه ليزيد كوصية واجبة التنفيذ عندما يرىٰ أول بادرة من بوادر (الخروج والتمرد) عليه من قبل العراقيين، الذين رأىٰ أنهم لا يزالون على نفس ذلك الولاء القديم لأمير المؤمنين وإله عليهم السلام [1]، مع أنه قام بحملات دؤوبة لتطويعهم وكسر شوكتهم وتشتيت شملهم وإضعافهم وإبعادهم عن الخط الرسالي لآل البيت عليهم السلام.

لقد رأىٰ أنهم قد ينتفضون تحت وطأة الشعور بالندم من مواقفهم السابقة أو الشعور بعمق الانحراف الذي جرّوا اليه مع أبناء الأمة الآخرين.. وبدافع الوعي والادراك اللذين امتازوا بهما عن أهل الشام خاصة، وقد يعمدون إلىٰ الطلب من الإمام الحسين عليه السلام القدوم إليهم وقيادتهم ضد الدولة الأموية بقيادة يزيد بعد موته، كما فعلوا خلال حياته عندما طلبوا منه ذلك، وكما تحدثنا عنه في حينه.

وربما رأىٰ أن امتناع الامام الحسين عليه السلام من الاستجابة لهم ما دام هو حياً قد تزول مبرراته بعد موته، فيستجيب لهم، ويذهب إلىٰ العراق لإعلان الثورة علىٰ الدولة الأموية عندما ستكون تحت ظل يزيد، وربما سيكون لتلك الثورة مبرراتها المقبولة لدىٰ جماهير المسلمين، عندما تجد يزيداً المكشوف المجاهر بالفسق والفجور والإنحراف قائداً لها وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله يحتل منبره وموقفه.. وعند ذاك قد يستطيع الحسين عليه السلام استقطاب جماهير الأمة حوله والحصول على دعمها ومشاركتها للإطاحة بالنظام الأموي رغم كل بطشه ووسائله غير المشروعة للسيطرة عليها.

---

(١) (دعا يزيد بن معاوية سرجون مولىٰ معاوية فقال: مارأيك؟ فإن حسيناً قد توجه نحو الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين.. فما ترىٰ من استعمل علىٰ الكوفة؟ وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد. فقال سرجون: أرأيت معاوية لو نشر لك؟ أكنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم، فأخرج عهد عبيد الله علىٰ الكوفة. فقال: هذا رأي معاوية، ومات وقد أمر بهذا الكتاب، فأخذ برأيه وضم المصرين إلىٰ عبيد الله، وبعث إليه بعهده علىٰ الكوفة)، الطبري ٣/ ٢٨٠ - ٢٧٥ وابن الاثير ٣/ ٣٨٧.
وكان معاوية قد أوصىٰ يزيداً أن يرميَ أهل المدينة بمسلم بن عقبة المري اذا ما خرجوا عليه، وكان يحتمل ذلك أيضاً لعلمه أن ابناءها لن يسكتوا عن ممارسات يزيد وأفعاله المفضوحة (.. ان معاوية لما حضرته الوفاة دعا يزيد فقال له: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفت نصيحته) الطبري ٣/ ٣٥٩ وقد فعل يزيد ذلك وولى مسلماً، وكان ما كان من أمر فعلته مع أهل المدينة في واقعة الحرة.

وقد استمرت السياسة الاموية مع أهل العراق ـ طيلة فترة الحكام الأموي ـ علىٰ نفس النمط الذي كانت عليه في عهد معاوية، فالكوفة كانت ترمىٰ دائماً بأشد الولاة والعمال وأقساهم مثل زياد وابنه والحجاج وغيرهم.

(شريف) يشخّص انحدار (الأشراف)

لقد رأىٰ شبث بن ربعي الشريف الوجيه الذي قاتل مع أميرا لمؤمنين والحسن عليه السلام طيلة خمس سنوات، الهوة التي انزلقوا اليها، حينما انحازوا بعد ذلك إلىٰ جبهة معاوية، فقاتلوا الأمام الحسين عليه السلام ليكملوا مشوارهم الذي بدأوه مع أمير المؤمنين عليه السلام من قبل.

(ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه الحسن آل أبي سفيان خمس سنين، ثم عدونا على ابنه، وهو خير الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية، ضلال يا لك من ضلال)[1].

ومن الطبيعي أن سلسلة الأحداث التي أدت إلىٰ جرّهم إلىٰ ذلك ما كانت لتغيب عن بال شبث وأمثاله، وما كانت تفوته أفعال معاوية الدؤوبة المستمرة لايصالهم إلىٰ تلك الحال التي وصلوا إليها، وجعل الناس كلهم ملكاً للدولة التي أرادها أن تبدو صرحاً قوياً ضخماً مقابلهم، وأن يبدو هو مثلًا أعلى ورمزاً كبيراً، أمام رعية ضعيفه متخاذلة مستسلمة.

وإذا استجابت رؤوس المجتمع وأشرافه وخضعت للأمر الواقع الذي فرضه عليها معاوية.. فهل سيتردد سائر الناس وعوامهم وبسطائهم في رمي أنفسهم ببساطة في أحضان هذه الدولة رغم بقية شعور الحب والولاء وهي كبيرة التي ظلت تحفل به نفوسهم تجاه آل البيت عليهم السلام. أنهم لم يستطيعوا سوىٰ كبت هذا الشعور تحت وطأة الدولة وسلطانها، والاستجابة لما تأمرهم به وإن كان مغايراً لشعورهم الذي قد يضعف بمرور الزمن، وعلىٰ هذا قد نستطيع فهم مقالة مجمع بن عبد الله العائذي للحسين عليه السلام.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٢٥ وابن الأثير ٣/ ٤٢٤.

(وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوىٰ إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[1] وقول الفرزدق: (القلوب معك والسيوف مع بني أمية)[2].

سيوفهم عليك لأنهم فقدوا الارادة والحس والشعور بالمسؤولية

كان مجمّع والفرزدق يدركان بعد انحياز الأشراف والوجهاء إلىٰ صف السلطة، وبعد أن عظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، أن أمر سائر الناس الآخرين من السذج والبسطاء وغير المتعلمين والمنقادين الذين تتشكل أغلبيتهم من (الهمج الرعاع) الذين لا يتمتعون بأي قدر من الوعي والشعور بالمسؤولية أو الإحساس بأوضاع الأمة المأساوية في ظل نظام بعيد عن الإسلام. لن يكون مشكلة كبيرة أو عقبة مهمة أمام السلطة الجائرة، وأن تحويلهم وكسبهم إلىٰ صفها أمر هيّن ما دام قادتهم وزعماؤهم من الأشراف والوجهاء يقفون في صفها ويملكون قوة التأثير علىٰ تلك الجماهير الواسعة، وما دام سائر الناس لا ينطلقون في مواقفهم في أغلب الأحيان الا إستجابة لأوامر هؤلاء القادة والزعماء بعد أن انعدم شعورهم بالمسؤولية وفقدوا الإرادة الحرة والحس الصحيح اللذين يحتمان عليهم التصرف بموجبهما.

إنهما يحتملان سهولة التأثير علىٰ عامة الناس وتغييرهم إلىٰ صف السلطة المنظمة المجهزة ذات الجاه والنفوذ والقوة، ما داموا يسيرون خلف الأشراف ما دامت مواقفهم غير ثابتة وغير مبدئية وغير حازمة. وما دام الأشراف أو أغلبيتهم، في صف الحاكم الثري القوي.

إن هذا الحاكم ـ في غمرة سعيه المحموم لتثبيت سلطانه ومصالحه ـ قد أحكم خططه واستكمل إستحكاماته وأجهزته ووسائل القمع والإرهاب التي عززها بوسائل وأساليب جديدة لم تكن تعرف من قبل ولم يلجأ إليها حاكم إسلامي يرىٰ اعتماد الإسلام في التعامل والحياة.

وهكذا عندما جاء ابن زياد إلىٰ الكوفة، رأينا سهولة المهمة التي نهض بها لتغيير الناس ثانية إلىٰ صف الدولة؛ وبدا تحولهم إلىٰ جانبها وكأنه تم بطريقة سحرية وكأن تغيّرهم علىٰ مسلم كان أمراً خارقاً غير مفهوم أو قابلٍ للتفسير، وربما قيل فيه: إن

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٦ وابن الأثير ٣/ ٤٠١.

(٢) نفس المصدر.

السبب هو استعداد أهل للكوفة غير العادي لتغيير المواقف، وهو أمر صحيح إلىٰ حد بعيد، غير أن لذلك سببه أيضاً كما أوضحنا في غضون هذه الدراسة، وأنه ما كان يتم لولا سعي حثيث من قبل أجهزة الدولة كلها.

الحسين عليه السلام: أكثر الناس فهماً لمجتمع الكوفة

لم يقف مع مسلم إلا عدد محدود من الأشراف تخلوا عنه في النهاية وجعلوا عامة الناس التابعين لهم يتخلون عنه أيضاً وبقي بعضهم معه، انطلاقاً من فهمهم الواضح لمهمته، وقد قتلوا فيما بعد أو سجنوا أو أبعدوا.

وهو أمر ما كان لنا أن نغتم كثيراً بشأنه؛ وربما كان الإمام الحسين عليه السلام لم يعوّل كثيراً علىٰ إستمرار أهل الكوفة في موقفهم الناصر له، حتىٰ وهو يدعوهم للإستمرار في ذلك الموقف، وعدم التخلي عنه، وربما كان ذلك من باب القاء الحجة عليهم وعلىٰ الأمة كلها فيما بعد، فاحتمال عدم استجابتهم له أمر وارد؛ وعودتهم إلىٰ النهج الذي ساروا عليه سابقاً عندما تخلّوا عن أمير المؤمنين عليه السلام والحسن عليه السلام بفعل الظروف والأحداث التي مرّوا بها أمر كبير الإحتمال، بل ويبدو أنه الأمر الذي سيقع فعلّا.

فعندما خطب الحسين عليه السلام في أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة، قبل وصوله كربلاء أشار إلىٰ ذلك في خطبته قائلًا: (قد أتتني كتبكم، وقدمت علي رسلكم ببيعتكم؛ أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم، تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أسوه.

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والغرور من اغتر بكم، فحظكم اخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فانما ينكث علىٰ نفسه، وسيغني الله عنكم)[1].

فهل يلمس أحد في هذه الخطبة المبكرة على وقوع الأحداث الأخيرة في كربلاء أن الحسين عليه السلام كان يأمل بقوله: (فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم)

---

(١) الطبري ٣/٣٠٧ وابن الأثير ٣/ ٤٠٨ـ ٤٠٩.

إنه كان يأمل ذلك فعلًا أم أنه كان يقرر حقيقة واقعة ينبغي أن تفهمها الأمة علىٰ الدوام وهي أنها ينبغي أن تعلن بيعتها لآل البيت عليهم السلام ونهجهم، ففيه الضمانة الوحيدة لسلامتهم؟

لا شك أنه كان يتوقع تخليهم عنه رغم أنه أراهم الموقف الصائب الذي كان عليهم أن يقفوه وواجههم بحقيقة تاريخية قريبة لا يستطيعون إنكارها وهي تخلّيهم عن أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام ثم عن ممثله ومبعوثه مسلم بعد ذلك، أنهم لا يمكن أن يكونوا ـ بوضعهم ذاك ـ قاعدة مأمونة الجانب لمن ينشد قيادة الأمة وتغييرها ولا يمكن لمن ينشد ذلك أن يعول عليهم (والمغرور من اغتر بكم).

وإذا ما قيل هنا لماذا (اغتر بهم هو نفسه عليه السلام). . ؟[1] نجيب بنفي ذلك. فهو أعلم الناس بطبيعة المؤامرة الكبيرة التي كان يتعرض لها مجتمع العراق والكوفة على وجه الخصوص لحرفه عن طريق آل البيت عليهم السلام واستمالته إلىٰ جانب الصف الأموي، وكان يعلم مدىٰ الدمار الذي لحق بذلك المجتمع حتىٰ أصبح بالشكل الذي أصبح لا يعتمد فيه عليه. غير أن عدم قدومه عندما أبدىٰ أفراد ذلك المجتمع استعدادهم لمقاومة انحراف الدولة الأموية، وأعلنوا ذلك أمام الأمة كلها، كان سيحمله مسؤولية تاريخية كبيرة أمام أجيال الأمة، وسيدّعي أهل الكوفة أنهم كانوا مستعدون للمقاومة غير أن الحسين عليه السلام خذلهم ولم يلتحق بهم لقيادتهم، وكانت الأمة كلها ستصدق ذلك، وكنا سنصدق ذلك نحن أيضاً. . ولن يقوم أحد بوجه أي ظلم أو انحراف ما دام أمام الأمة قد قعد عن ذلك، وعند ذلك لن نقول أن الحسين عليه السلام لم يغتر بأقوال أهل الكوفة ولم يصدقهم فيذهب إليهم، وإنما سنقول أنه قعد بينما قاموا هم، وسيكون ذلك أقوىٰ حجة بيد الدولة الأموية تحاول بها اثبات شرعيتها وصلاحيتها ما دام الحسين عليه السلام نفسه قد قعد عن حربها ولن يكون لفعل أهل الكوفة حتىٰ ولو ثاروا كلهم وقتلوا أية قيمة بعد ذلك.

كان من المفروض برأي من لم يدرس الأحداث جيداً وطبيعة المجتمع الذي كان يتعامل معه الإمام الحسين عليه السلام، أن لا يواجه الحسين عليه السلام جيش الحر بتلك

---

(١) كما ورد في هامش ابن الأثير كتب في طبعة متأخرة (ان حسيناً ذهب إلىٰ العراق مختاراً مغتراً بما جاءه من أهل العراق وبما يعتقده لنجاحه من قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله) الكامل في التاريخ ـ ط ١٩٨٧ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان.

الشدة وذلك الأسلوب الذي يعلن فيه يأسه منهم ومن صلاحهم، لأن من شأن ذلك أن يثيرهم ضده أكثر مما فعلوا، وكان عليه أن يخاطبهم بعبارات يحاول استمالتهم بها إلىٰ صفه غير أن المسألة بنظر الإمام عليه السلام ليست (صفّه) هو شخصياً بقدر ما كانت (صف الاسلام) فهو كان يريد استمالتهم للإسلام لا إليه شخصياً، ولأنه كان الممثل الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وآله وللإسلام فإن مسيرهم وراءه كان يعني مسيرهم مع الإسلام وخلف رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

وكان المكسب الوحيد الذي يمكن أن يجنيه الأمام عليه السلام هو مكسب هداية الأمة وإعادتها إلىٰ الصواب بعد انحرافها وضعفها، وهو مكسب يرىٰ أن ثمنه يستحق بذل دمه ودماء الصفوة من أصحابه، وهو ما فعله عندما استشهد بتلك المعركة الفاصلة التي قدر لها أن تشخص دائماً أمام أنظار الأمة.

لقد رأىٰ أن أصحاب الحر ـ وهم شريحة عامة من شرائح الكوفة ـ قد انقلبوا وانحازوا نهائياً إلىٰ صف الدولة الظالمة ونكثوا عهودهم وتناسوا وعودهم فاستنكر موقفهم وإرادهم هم أنفسهم أن يستنكروا هذا الموقف وتستنكره الأمة كلها بعد ذلك وتبتعد عنه وتظل على ثباتها إذا ما واجهت أمراً خطيراً كذلك الذي كانت تواجهه في ذلك الحين وهو تسلط الدولة الأموية المنحرفة، المجاهرة بالانحراف عليها.

ومع أنه لم يجد فائدة في تذكيرهم بالموقف الصائب الذي كان عليهم أن يقفوه، إلا أنه استمر في ذلك، وفي تذكيرهم بحقيقة الموقف المؤسف الذي وصلوا إليه والذي لا بد أن يتغير، وأعلمهم أنه هو شخصياً كان ينبغي أن يكون في مقدمة المتصدين لذلك التغيير فهي مسؤوليته كما هي مسؤوليتهم (فأنا أحق من غيّر).

لا يوقف الانحراف الكبير إلا دم الشهداء

لقد وجد الإمام الحسين عليه السلام نفسه في موقف دقيق؛ تقف فيه أمة متخاذلة مستسلمة خائرة أمام نظام جائر منحرف لا يتورع عن اتباع كل الأساليب التي من شأنها أن تبقيه قائماً.

ولم تكن النصيحة وحدها أو الإرشاد أو الوعظ كافية لإعادة الأمة إلىٰ صوابها وإرجاعها عن انحرافها واستسلامها. كما لم يكن الموقف السلبي الذي قد يتمثل باعتزال كل شيء، والانصراف إلىٰ أداء بعض الشعائر التعبدية كالصلاة وغيرها والذي

سيشكل لوناً من ألوان الرهبنة المرفوضة في الإسلام، كافياً لجعل الأمة تلتفت إلىٰ خطئها وانحرافها في ظل قيادة تبنت الإنحراف والخطأ وعرضته علىٰ أنه هو الصواب (بأدلة) وأقوال افتعلتها ونسبتها إلىٰ رسول الله ﷺ نفسه.

كان لا بد من التصدي للإنحراف بالدم، فقد كان ذلك هو الحل الوحيد لإشعار الأمة بمدىٰ خطر هذا الإنحراف. وإذا ما شعرت، فإنها حينذاك ستعمل علىٰ إيقافه والقضاء عليه ولو بعد مدة طويلة من الزمن قد تبلغ عشرات أو مئات من السنين.

وسيظل حال الإمام عليه السلام وشخوصه من المدينة إلىٰ مكة ثم إلىٰ الكوفة بعد ذلك لإيقاف الإنحراف ماثلًا أمامها علىٰ مر الأزمان ليكون دافعاً لتكرار قيامها بمهمة مماثلة ما دام الإسلام لم يحظ بالإهتمام اللازم من قبل الأمة وما دام يستبعد ويهمل ويصبح عرضة وغرضاً لسهام أعدائه ومؤامراتهم وكيدهم.

بل لعل الحسين عليه السلام كان يرىٰ الموت أبسط ثمن يمكن أن يدفع لقاء هذه المهمة الكبيرة، ويرىٰ أنه أمر يسيرهين ما دام سيكون كفيلًا بنجاحها، وهكذا رأينا أصراره علىٰ المضي حتىٰ النهاية رغم الفرص العديدة التي أتيحت له للتراجع واستمعنا إلىٰ أقواله في كل مرحلة من مراحل مسيرته الملحمية من المدينة إلىٰ الكوفة عبر مكة، وهكذا خاطب الحر بن يزيد الرياحي بنفس اللغة القوية التي استعملها دائماً عندما طلب منه الاستسلام ومبايعة يزيد (أفبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟)[1].

إن مهمة إيقاظ الأمة من سباتها وإيقافها عن الإنحراف المتسارع لا بد أن يكون له ثمن باهظ، وهو حياة إمام الأمة نفسه، فبغير ذلك ما كان سيظل لهذه الأمة كأمة إسلامية سوىٰ لون باهت سيسقط من ذاكرتها علىٰ مر الأعوام. أما إذا ما استشهد أمام الأمة وسار في الشوط المعد له حتىٰ النهاية محتملًا صابراً، وظل لون دمه القاني يصبغ آخر مشهد له، فإن لون الدم هذا لا يمكن أن يمحىٰ بسهولة، وبه أثبت للأمة أنه علىٰ مستوىٰ الرسالة التي حملها بعد أبيه وأخيه عن جده، وإن أقل ما تستحقه منه ومن غيره التضحية إلىٰ حد الاستشهاد.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٠٧ وابن الأثير ٣/ ٤٠٩.

(تقلّب) طارىء أم أصيل

لم يكن (تقلب) أهل الكوفة أمراً نابعاً عن صفة اختصوا بها دون غيرهم، بل أنه كان وليد الأحداث التي عاشوها والحملات المركزة والمنظمة التي بدأها معاوية لتفتيتهم وتفريق شملهم وإضعافهم لكي لا يظلوا على موقفهم السابق في عهد أمير المؤمنين عليه السلام حيث كانوا القوة الرئيسية التي واجهته وحاربته وأدركت زيفه وأباطيله، وقد أوضحنا بعض الأساليب التي لجأ إليها في هذا المجال، وهي أساليب لا يمكن نسبتها إلىٰ الإسلام بأي حال من الأحوال.

إن من شأن استهدافهم الواضح لخطط الحكم الأمويين الجائرة وظلمهم المركز طوال أكثر من عقدين شملا (خلافة) معاوية كلها وتعرضهم للمخاطر والأساليب الرهيبة التي تفتق عنها ذهنه الشيطاني مثل الأخذ علىٰ الشك والظن والأخذ (بجريرة) الغير واعتماد نظام الأرباع والأخماس والشرطة والشرطة السرية والنقباء والعرفاء واستخدام الأشراف والوجهاء ورؤساء القبائل لدىٰ الدولة شبه موظفين يتقاضون رواتب علىٰ خدماتهم ويتقاضون حسب تلك الخدمات التي يؤدونها، ولّد حالة من الحذر والشك القائمين على ذلك الخوف الرهيب المزروع في نفوسهم من سطوة السلطة الحاكمة وجبروتها وعنفها، وجعل معظمهم يتعاملون بوجهين وقد يلجئون إلىٰ الكذب والنميمة والدس لحماية أنفسهم وللتقرب من السلطة التي بدت في نظرهم كائناً أسطورياً ضخماً لا يمكن مواجهته إلا من بعيد وينبغي على من يريد الحياة أن يتجنب شره وسطوته؛ وإذا ما أضفنا إلىٰ ذلك حملة التفريغ من الإسلام التي قام بها معاوية والتي حاول فيها تزوير العديد من المبادىء والتشريعات الإسلامية وجند لها مجموعة ضخمة من (رواة الحديث) ومدعي الصحابة وفقهاء الدولة ووعاظها والقصاصين وناشري الإشاعات والاسرائيليين الذين حاولوا دس الأقاصيص والإفتراءات الإسرائيلية في المرويات الإسلامية، وغيرهم من المأجورين والمجندين لهذه الحملة الضخمة الكبيرة؛ حتىٰ أصبح الإسلام (مثلًا أعلىٰ) مبعداً عن الحياة وغير ممكن التطبيق وفق الأسس التي أرادها رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وحتىٰ وفق الأسس التي أرادها عثمان. كما أشار إلىٰ ذلك معاوية في مخاطبة ساخرة ليزيد حينما قال هذا في رواية موضوعة علىٰ الأغلب من قبل معاوية أنه يريد أن يسير بسيرة عمر بن الخطاب،

وكما أشرنا إلىٰ ذلك في هذه الدراسة، وأصبح معاوية ممثلًا للإسلام وناطقاً باسمه وقائداً للمسلمين برغمهم. أدركنا أن المسلمين أصيبوا بصدمة قوية جرّاء هذا التلاعب الخطير.. وأصبح خوفهم من السلطة أقوىٰ من المبادىء التي ضحّوا من أجلها، وقد وجدوا أن طريقها في النهاية وعر ومحفوف بالمخاطر.

ومع ذلك فقد كانوا لا يريدون في قرارة أنفسهم التخلي عن هذه المبادىء التي علموا جيداً أنها الضمانة الوحيدة لسعادتهم وخلاصهم في الدارين.. وإن هم تخلوا عنها فلا بد لهم من العودة إليها والركون إليها وحدها، ووحدها فقط.

لذلك فإنهم ما يكادون يجبرون تحت وطأة حكامهم القاسين وأشرافهم المنحازين إلىٰ صف أولئك الحكام، علىٰ تبني مواقف الدولة وقبول ممارساتها والسكوت عنها، حتىٰ يعودوا مرة أخرىٰ يفكرون لخطأ مواقفهم ويندمون عليها ويحاولون التراجع عنها واتخاذ مواقف مغايرة لها. غير أنهم ربما كانوا يطمحون إلىٰ قوة عليا تخلصهم من مصائبهم دون أن يقوموا بالخطوات اللازمة لذلك.

(التقلّب) أحد النتائج الطبيعية للسياسات المستبدة

وقد حيّر تصرفهم ذاك بال الكثيرين، ورأوا أن هؤلاء العراقيين من أهل الكوفة قد اختصوا به وحدهم، مع أنه نتيجة طبيعية للظلم والإرهاب والكبت والتفرقة، وهو أمر يمكن أن يحدث في كل المجتمعات التي تتعرض لما تعرض له مجتمع العراق.. وقد حدث فعلًا في مجتمعات عديدة.

وبكلمة، يمكن القول إن تصرف أهل الكوفة وتقلبهم كان نتيجة طبيعية للسياسات المستبدة التي انتهجتها الحكومات الطاغوتية التي تعاقبت عليهم.

إن أمير المؤمنين عليه السلام، ومن بعده الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، كانوا يدركون أن وضع أهل العراق وغيرهم من المسلمين لا بد أن يستقر في النهاية لصالح الإسلام عندما يعلمون حقاً من هو الذي كان يعبر حقاً عن مصالحهم الحقيقية وتطلعاتهم المشروعة ومن الذي كان يسعىٰ لتثبيت حكمه وسلطانه ومصالحه على حساب الناس ومصالحهم وسلطان الإسلام وحكمه.

وقد لا يكون ذلك اليوم الذي تتوضح فيه الأمور قريباً ولكنه سيأتي على كل

حال وستعقب النومة الطويلة صحوة طويلة دائمة يعود فيها الإسلام لقيادة الحياة قيادة فعلية حقيقية بعيداً عن الظلم والانحراف والجور.

الحسين عليه السلام: لن يتخلىٰ عن الأمة وإن تخلّت عنه

كان الإمام الحسين عليه السلام على علم بهذه الحقائق كلها بخصوص أهل العراق عندما قدم عليهم، فهو لم يرد أن يتخلىٰ عنهم ولا عن غيرهم حتىٰ وإن تخلوا هم عنه وقلبوا له ظهر المجن وتراجعوا عنه بعد أن أكّدوا ولاءهم واستعدادهم للسير خلفه لتغيير الأوضاع ومنعها من الاستمرار علىٰ النمط الذي كانت تسير عليه.

وقد أطلعنا على أجوبته لمن أراد منعه من الذهاب في هذه المهمة الصعبة الشائكة، وإصراره على المضيّ فيها إلىٰ النهاية وإن كانت هذه النهاية تعني موته وموت آله وأصحابهٰ وتشريد عياله وأطفاله. لقد كان الحزم الذي يغلف تلك الأجوبة والخطب والكلمات التي ألقاها في أصحابه وفي جيش عدوه تفصح عن معرفة تامة بحقيقة الموقف وعزم على إنجاز المهمة التي كان فيها موته المحقّق كما بدا له هو.. غير أن ذلك كان الخيار الوحيد أمامه كما سبق أن بينّا.

ظنّوه الحسين عليه السلام فرحّبوا به

إن أول موقف نراه من أهل الكوفة هو مقابلتهم لعبيد الله بن زياد بالترحيب، وقد حسبوا أنه الحسين عليه السلام، فكان (لا يمر على مجلس من مجالسهم فيسلم إلا قالوا: عليك السلام يابن بنت رسول الله، وهم يظنون أنه الحسين بن علي عليه السلام)[1].

(١) الطبري ٣/ ٢٧٥ وقد ورد في ٢٨١ أن ابن زياد (دخل الكوفة وعليه عمامة سوداء، وهو متلثم والناس قد بلغهم إقبال الحسين اليهم، فهم ينتظرون قدومه، فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبا بك يابن رسول الله، قدمت خير مقدم، فرأىٰ من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه) وقد روي أنه تنكر (فأخرج ثياباً مقطعة من مقطعات اليمن، ثم اعجر بمعجرة يمانية فركب بغلته، ثم انحدر راجلاً وحده فجعل يمر بالمحارس فكلما نظروا اليه لم يشكوا أنه الحسين، فيقولون: مرحبا بك يا ابن رسول الله، وجعل لا يكلمهم) الطبري ٢٨١ وخرج اليه الناس من دورهم وبيوتهم.

ويوحي هذا بأنهم كانوا يتوقعون قدوم الحسين عليه السلام إليهم وأنه كان أمراً طبيعياً لا بد أن يتم في ظروف كتلك حتىٰ دون عقبات أو مشاكل من قبل السلطة الأموية القائمة، وأنهم ربما ساروا وراءه إلىٰ تحقيق غايته دون أن يلاقوا أية صعوبات تذكر، وأنهم لم يفاجأوا بذلك القدوم ولم يستقبلوه بالاستغراب والدهشة، حتىٰ أنهم ردوا السلام علىٰ ابن زياد حاسبين أنه الحسين عليه السلام بترحيب ومظاهر احتفالية عادية.. فكأنه شخص عاد إلىٰ داره ووطنه بعد غياب قصير عنه.

حماس الرسائل وحماس الموقف العملي

وقد كتبوا إليه في البداية يعلمونه (أنه معك مائة ألف..)[1].

ومع ذلك فقد كان سليمان بن صرد زعيم ثورة التوابين فيما بعد يتخوف من انقلابهم عليه أو تخليهم عنه على أقل تقدير، رغم الحماس الذي أبدوه لنصرته والوقوف إلىٰ جانبه.. وقد حذرهم من ذلك ودعاهم إلىٰ التيقن من موقفهم قبل الكتابة إلىٰ الحسين عليه السلام، وقال لهم: (إن معاوية قد هلك، وأن حسيناً قد تقبّض علىٰ القوم ببيعته، وقد خرج إلىٰ مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهل والفشل، فلا تغرُّوا الرجل من نفسه..

قالوا: لا بل نقاتل عدوه، نقتل أنفسنا دونه..)[2].

وإذا أبدوا لسيلمان ذاك الحماس الكبير وأبدوا عن استعدادهم للتضحية بأنفسهم دون الحسين عليه السلام، طلب منهم عند ذاك أن يكتبوا إليه، فكتبوا إليه كتبهم العديدة التي ذكرنا نماذج منها في دراستنا هذه يرجون حضوره لتخليصهم من عدوه الجبار العنيد علىٰ حد تعبيرهم الذي بغى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيئها، وتأمّر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقىٰ شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود.

وقد أوضحوا في رسائلهم أنهم كانوا يقاطعون ممثل الدولة ولا يجتمعون معه

(١) الطبري ٣/ ٢٩٩ وتراجع المصادر التي ذكرناها في غضون هذه الدراسة.
(٢) الطبري ٣/ ٢٧٧.

في جمعه ولا يخرجون معه إلىٰ عيد، وأبدوا استعدادهم لإخراجه وإلحاقه بالشام، مقر السلطة الحاكمة.

وكانت رسائلهم تعكس تلهفهم وشوقهم الشديد لاستقبال الحسين عليه السلام وقد حفلت بعبارات تؤكد عزمهم علىٰ السير خلفه مهما كانت النتائج.

ومهما يكن من أمر فربما كانوا يتوقعون نصراً سهلًا ونجاحاً يسيراً، ولم يتوقعوا أن يواجهوا تلك المواجهة العنيفة وتستنفر لهم الدولة أشد أعوانها قسوة ووحشية.

وقد أنكروا فيما بعد حتىٰ تلك الرسائل عندما كشّر لهم الوحش الأموي وكشف عن أنيابه وبدأ يستعد للانقضاض عليهم إن هم أعلنوا الحرب عليه، ولم يلتزموا بالقوانين التي فرضها عليهم وألزمهم بموجبها أن يكونوا تباعاً وعبيداً.

ولا شك أن سليمان بن صرد يعلم أن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن ليُغرَّ برسائل أهل العراق، غير أنه أدرك أنهم بتلك الرسائل سيحمّلون الإمام مسؤولية القدوم اليهم وقيادتهم، وإن احتمال تخليهم عنه وارد جداً، ومع أنهم سيكونون المسؤولين عن ذلك، إلا أن ثمن موقفهم ذاك سيكون باهضاً وسيكلف حياة الإمام عليه السلام، وحياتهم هم فيما بعد.

لو لم ترد رسائل أهل الكوفة للإمام عليه السلام، ولم يأت هو للكوفة لما استطاع أحد تحميله مسؤولية القيام بالثورة لكنها عندما وردت إليه أصبح ملزماً بالاستجابة لها، إذ لو لم يستجب لقلنا أن الناس قد عزمت على الثورة واستدعت قائدها لتزعم تلك الثورة إلا أنه لم يستجب، ولن نكون عند ذاك معنيين بالسؤال والتدقيق عن طبيعة أهل الكوفة ومن كتبوا تلك الرسائل، وسنفتقر إلىٰ النتائج مباشرة فنقول: ان الإمام تخلىٰ عن الأمة ورفض قيادتها، وإنها قد استسلمت ليزيد لهذا السبب، مع أنها كانت مستسلمة منذ البداية ولم تعزم أمرها بصورة جديدة على خوض معركة حقيقية مع أعدائها.

ما أدركه سليمان بن صرد لم يفت الحسين عليه السلام إدراكه

وما أدركه سليمان بن صرد وغيره من الناصحين والمشفقين من سير الحسين عليه السلام إلىٰ الكوفة لا يمكن أن يفوته هو عليه السلام، وقد طلب منهم قبل قدومه عليهم الثبات على موقفهم وعدم الحيدة عنه، وجعل ذلك شرطاً للقدوم لأنه كان من أعلم الناس بهم، وقد أمضىٰ فترة مهمه من حياته معهم في ظل أبيه أمير

المؤمنين عليه السلام وعاصر أشد الأحداث التي مرّوا بها وهي أحداث كبيرة عاصفة، ولم تكن معاناة أبيه عليه السلام وأخيه عليه السلام من بعده لتخفىٰ عليه بأي حال من الأحوال، فكيف يخدع ويغرّ من يعرف طبيعة القوم الذين سيقودهم؟ وكيف لا يستجيب لهم وقد أعلنوا أمام الأمة كلها عزمهم علىٰ النهوض بوجه دولة الظلم بقيادته؟

ولنا أن نتصور معاناته الكبيرة وهو يعلم أنه يقدم على قوم لا يملكون قوة ولا ثباتاً وهم يواجهون دولة الظلم القوية المستطيلة المتجبرة كان الموت المحقق هو النتيجة الطبيعية لذلك الموقف ومع أنه أُخبر بذلك، إلا أنه لم يستطع إلا أن يمضي في طريق الكوفة فقتله هو الكفيل بانقاذ الأمة وجعلها تنتبه باستمرار إلىٰ مخططات أعدائها وتتصدىٰ لإفشال تلك المخططات وإن كان ثمن ذلك دم العديد من أبنائها، الذين سيرون أن ما يقدمونه ليس بأثمن مما قدمه إمام الأمة من قبل.

ومع ذلك فقد كان يطمح أن يكون خطابه لهم ووصاياه بالثبات وعدم التردد والإقدام على مواجهة الظلم خطاباً للأمة كلها فيما بعد. فأهل الكوفة ليسوا وحدهم معنيين بذلك، بل إن المسؤولية تقع علىٰ الجميع دون اعتبار لفواصل الزمان والمكان، ومن شأن خطاب كهذا أن يشعرهم بمسؤوليتهم حتىٰ بعد استشهاد الحسين عليه السلام وحتىٰ بعد مرور مئات السنين.

وقد كتب إليهم: (فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلّكم: إنه ليس علينا أمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك علىٰ الهدىٰ والحق.

وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب اليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فان كتب إليَّ إنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم، وقرأت في كتبكم أقدم عليكم وشيكاً، فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله)[1].

شروط الحسين عليه السلام

فقد كان شرطه واضحاً إذاً للقدوم عليهم، وكان يحذرهم في هذه الرسالة من عدم الإيفاء بوعودهم، ربما بتأثير من الملأ وذوي الفضل والحجىٰ منهم الذين

(١) الطبري ٢٧٨ وتراجع المصادر السابقة في هذه الدراسة.

سيكونون أول الناكثين والمترددين، والذين قد يؤثرون بمواقفهم تلك على سائر الناس والعوام منهم بوجه الخصوص ويجعلونهم يتراجعون مثلهم ويتبنون مواقفهم المتخاذلة المستسلمة، وقد حدث ذلك فعلًا، وكان أول من تراجع عن مسلم هم الملأ من ذوي الفضل والحجى والشرف في البداية وتجمعوا حول ابن زياد وشنوا حربهم على مسلم من هناك وحرضوا الناس عليه وشجوعهم على التخلي عنه.

وعندما دخل مسلم الكوفة، نزل دار المختار الثقفي واجتمعت إليه جماعة من أهلها، أخذوا يبكون عندما قرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام، وهو موقف عاطفي يدل على انسجامهم مع القضية التي يرفعها عليه السلام وانحيازهم إليها بشكل كلّي، وهذا ما بدا في الظاهر، وهو الأمر الذي لم يطمئن اليه عابس بن أبي شبيب الشاكري الذي استشهد مع الحسين عليه السلام بعد ذلك وسجل موقفاً بطولياً عظيماً مع الحسين عليه السلام وأصحابه إذ خاطب مسلم قائلًا: (فإني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرك منهم، والله لأحدثنك عما أنا موطِّن نفسي عليه، والله لأجيبنكم إذا دعوتم، ولأقاتلن عدوكم، ولأضربن بسيفي دونكم حتىٰ ألقىٰ الله، لا أريد بذلك إلا ما عند الله)[1].

كان عابس يعرف نفسه حق المعرفة ويدرك إلىٰ أي حد يمكن أن يذهب في نصرة الحسين عليه السلام، ولم يشأ أن يتعهد بالنيابة عن قومه بتقديم الضمانات لمسلم بأنهم سيسيرون خلفه إلىٰ النهاية، فهذا أمر يبدو أنه لم يطمئن اليه تمام الاطمئنان، وقد امتلك قدراً كافياً من الشجاعة ليصارح مسلم بذلك أمام أولئك الباكين المتعاطفين الذين ربما لم يوطِّنوا أنفسهم على ما وطن نفسه عليه.

ويبدو أن كلماته قد لقيت صدىٰ حسناً لدىٰ حبيب بن مظاهر الاسدي، الذي أيده، وقد لمس وتراً حساساً من نفسه قائلًا: (رحمك الله، قد قضيت ما في نفسك، بواجز من قولك، ثم قال: وأنا والله الذي لا إلٰه إلا هو على مثل ما هذا عليه)[2]، وقد استشهد هو الآخر مع الحسين عليه السلام بعد مواقف بطولية في المعركة، وقد قال غيرهما مقالتيهما.

غير أن كوفياً أبىٰ في تلك اللحظة أن يعطي الضمانات اللازمة حتىٰ على نفسه،

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٩ وراجع بقية المصادر السابقة.

(٢) المصدر السابق.

وكان أحرىٰ به ألا يكون مع الجماعة التي إجتمعت إلىٰ مسلم. كان يدرك أنه سيضعف في النهاية إذا ما جوبه بالبطش الأموي الأحمر.

ومع أن محمد بن بشر وهو من نتكلم عنه هنا ـ يتمنىٰ في قرارة نفسه أن يعز الله أصحابه بالظفر علىٰ حد قوله ـ إلا أنه لم يعلن عن استعداده للمساهمة بتحقيق هذا الظفر، كان يريد تحقيقه من قبل غيره أما هو فقد كان يخاف الموت، وهذا ما صرح به أمام الجمع المحتفل لمسلم، (إن كنت لأحب أن يعز الله أصحابي بالظفر، وما كنت لأحب أن أقتل، وكرهت أن أكذب)[1].

لقد تراجع ابن بشر منذ البداية، وأعلن عن ضعفه وعدم قدرته على الإستمرار في تأييد مسلم وأصحابه؛ هذا إذا كان قد أيدهم بالمرة.

وعود.. دون ضمانات

ولو أن أهل الكوفة بأجمعهم قالوا ما قال محمد بن بشر، وأحجموا منذ البداية عن إعلان ولائهم وبيعتهم للحسين عليه‌السلام ورغبتهم في السير وراءه، لربما كان الموقف قد تغير، ولربما كانت مسؤولية الحسين عليه‌السلام الشرعية تجاه الأمة قد جعلته لا يقصد الكوفة بالذات ويتخذ موقفاً آخر غير أنه أمام ذلك الزخم الجماهيري وقد أرسل إليه مائة ألف من أهل الكوفة يستدعونه لقيادتهم على وجه السرعة، لم يستطع إلا الذهاب ،وإلا بماذا كان سيحتج لو قعد ولم يذهب لنصرة الأمة التي أبدىٰ قطاع واسع من أبنائها وفي إقليم كبير ومهم استعداده للقتال تحت لوائه..؟ لقد أبدى الناصر استعداده للقتال والتضحية. مع أنه عرف أنه ناصر غير ثابت وغير مستعد لإكمال الشوط.

ولو قعد عن مقاتلة يزيد وبقي في مكة أو المدينة هذا على فرض بقائه حياً دون أن يقتل أو يجبر على مبايعة يزيد، لكان قد تحمل المسؤولية التاريخية لإستسلام المسلمين كلهم ليزيد، ولأصبح بطل هذا الاستسلام إلىٰ يومنا هذا، وسنحتج نحن عندما يريدنا الفراعنة والطواغيت أمثال يزيد أن نضع أيدينا بأيديهم بأن الحسين عليه‌السلام قد فعل ذلك من قبل مع أنه أمام الأمة وصاحب المسؤولية الأولىٰ فيها وهل نملك إلا أن نفعل ما فعله؟

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٧٩ وراجع بقية المصادر الأخرى.

أي قوم انه ابن مرجانة!

ويحك انما هو الحسين (حب وكره.. في القلب فقط)

كانت قلوب أهل الكوفة مع الحسين عليه السلام، وكانوا يتوقعون حضوره بين لحظة وأخرىٰ، وكانوا يسلمون على ابن زياد ـ كما أشرنا ـ ظانين أنه الحسين عليه السلام، وقد تجمعوا حوله محتفين به (فقال مسلم بن عمرو لما أكثروا: تأخروا هذا الأمير عبيد الله بن زياد، فأخذ حين أقبل علىٰ الظهر، وإنما معه بضعة عشر رجلاً، فلما دخل القصر، وعلم الناس أنه عبيد الله بن زياد دخلهم من ذلك وحزن وكآبة شديد..)[1]، ولو أن أهل الكوفة كانوا جادين حقاً لما دخلهم ذلك الحزن وتلك الكآبة ومعه ذلك العدد القليل من الرجال ولكانوا قد امسكوا به منذ البداية وسجنوه أو سلّموه لمسلم أو قتلوه.

ولما سمحوا له منذ أول ليلة بالقاء خطبة مهددة في جامع الكوفة. غير أنهم كانوا مهزومين وكانوا مترددين في اتخاذ الموقف الواضح منذ البداية، وكانوا متواكلين يطمع كل واحد منهم من الآخرين أن يقاتلوا ويقتلوا نيابة عنه.

ولنا أن نتصور المشهد الذي عرضه لنا الطبري حول وصول ابن زياد الكوفة ودخوله القصر، (انحدر راجلاً وحده فجعل يمر بالمحارس، فكلما نظروا اليه لم يشكوا أنه الحسين فيقولون: مرحبا بك يابن رسول الله قدمت خير مقدم وخرج إليه الناس من دورهم وبيوتهم)[2] في مظاهرة ترحيبية حافلة وكان قد اخرج ثياباً مقطعة من مقطعات اليمن، ثم اعتجر بمعجرة يمانية، فركب بغلته، وجعل لا يكلمهم)[3] في محاولة منه للتستر واخفاء حقيقته عن الناس لما كان يتوقعه من رد فعل غاضب منهم ربما يودي بحياته. و(رأىٰ من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه، وغاظ عبيد الله ما سمع منهم وقال: الا أرىٰ هؤلاء كما أرىٰ)[4].

وعندما اكتشف أحدهم أنه كان ابن زياد وصاح محذراً: (.. أي قوم ابن

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٨١ـ ٢٨٢ وراجع بقية المصادر الأخرىٰ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

مرجانة، والذي لا إله غيره)[1] كذّبوه وقالوا: (ويحك انما هو الحسين)[2] (فلما دخل القصر وعلم الناس أنه عبيد الله بن زياد دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد)[3].

وعندما دخل (ضربوا الباب في وجوه الناس، فانفضّوا وأصبح فجلس على المنبر)[4] بعد أن دبر بالليل خطة يفرق فيها جموعهم، وقد تركوه يدبر لهم ما يدبر، ولم يملكوا سوىٰ ابداء الحزن ولعلهم لم يجدوا الجرأة للتصدي له وهو وحيد بين جموعهم الكثيرة.

البيان الأول: تهديد ووعيد

وكان بيانه الأول الذي القاه فيهم، قد دق على وترين حساسين في نفوسهم..

١ - وتر العطاء والرشوة؛ فقد قال لهم: (فإن أمير المؤمنين [يزيد] أمرني بانصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالاحسان إلىٰ سامعكم ومطيعكم، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر)[5].

٢ـ وتر التخويف والترهيب، ([وأمرني] بالشدة على مريبكم وعاصيكم.

وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه، الصدق ينبيء عنك لا الوعيد)[6].

وقد ساعد ابن زياد في مهمته وجود فئة (موظفة) لدىٰ الدولة، تتلقىٰ ارزاقها ومعاشاتها منها مباشرة وتدين لها بالولاء المطلق كما أنها علىٰ استعداد لتنفيذ كل أوامرها وتوجيهاتها مهما كانت متعسفة وظالمة.

إن طبيعة هذه (الفئة) المستحدثة هو الخوف الشديد من السلطان (ولي أمرها) إذ أنها ترىٰ فيه مصدر رزقها وحياتها ووجودها كله، وبقدر ذلك الخوف نجد تجبراً وشده على سائر الناس طالما كان ذلك يرضي السلطان، ولعلها تعوض بشدتها عن

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) نفس المصدر السابق ٣/ ٢٨١ وراجع المصادر الأخرىٰ المذكورة في هذه الدراسة.
(٦) المصدر السابق.

مركب النقص الناتج من خوفها، فهي آلة طيعة لا تناقش الأوامر، كما أنها لا تتدخل بالسياسة العامة للدولة، ان حدودها معروفة وهي تعلم أنه لن يسمح لها بتخطيها أو تجاوزها، انها ليست أكثر من عصا لا روح فيها ولا حياة.

وكان من أفراد تلك الفئة المملوكة للدولة الشرطة والعرفاء، وقد أدرك ابن زياد انها أول من سيستجيب لأوامره وينفذها دون نقاش بل لعلها ستندفع لتنفيذ تلك الأوامر بحماس منقطع النظير.

ومن هنا كانت بداية عمله لاخضاع أهل الكوفة، (فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً، فقال: اكتبوا اليَّ الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا فبريء.

ومن لم يكتب لنا أحداً، فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علنيا منهم باغ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة، وحلال لنا ماله وسفك دمه، وأيمّا عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره، والقيت تلك العرافة من العطاء، وسيّر إلىٰ موضع بعُمان الزاره)[1].

كان لا بد أن يعمل أولئك العرفاء على إرضاء سيدهم وولي نعمتهم بهمة عاليه ويبذلوا جهوداً استثنائية لتطبيق تعليماته بأسرع وقت، وأن يستنفروا كل أعوانهم لإداء المهام العاجلة التي عهد بها إليهم.

تصعيد الخوف

كان ابن زياد، وهو أحد رجال الدولة المعتمدين وممن له مصلحة كبيرة ببقائها وديمومتها، وممن أتيحت له فرصة التصرف المطلق ووضعت بين يديه كل امكانات هذه الدولة لإنجاز المهمة الدقيقة التي أرسل إليها في الكوفة يعلم السر الكفيل بالتغلب على أهل الكوفة وتطويعهم وترويضهم بل وجعلهم ينقلبون خدماً وعبيداً وحراساً لها، فلم تكن خطة معاوية معها من قبل بالخطة العفوية الآنية التي استدعتها ظروف طارئة، وإنما كانت خطة مدروسة تستهدف اخضاعها إلى الابد، وقد فكر حتى بمن يوليه عليها بعد وفاته وهو عبيد الله بن زياد الذي رآه مؤهلًا لمهمة قمع جديدة تشابه تلك التي قام بها والده من قبل.

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٢٨١.

إن مجرد رمي الكوفة بحاكم مثل عبيد الله كفيل بتصعيد مخاوف الكوفيين وجعلهم يستحضرون تلك الأيام التي عانوا فيها الأمرين عندما رموا بزياد أبيه، وقد كان تعيينه كفيلًا منذ البداية بتفتيتهم وتفرقتهم وعدم ثباتهم علىٰ الأمر الذي ازمعوا عليه وهو نصرة الحسين عليه السلام والسير خلفه للإطاحة بالدولة الأموية الظالمة.

وقد أدرك ابن زياد أنه يستطيع العمل بكل سهولة مع هؤلاء وأنهم سيكونون كالكرة بين يديه، وأنه سينجح بتحويلهم ـ أو بالأحرىٰ ـ إعادتهم إلىٰ صف الدولة التي خرجوا عليها، وأعلنوا رفضهم لها، وقد كان رفضهم غير حاسم، ولم يكن موقفهم غير مليء بالثغرات ونقاط الضعف التي استغلها وتسلل منها إليهم وجعل منها ممرات يمكن الوصول إلىٰ غاياته عن طريقها.

مظاهرة (عمرو بن الحجاج) مهزلة مضحكة

ولم يكن عبيد الله ليجرؤ على ضرب هانيء بن عروة واحتجازه لو كان يعلم أن لأهل الكوفة موقفاً موحداً، أو أن لقبيلة هانيء نفسها (مذحج) ذلك الموقف الموحد فعندما فعل نهانيء ما فعل وعندما (ضرب وجهه، حتىٰ كسر أنفه وجبينه، وأمر فألقي في بيت صيَّح المذحجيون، وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانئاً قد قتل، فأقبل في مذحج حتىٰ أحاط بالقصر ومعه جمع عظيم، ثم نادىٰ: أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مذحج ووجوهها، لم نخلع طاعة، ولم نفارق جماعة، وقد بلغهم أن صاحبهم يقتل، فاعظموا ذلك.. فقيل لعبيد الله: هذه مذحج بالباب، فقال لشريع القاضي: أدخل علىٰ صاحبهم فانظر إليه، ثم أخرج فأعلمهم أنه حي لم يقتل، وأنك قد رأيته، فدخل إليه شريح فنظر إليه، [ثم خرج] فقال لهم: ما هذه الرعه السيئة، الرجل حي، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه، فانصرفوا، ولا تحلّوا بأنفسكم ولا بصاحبكم.

[وكان هانيء قد قال له عند دخوله عليه]: يالله يا للمسلمين، اهلكت أهلي وعشيرتي فأين أهل الدين، وأين أهل المصر، تفاقدوا، يخلوني، وعدوهم وابن عدوهم، والدماء تسيل علىٰ لحيته، إذ سمع الرجة على باب القصر، وقال: يا شريح، إني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، إن دخل عليَّ عشرة نفر أنقذوني)[1].

---

(١) نفس المصدر السابق ٣/٢٨٦ وراجع المصادر السابقة الأخرىٰ. والكلمات الموضوعة بين العلامات [فصل] زيادة مني اقتضاها سياق الكلام.

وعندما أخبر شريح جموع مذحج التي كانت تحاصر القصر أن هانئاً كان حياً، وأن أميره لم يفعل شيئاً سوىٰ أن ضربه ضرباً لم يصل به إلىٰ حد الهلاك، (قال عمرو وأصحابه: فأما إذ لم يقتل فالحمد لله، ثم انصرفوا)[1].

أكان لأمرىء أن يصدق مهزلة مذحج هذه ويهضمها بسهولة؟ كان هانىء من الأشراف وقومه وزعمائهم ومذحج يبلغ تعداد مقاتليها ألوف البشر المسلمين الأقوياء، وإذا ما علمنا أنهم ثاروا لهانىء وساروا لاستنقاذه من ابن زياد عجبْنا من عودتهم واقتناعهم ببقاء هانىء حياً مع أنه لا يزال بيد عبيد الله. لقد ضرب عبيد الله ضرباً مبرحاً ـ مع أنه لم يصل به الى حد الهلاك ـ وفي ذلك إهانة للقبيلة كلها ومس بكرامتها، ثم سجنه وابقاءه لديه ولم يكلف نفسه إلا إرسال شاهد واحد هو شريح، الذي زجرهم بدوره فانصرفوا بالبساطة التي ينصرف بها ذليل عندما يأمره سيده بذلك.

وربما كان موقف زعيمهم والناطق باسمهم عمرو بن الحجاج المتخاذل، والذي تحدث كأنما يتحدث عن أناس غرباء لا علاقة لهم به على الإطلاق، قد جعلهم يتخاذلون أيضاً وينهزمون من أمام القصر لقد أعلن عمرو بن الحجاج أنه وقومه لم يخلعوا طاعة ولم يفارقوا جماعة وإنما كانوا موالين للدولة وعلى استعداد لخدمتها، ثم أعلن وكأن الأمر لا يعنيه أن (صاحبهم ـ ويقصد به هانىء ـ يقتل؛ ولم يقل أنه صاحبه وقريبه وقال أنهم قد أعظموا ذلك ولم يقل: أني أعظمت ذلك واستنكرته أيضاً لقد عزل نفسه عنهم ولم يعرض قضية واضحة، لم يقل: أخرجوا الينا هانئاً نذهب به إلىٰ أهله، ولم يستنكر ضربه أو سجنه وإبقاءه لدىٰ ابن زياد، وإنما طلب كلمة تفيد أنه لا يزال حياً، وعندما قيل له أن هانىء لا يزال به رمق من الحياة قنع بذلك ولعله فرح إذ لن يكون عندئذٍ محرجاً أمام قومه وسارع بالقول: فأما إذ لم يقتل فالحمد لله، ولعلهم عند ذلك سارعوا بترديد كلماته عندما لم يروه مهتماً بقضية هانىء الاهتمام الذي يستحق.

فهل يتصرف عوام الناس عكس تصرف أسيادهم؟ وهل سيطالبون بما عجز هؤلاء عن المطالبة به؟ وهل يصرون على مواقف تنازل عنها هؤلاء؟.

---

(١) المصدر السابق.

لقد كان هانيء يتصور أن عشيرته ستنصره وتمنعه من ابن زياد إذا ما استهدفه بالأذىٰ والشر، وقد قال له عندما هدده بالقتل (إذاً تكثر البارقة حول دارك، وهو يظن أن عشيرته سيمنعونه)[1]، وذهب إلىٰ أبعد من ذلك إلى حد تقديم الأمان لابن زياد وهو يحسب أن موقف أهل الكوفة وقومه على وجه الخصوص سيظل ثابتاً وأنهم سيستمرون في نصرته ونصرة مسلم، فعندما علم هانيء ان ابن زياد كان يعلم بحركته المناوئة للسلطة مع مسلم قال له: (قد كان الذي بلغك، ولن أضيّع يدك عني، فأنت آمن وأهلك فسر حيث شئت)[2].

وقد ظن عبيد الله نفسه ما ظنه هانيء، وأعتقد أن مسلم قد سيطر علىٰ جماهير الكوفة، وأنه سيفشل بمهمته، وربما فرح عند ذاك بنجاته وخروجه سالماً وقنع من الغنيمة بالإياب، لولا أن شجعه مهران مولاه وحثه على الجلد والمقاومة.

الخوف والتخاذل نتيجة طبيعية للظلم وغياب القانون

كان الخوف والاستسلام والتخاذل نتيجة حتمية للظلم والقسوة المفرطة وفقدان العدالة والقانون الشرعي الذي جاء به الاسلام، وأعلن أن الناس جميعهم، حاكمهم ومحكومهم في ظله سواسية.

ولو أن قوم هانيءكانوا يعيشون في ظل أوضاع سليمة ويعلمون أن قانون العدالة الإسلامية هو السائر، لأصروا علىٰ انقاذ زعيمهم من براثن الحاكم الجائر واستصحابه معهم لا الاكتفاء بمجرد الهرج والصياح والوعود غير المؤكدة بأنه لا يزال حياً مع أنهم علموا أنه ضرب ضرباً مبرحاً.

لقد كانوا مهزومين منذ البداية، ولعلهم لاذوا خلف ظهر زعيمهم الآخر الذي ربما جاء معهم بدافع ضغط آني أو انفجار عاطفي موقت ربما ساهمت به النساء فدفعن رجالهن للذهاب إلىٰ مقر ابن زياد؛ وقد دلت كلمات هذا الزعيم الآخر ـ عمرو بن الحجاج ـ أنه كان يعتبر نفسه محايداً وأنه انما جاء نزولاً عند رغبة قومه، وأعلن منذ البداية أنهم لم يخلعوا طاعة ولم يفارقوا جماعة، وأنهم لا يزالون يوالون الدولة الظالمة وأنهم رهن إشارتها، وعندما يسحب نفسه بهذا الشكل الذليل وكأن المسألة

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٨٥ وراجع بقية المصادر الأخرى.
(٢) المصدر السابق.

برمتها لا تعنيه فإن هزيمته هذه كانت سبباً رئيسياً لهزيمة قومه الذين كان يقودهم في تلك التظاهرة الاحتجاجية المانعة.

الكوفة: تجربة مريرة مع دولة الظلم

كانت تجربة الكوفة مع دولة الظلم الأموية تجربة مريرة، وقد شهدت في عهد زياد تخلّي أبنائها عن حجر بن عدي عندما عمل زياد بخطة ذكية ماكرة حاول فيها التفريق بين الأشراف وعموم الناس الذين آزروا حجراً والتفوا حوله، ولعل التفاتة زياد هذه في التفريق اعتمدت فيما بعد من كل دول الإنحراف للسيطرة على الناس.

(وثب زياد بإشراف أهل الكوفة فقال: يا أهل الكوفة، أتشجون بيد وتأسون بأخرىٰ، أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر؛ أنتم معي وأخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر، هذا والله من دحسكم وغشكم، والله لتظهرن لي براءتكم أو لأتينكم بقوم إقيم بهم أودكم وصعركم.

فوثبوا إلىٰ زياد فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ها هنا رأي الا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظنّنا أن فيه رضاك، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمدنا به.

قال: فليقم كل امرىء منكم إلىٰ هذه الجماعة حول حجر، فليدع كل رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يعطيه من عشيرته، حتىٰ تقيموا عنه كل من استطعتم أن تقيموه.

ففعلوا ذلك فأقاموا جلّ من كان مع حجر بن عدي)[1].

لقد نجح زياد بمهمته الخبيثة، وفرق الناس عن حُجر واستطاع القبض عليه مع جماعة من أصحابه وأرسلهم إلى معاوية ليقتلهم.

ولقد لفت منظر غريب من قوم حجر نظره، وأسف علىٰ ضياعهم وتخاذلهم أشد من أسفه على نفسه وهو يساق للموت (انصرف، فمر بقومه فجعل القوم يدعون الله له بالعافية).

---

(١) الطبري ٣/ ٢٢٠ - ٢٢١ وراجع المصادر السابقة الأخرىٰ.

فقال: انه لمّا يعدل عندي اخطر ما أنا فيه هلاك قومي حيث لا ينصرونني، وكان رجاءه أن يتخلصوه)[١].

وحاول عبيد الله بن الحر الجعفي إستنقاذه من بين يدي أعوان زياد فقال: (ألا عشرة رهط استنقذ بهم هؤلاء، إلا خمسة..؟

فجعل يتلهف، قال: فلم يجبني أحد من الناس)[٢]

كانت قلوبهم مع حجر، وقد دعوا الله له بالعافية، وهو موقف تكرر مع الحسين عليه السلام بعد ذلك، إذ وقفت جماعة تدعو له ولم تقم بأية خطوة للدفاع عنه، بل لعل أحداً من أفرادها لم تحدثه نفسه بذلك[٣].

أدرك حجر أن قومه ميتون وقد استسلموا ذلك الاستسلام المهين لزياد وكان بامكانهم تخليصه منه، وكان بخمسة منهم ـ بنظر ابن الحر ـ يكفون لاداء هذه المهمة، الا أنهم انهزموا وخافوا ولم يقدموا على انقاذه رغم محبتهم له وإدراكهم لعدالة موقفه.

ابن زياد: طوّعت الكوفة له فاستخف بها

لقد بلغ استخفاف ابن زياد بأهل الكوفة أنه أمر بقتل هانيء أمامهم وفي سوق تباع فيه الأغنام نكاية بهم واحتقاراً لهم (فأخرج بهانيء حتىٰ انتهىٰ إلىٰ مكان من السوق كان يباع فيه الغنم، وهو مكتوف، فجعل يقول: وامذحجاه، ولا مذحج لي اليوم، وامذحجاه واين مني مذحج، فلما رأىٰ لا أحداً ينصره جذب يده، فنزعها من الكتاب ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم يجاحش به رجل عن نفسه.

فضربه مولىٰ لعبيد الله بن زياد ضربه، ثم ضربة أخرىٰ فقتله)[٤].

وقد فعل بعبد الأعلىٰ الكلبي ما فعل بهانيء وأمر بضرب عنقه في جبّانة السّبيع، كما (اخرج عمارة بن صلخب الأزدي ـ وكان ممن يريد أن يأتي مسلم بن

(١) نفس المصدر السابق ٣/ ٢٢٧ـ ٢٢٩ وراجع المصادر السابقة الأخرىٰ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عن سعد بن عبيد قال: (ان شيوخاً من أهل الكوفة وقفوا على التل يبكون ويقولون: اللهم أنزل نصرك. قال: قلت: يا أعداء الله ألا تنزلون فتنصرونه) الطبري ٣/ ٣٠٠.

(٤) الطبري، ٣/ ٢٢٧ - ٢٢٩ وراجع المصادر السابقة الأخرىٰ.

عقيل بالنصرة لينصره ـ فأتىٰ به أيضاً عبيد الله فقال له: ممن أنت؟ فقال: من الأزد. قال: انطلقوا به إلى قومه؛ فضربت عنقه فيهم)[1].

وكان هذا الاسلوب التهديدي الذي اتبعه ابن زياد بقتل أعداء الدولة بين قومهم وأهليهم، أسلوباً قمعياً ناجحاً، وهو أسلوب هجومي أراد أن يدلل به علىٰ قوة الدولة واقتدارها، فهو لا يكتفي برد عدوّه وإنما يتبعه إلىٰ عقر داره فيقتله هناك.

ولعل قصد ابن زياد لم يكن يخفىٰ على الناس الذين أدركوا ضعفهم والذين استدرجوا لهذا الاستسلام المهين، فكان فعل ابن زياد هذا ربما ردماً لآخر حصونهم، ربما كان هذا ما فكر فيه هو، وإلا فعلام هذا الاجراء.

وبعيد مذبحة الطف وتبجّح ابن زياد أمام أهل الكوفة في المسجد الأعظم وشتمه أمير المؤمنين والإمام الحسين عليه السلام، احتج عبد الله بن عفيف الأزدي وكانت عيناه قد ذهبتا في (الجمل) و(صفين) وقال مخاطباً أبن زياد (ان الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، والذي ولّاك وأبوه، يابن مرجانه أتقتلون أبناء النبيّن، وتكلمّون بكلام الصديقّين؟.

فقال ابن زياد: عليَّ به، فوثبت عليه الجلاوزة فأخذوه.

فنادىٰ بشعار الأزد: يا مبرور، وعبد الرحمٰن بن محنف الأزدي جالس، فقال: ويح غيرك، أهلكت نفسك، وأهلكت قومك، وحاضر الكوفة يومئذٍ من الأزد سبعمائة مقاتل؛ فوثب اليه فتية من الأزد فانتزعوه فأتوا به أهله، فأرسل إليه من أتاه به فقتله وأمر بصلبه في المسجنة فصلب هنالك)[2].

فهل نصر فتية الأزد ابن عفيف لأنه نادىٰ بشعارهم، وتركوه يؤخذ من بينهم بعد ذلك لأنهم أدركوا أنهم كانوا يواجهون قوة مدمرة لا تتورع عن استباحة أي شيء في سبيل تنفيذ أغراضها والقضاء على أعدائها؟.

أم لأن نشوة الحمية الطارئة قد طارت من رؤوسهم وهم يواجهون واقع الإرهاب والظلم والعنف الذي عاش عهده الزاهر في ظل زياد وابنه عبيد الله؟.

---

(١) نفس المصدر السابق ٣/ ٢٩٣ـ ٣٣٨ وراجع المصادر السابقة المذكورة في هذه الدراسة.
(٢) المصدر السابق.

مشاهد.. وتهديدات

وتطالعنا في غمار الحوادث التي مهدت لواقعة الطف مشاهد عديدة، نرىٰ فيها فورات لأهل الكوفة وحماساً سرعان ما تخمد وتتلاشىٰ بعيد تصاعدها واتساعها وتأجيجها؛ ولا نحسب أن ذلك كان أمراً محيراً لمن أطلع علىٰ تاريخ الكوفة واستهدافها بالظلم من قبل دولة الظلم كما أشرنا إلىٰ ذلك في هذه الدراسة.

فلا غرابة إذا ما رأينا خطاباً من ابن زياد أو تهديداً سيكون كافياً لإسكات آلاف الأصوات الغاضبة وتراجع أصحابها، ولا غرابة إذا ما تلاشت الآلاف المحيطة بمسلم خلال ساعات قليلة بمجرد إن كشر الوحش الأموي عن أنيابه وأبدىٰ استعداده للقتل والبطش، فلم تكن تلك الساعات الّا نتاج سنوات عديدة من الظلم الدؤوب المستمر، كان ارهاب الدولة المنظَّم كله يعد عدته لمثل تلك السويعات القصار التي يخشىٰ أن يختل ميزان القوى فيها، فلا يكون لصالحها، ليفتقد السيطرة إلىٰ الأبد.

وإذا ما عدنا إلىٰ بعض تلك المشاهد، رأينا في أحدها ابن زياد وقد خشي ثورة الناس عليه بعد ضربه هانئاً وحبسه، وإذا استطاع عمرو بن الحجاج أن يرد عنه جموع مذحج، فمن له برد بقية الناس عنه إذا ما ثاروا وأحاطوا بقصره، (فخرج، فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطه وحشمه؛ وقال: أيها الناس، اعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا وتجفّوا وتحرموا، إن أخاك من صدقك، وقد أعذر من أنذر)[1].

ولنا أن نتصور مشهداً آخر مكملًا لذلك المشهد، حيث تعرّض ابن زياد للحصار والقتل؛ فهنا نرىٰ الناس قد أخذوا يستمسكُون ويتوحدون خلف مسلم، وقد بدت طلائعهم تفد على المسجد، فهو إذاً الهجوم المتوقع والذي بدأ الآن، وهي الثورة الشعبية التي بدأت قبل حينها وقبل أن يستكمل مسلم استعداداته النهائية.

فما كان ابن زياد ينهي كلمته القصيرة، ولعل إقبال الثوار لم يتح له إطالتها، وينزل عن المنبر (حتىٰ دخلت النظارة المسجد من قبل التمّارين يشتدّون ويقولون: قد جاء ابن عقيل، قد جاء ابن عقيل، فدخل عبيد الله القصر مسرعاً، وأغلق أبوابه)[2].

---

(١) نفس المصدر السابق ٣/ ٢٨٦ وراجع بقية المصادر السابقة التي أشرنا اليها في هذه الدراسة.

(٢) المصدر السابق.

لم يكن مع ابن زياد إذاً سوىٰ عدد محدود من الأشراف والشرطة والحشم، لا يغنون عنه أمام عشرين الف مقاتل حقيقي مستبسل يحمل قضية الإسلام وهموم الأمة المبتلاة كما حملها أصحاب الإمام الحسين عليه السلام .

ومع ذلك فقد واجه ابن زياد جموع الكوفة بجرأة ظاهرية يحسد عليها ولم يتراجع أمامهم وبذل جهوداً كبيرة لتفتيتهم وتفريق شملهم، فقد حان أخيراً قطف ثمار السعي الجاد في طريق الظلم والارهاب؛ وهذه الجموع التي ذاقت لسعات ذلك الظلم وسياطه أصبحت تخيفها كلمة تهديد واحدة يلقيها الظالم وأعوانه من الأشراف والشرطة والمرتزقة حتىٰ تتراجع، بل وتقف عكس موقفها الأول تماماً، فبينما كانت تؤلف جيش مسلم وغالبية أعوانه حتىٰ أصبحت تؤلف جيش ابن زياد الذي جرده على الحسين عليه السلام فيما بعد.

فهي تعرف أن من يعد بالشر لا بد وأن ينفذ وعيده[1]؛ وهي تعرف أن أهل الشام سيسيرون خلف يزيد لمقارعتهم وحربهم والقضاء عليهم كما ساروا من قبل خلف معاوية.

وكمع ذلك فقد كانت هذه هزيمة لابن زياد، وربما ادرك ان الامر جدّي هذه المرة، ولن تنفع معه خطبه ولا تهديداته أو وعيده.

---

(١) ومن أولئك الذين سمعت وعيدهم وتهديداتهم زياد، حاكمهم السابق وقد جاء في احدىٰ خطبه لأهل البصرة: (. لاخذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتىٰ يلقىٰ الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سُعيد، أو تستقيم لي قناتكم، ان كذبة المنبر تبقىٰ مشهورة، فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. .) الطبري ٣/ ١٩٧ كما خطب في أهل الكوفة بعد أن جمعت له مع البصرة قائلاً: (. . وإني والله لا أقوم فيكم بأمر الا أمضيته على إذلاله، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة إمام على المنبر. .) الطبري ٣/ ٢١٩.
كما خطب ابن زياد في أهل البصرة قائلاً: (فو الذي لا إله غيره، لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لاقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الادنىٰ بالاقصىٰ حتىٰ تستمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق، أنا ابن زياد، أشبهته من بين من وطىء الحصىٰ لم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم) وخطب في أهل الكوفة بعيد وصوله إليها: (. . فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر، وسوطي وسيفي على من ترك أمري الطبري ٣/ ٢٨١ وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه، الصدق ينبئ عنك لا الوعيد) الطبري ٣/ ٢٨٦.

تجمع النساء، أثار الرجال إعلان الثورة قبل موعدها

هل استدرج ابن زياد الثوار بسجن (هانيء)؟

لقد بدأ التجمع الكبير المناهض لابن زياد بتجمع نسوي ساخط حزين من مراد يشجب ما فعله ابن زياد بهانيء (وإذا نسوة لمراد مجتمعات ينادين: يا عثرتاه، يا ثكلاه)[1].

وقد أثارت هذه النداءات النسوية الغاضبة أهل الكوفة وأصحاب مسلم علىٰ وجه الخصوص الذين بايعوه، وربما أعلن مسلم ثورته قبل الموعد المحدَّد لهذا السبب، وربما كان ذلك هو الأمر الوحيد الذي يستطيع القيام به؛ اذ كيف يتقاعس عن نصرة أكثر أصحابه نصرة له ويتركه بيد الطاغية، بينما ثارت الجماهير غاضبة لهذا الأمر، ولعلها لم تتح له الفرصة للقيام بعمل من شأنه انجاح مساعيه لاتمام البيعة للإمام الحسين عليه السلام وفق الخطة التي لا بد أن يكون قد وضعها لهذا الغرض.

لم يكن أمر اعتقال هانيء وضربه مما يمكن السكوت عنه، رغم أن رد الفعل الغاضب يمكن أن يتلاشىٰ بمجرد أن تلوح الدولة بعصاها الغليظة التي طالما لوحت بها من قبل واستعملتها، وبمجرد أن يقوم أعوانها من الأشراف وغيرهم بتخذيل الناس وتخويفهم من المخاطر المحتملة من هذه الثورة، وهو ما فعلوه بالضبط بعد ذلك ونجحوا فيه.

كانت الكوفة تحتاج إلىٰ حصانة ضد هذه المخاوف وربما كانت تحتاج إلىٰ عدة أيام إضافية لإستكمال هذه الحصانة واستكمال الإستعدادات النفسية والعسكرية لكي تكون قادرة على مواجهة دولة الظلم بصلابة وقوة، إلا أن حادث القبض على هانيء بعد استدراجه لم يتح الفرصة لهذا العمل.

ولعلَّ ابن زياد بالقائه القبض على هانيء، وهو أحد أقطاب الثوار الرئيسيين في الكوفة، اراد أن يفوت الفرصة على مسلم لاستكمال إستعداداته، خصوصاً وأن أمره لم يكن مكشوفاً، ولم يستطع ابن زياد سوى دس أحد أعوانه لمراقبة تحرك الثوار، وحتىٰ هذا الحين لم يستطع كشف حجم الثوار وتنظيماتهم ولم يبلّغ إلا عن هانيء وحسب.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٦.

لقد أراد ابن زياد استفزاز الثوار ليظهروا قوتهم قبل الأوان وقبل أن يكملوا استعداداتهم لمواجهته لتتاح له فرصة إفشال الثورة والقضاء عليها قضاء تاماً.

وقد أراد مسلم معرفة الموقف في (القصر) وحقيقة وضع هانيء، وأعد خطة، حربية سريعة لمواجهة ابن زياد ومحاصرته، بعد نداء نسوة مراد.

ويقول رسوله للقصر لإستطلاع ما صار إليه أمر هانيء، (فأمرني أن أنادي في أصحابه وقد ملأ منهم الدور حوله، وقد بايعه ثمانية عشر الفا، وفي الدور أربعة آلاف رجل، فقال لي: نادِ: يا منصور أمت؛ فناديت: يا منصور أمت؛ وتنادىٰ أهل الكوفة فاجتمعوا إليه، فعقد مسلم لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي على ربع كندة وربيعة، وقال سرَّ أمامي في الخيل، ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي علىٰ ربع مذحج وأسد، وقال: أنزل في الرجال فأنت عليهم، وعقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة، ثم أقبل نحو القصر، فلما بلغ ابن زياد اقباله تحرز في القصر وغلّق الأبواب)(١).

ويروي عباس الجدلي، أحد القادة الأربعة، قال: (خرجنا مع ابن عقيل أربعة آلاف، فلما بلغنا القصر الا ونحن ثلثمائة؛ وأقبل مسلم يسير في الناس من مراد حتىٰ أحاط بالقصر، ثم أن الناس تداعوا الينا واجتمعوا، فوالله ما لبثنا إلا قليلًا حتىٰ إمتلأ المسجد من الناس والسوق، وما زالوا يثوبون حتىٰ المساء، فضاق بعبيد الله ذرعه، وكان كبر أمره أن يتمسك بباب القصر، وليس معه ثلاثون رجلًا من الشرط عشرون رجلًا من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه، وأقبل أشراف ابن زياد يشرفون عليهم، فينظرون اليهم فيتقون أن يرموهم بالحجارة وان يشتموهم وهم لا يفترون على عبيد الله وعلىٰ أبيه)(٢).

كانت تلك إذاً ثورة شعبية كبيرة، وإذ تراجع معظم الثوار خلال مسيرهم للقصر، متوقعين عواقب سيئة من ذلك المسير السريع، فإنهم سرعان ما تداعوا إلىٰ أصحابهم واجتمعوا حتىٰ ملأوا والمسجد والسوق، ولنا أن نتصور حجم الجماهير التي ملأت مساحة هذين المكانين الكبيرين. مقابل خمسين شخصاً كانوا مع ابن زياد، هربوا منهم وتحصنوا بالقصر.

(١) الطبري ٣/ ٢٨٦ - ٢٨٧ وتراجع بقية المصادر.

(٢) نفس المصدر السابق ٣/ ٢٨٧ وراجع بقية المصادر الأخرىٰ المذكورة في هذه الدراسة.

كان عمل ابن زياد وأشرافه أسرع من عمل الثوار، وقد تسلل اليه بعضهم رغم المخاطر التي كان يمكن أن يتعرضوا لها، وأشرف بعضهم على الثوار رغم المخاطر المحتملة أيضاً.

سباق لحسم الموقف

كان الأمر يقتضي حسماً سريعاً من قبل الثوار وان لا يعيروا أذانهم بعد ذلك للأشراف الذين التقطوا أنفاسهم، فقاموا بحملة محمومة لتخذيلهم عن مسلم.

ولعل الثوار لم يبدوا قدراً من الانضباط وروح الحزم التي تميز بها عدوهم، وحسبوا أنهم بمجرد أن يصلوا الى باب القصر فإن عدوهم سينهزم أو يفتح لهم باب القصر، ولعل غاية بعضهم لم تكن إلا انقاذ هانىء وحسب استجابة لحمية قبلية أو لصرخات النساء الباكيات، ولعلهم قد تنازعوا حول السبب الذي قدموا من أجله لمحاصرة القصر. غير أنهم من المؤكد لم يعطوا الفرصة الكاملة لمسلم لإنجاز خططه والقضاء على عدوه، واكتفى معظمهم بالتكبير والصياح وحتىٰ في ذلك الموقف ربما أعد الكثيرون منهم خطاً سريعة للتراجع وترك مسلم.

كان السباق محموماً بين الأشراف وعموم الناس.

ولم يكن الموقف في الأغلب الأعم وعلى الدوام في سباق كهذا إلىٰ جانب عموم الناس، الذين ربما فقدوا الهدف المشترك الذي يوحدهم، بينما يجد الأشراف مثل ذلك الهدف دائماً، ولعل مصلحتهم المشتركة في ظل دولة الظلم يبرز أمامهم على أنه هو الهدف الأول مع أنهم لا يعترفون بذلك أحياناً ويبررون وقوفهم ضد الناس بنفس المبررات التي ترفعها دولة الظلم وهي مبررات معروفة مكشوفة.

لم يكن الموقف إلىٰ هذه اللحظة إلىٰ جانب ابن زياد، وقد بات الخطر قريباً منه الى درجة لم يجد معها بدا من الهرب أمام المد الجماهيري الذي وصل المسجد وأحاط به وبالقصر وقد هرب إلىٰ داخله، وقد جاء مسلم، قائد الثورة بنفسه ليخلص هانىء أولًا ولعله قد يفكر بالقضاء عليه وقتله إذا ما أبدىٰ مقاومة مسلحة وهو ما عرضه عليه بعض أتباعه ورفضه.

ولو أنه قام بتسليم هانىء في لحظة الضعف هذه، لربما عدّ ذلك استسلاماً سريعاً من قبله، ولربما طمعت الجماهير الغاضبة بأكثر من تسليم هانىء إليهم وحاولت قتله، وربما قام هانىء نفسه، وهو الذي عرفت صلابته وشجاعته رغم أنه

كان أعزل وحيداً مقابله، بدور المحرض الرئيسي لهذه الجماهير خصوصاً وأنه قد أهانه وضربه ضرباً مبرحاً لا زالت آثاره تبدو على وجهه.

وربما كان ابن زياد بين نارين، نار الاستسلام للجماهير الغاضبة التي أتت تطالب بهانيء وربما طالبت بأكثر من ذلك، ونار الصمود أمامها، فكلتاهما تشكلان خطراً محققاً له، وربما لو كان كل أبدىٰ أدنىٰ بادرة للصلح أو تسليم هانيء، لعاد الأمر وبالًا محققاً عليه في النهاية ولكان قد وضع نفسه في مأزق خطير قد لا يستطيع تخليص نفسه منه.

إن الجماهير المظلومة، لا تستطيع أن ترىٰ جلادها مستسلماً خانعاً دون أن يشجعها ذلك على الاقتصاص منه، حتىٰ وإن أبدىٰ استعداده للتوبة أو التراجع، إن صورته لا تكتمل في ذهنها إلا ومعه سيفه وسوطه وعصاه.

مع الدولة.. لا تراجع

كان (الأشراف) مع ابن زياد قلباً وقالباً، وكان هؤلاء الورقة الرابحة التي طالما تلجأ الدولة إلىٰ استخدامها منذ عهد معاوية بكل مهارة وفن جدَيرين بعبقري الشر وخلفائه ورجاله، وقد استطاعت بواسطتهم تطويع سائر الناس واخضاعهم وربطهم إلىٰ العجلة الأموية لتنفيذ كل مخططاتها ومشاريعها وتحقيق كل طموحاتها التي تقاطعت مع الإسلام منذ البداية.

وكما سبق وأشرنا في هذا الفصل، فقد كان الأشراف يرون في استمرار الحكم الأموي، استمراراً لدوام حالة (الشرفية) التي يتمتعون بها، واستمراراً لبقائهم ثابتين على رأس البناء الهرمي للمجتمع مقربين من السلطة العليا، ومتمتعين بالامتيازات والأموال التي غالباً ما تجود بها عليهم؛ مما يتيح لهم تعزيز حالة الاستقرار والثبات لأوضاعهم والتمهيد لتحقيق مكاسب وأرباح مرتقبة في المستقبل.

وهذا هو الأمر الأول الأساس الذي يمنع الأشراف والملأ المتحلقين والمحيطين بكل الفراعنة والطواغيت على مر العصور من قبول التغيير حتىٰ وإن كان موحىٰ وموصىٰ به من السماء؛ وحمله إلىٰ الناس الأنبياء والمرسلون؛ وهو أمر طالما تعرض له القرآن الكريم وأشار إليه إشارات عديدة في معرض استعراض الواقع التاريخي الذي أحاط بالرسل، ووضعه أمام أعيننا لنعتبر به، ولكي لا تتكرر ممارسات الأشراف والملأ الخاطئة إذا ما ظهر مجدداً وأحاطوا بطاغوت جديد، أن تعريف

القرآن الكريم بهؤلاء يتيح لنا تجنب سيطرتهم ونموهم وانتشارهم على حساب المجتمع الإسلامي كما يتيح لنا رصد تصرفاتهم وسلوكهم ومنع كل ما شأنه تدمير حياتنا الإسلامية.

وكان (أشراف الكوفة) هو الرصيد الكبير والوحيد المتبقي لابن زياد، وكان عليه أن يستخدمهم الآن بكامل طاقتهم واستنفادهم جميعاً دون استثناء ما دام يخوض غمار ذلك السباق السريع مع مسلم ليتحدد على ضوئه مستقبله وحياته وربما مستقبل وحياة دولته كلها، فلربما كانت نتيجة مساعيهم الموحدة والمنظمة، وإذا ما القوا بثقلهم الاجتماعي مرة واحدة واستخدموه لصالحه قد أتت بثمارها لصالحه وصالح دولته التي تتعرض لمخاطر حقيقية جاده، ولربما أثروا على الناس، وهم غالباً من قبائلهم وأهليهم وذويهم، ولربما نجحوا في منعهم من الاستمرار بهذه الثورة التي أعلنت قبل الأوان، وقبل إكمال الاستعدادات اللازمة لها، وكل ذلك نتيجة القبض على هانىء وضربه وسجنه.

تخذيل الناس: سلاح لئيم لجأ إليه (الأشراف)

وقد كان أولئك الأشراف يعلمون أن أقصىٰ ما قد يتعرضون له من قبل الجماهير الغاضبة، هو الضرب أو الشتم لوجودهم مع ابن زياد، ولم يكن من المرجح أن يقتلوا أو يعذَّبوا إذا ما حاولوا (نصيحة) الناس وحثهم على ترك مسلم والتراجع عن ثورتهم ضد ابن زياد ودولة الظلم الأموية، وهكذا، فلم يكن يبدو أنهم يغامرون بحياتهم ومستقبلهم إلىٰ حد بعيد، ولم يكونوا يتعرضون لخطر الموت عندما قاموا بمهمة ثني الناس عن عزمهم بالاستيلاء علىٰ القصر وتخليص هانىء.

ولو أنهم كانوا يحتملون تعرضهم لمثل ما كان محتملًا أن يتعرض له ابن زياد، لما أظهروا رؤوسهم أمام الجماهير الغاضبة ولما طلبوا منها التفرق أو تخذيلها وتحذيرها (عقوبة السلطان) والجيش القادم من الشام، ولكانوا قد اختفوا من أمام أبصارهم.

ولعل هناك أعداداً كبيرة من هذه الجماهير ترىٰ ما يراه هؤلاء الأشراف وتتأثر بهم وتتابعهم، ولعلها حسبت أنها لن تراهم مع ابن زياد حين بلغ الأمر ذلك الحد، ولعل ذلك سيسهل مهمتها باقتحام القصر وإعلان الثورة وتخليص هانىء. إلا أن وجود الأشراف الذين لا بد أن يكونوا من ذوي التأثير الكبير على أفراد قبائلهم

ومعارفهم، مع ابن زياد وقيامهم بالمهمة التي كلفهم بها، قد ساعد علىٰ إحباط مهمة مسلم وهجوم الثوار الذي لو كان قد استمر بنفس الاندفاع والقوة والحماس وطالبوا بهانىء حالاً واستعملوا بعض الأساليب التي غالباً ما يلجأ اليها ابن زياد وأمثاله، لكانوا قد سيطروا على القصر وعلى الكوفة بأسرها ولأنقلب ميزان القوىٰ لصالح مسلم ولاتخذت الثورة بعد ذلك مجرىٰ آخر يختلف عن ذلك الذي اتخذته.

(دعا عبيدُ الله كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي، فأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج فيسير بالكوفة ويخذّل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم الحرب، ويحذرهم عقوبة السلطان، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت، فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن أبجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن العامري، وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشاً إليهم لقلة عدد من معه من الناس)[1].

لقد استنفر ابن زياد أشرافه ومَن أطاعهم من قبائلهم، لتخذيل الناس وتخويفهم وبث الإشاعات حول وصول الجنود من الشام إليهم، وقد كان أهل الكوفة يعرفون مدىٰ حقد أهل الشام عليهم وكانت تجربتهم معهم أليمة شاقة، وقد علموا انحيازهم ضد أمير المؤمنين عليه السلام مع معاوية وبقاءهم معه إلىٰ النهاية.

كان أهل الكوفة يعلمون أن ذكريات أهل الشام عنهم لم تكن مما يسر نفوسهم، ولعلهم يطمحون إلىٰ الانتقام منهم، إذا ما أتيحت لهم فرصة حرب جديدة يشنها معاوية أو يزيد، فهؤلاء هم قتلة آبائهم وإخوانهم في صفّين.

كان أهل العراق يعلمون كل ذلك، ويعلمون أن أهل الشام إذا ما وصلوا اليهم فإن أقل ما يمكن أن يفعلوه بهم هو أن يبيدوهم ويبيحوا أموالهم وأعراضهم وأنفسهم.. لذلك فإن استعمال هذه الورقة الجديدة مع ورقتي التهديد وورقة الرشوة والوعود بالعطاء، قد ساعد ابن زياد إلىٰ حد بعيد في مهمته، وساعد الأشراف علىٰ النجاح التام في مهمتهم.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٨٧ وفي رواية أخرىٰ.. (.. فبعث عبيد الله الى الأشراف فجمعهم إليه ثم قال: أشرفوا علىٰ الناس فمنوا اهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجنود من الشام إليهم) نفس الصفحة.

ونستعرض هنا كلام الشريف كثير بن شهاب، الذي كان أول المتكلمين وربما كان آخرهم، حتىٰ كادت الشمس أن تحجب، قال كثير: (أيها الناس، الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطىٰ الأمير عهداً: لئن أتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم، أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وان يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتىٰ لا يبقىٰ له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جرّت أيديها.

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا.

فلما سمع مقالتهم الناس أخذوا يتفرقون وأخذوا ينصرفون)[1].

وكان أهل الكوفة يعلمون أيضاً أن ابن زياد إذا ما تمكن منهم، فإنه سينفذ تهديداته حقاً، وأنه سيلجأ إلىٰ سياسة الغشم التي تبنتها الدولة الأموية ولجأ إليها سلفه زياد، وهي سياسة قائمة على أسس مبادىء غير إسلامية لبناء دولة إسلامية مزورة ومشوهة، إن ذلك يعني أن تجرد عليهم الدولة الأموية كل قواها وكل جيوشها وتذيقهم كل صنوف التنكيل والعذاب والحرمان التي سبق أن ذاقوها من قبل في ظل هذه الدولة والتي لا يزالون يشعرون بمرارتها وآثارها.

لقد رأىٰ أهل الكوفة كما رأىٰ المسلمون جميعاً، المبادىء تستباح من قبل (الخليفة) الذي نُصّب على هذه الأمة برغمها قائداً وإماماً، ورأوها تستباح من قبل أقربائه وحاشيته وعماله وجنده، كما رأوها تستباح من قبل أشرافهم الذين انساقوا مع موجة الدولة وانجرفوا أمامها وكانوا أول المستسلمين المهزومين.

لم تكن المبادىء هي التي تتحكم، ولم يكن الإسلام هو الذي يسود.

كشرت الجاهلية عن أنيابها ثانية، وظهرت شريعة الغاب، شريعة القوة والغشم والأخذ علىٰ الظن والشبهة، وأخذ البريء (بالسقيم)، والشاهد بالغائب، ووجد كل فرد نفسه وحيداً أمام سلطان الدولة وجبروتها بعد أن صوروها وجسموها كحيوان هائل مفترس لا يتورع عن التهام كل من يقف في طريقه.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٨٨ وراجع بقية المصادر الأخرى..

فما عسىٰ أن يفعل أولئك الأفراد البسطاء المغلوبين المتفرقين الضعفاء أمام الهجمة الشرسة التي تشنها عليهم دولة الظلم.

لقد اندفعوا في السابق في ظل حياة سليمة، وبدافع من حماسهم وحبهم لأولئك الذين رأوا أن الحياة لا تستقيم إلا معهم وأنَّ الدين لا يطبق إلا في ظلهم، ورأوا سعادتهم ومستقبلهم مرهونين باتباع خطاهم وآثارهم.. وقد شهدوا وقفة أمير المؤمنين عليه السلام للدفاع عن الإسلام منذ أن جاءه الإسلام ضد الجاهلية والكفر ثم ضد الناكثين والمارقين والقاسطين وكيف رفع سيفه طيلة حياته ولم يغمده إلا عند استشهاده، عندما استهدفته اليد الخارجية الغادرة، ورأوا كيف تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن حقه ووقع وثيقة الصلح مع معاوية عندما تخلوا هم عنه وساوموا عدوه، لكي يحفظ الأمة ويضمن سلامة أبنائها وهو يرىٰ أمامه الوحش الأموي المفترس الذي لا يهمه إلا التغلب على فريسته والتهامها.

لقد حاربوا معهما، وتخلت غالبيتهم عنهما، وكان الأشراف أول من تسلل إلىٰ صفوف أعدائهما، ومع ذلك ظلوا متيقنين أن منهجهما رغم تخرصات أعدائهما والصعوبات التي أوجدوها لهما هو المنهج الإسلامي الأصيل الذي اختطه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وظلت قلوبهم معهما وإن استدرجوا للوقوع في الفخ الأموي الذي نصب لهم بمهارة وحذق جديرين بمعاوية بطل التحريف وعبقري الشر.

قدوم الحسين عليه السلام: فرصة لن تتحقق ثانية

لقد رأىٰ أهل الكوفة في ثورة الحسين عليه السلام ضد الإنحراف الأموي المعلن، فرصتهم السانحة للإلتحاق بالثوار، وطلبوا أن تكون الكوفة مركزاً للثورة، ولعلهم لم يضعوا في حساباتهم رد الفعل العنيف الذي ستلقاهم به الدولة، وحسبوا أن الأمر مع يزيد سيكون أهون منه مع معاوية.

غير أن البطش الأموي لاح لهم ثانية، وبدا لهم أنهم سيصطدمون بالصخرة الأموية الصلدة، وأنهم سيتحطمون إذا ما ساروا إلىٰ نهاية الشوط، ورأوا أن أول من تراجع وتخاذل ثانية، أشرافهم ورؤساؤهم، ولم يكن من المحتمل أن يصمدوا هم، ورؤساؤهم في صف عدوهم وإلى جانبه، وقد تراجعوا بدورهم منهين سنوات الكفاح المرير في ظل أئمتهم الحقيقيين بعد أن تعبوا وسئموا وأصبح همهم إيجاد المبررات

لهذا التراجع، حتىٰ ولو اقتضىٰ الأمر التشكيك بحقيقة ودوافع أطراف النزاع، وإذ أنهم في مرحلة ما وطّنوا أنفسهم فيها على الوقوف موقف الحياد، فإنهم بالتالي انساقوا للوقوف مع الطرف الآخر الذي ظلوا يحاربونه في ظل أمير المؤمنين عليه السلام سنوات عديدة، وطالما أن اثارة الشكوك كان من مصلحتهم وكان سيتيح لهم القعود والتراخي والاستسلام لحياة الهدوء والدعة فإنهم لم يروا مانعاً من ذلك، وأصبح ذلك طابعاً لهم طالما أنه يتيح لهم النجاة بجلودهم والهرب من الكفاح المرير الذي بدأوه مع أمير المؤمنين عليه السلام.

(العراقيون قدموا من التضحيات شيئاً كثيراً، بذلوا أموالهم ونفوسهم ودماءهم في حروب ثلاثة، الاف من العراقيين ماتوا وقتلوا، عشرات من الأطفال يتموا، الاف من النساء، أصبحن أرامل، الاف من البيوت والعوائل تهدمت، كثير من المدن والقرىٰ غارت عليها جيوش معاوية، كثير من هذه المآسي والويلات حلت بهؤلاء المسلمين نتيجة ماذا ولأجل ماذا لأجل أن يزداد مالهم؟ لا. لأجل أن يزداد جاههم؟ لا.

وإنما لحساب الرسالة. لحساب الخط، لحساب المجتمع الإسلامي لأجل هذا الهدف الكبير. وهذا هدف أكبر، أعز من كل النفوس، وأعز من كل الدماء وأعز من الأموال.

لكن نحن يجب أن نقدر موقف هؤلاء الذين ضحوا وبذلوا وقدموا، ثم أصبحوا يشككون لأن من مصلحتهم أن يشككوا، وأصبح الإمام يدفعهم فلا يندفعون، يحركهم فلا يتحركون. لماذا، لأن من مصلحتهم أن يعطوا للمعركة مفهوماً جديداً، وهو أن القصة قصة زعامة علي أو معاوية، ما بالنا؟ علي ومعاوية، إمّا أن يكون هذا زعيماً وإما أن يكون ذاك زعيماً، نحن نقف على الحياد ونتفرج، فإما أن يتم الأمر لهذا أو لذاك. هذا التعبير بداياته، وهذا التفسير الذي أوحته مصلحة هؤلاء وهؤلاء، هو الذي كان يشكل عقبة دون أن يتحركوا، دون أن يتحرك هؤلاء من جديد إلى خط الجهاد)[1] بل إنهم تحركوا ليكونوا في خط أعداء الاسلام بعد أن سيطر هؤلاء على الموقف، مبررين موقفهم الجديد بالمبررات والشكوك القديمة.

---

(١) أهل البيت ـ تنوع أدوار ووحدة هدف ـ الشهيد الصدر ١١١ - ١١٢.

وما حصل في ظل معاوية وعهده، حصل في عهد يزيد، وجدوا أنفسهم أمام مواجهة حقيقية وأمام حاكم حازم لا يتورع عن اللجوء إلىٰ الأساليب التي لجأ إليها أبوه من قبل، وكان عبيد الله يمثل خلاصة القوة الأموية وقد رمتهم به في هذا الموقف الدقيق، وربما عاد إلىٰ أذهانهم ما لقوه هم وعوائلهم من الحكم الأموي ومن زياد خاصة كانت خلاصة سعيهم وجهادهم تغلب أعدائهم عليهم حتىٰ أصبحوا سادتهم، فهل سيرد الجهاد الجديد مع الحسين عليه السلام هؤلاء الأعداء؟ وهل يستطيعون الآن تحقيق ما عجزوا عنه من قبل؟.

تخلوا عنه فأضاعوا فرصتهم الأخيرة

لماذا ستكون شريحة معينة من أهل الكوفة معنيّة بأمر ثورة الحسين عليه السلام لتلتف حول مسلم وتثور معه على حاكم الكوفة، بينما تقف شرائح عديدة موقف للمتفرج؟.

ألا يكون من صالحهم في هذه الحال أن يتفرقوا عن مسلم؟ وكيف يتفرقون إذا لم يجدوا المبرر لهذا وإذا لم يجده لهم من يريد تفريقهم؟ وما عسىٰ أن يكون المبرر هذه المرة سوىٰ إعادتهم للشكوك والذكريات القديمة؟.

خصوصاً وأنَّ أشرافهم وكبراءهم قد أعلنوا تمسكهم بخط الدولة ودعوهم إلىٰ التخلي عن مسلم.

لقد وجد الثوار أنفسهم مع مواجهة حقيقية مع الناس الآخرين ممن لم يشتركوا معهم ومع الأشراف والزعماء المنحازين إلىٰ الدولة أصلًا ومع الدولة الغالبة القاهرة، وكان من مصلحتهم وهكذا رأوا أن يتراجعوا أمام أقل التهديدات والتحذيرات، فكيف إذا ما كثفت هذه التهديدات والتحذيرات واشتركت بها مئات الأبواق المتمثلة بالأشراف والناس البسطاء، الآخرين، حتىٰ من قبل عوائلهم ونسائهم.

(إن المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف؛ الناس يكفونك ويجيء الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر، انصرف فيذهب به، فمازالوا يتفرقون ويتصدعون حتىٰ أمسىٰ ابن عقيل وما معه إلّا ثلاثون نفراً في المسجد، حتىٰ صليت المغرب، فما صلىٰ مع ابن عقيل إلا ثلاثون نفساً، فلما رأىٰ أنه قد أمسىٰ وليس معه إلا أولئك النفر خرج متوجهاً نحو أبواب كندة، وبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه انسان،

والتفت فإذا هو لا يحس أحداً يدله على الطريق، ولا يدله على منزل ولا يواسيه بنفسه ان عرض له عدو)[1].

وقد عرفنا بقية القصة، وكيف أُسلم مسلم لابن زياد بعد أن وُعد بالأمان، وكيف أُخلف الوعد، وكيف وقف شامخا أمامه لم يهن ولم يتنازل أو يضعف حتىٰ ساعة استشهاده.

الانسحاب: الأمر الغريب الذي أثار دهشة ابن زياد

لقد كان تخاذل أهل الكوفة بعد أن أحاطوا بالقصر وملأوا المسجد والسوق، وتراجعهم وانسحابهم بتلك السرعة الكبيرة، أمراً غريباً أذهل ابن زياد وأثار تعجبه واستغرابه، كما أنه لا يزال يثير استغراب العديدين منا حتىٰ الآن، مع أن له مبرراته التي أوضحنا قسماً منها في هذه الدراسة. صحيح أن ابن زياد بذل جهوداً كبيرة لتخذيل الثوار واستنفر كل أعوانه وأصحابه لهذا الغرض، إلا أنه لم يحسب أن جهوده ستكلل بذلك النجاح المنقطع النظير.

وقد قال لأصحابه عندما طال عليه الأمر وأصبح لا يسمع لأصحاب مسلم صوتاً كما كان يسمعه قبل ذلك: (اشرفوا فانظروا هل ترون منهم أحداً، فأشرفوا فلم يَروا أحداً. قال: فانظروا لعلهم تحت الظلال قد كنوا لكم، ففرعوا بحابح المسجد،

(١) الطبري ٣/ ٢٨٨ وراجع بقية المصادر المذكورة في هذه الدراسة وقد وردت رواية أخرىٰ عن أصحاب مسلم وتفرقهم عنه وبقاء مجموعة قليلة قاتلت دونه.. (فلم يكونوا يمرون في طريق يميناً ولا شمالاً إلا وذهبت منهم طائفة، الثلاثون والأربعون ونحو ذلك... فلما بلغ السوق، وهي ليلة مظلمة ودخلوا المسجد، قيل لابن زياد: والله ما نرىٰ كثير أحد، فأمر بسقف المسجد فقلع، ثم أمر بحراديّ فيها النيران، فجعلوا ينظرون فإذا قريب خمسين رجلاً، فنزل فصعد المنبر وقال للناس تميزوا ارباعاً أرباعاً، فانطلق كل قوم إلىٰ رأس ربعهم، فنهض اليهم قوم يقاتلونهم، فجرح مسلم جراحة ثقيلة، وقتل ناس من أصحابه، وانهزموا..) الطبري ٣/ ٢٩٩ ومن مضمون الروايتين نجد أن معظم أصحاب مسلم قد تخلوا عنه بفعل تخذيل الأشراف وتأثيرهم على عوام الناس وعلى النساء خاصة، وقد كنَّ قد نكبن من قبل بأزواجهن واخوانهن.. وهكذا أتيح لهم إيجاد العذر المناسب لتخليهم عنه.. وهو عذر يتيح لهم التنصل من المسؤولية باعتبار أن غيرهم يكيفهم وأنهم مهما فعلوا لن يستطيعوا تغيير الواقع الفاسد والقضاء على الحكام الظلمة.

وجعلوا يخفضون شُعَلَ النار في أيديهم، ثم ينظرون: هل في الظلال أحد؟ وكانت أحياناً تضيء لهم وأحياناً لا تضيء لهم كما يريدون، فدلّوا القناديل وانصاف الطنان تشد بالحبال، ثم تجعل فيها النيران، ثم تدلىٰ، حتىٰ لا تنتهي إلىٰ الأرض، ففعلوا ذلك في أقصىٰ الظلال وأدناها وأسطها حتىٰ فعلوا ذلك بالظلة التي فيها المنبر، فلما لم يروا شيئاً اعلموا ابن زياد ففتح باب السده التي في المسجد، ثم خرج فصعد المنبر، وخرج أصحابه معه فأمرهم فجلسوا حوله قبيل العتمة)[1].

خلا المسجد من الثوار، فامتلأ بأعوان السلطة

ومن العجيب أيضاً، أن المسجد الذي هو خلا قبيل لحظات من أصحاب مسلم الثائرين الغاضبين، عاد فامتلأ ثانية بأمر من ابن زياد، وربما كان بين من ملأوه بعض أولئك الأصحاب أنفسهم؛ فقد أصبح همّهم الآن حماية أنفسهم والمحافظة على بيوتهم وعوائلهم.

أمر ابن زياد مناديه فنادىٰ: (ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء أو المناكب أو المقاتلة صلىٰ العَتَمه إلا في المسجد؛ فلم يكن له إلا ساعة حتىٰ امتلأ المسجد من الناس)[2].

وكعادته، عندما استطاع التقاط أنفاسه بعد الموقف العسير الذي وجد فيه نفسه وخرج منه بأعجوبة اتاحها تردد أهل الكوفة وخوفهم الكبير من الوحش الأموي الكاسر، أخذ ابن زياد يحث الناس على الاخبار عن مسلم أو تسليمه للسلطة، وهدد مسؤول الشرطة بالموت إن هو غفل عن مسلم ولم يعثر عليه، وطبيعي أن يكون تهديده لهذا الشرطي الكبير أثره البالغ على من حضر اجتماع الحراس ونقاط التفتيش على أفواه السككك، وهو أمر كان سيثير أكبر المخاوف في نفوسهم، إذ سيرىٰ كل واحد منهم أنه مستهدف شخصياً بهذا التفتيش، وقد يكون وراءه أمر آخر لم يشأ ابن زياد التصريح به أمامهم وربما أصدر تعليماته إلىٰ شرطتها سراً.

(فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره، ومن جاء به فله ديته.

الزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصد ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

يا حصين بن تميم، ثكلتك أمك ان صاح باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلطتك علىٰ دور أهل الكوفة، فابعث مراصدة على أفواه السكك، وأصبح غداً واستبر الدور وجس خلالها حتىٰ تأتيني بهذا الرجل)[1].

لم يتأخر ابن زياد عن استغلال الموقف الذي كان يبدو أنه يسير لصالحه بما يشبه أن يكون ضربة حظ سعيدة، فإذا أتيح له خلال ساعات فقط أن يجرد عدوه من أنصاره وأعوانه، فأن الخطوة التالية كانت باتجاه فصل يتيح له التربص بالحسين عليه السلام وقتله أو إجباره على الاستسلام، وهو الأمر الذي أعد له عدته منذ ذلك الحين.

مجتمع الكوفة: انحنىٰ أمام العاصفة فظل محنيّ الظهر

لقد انحنىٰ مجتمع الكوفة مرة أخرىٰ أمام العاصفة وانهار أمام ضربات ابن زياد وتهديداته، وقد كان على استعداد لذلك الانهيار الذي بدا أمام الدارس العادي وكأنه نتيجة سعي شخصي من ابن زياد ولم يكن نتاج سعي دؤوب من قبل أجهزة الحكم الأموي كلها طيلة عقدين من الزمن، ولم يكن ابن زياد سوىٰ مستثمر واعٍ لجهود الدولة السابقة لتدمير مجتمع العراق، ولم تكن ضربته ضربة حظ سعيدة موفقةً بقدر ما كانت استمراراً للضربات السابقة التي كان مجتمع الكوفة لا يزال يعاني منها عند قدومه إليها.

كانت نسبة الدمار عالية في بعض النفوس التي حسبت أن فرعون الأموي سيظل رباً من دون الله إلىٰ الأبد، وقد انسحقت وتضاءلت إلىٰ درجة حسبت معها أنه موجود في كل مكان يراقب تصرفات وأعمال خدمه ورعيته وعبيده، فلم تكتف بتنفيذ أوامره وتوجيهاته بل اندفعت بمبادرات شخصية إلىٰ القيام بأعمال مستهجنة حتىٰ ربما من قبل أفراد الجيش المستنفر لقتال الحسين عليه السلام وبعض قادته، وقد حسبت أنها تتقرب بتلك الأعمال الى فرعون مع أنها تعلم أنها في مقام ذليل لا يتيح لها الوصول إلىٰ اعتابه.

إن بعض تلك الشخصيات وان بدت هزيلة أو تافهة، فقد لفتت تصرفاتها انظارنا، ولعل نماذج مشابهة تتكرر في كل عصر وتبرز أمامنا الآن في ظل أنظمة الظلم تجعلنا نتساءل عن مصدر الدوافع التي تجعلها تتصرف بهذه الطريقة.

---

(١) المصدر السابق.

إن هذه الشخصيات الهامشية التي ليس لها دور يذكر في التأثير على مسار الأحداث تلفت أنظارها بل وتثيرنا بتفاهتها وسخافة مواقفها وخططها، وحرصها على تقديم الخدمات التطوعية المجانية بمناسبة أو دون مناسبه واستعدادها للقيام بأحط الأدوار التافهة الذليلة. دور الجاسوس، ودور المهرج، ودور الداعية لسيادة الدولة وفرعونها، ودور الشخص الظريف أو المتظرف الذي يسعىٰ للتنكيل بأعداء الدولة لمجرد أنهم أعداؤها، ودور الحريص عليها والمتفاني لها والموالي في خدمتها.

نماذج أفرزتها دولة الظلم

لقد برزت أمامنا شخصيات الأشراف ورؤساء القبائل الهزيلة التي لم تكن سوىٰ أدوات طيعة بيد الدولة لا إرادة لها ولا رأي، وقد سبق أن تعرضنا لبعض تلك الشخصيات في هذه الدراسة.

وتبرز أمامنا مقابل تلك الشخصيات شخصيات هزيلة أخرىٰ لأفراد عاديين، لم يكونوا ليذكروا لولا مواقفهم الملفتة للنظر والمتميزة عن مواقف الآخرين العادية.

وتطالعنا الشخصية الهزيلة لابن تلك المرأة العظيمة التي آوت مسلماً، فذهب يشي به ويخبر عنه أسياده، وقد قيل أنه كان شريراً وكان يشرب مع أصحاب له. لقد جعل جل همه الوشاية بمسلم، وأمضىٰ ليلة مسهداً قلقاً يريد القيام بهذه المهمة رغم علمه أن أمه هي التي آوت مسلماً وأنه يمكن بذلك أن يعرضها هي نفسها للخطر.

كما تطالعنا شخصية بكير بن حمدان الأحمري الذي ضربه مسلم وكاد يقتله، وقيامه بتنفيذ دور الجلاد عندما قام بقتل مسلم بأمر من ابن زياد.

وشخصية ابن حوزة الذي (جاء حتىٰ وقف أمام الحسين، فقال: يا حسين يا حسين فقال الحسين: ما تشاء؟ قال: أبشر بالنار، قال: كلا، إني أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، من هذا؟ قال له أصحابه: هذا ابن حوزه، قال: ربِّ حزه إلىٰ النار، فاضطرب به فرسه في جدول فوقع فيه، وتعلقت رجله بالركاب، ووقع رأسه في الأرض، ونفر الفرس، فأخذ يمر به فيضرب برأسه كل حجر وكل شجرة حتى مات)[1].

ويطالعنا عمر الطهوي التميمي الذي رمىٰ الحسين عليه السلام بسهم أصابه بين كتفيه، ومرة بن منقذ بن النعمان العبدي الذي طعن علي بن الحسين عليه السلام.

---

(١) الطبري ٣/٣٢٢ - ٣٣١ وراجع بقية المصادر الأخرى.

وعمرو بن صبيح الصدائي الذي رمىٰ عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم (فوضع كفه علىٰ جبهته، فأخذ لا يستطيع أن يحرك كفيه)[1] والآخر الذي (انتحى له بسهم ففلق قلبه)[2]

وعبد الله بن قطبة الطائي الذي قتل عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

وعامر بن نهشل التميمي الذي قتل محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

وعثمان بن خالد الجهني وبشر بن سوط الهمداني اللذان قتلا عبد الرحمٰن بن عقيل بن أبي طالب.

وعبد الله بن عزرة الخثمعمي الذي رمىٰ جعفر بن عقيل فقتله.

وعمرو بن سعد بن نفيل الأزدي الذي قتل القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

رغم أنه غلام صغير ورغم أن أحد أصحابه حاول منعه من ذلك، وكثير بن عبد الله الشعبي الذي أبدى استعداده لقتل الأمام عليه السلام قبل نشوب المعركة إذا ما رغب ابن سعد في ذلك.

ومالك بن النسير البدي الذي ضرب الإمام عليه السلام علىٰ رأسه بالسيف وكان على رأسه برنس، فقطع البرنس وأصاب السيف رأسه فأدمىٰ رأسه فامتلأ البرنس دما ورجل من بني سهم الذي ضرب طفلًا صغيراً للإمام عليه السلام بسهم فذبحه.

وعبد الله بن عقبة الغنوي الذي رمىٰ أبا بكر بن الحسين عليه السلام بسهم فقتله.

وهانيء بن ثبت الحضرمي الذي قتل عبد الله بن علي عليه السلام وجعفر بن علي عليه السلام ثم قتل طفلًا صغيراً فقطعه بالسيف.

وخولي بن يزيد الأصبحي الذي قتل عثمان بن علي عليه السلام بسهم وحمل رأس الحسين عليه السلام بعد أن جبن ولم يستطع قطعه، وقام بذلك سنان بن أنس.

ورجل من بني أبان بن دارم الذي حرض الناس لمنع الحسين عليه السلام من الوصول إلى الفرات قائلًا: (ويلكم، حولوا بينه وبين الماء لاتتام اليه شيعته) وضرب

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

فرسه، وأتبعه الناس حتىٰ حالوا بينه وبين الفرات، فقال الحسين: اللهم أظمه، وينتزع الأباني بسهم فأثبته في حنك الحسين عليه السلام فانتزع الحسين السهم، ثم بسط كفيه فامتلأت دما، ثم قال الحسين: اللهم إني أشكو اليك ما يفعل بابن بنت نبيك، فوالله إن مكث الرجل الا يسيرا حتىٰ صب الله عليه الظمأ، فجعل لا يروى)[1].

وبحر بن كعب بن عبيد الله الذي أهوىٰ إلى الأمام بالسيف وقتل طفلًا للإمام الحسن عليه السلام استنكر فعلته.

وبحر بن كعب هو الذي سلب الحسين سراويله فتركه مجرداً، وكانت يدا بحر بعد ذلك تنضحان الماء في الشتاء وفي الصيف تيبسان كأنهما عود[2].

وذرعة بن شريك التميمي الذي ضرب كف الأمام اليسرىٰ.

وقيس بن الأشعث الذي سلب الإمام قطيفته.

والأسود الذي سلب نعليه.

والدارمي الذي سلب سيفه، وعبد الله بن أبي حصين الأزدي الذي قال للحسين عليه السلام: (الا تنظر الى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة، حتىٰ تموت عطشاً).

والناس الذين مالوا على الورس والحلل والإبل فانتهبوها.

والناس الذي سلبوا ثقل الحسين عليه السلام ومتاعه.

والعشرة الذين تطوعوا فأتوا فداسوا الحسين عليه السلام بخيولهم فرضوا ظهره وصدره، ومحفز بن ثعلبة الذي جلب الرؤوس والسبايا إلىٰ الشام وشتم الحسين وأهله وأصحابه أمام يزيد.

ربما لم يكن لما سلبه مَن ذكرنا قيمة ماديّة، إلا أنهم أرادوا أن يدللوا على اشتراكهم بقتل الحسين عليه السلام، مما كان سيرضي قائدهم الذليل ابن سعد وسيده ابن زياد، ولعل طموحهم لم يتعد رغبتهم برضىٰ ابن سعد عنهم رغم أن طموحه قد لا يتعدىٰ طموحهم، ولعله لا يطمع إلا بنظرة رضا ابن زياد وسيده يزيد.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) المصدر السابق.

تبرز عشرات الأمثلة والصور لمثل هذه الشخصيات التي أرادت لفت النظر إلىٰ سلوكها وممارساتها في ظل الطغيان، وما كان أحد ليلتفت اليها لو لا تلك الممارسات المنفرة الشاذة.

مبادرات.. أم محاولات للفت الأنظار

إن هذه الشخصيات التي تطوعت للقيام بأدوار استثنائية بمبادرات شخصية دون أن تتلقىٰ أوامر من أحد، تمثل ذلك التملق الممجوج المرفوض دائماً، وتمثل أولئك المتمسحين باعتاب الدولة دائماً مهما كان اتجاهها وتمثل كل طبقات وأشكال الانتهازيين والمنافقين الذين قد ينقلبون في أية لحظة علىٰ أسيادهم وأولياء أمورهم وإذا رأوا أن الريح لا تهب لصالحهم.

إن أمثال هؤلاء يبررون أعمالهم بالحرص على الدولة وطاعة (الإمام) والوفاء بالبيعة والإلتزام بالأوامر وتنفيذها مع أن أوامر محددة تفصيلية لم تصدر إليهم هم على وجه الخصوص ولم يطلب أحد منهم القيام بما قاموا به.

لقد عبر أحدهم عن موقفه وهو مالك بن النُسير البَدّي عندما جاء بكتاب ابن زياد وأوامره إلىٰ الحرب أن يجعجع بالحسين وأصحابه عليهم السلام وأمره أن لا يفارقه حتىٰ ينفذ رأيه وأمره عندما عاتبه أبو الشعثاء الكندي وقرعه على فعلته بالوقوف إلىٰ جانب الظلمة ـ قائلًا له: (ثكلتك أمك، ماذا جئت فيه!؟

قال: وما جئت فيه، أطعت أمامي ووفيت بيعتي.

فقال له أبو الشعثاء: عصيت ربك، وأطعت أمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار، قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[1] فهو أمامك)[2].

والجدير بالذكر أن أغلب هؤلاء ماتوا أو قتلوا بعد أن ابتلوا بأمراض وحوادث أثر تصرفاتهم تلك أو بعد سنوات قليلة على يد المختار الثقفي وجماعته.

راسلوه والتحقوا بالجيش الذي جند لقتاله

على أن أكثر ما يثير انتباهنا هو أن الجيش الذي استنفر لمقاتلة الحسين عليه السلام

---

(١) سورة القصص، آية ٣٢.

(٢) الطبري ٣/ ٣٠٩ وراجع بقية المصادر الأخرىٰ المذكورة في هذه الدراسة.

ضم العديد من أولئك الذين راسلوه وأبدوا استعدادهم للوقوف خلفه بوجه الحكم الأموي المنحرف. لقد انحازوا في النهاية إلىٰ جانب فرعون، ودفعوا سيوفهم بوجه من جاء ليخلصهم منه ومن جوره، وشاركوا بقتله ونهب متاعه وسلب نسائه وأطفاله.

ولم يتحرجوا أو يخجلوا من موقفهم الشائن وانقلابهم المخزي، وذهبوا إلى حد سب من دعاهم إلىٰ التراجع عن موقفهم والعودة إلىٰ نصر الحسين والتخلي عن ابن زياد وهو زهير بن القين، (اثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له وقالوا: والله لا يبرح حتىٰ نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلىٰ الأمير عبيد الله)[1].

وقد حاول زهير تحذيرهم من أمثال شمر الذين يدفعونهم إلىٰ الحرب دفعاً (عباد الله لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد ﷺ قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبَّ عن حريمهم)[2].

وحيث لم ينفع نداؤه ولم تجدِ نصيحته أرسل الحسين عليه السلام إليه من يستدعيه فقال له: (إن أبا عبد الله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ)[3].

كان الإمام عليه السلام يعلم أن النصح والابلاغ لن ينفع ما دام أهل الكوفة قد وصلوا حداً استعدوا فيه لقتله بعد أن أبدوا استعدادهم لنصرته من قبل. لقد وقعوا في الفخ ولن يكون تراجعهم سهلًا هذه المرة، وسيحتاجون إلىٰ شجاعة كبيرة كتلك التي تمتع بها الحر ليتركوا جيش ابن زياد وينضموا إلىٰ أصحاب الحسين عليه السلام، وهو أمر لا يتاح في الأغلب إلا لمن هم على شاكلة الحر، وهؤلاء قليلون على أي حال.

كما هو حال أهل الكوفة، فقد تخلىٰ عن الحسين عليه السلام بعض من جاءوا معه ورافقوه،، وكان ذلك متوقعاً، لأنهم ظنوا أنه عليه السلام لن يلاقي أية متاعب أو صعوبات وأن الأمور ستكون هينة سهلة، وقد جعلهم الإمام عليه السلام على بينة من الأمر قبل أن يكملوا مسيرتهم إلىٰ الكوفة. إذ ربما لحقهم أذىٰ لم يكونوا على استعداد لتحمله كاستعداد أصحابه الآخرين، فعندما وصله بزبالة خبر مقتل مسلم قال لهم:

(١) الطبري ٣/ ٣٢٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

(أما بعد، فإنه أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد الله بن بقطر، وقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحب منكم الإنصراف فلينصرف، ليس عليه منا ذِمام.

فتفرق الناس عنه تفرقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً حتىٰ بقي في أصحابه الذين جاءوا معه إلى المدينة، وإنما فعل ذلك ونه ظن انما اتبعه الأعراب لأنهم ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون علام يقدمون وقد علم أنهم إذا بيّن لهم لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه)[1].

وقد عزم هؤلاء فعلًا على المضي إلىٰ النهاية رغم أن الإمام عليه السلام قد سمح لهم بالذهاب إن شاءوا وذلك ليلة المعركة وبعد تيقن الجميع بأنهم سيقتلون لا محالة وقد خاطبهم قائلًا: (فاني لا أعلم أصحاباً أولىٰ ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت ابر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، الأواني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملا)[2].

ولم يتركه أحد منهم، فقد كانوا مصممين منذ البداية على المضي حتىٰ النهاية التي كانوا يحتملونها جميعاً وهي الاستشهاد، فالمهمة التي أخذوا على عاتقهم القيام بها مهمة كبيرة تستهدف انتشال الأمة كلها وانقاذها من شباك الإنحراف وسلاسله، ولن يتيح لهم فراعنة الأمة وطواغيتها المضي في مهمتهم، بل لا بد وأن يسعوا لوضع نهاية مأساوية لهم تكون (عبرة) لكل من يريد التعرض لعروشهم بعد ذلك.

وهو أمر لا يقدر عليه إلا من تمتع بأعلى قدر من الشعور بالمسؤولية يشعر معه أن مستقبل الأمة كلها قد يكون رهيناً بتصرفه وصموده بوجه الإرهاب والانحراف وهو ما لم يحتمل وجوده لدىٰ الاعراب الساعين وراء الغنائم والفوائد، كما لم يحتمل وجوده لدى من أفرغوا من شعورهم بمسؤولياتهم الرسالية تجاه الأمة المظلومة، وقد حصروا هذه المسؤوليات بشؤونهم الشخصية وشؤون بيوتهم وعوائلهم.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٠٣ـ ٣١٥ وقد ورد أيضاً أنه قال لهم: (هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتىٰ يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري. .) نفس المصدر ٣/ ٣١٥ وقد رفض أهله وأصحابه ذلك وأصروا على البقاء معه حتى النهاية.

(٢) المصدر السابق.

جئنا لنسلم عليك وندعو لك لا لننصرك: علينا ديون ولنا عيال

يروىٰ عن الضحاك بن عبد الله المشرفي قوله: (قدمت ومالك بن النضر الأرجي علىٰ الحسين، فسلمنا عليه، ثم جلسنا اليه، فرد علينا ورحب بنا، وسألنا عما جئنا له، فقلنا: جئنا لنسلم عليك، وندعو الله لك بالعافية، ونحدث بك عهداً، ونخبرك خبر الناس، وانا نحدثك أنهم قد جمعوا على حربك، فرَ رأيك، فقال الحسين عليه السلام: حسبي الله ونعم الوكيل، فتذممنا وسلمنا عليه، ودعونا الله له.

قال: فما يمنعكما من نصرتي؟

فقال مالك بن النضر: عليَّ دين ولي عيال،

فقلت: ان عليَّ دَينا، وإنَّ لي عيالاً، ولكنك أن جعلتني في حل من الإنصراف، إذا لم أجد مقاتلًا قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً)[1].

فهذان شخصان كان ظاهرها يشير إلىٰ أنهما يحبان الإمام الحسين عليه السلام ويميلان إليه، ولم يستطيعا أن يرتفعا بحبهما له إلىٰ درجة الدفاع عنه وعن قضيته حتىٰ الموت كما فعل بقية أصحابه، وقد حاولا تحذيره مما يعد له، ومما بدا أنه كان مستعداً له.

وقد تفاوتا بدرجة الفعل الذي سيقدمانه، فبينما اكتفىٰ أحدهما بالدعاء له، وهو أمر علىٰ مستوىٰ القول وحسب، اشترط الثاني أن يقاتل إذا كان القتال (مفيداً) أو نافعاً على حد تعبيره، أما إذا وصل الأمر وكان دفاعه لا يستطيع رد أعداء الأمام عنه فإنه طلب من الإمام السماح له بالإنصراف في هذه الحالة، وهو ما فعله بعد ذلك حسبما روي لنا.

فالاحتجاج بالدين والعيال ليس أمراً جديداً اكتشفه هذان الشخصان، بل هو أمر يلجأ إليه كل من يريد التهرب من مسؤولياته العامة، حيث يرىٰ أن غيره يكفونه تلك المسؤوليات أما أمر ديونه وعياله فهو أمر خاص به لا يستطيع أحد قضاءه عنه، وإلا فهل ألقيت تلك المسؤوليات العامة لتقويم الانحراف على الحسين وأصحابه عليهم السلام وأُلغيت عن باقي أفراد الأمة؟ وهل لم يكن لهؤلاء أطفال وعوائل يتحملون مسؤولياتهم..؟ وهل جعل الله مسؤولية التغيير والتقويم على أولئك الذين ليست لهم عوائل وليست عليهم ديون؟

---

(١) نفس المصدر السابق ٣/ ٣١٥.

ان من يتقاعس أو يتردد أو يجبن غالباً ما يلجأ إلىٰ مثل هذه الأعذار، وإلا فما عساه أن يقول غير ما قاله هذان الشخصان، وغير ما قاله أهل الكوفة لبعضهم: (انصرف، الناس يكفونك)، وقد انصرف الجميع بالتالي إذ لم يملكوا ارادة التغيير أو الثورة.

أعذار المتخاذلين.. وتبريرات المعتدين

لقد حاول أولئك الذين تخلوا عن نصرة الحسين عليه السلام وأولئك الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك وشاركوا في قتاله، إيجاد الأعذار التي من شأنها أن تجعلهم قادرين على مواجهة الناس والرأي العام وتبرئة ذممهم، وما كانت تلك الأعذار لتنطلي على من عرف حقيقة وأوضاع وظروف ذلك المجتمع الذي عاش في ظل نظام الظلم والانحراف، وهي أعذار واهية لا يزال الكثيرون منا يعمدون إليها عندما ينساقون مع الظالم ويكونون اداة في يده ويزينون له أعماله وجرائمه، وقد يقولون بعد ذلك: إننا لم نرتكب جريمة قتل أحد بأنفسنا، وان دورنا كان ثانوياً، وربما لم نزد على أن حرضنا الظالم على ظلمه، فنحن نشكر الله على أننا لم نقتل أحداً بأيدينا، وكأن فرعون في السابق كان يقتل الناس بيديه، وإن الملأ من حاشيته وأنصاره كانوا كلهم يمسكون السيوف ويقتلون الناس، وكأن الذي يرتكب جريمة يقوم هو بنفسه بإمساك السكين ووضعها في عنق الضحية.

كانت حاشية فرعون تزين له أعماله وجرائمه وتحرضه على ارتكابها، ومع ذلك فلم يذهب أحد إلىٰ تبرئتهم من الجرائم التي كانوا هم سببها المباشر ومصدرها الرئيسي.

ويبدي لنا حوار طريف جرىٰ بين أيوب بن مشرح الخواني، الذي شارك في جيش ابن سعد، وقتل فرس الحر واضطره للوثوب عنه والقتال راجلًا، وبين أبي الوداك أحد شيوخ أهل الكوفة، طرفاً من الأعذار التي يلجأ إليها عبيد الطغاة على مر الأزمان.

لقد ضمهما مجلس تذاكروا فيه واقعة الطف ودور بعض أهل الكوفة فيها، وقد (شكر الله) ابن مشرح على أنه لم يقتل الحر وإنما اكتفىٰ بقتل فرسه، وعندما (قال له أشياخ من الحي): أنت قتلته، قال: لا والله ما أنا قتلته، ولكن قتله غيري، وما أحب أني قتلته، فقال له أبو الوداك: ولم؟

قال: إنه كان من الصالحين، فوالله لئن كان ذلك إثماً، لأن القىٰ الله بإثم الجراحة والموقف، أحب إليّ من أن ألقاه، باثم قتل أحد منهم)[1].

لقد أراد اقناع نفسه بأنه لم يفعل شيئاً سوىٰ قيامه بقتل الفرس، وأنه ربما جرح شخصاً ما، وأنه لم يفعل شيئاً سوىٰ الوقوف مع الجيش المعتدي وحسب، وهو أمر كما يصوره لنفسه، أهون من قيامه بقتل أحد من أصحاب الحسين عليه السلام كالحر.

وربما كان يدري أنه بقيامه بجرح جماعة وعقر خيولهم، وتحريض آخرين على القتل وتكثير أعداد الجيش المعتدي، باعتباره فرداً منه، وصموده أمام الحسين وأصحابه عليهم السلام، يلعب دوراً له أهميته في المحصلة النهائية وهي قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام كلهم، وبذلك فإنه بتجاهله أنه أحد القتلة لا يستطيع إقناع أحد بأنه لم يلعب أي دور.

وإلا، فان يزيد أو ابن زياد، أو ابن سعد ربما لم يقتلوا أحداً من أصحاب الحسين عليه السلام بأيديهم، وكذلك سرجون ووردان والحاشية الملتفة حول يزيد، وإنما اكتفوا بإصدار الأوامر والتحريض على القتل، ومع ذلك، فهل أعلن أحد براءتهم من الجريمة، وهل فكروا هم أنفسهم أبرياء؟ أم أنهم أطرقوا في النهاية خجلًا بعد أن أدانتهم الأمة بأجمعها وحملوا وزر جريمتهم وراحوا تحت شعورهم بالذنب يلقي كل منهم المسؤولية علىٰ الآخرين، كما المحنا إلى ذلك، وكما سنفصله بعون الله عند الحديث عن نتائج الثورة، ولم يقل أي منهم أن الجريمة لم تكن جريمة.

قال أبو الوداك لإبن مشرح: (ما أراك الا ستلقىٰ الله بأثم قتلهم أجمعين، أرأيت لو أنك رميت ذا فعقرت ذا، ورميت آخر، ووقفت موقفاً، وكررت عليهم، وحرضت أصحابك، وكثرت أصحابك، وحمل عليك فكرهت أن تفر، وفعل آخر من أصحابك كفعلك، وآخر، كان هذا وأصحابه يقتلون.. انتم شركاء كلكم في دمائهم)[2].

لقد نفىٰ أبو الوداك ذلك المبرر الدائمي الذي يتذرع به الخانعون والجانحون والسائرون في ركاب الظلم،، وشخّص الأعذار التي يتعللون بها دائماً وهم ينحنون أمام سادتهم وكبرائهم وأئمتهم ومثلهم العليا (المنخفضة) ويكون أداة بأيديهم.

---

(١) نفس المصدر السابق ٣/ ٣٢٦.

(٢) نفس المصدر ٣/ ٣٢٦.

ان لقطات عديدة يمكن أن يشار إليها، ويستفاد منها عند النظر في أحوال المجتمع العراقي بكل فئاته وطوائفه.. وهو موضوع جدير بدراسات أوسع وأعمق للوصول إلىٰ معرفة الأسباب الحقيقية الكامنة خلف الأحداث التي وقعت في تلك الفترة الدقيقة وظلت تؤثر على مجرىٰ تاريخنا الإسلامي إلىٰ يومنا هذا.

ظواهر علىٰ هامش مجتمع الظلم

تصرف غير مسؤول

هناك إحدىٰ الظواهر المكررة التي تبرز في دول الظلم والتي تستلفت النظر، رافقت أحداث الثورة منذ البداية، وبالتحديد منذ قدوم مسلم بن عقيل إلىٰ الكوفة، وحتىٰ استشهاد الإمام الحسين وأصحابه عليهم السلام في واقعة كربلاء، وهي الأداء والتصرف العبثي غير المسؤول من بعض أفراد المجتمع الكوفي، الذين كونوا جيش ابن سعد تجاه الحسين وأصحابه عليهم السلام. والاندفاع اللامسؤول لبيان الولاء الشديد للسلطة الأموية والانحياز المطلق لها، رغم عدم وجود أموي واحد في ذلك الجيش ينقل صورة ذلك الاندفاع وشكل ذلك الولاء لرؤوس السلطة، ورغم أن جهودهم قد تضيع عبثاً دون أن يتوصلوا إلىٰ غاياتهم ويحققوا أمنياتهم.

فراغ نفسي وخواء عقائدي وجهل بالإسلام

وربما كان الدافع إلىٰ ذلك، ما تميز به أولئك المندفعون العابثون من فراغ نفسي وخواء عقائدي وجهل بالإسلام، جعلهم يعتقدون أن مصلحتهم تكمن خلف وقوفهم إلىٰ جانب الدولة الأموية القوية الغنية المتسلطة فعلاً، وربما كان ذلك لدىٰ بعضهم بفعل شعورهم بضرورة تغيير صورة الكوفة التي كانت متحيزة تماماً إلىٰ صف أمير المؤمنين وآله عليهم السلام منذ البداية، وجعلها تبدو الآن وقد ثابت إلىٰ رشدها وعادت إلىٰ من ينبغي أن تكون في أحضانهم وإلىٰ جانبهم وهم بلا شك ـ هنا ـ ممسكو السلطة الأمويون؛ وان ما حصل من الكوفة وأهلها في السابق عندما مالت إلىٰ صف أمير المؤمنين عليه السلام، لم يكن سوىٰ خطأً عابر سيحاولون هم إصلاحه الآن وإعادة المياه إلىٰ مجاريها، لتخضع الكوفة بشكل نهائي للزعامة الأموية، وتعلن عن ولائها لها لإستدرار عطفها عليها.

وربما كان الدافع، ما أراده البعض من امتيازات خاصة، مثل مبلغ من المال أو وظيفة تجود بها الدولة أو ممثلها في الكوفة عليهم.

وربما كان الدافع هو الشعور المؤقت بالقوة وهم يجدون أنفسهم برفقة عشرات

الآلاف من المقاتلين المدججين بالسلاح بمواجهة النفر القليل من انصار الحسين وأصحابه ﷺ.

علىٰ أن الشيء المؤكد هو أن الدافع إلىٰ ذلك لم يكن دافعاً عقائدياً، نابعاً عن خلاف عميق في الرأي والعقيدة المتبناة عن دراية وفهم أوصل إلىٰ أن يشهروا سيوفهم علىٰ الحسين ﷺ.. لتصل بهم الرغبة نتيجة ذلك إلىٰ المحافظة على الدولة الأموية (التي تتبنىٰ الاسلام فعلًا) والدفاع عنها بوجه الخطر المحقق (عليها وعلى الإسلام)، المتمثل بثورة الحسين ﷺ التي قد تجردهم من مكتسباتهم التي حققوا في ظل الدولة الأموية (المسلمة)، هذا إذا كانوا قد حصلوا على تلك المكتسبات فعلًا، وكانت تلك الدولة دولة إسلامية.

لا خلاف عقائدي

ولعل دافع الخلاف العقائدي سيكون موجوداً هنا، لو كان الجيش الذي تصدىٰ لجريمة قتل الحسين وأصحابه ﷺ جيشاً شامياً بحتاً، أو أن قادته شاميون، تربوا وترعرعوا في ظل معاوية وأحضانه وتبنوا توجيهاته وأطروحاته وسياساته، غير أن الجيش هنا جيش عراقي كوفي، وقادته عراقيون، وقد سبق لأفراد عديدين منه، ومنهم قواد في هذا الجيش مثل شبث بن ربعي، أن قاتلوا تحت لواء أمير المؤمنين ﷺ معاوية، رمز الدولة الأموية في صفين وغيرها، وكانوا هم أنفسهم قد أرسلوا يستدعون الحسين ﷺ لإنقاذهم من سلطة يزيد الأموية.

إن الدوافع المذكورة وغيرها قد تكون موضوعاً لدراسات حول المجتمع العراقي في تلك الفترة، وكيف وصل الحال بأفراده ليكونوا على ذلك المستوىٰ من الانحدار الذي انقلبوا فيه من نصرة أمير المؤمنين ﷺ ودعم خطه العقائدي بوجه الانحرافات ومنها الانحراف الأموي، إلىٰ الوقوع بأحضان الدولة الأموية بشكل كلي، ثم التخلي عنها بعد ذلك، والرجوع إلىٰ أحضانها عدة مرات ثم التخلي عنها ونبذها، وإعلان العداوة عليها نهائياً بعد انتهاء حكمها ومحاولة نسيانها إلىٰ الأبد.

خطط معاوية (عبقري الشر)

لقد نجح معاوية إلىٰ حد كبير في تشتيت الأمة الاسلامية وجعلها أحزاباً وفرقاً، ليضمن السيادة الكلية عليها في ظل نزاعاتها وتشرذمها وخلافاتها العقائدية الموهومة والمفتعلة في أغلب الأحيان...

وقد أتاح له وجوده كرأس للدولة طيلة عشرين عاماً، ثم مجيء من تبنوا خطه في السياسة والتصور والحكم، ان يوحي للأمة وخصوصاً أهل الشام ان علياً هو الذي كان قد خرج عليها وسبّب فرقتها وكون له شيعة خاصين به، لا يدينون بالولاء الا لشخصه المجردة وحسب، ولا حتىٰ لشخص الرسول ﷺ نفسه.

إن الدعاية الأموية التي تمادت إلىٰ حد سب أمير المؤمنين عليه السلام على منابرها قرابة الف شهر ونفت عصمة الرسول ﷺ، عملت بشكل دؤوب ومركّز على تشويه قضيّة الإسلام من أساسها، والتأكيد علىٰ الجانب الشخصي البحت واللمسة الخاصة لكل خليفة وصلاحيته في إصدار التشريعات من مبدأ (الاجتهاد) غير المقيد، وإمكانية التمادي في الانحراف والابتعاد عن الاسلام، واللجوء إلىٰ طرق (جديدة) مستحدثة في الحكم والحياة والتشريع، بعيدة عنه، بل ولا تمت اليه بصلة.

كما رأينا من إيحاءات معاوية المتكررة، بأن من كانوا قبله أفضل منه، وأنه أفضل ممن سيأتي من بعده. . وكأن الذي كان قبله لم يكن من المفروض أن يكون مقيداً بتشريعات إسلامية عامة تحفظ للأمة كيانها وتحدد تصرفات أفرادها علىٰ مستوىٰ القيادة أو الأفراد، وكأن من سيأتي بعد أولئك الأوائل لن يكونوا ملزمين بالتقييد بما كان ينبغي أن يتقيد به أولئك ويلتزموا، للحفاظ على الأداء الصحيح المتكامل للدولة الإسلامية، إن أريد لها أن تظل إسلامية حقاً.

ولا شك أن شعوراً بالتراجع والاحباط والذل قد راود العراقيين بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام وصلح الحسن عليه السلام، ولا شك أن مجموعات كبيرة منهم لم ترد أن تستسلم لهذا الشعور بشكل نهائي، فقامت بمراسلة الامام الحسين عليه السلام في عهد معاوية نفسه، كما ذكرنا، ثم عادوا فراسلوه ثانية بعد هلاك معاوية مباشرة، ودعوه إلىٰ قيادتهم للوقوف بوجه الدولة الأموية الجائرة، ثم تخلوا عنه بفعل انحياز أشرافهم ووجهائهم إلىٰ صف الدولة الأموية وتمكنهم من رد الجماهير الغاضبة إلىٰ حظيرة هذه الدولة، وبفعل تهديدات ابن زياد وجواسيسه وشرطه وعرفائه ودراهمه، وبفعل بقاء رواسب الضعف والذل وعدم الشعور بالثقة في نفوس أهل الكوفة، مما مكنه من ترجيح الكفّة إلىٰ جانبه.

فابن زياد لم يقدم على مجتمع ثابت واثق من نفسه مصمم على عزمه، وإنما ورد علىٰ مجتمع متردد متذبذب خائف متوزع، تعبث فيه التيارات والقوىٰ المحلية

المتصارعة، ويشعر بقوة السيف الأموي المشرع فوق رأسه، والذي قد يطيح به دون رحمة أو شفقة في أية لحظة.

مهمة الامام الحسين : إكمال مهمة أمير المؤمنين عليه السلام

كانت مهمة الإمام الحسين عليه السلام هي إعادة هذا المجتمع إلىٰ خط أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وأن يجعله متأكداً من صحة هذا الخط وسلامته من كل بادرة انحراف أو خطا.. والإيمان بأنه نفس خط رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم يقوده إلىٰ عملية التغيير الكبرىٰ في بقية أنحاء العالم الإسلامي.

وكانت تلك مهمة دقيقة تتحكم بها عوامل عديدة ذكرناها فيما مضىٰ، ولو أتيح لعدة قواد أن يقفوا مع الحسين عليه السلام أو مع مسلم منذ البداية مثل الحر بن يزيد مثلاً ولم ينجح أشراف الكوفة في رد الناس تلك الليلة التي تخلىٰ فيها الناس عنه، لكان ميزان المعركة قد انقلب نهائياً ولنجح الحسين عليه السلام في مهمته الميدانية على المدىٰ القصير ولهزم يزيد، وما عدنا نسمع من يأخذ عليه وقوفه ضد الدولة القوية ذات الإمكانات الكبيرة، فرغم ما كان يلوح من مظاهر قوة هذه الدولة، فإنها كانت تشعر بضعفها وتأرجحها وعدم قيامها على أسس قوية مدعمة بالشرعية، وتدرك أنها ستتهاوىٰ أمام أية قوة يقودها أعداؤها، ومن آل البيت عليهم السلام علىٰ الخصوص، وكادت هذه الدولة أن تتهاوىٰ بالفعل بمجرد وفاة يزيد، وكاد قادتها يستسلمون لابن الزبير، لولا ما أشار به ابن زياد، بضرورة تنصيب مروان خليفة بعد يزيد، كما روت لنا كتب التاريخ.

في الشر: تساوى (الأشراف) وسائر الناس

لقد رأينا من قبل كيف انتهت مطاردة مسلم العاصفة لابن زياد، واختفاء هذا الأخير في القصر مع مجموعة قليلة من أهله وخدمه وحاشيته، ثم كيف بدأ الأشراف عملهم، بتخذيل الناس وتخويفهم شر وسطوة الدولة الأموية وأهل الشام، وكيف بقي مسلم وحيداً بعد أن كان محاطاً بعدة الآف من أعوانه ومناصريه.

لقد عمل الأشراف ما عملوه بطلب من ابن زياد وإيحاء منه، وخرجوا بعد ذلك إلىٰ قتال الحسين عليه السلام بطلب منه أيضاً، وهو أمر قد يستطيعون تبريره بأنهم إنما قاموا به استجابة لأوامر عليا لم يكن لهم مناص من الإستجابة لها لأنهم كانوا يخشون على حياتهم ومستقبلهم ومصالحهم، غير أن الذي يدعونا للتأمل حقاً هي تلك

الظاهرة التي رأينا من خلالها بعض أولئك (الأشراف) وغيرهم من سائر الناس المغمورين يندفعون لأعمال (تطوعية) و(مبادرات شخصية) لم يكلفوا بها، أرادوا أن يظهروا بها ولاءهم الاستثنائي المتميز لابن زياد أو سيده في الشام وحرصهم على بقاء وديمومة الحكم الأموي.

وكانت حفنة الهمج الرعاع التي لم تتقيد بمبدأ وعقيدة تقف مقابل الطليعة العقائدية المتقدمة مع الحسين عليه السلام والتي كانت تريد انتشال الأمة كلها من مصيبتها ومن الوحل الذي مرغتها به دولة الظلم الأموية.

وكان معظم أولئك الهمج يحسبون أنهم يشاركون في حفل عابث لم يروا ضيراً أن يرتشفوا فيه من دماء أعدائهم المزعومين ويشاركوا برقصة الموت بأداء صاخب لا يقيم وزناً لأية قيمة عليا، ولا للحياة البشرية على الإطلاق.

كان بعضهم يقتنص أرواح أناس أبرياء، مثل أطفال صغار رويت لنا قصص مروعة عن مقتلهم، بمثل السهولة التي يقدم فيها وحش على اقتناص فريسة في غابة أو صحراء وكانوا يستمتعون بذلك بنفس القدر الذي يستمتع به ذلك الوحش المفترس.

لقد اختفت عند بعضهم الموازين العادية للقيم البشرية المجرَّدة والمطلوبة كحد أدنىٰ لكي يدرك الإنسان أنه إنسان فعلًا يستطيع العيش مع الآخرين، حتىٰ مع أقاربه وعياله ويستطيع أن يشعر بالقليل من مشاعر العطف والغيرة والشجاعة.

إن رصد تلك الحالات التي اندفع فيها أشخاص عديدون لمثل تلك الممارسات تحت مختلف التأثيرات ولمختلف الأسباب، يحتاج وحده إلىٰ دراسة خاصة يتصدىٰ لها اختصاصيون في العلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية والتاريخية لمعرفة أسبابها ودوافعها الحقيقية وأسباب تكرارها في ظل دول الظلم.

غير أننا سنستعرض في هذا الحيّز المحدود الذي خصصناه لهذه الظاهرة الاجتماعية الشاذة، نماذج من أولئك الذين ساهموا بحملة الدم الهمجية بنصيب أوفر وحظ أعظم، وكان لهم (حضور واضح متميز) و(لمسات خاصة) و(مبادرات شخصية) جعلتهم يُذكرون دون غيرهم وتسلط عليهم الأضواء كظواهر غريبة شاذة وعلامات على تدني ذلك المجتمع الذي أريد له أن يبلغ أدنىٰ غايات الانحطاط.

ونكتفي باستعراض بعض اللقطات أو المشاهد التي قد تفيد في مثل هذه الدراسات الواسعة التي ألمحنا إليها.

لقطات ومشاهد ملفتة للنظر: نماذج غريبة

مسلم بن عمرو الباهلي وقلّة الماء:

ففي إحداهما، نرىٰ مسلم بن عقيل، وقد أتي به إلى قصر ابن زياد جريحاً منهكاً، بعد قتال عنيف خاضه ضد أعوان ابن زياد، وقد كاد قبل ليلةٍ لا غير أن يغلب على الكوفة وقد اختبأ منه ابن زياد وحاشيته وأشرافه في القصر، وكادوا يفرون أو يستسلمون لولا موقف (الأشراف) المخذل.. وها هم بعض هؤلاء الأشراف جلوس على باب القصر ينتظرون الإذن بالدخول.. وها هو ذا الشريف مسلم بن عمرو الباهلي جالساً على الباب معهم، ينتظر الإذن بالدخول على ابن زياد ليحظىٰ منه بنظرة أو كلمة أو ابتسامة.

لم يكن خلاف مسلم بن عقيل معه شخصياً، ولم تكن بينهما خصومة أو منافسة أو حتىٰ معرفة شخصية، وكان مسلم بسبيله إلىٰ إنجاز مهمة جليلة مع إمامه عليه السلام وأصحابه، ينقذون بها الأمة كلها، وما كان أعداؤهم إلا من تحيزوا للدولة الأموية الجائرة التي تسلطت على رقاب المسلمين ومقدراتهم.

غير أن مسلم بن عمرو الباهلي، جعل من قضيَّة مسلم قضيّته الشخصية وجعل نفسه عدواً شخصياً له، واعتبر قيامه بوجه الدولة الظالمة إهانة شخصية له واعتبره أمراً يستهدفه بالأذىٰ شخصياً، وهو ذلك المغمور الصغير الذي لا يكاد أحد يحس به والذي لا يستطيع حتىٰ بلوغ مجلس ابن زياد إلا بعد أن يجلس على العتبة ويسمح له الحراس بالدخول إن شاء سيده ذلك، فهو لم يكن مرموقاً إلىٰ الحد الذي يدخل فيه على ابن زياد دون اذن.

وها هو ذا بكل ذلك الغيظ الذي تحفل به نفسه، وقد رأىٰ مسلم بن عقيل بتلك الحال وقد رأىٰ (قُلّة باردة موضوعة على الباب، فقال: اسقوني من هذا الماء، فقال له مسلم بن عمرو: أتراها ما أبردها، لا والله لا تذوق منها قطرة أبداً حتىٰ تذوق الحميم في نار جهنم)[1].

إنها باردة.. ومع ذلك فلم يكن هو من وضعها على باب القصر أو جلبها بنفسه

---

(١) الطبري ٣/ ٢٩٠ والخوارزمي ١/ف ١١ والمجلسي ٤٤/ ٣٥٥ والارشاد ١٩٧ وروضة الواعظين ١٧٦ والمسعودي ٣/ ٦٨ والنويري ٢٠/ ٤٠٢.

إلىٰ هناك، غير أنه انبرىٰ يقسم، وقد رأىٰ حاجة مسلم للماء، ولعله كان يرتجف من الغيظ والسعال الخانق المحموم عندما فعل ذلك، وقذف بالكلمات التي كادت تبدو لمن كان يسمعها في تلك اللحظة ان قائلها هو صاحب قضية عادلة بوجه إنسان خارج عن الإسلام وعن الحق.

وربما فوجىء مسلم بن عقيل بهذا الأحمق الذي يتصدىٰ له بهذه الصورة، فهل عساه أن استهدفه بأذىٰ شخصي دون أن يشعر؟ ثم، من يكون هذا المندفع الحانق؟ ويسأله مسلم: (ويحك، من أنت؟)[1]. . .

وبكل ذلك الحنق المسعور الذي لا بد أن يكون قد خنق صوته وبهر أنفاسه، أجابه الباهلي: (أنا من عرف الحق إذ انكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته وخالفته، أنا مسلم بن عمرو الباهلي)[2].

لقد عرّفه بنفسه، وعرّفه بمؤهلاته التي لم تزد عن كونها إعلان إستعداده أنه خادم مطيع ناصح لإمامه ومعبوده ومثله الأعلى يزيد.

هل هذا كل شيء؟ وهل تغلف قلبك بالقسوة والفظاظة وازدحمت نفسك بعوامل الانتقام، وجلست تشتمني وتمنع عني الماء وأنا بهذه الحال، لأنك واليت يزيداً واستسلمت له وأبيت أنا أن أفعل ذلك، وقد أردت انقاذك وانقاذ أمثالك من هذا الضلال الكبير الذي تقادون اليه رغم أنوفكم؟.

قال له مسلم بن عقيل: (لامك الثكل، ما أجفاك ،وما أفظك، وأقسىٰ قلبك وأغلظك، أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني)[3].

«كثير بن عبد الله الشعبي»: حماقة ووقاحة

وفي مشهد آخر نجد كثير بن عبد الله الشعبي، الذي ربما لم يكن على درجة كبير من الوجاهة ولم يكن شريفاً مقدماً. . غير أنه قد يكون كذلك وقد قربه ابن سعد، ولعل ابن زياد نفسه سيقربه، فهذا الرجل يظهر من فنون الولاء الشيء الكثير.

كان كُثير في جملة جيش ابن سعد، وقد بعثه هذا إلىٰ الحسين عليه السلام ليسأله

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصادر السابقة.

عن سبب مقدمه، وقد كان قد (.. عرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه، فكلهم أبىٰ وكرهه..)[1]، وما عساهم يقولون له، وهم الذين كاتبوه ودعوه للقدوم عليهم..؟ لقد بقيت قطرة حياء واحدة وأخيرة فوق تلك الجباه الكالحة، جفّت بعد ذلك واختفت.. غير أن وجهاً واحداً قد اختفت منه تلك القطرة قبل ذلك وهو (كثير بن عبد الله الشعبي، وكان فارساً شجاعاً ليس يرد وجهه شيء، فقال: أنا أذهب اليه، والله لئن شئت لافتكنَّ به، فقال له عمر بن سعد: ما أريد أن تفتك به، ولكن إئته فسله ما الذي جاء به)[2].

أراد كثير أن يسجل موقفاً شجاعاً أمام سيده الذليل وأمام القادة الخانعين المستسلمين لابن زياد فلم يكتف بأن عرض إيصال الرسالة وحسب، بل عرض أن يقوم بقتل الحسين عليه السلام إذا ما رأىٰ ابن سعد ذلك، ولعله تلفت حينها ونظر في وجوه الحاضرين محاولاً مشاهدة نظرة اعجاب تطل من تلك الوجوه مبهورة بهذه الشجاعة الخارقة والشهامة والبطولة النادرة المتميزة!!.

وربما لم يشاهد سوىٰ نظرات باهتة ووجوه صماء، ما عادت تصلح للتعبير عن أدنىٰ خلجات النفس، اللهم إلا ما يساورها من قلق أو خوف.

وانطلق إلىٰ الحسين عليه السلام بكل ما حمله من وقاحة واستهتار، وقد منعه أبو ثمامة الصائدي أحد أنصار الحسين عليه السلام من الوصول إليه، وأمره أن يضع سيفه قبل الاقتراب من الإمام، لأن أبا تمامة كان يعرف أنه (شر أهل الأرض وأجرؤه على دم وأفتكه..)[3]

وقد أبىٰ كثير أن يتخلىٰ عن سيفه، وقذف بكلمات وقحة أمام أبي ثمامة وقال: (لا والله ولاكرامة، إنما أنا رسول، فإن سمعتم مني، أبلغتكم ما أرسلت به اليكم، وان أبيتم انصرفت عنكم)[4]، كما رفض أن يأخذ أبو ثمامة بقائم سيفه حتى يتكلم بحاجته، فرفض، وطلب منه بعد ذلك أن يحضره بما جاء به ليقوم هو بابلاغه إلىٰ

---

(١) الطبري ٣/ ٣١٠ والنويري ٢٠/ ٤٢٧ والارشاد ص ٢١١ وأنساب الأشراف ٣/ ١٧٧ وابن الأثير ٣/ ٢٨٣ ومناقب ابن شهر آشوب ٤/ ٩٧

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) المصدر السابق.

الحسين عليه السلام قائلًا: (أخبرني ما جئت به، وأنا أبلغه عنك، ولا أدعك تدنو منه فانك فاجر. فاستبّا، ثم انصرف إلىٰ عمر بن سعد فأخبره الخبر)[1] فارسل ابن سعد شخصاً غيره.

ولعل كثير كان يحسب نفسه قد انتصر في جولة من جولاته البطولية وقام يفتخر بوقاحته أمام الآخرين، وربما قام بتحريضهم على قتل الإمام وأصحابه عليهم السلام، وكأنه كان يشارك يزيداً عرشه ويخاف الآخرين عليه.

لماذا قام كثير بذلك، وبأي دافع فعل ما فعله؟ ولماذا قام كثيرون من أمثاله بنفس ما قام به واندفعوا إلىٰ الشر والجريمة دون أن يكلفهم أحد بذلك أو يطالبهم به؟.

عبد الله بن أبي حصين/المهرج: (ألا تنظر إلىٰ الماء كأنه كبد السماء)

وفي مشهد آخر نرىٰ أن ابن زياد قد أمر ابن سعد أن يحول بين الحسين وأصحابه عليهم السلام وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة، وقد استجاب ابن سعد لذلك فوراً، وأرسل عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه عليهم السلام وبين الماء أو يسقوا قطرة، وذلك قبل قتل الحسين عليه السلام بثلاث.

وإلىٰ هنا يبدو الخبر عادياً، يماثل العديد من الأخبار العادية التي روت لنا فصول المعركة ووقائعها، فعمر بن سعد وعمرو بن الحجاج، بما عرف عنهما من خوف واستجابة ذليلة خانعة لابن زياد، بادرا على الفور بتنفيذ الأمر الصادر إليهما.

غير أن الذي يلفت النظر حقاً هو قيام (عبد الله بن أبي حصين الأزدي) دون أن يكلفه أحد بذلك، وبمبادرة شخصية، و(لفتة خاصة) منه بالصياح أمام الجميع، موجهاً الخطاب الإمام عليه السلام قائلًا: (يا حسين، ألا تنظر إلىٰ الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتىٰ تموت عطشا..)[2].

ما الذي دعا ابن أبي حصين لمنازلة الحسين عليه السلام وتوجيه هذا الخطاب إليه، إن لم يكن لعرض صورة جديدة محسّنة من صور الولاء الكوفي المتقلب المتلون لابن

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣١١ - ٣١٢ ومناقب ابن شهر آشوب ٤/ ٩٧ والارشاد للمفيد ص ٢١١ وأنساب الأشراف ٣/ ١٨٠ ونهاية الأرب ٢٠/٤٢٨.

زياد لكي يُسرّ ويرضىٰ عنه؟ ولم لم يقم ابن أبي حصين بمهمته بمنع الحسين وأصحابه عليه السلام عن الماء صامتاً كما فعل الباقون؟ أتراه وحده الذي أوتي بدائع الكلم وفصل الخطاب فأراد أن يجود ببيانه في تلك اللحظات؟ وكم بلغ الذل من مدىٰ بهذه النفس التي لا تبصر طريقها ولا تعرف مصلحتها؟ أليس فعله هذا جديراً بأن يعذبه الله عليه في الدنيا والآخرة؟ فمن هو حتىٰ يبلغ هذا المبلغ من الحماس في توجيه الكلام البذيء للإمام؟.

ويدعو عليه الحسين عليه السلام، وهو يدعو هنا بشكل خاص علىٰ أولئك الأجلاف الذين وقفوا بوجهه وقصدوه بالأذىٰ دون أن يكلفهم بذلك.. (أللهم أقتله عطشا ولا تغفر له أبدا)[1].

ويروي لنا حميد بن مسلم عن حاله بعد ذلك قائلًا: (والله لعدته بعد ذلك في مرضه، فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد رأيته يشرب حتىٰ بغر، ثم يقيء، ثم يعود فيشرب حتىٰ يبغر فما يروى، فما زال ذلك دأبه حتىٰ لفظ عصبه ـ يعني نفسه)[2].

ابن حوزة: النكره ــ هدّد بالنار فاحترق بها

ولابن حوزه مشهد آخر جدير بالتأمل والنظر، فهو رجل من تميم، من عرض الناس ومن سائرهم، أثاره منظر النار المضطرمة في كومة من الحطب خلف معسكر الامام عليه السلام جاء حتىٰ وقف أمامه وسأل عنه عدة مرات.. وعندما دُلَّ عليه، خاطبه بقوله: (أبشر بالنار، قال: كلا، كذبت، بل أقدم على رب غفور وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزه، فرفع الحسين يديه، حتىٰ رأينا بياض ابطيه من فوق الثياب، ثم قال: اللهم حزه إلىٰ النار)[3].

لقد تحيز ابن حوزه بكل قوة الشر الكامنة في نفسه إلىٰ ابن زياد، وحسب أنه إنما يسجل بذلك موقفاً ظريفاً متميزاً أمام أفراد الجيش كله، ولعله بذلك سيرفع معنوياتهم ويحرضهم علىٰ الحسين عليه السلام أو يجعلهم عل الأقل يتفكهون ويتندرون

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبري ٣/ ٣٢٢ وابن الأثير ٣/ ٢٨٩ وأنساب البلاذري ٣/ ١٩١ ومناقب ابن شهر آشوب ٤/ ٥٦ وذخائر العقبىٰ للطبري ١٤٤ وكفاية الطالب للكنجي ٢٨٧..

مرددين كلماته التي وجهها للحسين عليه السلام والتي أوعده فيها بالنار عندما رأىٰ ناراً مشتعلة في كومة من الحطب خلف معسكره، ولعله حسب أن ما كان يقوم به سيصل خبره إلىٰ ابن زياد وأنه سيكبر ويزداد رفعة بنظره، ولعله هنأ نفسه مستبقاً على المكانة الوجيهة التي أعدت له منذ الآن، غير أن الأمر لم يطل به كثيراً، فما كاد الإمام عليه السلام ينتهي من دعائه حتى قام ابن حوزة غضبا (فذهب ليقحم اليه الفرس، وبينه وبينه نهر، فعلقت قدمه بالركاب، وجالت به الفرس فسقط عنها، فانقطعت قدمه وساقه وفخذه، وبقي جانبه الآخر متعلقاً بالركاب..)[1].

وقد نال جزاءه العاجل أما الجزاء الآخر فعلمه عند الله.

لقد كان احرىٰ بمن شاهدوا ابن حوزة أن يتراجعوا ولا يمضوا في حربهم ضد الإمام عليه السلام كما فعل أحدهم، مسروق بن وائل الذي (رجع وترك الخيل من ورائه، فقال:

لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً لا أقاتلهم أبدا)[2].

لكن تلك النفوس الذليلة قد ضاعت للأبد واستعبدت وما عادت تنفع معها حتىٰ معجزات من السماء يرونها عيانا ويلمسونها لمساً.

مرّة بن منقذ العبدي: القاتل المتباهي

وتتكرر مشاهد عديدة لقتلةٍ أرادوا أن يتباهوا بجرائمهم أمام الآخرين وأمام أسيادهم على وجه الخصوص، وربما تشابهت حتىٰ أقوالهم التي تفوهوا بها قبيل الإقدام على جرائمهم.

فهذا مرّة بن منقذ العبدي، وهو يرىٰ علياً الأكبر يجول في ميدان المعركة يبدي استعداده للتطوع لقتله أو اغتياله ويصرح متباهياً: (عليَّ آثام العرب إن مرّ بي يفعل مثل ما كان يفعل إن لم أثكله أباه)[3].

لقد أزعجه أن يشد علي بن الحسين على الناس وهو يقول:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٠ - ٣٣١ ومثير الاحزان ٣٥ والأخبار الطوال ص ٢٥٤ واللهوف ص ٤٨ وابن الأثير ٣/ ومقاتل الطالبين ص ٨٤ والخوارزمي ٢/ ٣٠ ومناقب ابن شهر آشوب ٤/ ١٠٩.

(أنا علي بن الحسين بن علي نحن وربُ البيت أولىٰ بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدَّعي)[1] . .

وربما رأىٰ أن في ذلك إهانة شخصية له . . ألم يرسله ابن زياد ليقاوم الحسين وأصحابه ويشارك في قتلهم؟ فكيف يتيح لهذا الفتىٰ أن يشد عليهم وأن يقتل بعضاً منهم، دون أن يتصدىٰ له أحد؟

وكأن إثمه كان قليلًا ليضيف إليه آثام العرب . . وهو يتبجَّح بقسمه ذاك . . مع أن اثمه وحده لو قسم على العرب كلهم لكانوا جميعهم آثمين.

إن مرة وأشباهه في غمرة النشوة التي يشعرون بها وهم يقومون بهذه المجزرة المروعة، وأمام لون الدم القاني، وأمام هروبهم من واقعهم وفي غمرة استسلامهم وخضوعهم، أرادوا اقناع أنفسهم بأنهم كانوا يقومون بفعلهم، لأنهم يشعرون أنهم أصحاب حق طالما كانوا إلىٰ جانب السلطان القوي المتسلح ذي الأعوان والمال.

ولعل ما تظاهروا به من قوة وما تفوهوا به من الفاظ نابية وكلمات فاحشة هي محاولات لاقناع أنفسهم بأنهم يتبنون قضية ما، وتشجيع أنفسهم للمضي في جريمتهم إلىٰ النهاية وعدم التراجع لئلا يصيبهم السيف الذي يصوب لهؤلاء الماثلين أمامهم.

وقد كان بإمكانهم في البداية وفي تلك اللحظات أيضاً أن يكونوا معهم لينقلب السحر على الساحر ويظهر الحق لذي عينين، غير أن تلك النفوس كافة قد ماتت وتخدَّرت وأصيبت بالشلل فلم تعد ترجىٰ منها فائدة.

قتل مرّةُ بن منقذ عليّ بن الحسين، مع أن أحداً لم يأمره بذلك.

ولعله فعل ذلك بنفس الدوافع التي قام بها الآخرون بأعمالهم المخزية.

عمرو بن صبيح الصدائي وزملاؤه: وليمة الدم

وفعل فعله عمرو بن صبيح الصدائي عندما (رمىٰ عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه علىٰ جبهته، فأخذ لا يستطيع أن يحرك كفه، ثم انحنىٰ له بسهم آخر ففلق قلبه، فاعتودهم الناس من كل جانب، فحمل عبد الله بن قطبه الطائي على

(١) المصدر السابق.

عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقتله، وحمل عامر بن نهشل التيمي على محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقتله.

وشد عثمان بن خالد بن أسير الجهني، وبشر بن سوط الهمداني على عبد الرحمٰن بن عقيل بن أبي طالب فقتلاه.

ورمىٰ عبد الله بن عزره الخثعمي جعفر بن عقيل بن أبي طالب فقتله)[1].

عمرو بن سعد بن نفيل: اصرار على الجريمة وهلاك عاجل في ساحة المعركة

أما عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي، فقد تطوع لقتل القاسم بن الحسن بن أمير المؤمنين عليه السلام، ولنستمع إلىٰ حميد بن مسلم الذي روىٰ لنا قصة ذلك، قال: (خرج الينا غلام كأن وجهه شقة قمر، في يده السيف، عليه قميص وإزار، ونعلان قد انقطع شِسع أحدهما، ما أنسىٰ أنها اليسرىٰ، فقال لي عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي: والله لأشدنَّ عليه.

فقلت له: سبحان الله، وما تريد الى ذلك يكفيك قتل هؤلاء الذين قد احتولوهم.. فقال: والله لأشدنَّ عليه.

فشدَّ عليه، فما ولّىٰ حتىٰ ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال: يا عماه. فجلّىٰ الحسين كما يجلي الصقر، ثم شد شدة ليث غُضُبٍّ، فضرب عمراً بالسيف، فاتقاه بالساعد، فأطنها من لَدُن المرفق، فصاح، ثم تنحىٰ عنه..

وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من حسين، فاستقبلت عمراً بصدورها فحركت حوافرها وجالت الخيل بفرسانها عليه، فوطئته حتىٰ مات)[2].

لقي عمرو مصيراً عاجلًا، ولا يدري أحد كيف يكون مصيره بعد ذلك؛ ولم يكن يحسب إلا أنه كان يقوم بعمل خارق من أعمال الفروسية يبهر به الآخرين ويشد انتباههم إليه وأنه سيشكر عليه من قبل سادته لينال بذلك ثناءهم وقربهم.

ولم يحسب أنه سيلقىٰ ذلك الجزاء العاجل ويموت تلك الميتة السريعة، ليكون خصمه يوم القيامة، جدّ هذا الفتىٰ، محمد صلى الله عليه وآله.

---

(١) الطبري ٣/٣٣١ وراجع المصادر الأخرىٰ المذكورة.

(٢) المصدر السابق.

لقد أراد بابتعاده عن الله التقرب من عبيد الله، فلم يتح الله له ذلك وأماته موتاً عاجلًا مات وصوت الحسين عليه السلام يتردد فوق رأس ابن أخيه.

(بعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك عزَّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك. صوتٌ والله كثر واتره، وقل ناصره)[1].

حرملة بن كاهل الأسدي: بطولة قتل الأطفال الرضّع

وربما حسب حرملة بن كاهل الأسدي، وهو الذي رمىٰ عبد الله بن الحسين الطفل الرضيع بسهم فذبحه وهو في حجر أبيه عليه السلام، أن ينال ما حسب أن أصحابه سينالونه من خطوة خطوة ومكانة لدىٰ أسيادهم.

وإذ أن حمّام الدم كان يثير في نفوس القتلة أقصىٰ غايات الاستمتاع والبهجة، فإن هانيء بن ثبيت الحضرمي كان في غاية النشوة من ذلك، وكان سعيداً أن تتاح له فرصة المشاركة فيه ولو على حساب طفل مذعور لا يزال يلبس الأقراط في أذنيه لأنه صغير جداً.

ويروي لنا هانيء نفسه القصة لنا، وإن أصبح يكني عن نفسه بعد أن عُتب عليه، ولا يعترف صراحة انه مرتكب الجريمة وان أكد لنا غيره أنه هو مرتكبها، يقول هانيء:

(كنت ممن شهد قتل الحسين، فوالله إني لواقف عاشر عشرة، ليس منا رجل إلا علىٰ فرس، وقد جالت الخيل وتصعصعت، إذ خرج غلام من آل الحسين، وهو ممسك بعود من تلك الأبنية، عليه إزار وقميص، وهو مذعور، يتلفت يميناً وشمالًا، فكأني أنظر إلىٰ درتين في أذنيه تذبذبان كلما التفت، إذ أقبل رجل يركض، حتىٰ إذا دنا منه، مال عن فرسه، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف)[2].

وكان بحر بن كعب التيمي أشدّ سروراً من هانيء بن ثبيت الحضرمي بالمجزرة المروعة التي كانوا يقومون بها، فقد قتل بدوره طفلًا صغيراً، عندما أقبل هذا الطفل يشتد إلىٰ عمّه الحسين عليه السلام عندما أحاطوا به بعد إصابته بالعديد من الجروح القاتلة.

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٢ وراجع المصادر السابقة.

ذليل يرضي ذليلًا

كان يحسب أنه يرضي بذلك شمراً وتحسن منزلته عنده، مع أن شمر نفسه كان يطمح (بمبادراته الخاصة) إلىٰ إرضاء أسياده وإلىٰ أن يكون ذا خطوة خطوة لديهم.

كان شمر يقود الحملة الأخيرة ضد الحسين عليه السلام ويحرض أعوانه على إنزال المزيد من الضربات الغادرة به، (فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه، ثم إنهم أحاطوا به إحاطة.

وأقبل إلىٰ الحسين غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة علي لتحبسه فقال لها الحسين: أحبسيه، فأبىٰ الغلام، وجاء يشتد إلىٰ الحسين، فقام إلىٰ جنبه، وقد أهوىٰ بحر بن كعب بن عبيد الله إلىٰ الحسين بالسيف، فقال الغلام: يابن الخبيثة، أتقتل عمي! فضربه بالسيف، فأتقاه الغلام بيده فأطنها الا الجلدة، فإذا يده معلقة. فنادىٰ الغلام: يا أماه، فأخذه الحسين فضمه إلىٰ صدره، وقال: يابن أخي، اصبر على ما نزل بك، واحسب في ذلك الخير، فإن الله يلحقك بابائك الصالحين؛ برسول الله ﷺ وعلي وحمزة وجعفر والحسن بن علي، صلىٰ الله عليهم أجمعين)[1].

وبحر بن كعب هذا هو نفسه الذي سلب سراويل الحسين عليه السلام وقد كان عليه السلام قد فرزها ونكثها لكيلا يسلبها، وقد تركه مجرداً.

ولم تتحقق بحر امنياته، ولم ينل الجاه والثروة، وقد أصيب بكارثة رهيبة قبل أن يهلك، فقد حدث محمد بن عبد الرحمٰن (أن يدي بحر بن كعب كانتا في الشتاء تنضحان بالماء، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود)[2].

حصين بن تميم: غادر قاتل

وكان للحصين بن تميم مشاركة أخرىٰ بحمام الدم هذا، ولم يشأ أن يخرج من (المعركة) دون (نصيب) أو فعل يتميز به عن أشباهه، فعندما (عطش الحسين، حتىٰ اشتد عليه العطش دنا ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم، فوقع في فمه، فجعل يتلقىٰ الدم من فمه، ويرمي به إلىٰ الماء ثم حمد الله وأثنىٰ عليه، ثم جمع يديه فقال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بددا، ولا تذر على الأرض منهم أحداً)[3].

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٣ وراجع المصادر السابقة الأخرىٰ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣ وراجع المصادر السابقة الأخرى.

رجل من بني ابان بن دارم: مجهول يريد أن يصير معلوما

ولم يشأ رجل آخر من بني اين بن دارم أن يخرج (صفر اليدين) دون أن يكون له دور مشهور يذكر له عند أسياده ليكون ذا جاه ومكانة لديهم، وقد حسب أن تلك الفرصة، اذا ما حرض الناس علىٰ الحسين وضَرَبَه بسهم، ستكون فرصة حياته الفريدة على الجاه والثروة.

فعندما ركب الحسين عليه السلام، (المسناة يريد الفرات، قال رجل من بني ابان بن دارم: ويلكم حولوا بينه وبين الماء لاتتام اليه شيعته، وضرب فرسه، وأتبعه الناس، حتىٰ حالوا بينه وبين الفرات.

فقال الحسين: اللهم اظمه. وينتزع الاباني بسهم، فأثبته في حنك الحسين. فانتزع الحسين السهم، ثم بسط كفيه فامتلأت دما، ثم قال الحسين: اللهم إني أشكو اليك ما يفعل بابن بنت نبيّك.

فوالله إن مكث الرجل الا يسيرا حتىٰ صبَّ الله عليه الظمأ، فجعل لا يَروَىٰ)[١]

وقد أُحبط عمله في الدنيا، واستجاب الله لشكوى ابن بنت نبيه صلى الله عليه وآله، ولم يتمتع الاباني بما منّىٰ به نفسه، فقد روىٰ لنا القاسم بن الأصبغ قال:

(لقد رأيتني فيمن يرَوّح عنه، والماء يبرّد له فيه السكر وعِساس فيها اللبن، وقلال فيها الماء، وأنه ليقول: ويلكم اسقوني، قتلني الظمأ، فيعطىٰ القلة أو العس من كان مُرْوياً أهل البيت، فيشربه، فإذا نزعه من فيه اضطجع الهنيهة، ثم يقول: ويلكم اسقوني، قتلني الظمأ.

فوالله، ما لبث الا يسيرا حتىٰ انقدَّ بطنه انقداد بطن البعير)[٢].

يزيد بن معقل: الشاهد على نفسه بالكذب، مات ببغيه وكذبه

ويبرز مشهد جدير بالملاحظة أيضاً، روىٰ أحداثه لنا زهير بن أبي الأخنس، وكان قد شهد مقتل الحسين عليه السلام، فقد خرج أحد جنود بن سعد، واسمه يزيد بن معقل، وتوجه بخطابه إلى برير بن خضير قائلًا: (كيف ترىٰ الله صنع بك؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

قال: صنع اللّهُ بي خيراً، وصنع الله بك شراً.

قال: كذبت، وقبل اليوم ما كنت كذاباً، هل تذكر وأنا أماشيك في بني لوذان، وأنت تقول: ان عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفاً، وإن معاوية بن أبي سفيان ضال مضل، وإن أمام الهدىٰ والحق علي بن أبي طالب؟

فقال له برير: أشهد أن هذا رأيي وقولي.

فقال له يزيد بن معقل: فإني أشهد أنك من الضالين.)[1].

كان يزيد بن معقل يتوقع أن يرىٰ أمامه امرءاً متخاذلًا لا يستطيع الرد عليه، وكان يتوقع أن يُري أصحابه موقفاً طريفاً لهذا الرجل الخائف وأن يجعل الجيش كله يضحك منه، غير أنه فوجيء برجل قوي ثابت يعرف ما يقول جيداً ويحسن الرد علىٰ تحرضاته، وان هذا الرجل يذهب إلىٰ حد طلب مبارزته هو.

وهنا وجد نفسه في موقف دقيق، فماذا سيكون أمره وكيف سيبدو أما أولئك الذين أرادهم أن يضحكوا على برير، لو امتنع عن الاستجابة لطلبه في المبارزة.

(قال له برير بن خضير: هل لك، فلأباهلك، ولندع الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المبطل، ثم أخرج فلا بارزك)[2]، وقد استجاب مرغماً لدعوة برير.

(فخرجا، فرفعا أيديهما إلىٰ الله يدعوانه أن يلعن الكاذب، وأن يقتل المحق المبطل، ثم برز كل واحد منهما لصاحبه، فاختلفا ضربتين، فضرب يزيد بن معقل برير بن خضير ضربة خفيفة لم تضره شيئاً، وضربه برير بن خضير ضربة قدت المغفر وبلغت الدماغ، فمر كأنما هوىٰ من حالق)[3] ومات غير مأسوف عليه ومات أمانيه وأحلامه المريضة.

وكان أحرىٰ بميتته التي جاءت أثر مباهلة برير إياه، أن تكون رادعاً للآخرين لكي يمتنعوا عن الإقدام على ما أقدم عليه من تجاوز واعتداء على سيد القراء برير بن خضير، غير أن الغشاوة كانت كثيفة على العين والقلب كليهما، وكانت الجموع المنقادة لإرادة ابن زياد تتصرف دون وعي أو تدبر وكأنها فقدت ارادتها ووعيها وعقلها.

---

(١) الطبري ٣/٣٢٢

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

رضي بن معقل العبدي وكعب بن جابر الأزدي هل هذا هو الوفاء؟

فإذا كان برير ينضنض سيفه من راس ابن معقل، حمل عليه رضيّ بن منقذ العبدي فاعتنقه فاعتركا ساعة ثم أن بريراً قعد على صدره وكاد أن يقتله لو لم يستنجد رضي بالآخرين، الذين تقدم أحدهم كعب بن جابر الأزدي واغتال بريراً بعد أن طعنه بالرمح في ظهره، رغم تحذير أحد أصحابه الذي قال له: إن هذا برير بن خضير القارىء الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد.

وقد حاول كعب تبرير جريمته فيما بعد بقوله: (يا رب أنا قد وفينا، فلا تجعلنا يارب كمن غدر)[1].

وقد رد عليه أحد معارفه قائلًا: (صدق، ولقد وفىٰ وكرم، وكسبت لنفسك شراً. قال: كلا، إني لم اكسب لنفسي شرا، ولكني كسبت لها خيرا)[2].

ولا ندري كيف سيكون حسابه بعد ذلك، وهل يجرؤ على ترديد ما ردده هنا، وهل سيقول كما قال بعد جريمته:

معي يزني لم تخنه كعوبه	وابيض مخشوب الغرارين قاطع
فجردته في عصبة ليس دينهم	بديني واني بابن حرب لقانع
ولم تر عيني مثلهم في زمانهم	ولا قبلهم في الناس مذ أنا يافع
أشد قراعاً بالسيوف لدىٰ الوغىٰ	الا كل من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للطعن والضرب حسّرا	وقد نازلوا لو أن ذلك نافع
فأبلغ عبيد الله إمّا لقيته	بأني مطيع للخليفة سامع)[3]

أنه يعلم حقيقة الذين يقاتلهم، ولم ير في حياته حماة لذمار أشد قراعاً بالسيوف لدىٰ الوغىٰ منهم، كما أنه يعلم أنه ليس مثلهم، وليس دينه دينهم، غير أنه يعبر هنا عن حقيقة موقفه، فهو يتبنىٰ خط الدولة التي يقودها يزيد، وهو قانع به ما دام هو التسلط علىٰ رقاب الناس، وهو يرسل رسالة عبر عبيد الله بن زياد إليه بأنه مطيع

(١) الطبري ٣/ ٣٢٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

سامع منفذ لكل ما تريده الدولة منه، هذه الدولة التي كان يراها قوية صامدة بوجه أعدائها حتىٰ وإن كانوا أمثال هؤلاء الناس الرساليين الذين دافعوا عن الإسلام ببسالة، غير أنه يرىٰ أيضاً أن بسالتهم وصبرهم لا جدوىٰ منهما بذلك كان كعب يحاول تبرير جريمته، فهو يتضاءل ويتصاغر أمام قوة الدولة وسلطانها وإمكاناتها، ويرىٰ أن ذلك من أهم المبررات التي تيتح له الإنساق وراءها مطيعاً إياها طاعة عمياء.

وقد حاول هنا أن يتناس موقعه التطوعي الذي لم يجبره عليه أحد من قادة الدولة أو أشرافها، عندما أقدم على قتل برير بتلك الطريقة الغادرة، ولم يعقّب عليه إلا بقوله أنه لما كان أحد الأفراد المطيعين للدولة، فإنه قتل عدوها برير، وقد أراد بذلك تحميل رضي بن منقذ العبدي نعمة تخليصه من الموت المحقق على يد برير، عندما طلب المساعدة ونادىٰ: أين أهل المصاع والدفاع؟

قتلت بريراً ثم حملت نعمة ... أبا منقذ لما دعا: من يماضع؟[1]

ابن منقذ العبدي ندم حيث لا ينفع الندم

أما ابن منقذ العبدي، فإنه لم يحاول تبرير فعلته وإقدامه ـ من دون الناس ـ علىٰ مهاجمة برير، ولم يقل ما قاله كعب وما أورده من حجج لا تصمد حتىٰ أمام رأيه الحقيقي هو معرفته بحقيقة تلك الدولة وقيادتها المنحرفة، بل أنه أعلن ندمه صراحة على ذلك، ورد على كعب جواب قوله، فقال:

لو شاء ربي ما شهدت قتالهم ... ولا جعل النعماء عندي ابن جابر

لقد كان ذاك اليوم عاراً وسبة ... يعيّره الأبناء بعد المعاشر

فيا ليت أَني كنت من قبل قتله ... ويوم حسين، كنت في رَمس قابر[2]

كان خطؤه كبيراً، في ذلك اليوم الذي جلبوا على أنفسهم فيه العار والسبة ،وقد تمنىٰ لو أنه كان قد مات قبل ذلك ولم يشهد ذلك اليوم العار.

يزيد بن سفيان التميمي: كانت نفسه بيده ففرط فيها شجاعة الحمقىٰ

وتتعدد المشاهد، ويبرز منها مشهد آخر جدير بالملاحظة أيضاً، فعندما التحق

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٢٣.

(٢) ؟؟؟؟

الحر بأصحاب الحسين عليه السلام، تشدق أحد أعوان ابن سعد، وهو من تميم يقال له يزيد بن سفيان ببطولة مزعومة سوف يبديها ليقتل الحر إذا ما رآه، وأبدىٰ أسفه لأنه لم يستطع ذلك في اللحظة التي التحق فيها الحر بالحسين عليه السلام.

وفي غمرة القتال، والحر يحمل على أصحاب ابن سعد، قال الحصين بن تميم ليزيد بن سفيان: (هذا الحر بن يزيد الذي كنت تتمنىٰ.

قال: نعم. فخرج اليه، فقال له: هل لك يا حر بن يزيد في المبارزة؟

قال: نعم، قد شئت. فبرز له)[1] مع أن أحداً لم يكلفه بذلك، ومع أنه قد يفقد حياته في تلك المبارزة وربما كان الحر قد أرداه قتيلاً، كما نرىٰ من سياق القصة.

لقد كان أحمقاً، لم يستطع أن يتلافىٰ ما صرح به أمام زملائه ولم يستطع أن يتنازل أمامهم ليتعرض لسخريتهم.

غير أن الحصين بن تميم أراد بدوره أن يستعرض بطولته المزعومة بعد أن رأىٰ هزيمة صاحبه، وأراد أن يريهم أنه هو من سيقتل الحر، فما كان أحد غيره يستطيع ذلك، وقد قال لأصحابه: (والله لأبرز له.

فكأنما كانت نفسه في يده. فما لبثه الحر حين خرج إليه أن قتله)[2]

وقد خرج من هذه الدنيا ولم يشيّد لنفسه مجداً أو يقيم لها مأثرة، وقد جنىٰ على نفسه وكسَبَ لها شراً، وأضاف نفسه لأولئك الذين شاء سوء حظهم أن يقعوا بذلك المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه دون أن يطالبهم أحدٌ بذلك.

شمر بن ذي الجوشن: جعل قضية دولة الظلم قضيته الشخصية

كان منظر شمر ورجاله وهم يحيطون بالإمام الحسين عليه السلام بعد أن اثخن بالجراح منظراً رهيباً، فهؤلاء قتلة تطوعوا لتنفيذ الجريمة التي ما كان أحد يحسب أن امرءاً ما يدّعي الإسلام يمكن أن يقدم عليها، وكان الحسين عليه السلام (يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية ويفترص العورة، ويشد على الخيل)[3].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٢٤ وراجع المصادر التي ذكرناها عند الحديث عن سيرة الحر.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبري ٣/ ٣٣٤.

وإذ أنهم كانوا مصممين على قتله وكانوا يتحاثوّن على ذلك، فإنه كان يريهم أي مصير مرعب سيصيرون اليه إذا ما نفذوا جريمتهم، إذ أنهم سيقتلون أعزَّ وأكرم إنسان عند الله. بقية النبوة وسلالة خاتمها، وعيبة علم الله.

فأي دم سيكون مصاناً بعد ذلك إذا ما أهدروا دمه.

كان صوته يعلو على أصواتهم وصحبتهم، (أعلىٰ قتلي تحاثون؟!

أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني، وأيم الله إني لارجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله أو لو قد قتلتموني، لقد ألقىٰ الله بأسكم بينك، وسفك دماءكم، ثم لا يرضىٰ لكم، حتىٰ يضاعف لكم العذاب الأليم)[1].

ولا نحسب أن كلاماً كهذا سيكون عديم التأثير علىٰ أناس، اللهم إلا أن يكونوا قد ألحدوا وانكروا الله أو أنهم لم ينتموا الى جنس البشر، وكانوا مجردين من كل إحساس إنساني. أو أنهم قد باعوا أنفسهم لإرادة شريرة باغية تسعىٰ لهدم الإسلام وغزو معاقله الكبرىٰ.

وربما كان لكلام الحسين عليه السلام فعلها المؤقت فيهم، وربما كفوا عنه ليفكروا بمغزىٰ كلماته، وقد ادركوا أنها الصواب حتماً (فلقد مكث طويلًا من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض، ويحبّ هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء)[2]. . فالجريمة كانت عظيمة، حتىٰ بنظر قتلة متمرسين أمثالهم، وربما نظر بعضهم إلىٰ أبعد من تلك اللحظة.

ولم يكن ذلك الوضع الذي أحجم فيه الناس عن قتل الحسين عليه السلام مما يسرُّ شمر، وقد نصب من نفسه ممثلًا لابن زياد، وجعل القضية تبدو وكأنها قضيته شخصياً، وكأن الحسين عليه السلام كان يستهدفه بالأذىٰ هو بالذات، مع أن ابن زياد قد لا يطمع منه أنه يفعل أكثر ممن فعل. وهكذا قام بتحريضهم عليه مرة أخرىٰ وأمرهم بالإجهاز عليه. (فحمل عليه من كل جانب.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٤ وارجع المصادر السابقة التي ذكرناها عند التعرض لقتله عليه السلام والروايات العديدة التي أشارت لذلك مع بعض الإختلافات البسيطة حول أدوار القتلة وفي مقدمتهم شمر وسنان. . .

(٢) المصدر السابق.

فضربت كفه اليسرىٰ ضربة؛ ضربها زرعة بن شريك التميمي. . وضرب على عاتقه. .

ثم انصرف وهو ينوء ويكبو، وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعي، فطعنه بالرمح فوقع، ثم قال لخولي بن يزيد الأصبحي: احتز رأسه، فأراد أن يفعل، فضعف فأرعد، فقال له سنان بن أنس: فتَّ الله عضديك، وإبان يديك، فنزل اليه فدفعه واحتزّ رأسه ثم دفع إلىٰ خولي بن يزيد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف)[١].

سنان بن أنس: وحش مجنون

لقد أراد سنان أن يتباهىٰ أمام شمر وبقية أعوانه، ويثبت لهم أنه جدير بالأعمال الكبيرة والاقدام على ما لم يستطع غيره الأقدام عليه، وقد استغل حال الحسين عليه السلام، وقد ضرب بالسيوف والرماح والنبال وأصابته بالعديد من الجراح. ليقوم بجريمته الكبرىٰ التي ما كان يقدم عليها إلا مجنون أو عابث، وحسب أنه بقتلة الحسين عليه السلام قد فتح الباب علىٰ مصراعيه إلىٰ دنيا عريضة يتمتع فيها بالجاه والثروة، وربما حسده العديدون علىٰ قيامه بذبح الحسين عليه السلام، حاسبين أن دنيا يزيد السحرية قد أصبحت متاحة له ليدخلها الآن وها هو يحصل على جاه الدنيا وعلى ثواب الدنيا وعلى مال الدنيا. أما الآخرة، فلم يكن أحد يحسب لها حساباً.

(وجعل سنان بن أنس لا يدنو أحد من الحسين الاشدّ عليه مخافة أن يغلب على رأسه، حتى أخذ رأس الحسين، فذبحه إلىٰ خولي)[٢].

وهو مشهد لا نراه إلا في دنيا الحيوانات المفترسة في الغابة، عندما يريد أحدها الاستئثار بفريسته ويمنع غيره من الاقتراب منها مستعملًا أنيابه ومخالبه، وهو مشهد مألوف أصبحنا نراه كثيراً بعد أن صورت لنا حياة الحيوان ونحن نقبع في بيوتنا، فالأمر أمر صراع على البقاء، والحياة للأقوى.

ماذا كان يجري في تلك اللحظات إذاً؟ كان العديدون يريدون انجاز ما بدأه أنس ليقوموا هم بقطع الرأس وأخذه لابن زياد، وكان هو يدافع عن (حقه) بالحصول على

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٤ والمصادر الأخرى.

كل ما كان يرجو من مكاسب، إذ كان أول من أقدم على ذبح الحسين عليه السلام، كانت وليمة الدم تحفز الجميع للتنافس على أخذ الرأس الشريف والاستعراض به أمام الآخرين.

وإذ أن أنس لم يتح لأحد منافسته لأخذ الرأس الشريف، فإن اقتراحات عديدة قدمت اليه ليأتي امراءه يطلب ثوابه منهم. (فقال الناس لسنان بن أنس: قتلت حسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، قتلت أعظم العرب خطراً، جاء إلىٰ هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فات أمراءك فاطلب ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلًا.

فأقبل علىٰ فرسه، وكان شجاعاً شاعراً، وكانت به لوثة، فأقبل حتىٰ وقف على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادىٰ بأعلىٰ صوته:

أوقر ركابي فضة وذهبا أنا قتلت الفارس المحجّبا

قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال عمر بن سعد: أشهد أنك لمجنون ما صححت قط، أدخلوه عليَّ، فلما أدخل عليه حذفه بالقضيب، ثم قال: يا مجنون، أتتكلم بهذا الكلام، أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك)[1].

ومهما يكن من أمر سنان، فإنه لم يفز بما منىٰ نفسه به وبما حسب الآخرون أنه سيفوز به، وكان اعترافه بمكانة الحسين عليه السلام خير الناس، اعترافاً بفداحة الجريمة التي ارتكبها هو بحقه وبحق رسول الله صلى الله عليه وآله وبحق المسلمين كافه، كما كان ادانة لمن كان يسعىٰ لإرضائهم أمثال ابن زياد وابن سعد وشمر وأشباههم، كما أنه تجريح غير مقصود بسليل زناة مشهورين لدىٰ المسلمين كافة، استعرضت فضيحتهم في عملية الاستلحاق التي دبرها معاوية متحدياً تعليمات الإسلام الواضحة بذلك الخصوص.

(١) الطبري ٣/ ٣٣٥ وقد روي أن ابن زياد قال له: (إذا كان خير الناس أما وأبا، وخير عباده، فلم قتلته؟ قدموه فاضربوا عنقه. فضربت عنقه) مروج الذهب ٣/ ١٢٢ وهو أمر لا يستبعد أن يقدم عليه ابن زياد، خصوصاً وأنه كان شديد التحسس بأصله الوضيع وقصة والده زياد وسمية جدته التي فشت وشاعت، وقد سبق لنا الحديث عنها في هذا الكتاب.

اسحٰق بن حيوة الحضرمي: سالب القميص المخرّق

وقد ابتلي سنان بما ابتلىٰ به غيره ممن شاركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام، كما ابتلي شمر بقتله مماثلة على يد أصحاب المختار الطالبين بدم الحسين عليه السلام بعد هلاك يزيد وكانت ظاهرة عجيبة حقاً، ان أولئك الذين شاركوا بقتله أو سلبه، قد حلت بهم نكبات فادحة، كان ينبغي أن تكون عبرة للآخرين حتى لا يتمادوا في إجرامهم مع ظلمة آخرين.

كان من سلب قميصه وهو اسحاق بن حيوه الحضرمي قد برص بعد ذلك.

أسيد بن مالك وجماعته: نحن رنا الصدر بعد الظهر

وقد قتل معظم من داسوا صدره وظهره، قتلات منكرة، وهؤلاء قد تطوعوا أيضاً للقيام بتلك المهمة دون أن يكلفوا بذلك شخصياً، فقد نادىٰ عمر بن سعد في أصحابه (من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة، فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتىٰ رضوا ظهره وصدره)[1].

وقد جاء هؤلاء إلىٰ ابن زياد (يقدمهم أسيد بن مالك وهو يقول:

نحن رنا الصدر بعد الظهر ... بكل يعسوب شديد الأسر

فأمر لهم ابن زياد بجائزة يسيرة)[2].

عشرات من النماذج المشوهة: ظاهرة تبرز في ظل دولة الظلم

ولن نتحدث عن محمد بن قيس بن الأشعث وخولي بن يزيد وزيد بن رقاد وحكيم بن الطفيل السنبسي وعبد الله بن عقبة الغنوي وعبد الله بن قطبة الطائي وبشر بن حوط الهمداني، وعمرو بن صبيح الصدائي ولقيط بن ياسر الجهني وسليمان بن عوف الحضرمي وإسحاق بن حويه الحضرمي والأحبش بن مرثد الحضرمي ورجاء بن منقذ العبيدي وسالم بن خثيمة الجعفي وواحظ بن غانم وسالم بن وهب الجعفي وأسيد بن مالك، وهم قتلة مباشرون انتهزوا فرصة شن الحرب على الحسين عليه السلام فأقدموا علىٰ اغتيال أصحابه وأهل بيته وفيهم أطفال

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٥ والخوارزمي ٢/ ٣٩ واللهوف ٥٦ ومناقب ابن شهر آشوب ٤/ ١١١.

(٢) المصادر السابقة.

صغار، وقد سبق لنا الحديث عن بعضهم في هذا الكتاب، غير أننا نريد لفت الإنتباه إلىٰ الأسباب التي تكمن خلف قيامهم بما قاموا به من أفعال حاولوا هم التبرء منها فيما بعد والتي لم يكلفهم بها أحدٌ هم أنفسهم خاصة، وإلىٰ طاقة الشر المخبوءة في نفوسهم والتي تفجرت في ظل أوضاع منفصلة لم يعد فيها أثر لدين أو أنسانية أو قيم.

وقد أحببنا أن نلفت الأنظار إلىٰ هذه الظاهرة الشاذة التي تبرز على هامش دول الطواغيت، وهي اندفاع بعض المغمورين والشاذين ومن لا يعول عليهم كثيراً وليس لهم حضور اجتماع واضح، للقيام ببعض الممارسات الشائنة والتصرفات العبثية الفردية غير المسؤولة، ومهما تكن اسباب نشوء تلك الظاهرة، وقد تحدثنا عن بعضها فإنها ظاهرة تشجع عليها دول الظلم وتحاول توسيعها ما دامت محصلتها لصالحها، مع أنها قد لا تثيب عليها ولا تجيز أصحابها ولا تلتفت اليهم على الإطلاق.

وموضوع هذه الظاهرة، جدير بدراسات اجتماعية ونفسية متخصصة أشمل من تلك الملاحظات التي أشرنا إليها هنا إشارة بسيطة.